

العامر والغامر

رحلة من القدس إلى أنطاكية عام 1905 م

تأليف: غرتروود بل

ترجمة: وفاء الذهبي

تحرير وتعليق: د. أحمد إيبش



روّاد المشرق العربي

العامر والغامر

رحلة من القدس إلى أنطاكية

في عام 1905

للرحالة البريطانية
غرتروود لوذيان بل

ترجمة
وفاء الذهبي

تحرير وتعليق
د. أحمد إيش



© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية.

فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

DS94 .B412 2013

Bell Gertrude Lowthian 1868-1926.

[desert and the sown]

العامر و الغامر : رحلة من القدس إلى أنطاكية في عام 1905 / للرحالة البريطانية: غرتروود لوديان بل ؛ ترجمة: وفاء الذهبي ؛ تحرير وتعليق: أحمد إيش. ط. 1. - أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2013.

ص. ؛ سم. - (رواد المشرق العربي)

ترجمة كتاب : The desert and the sown

تدمك : 978-9948-17-164-5

1. سوريا -- وصف رحلات. 2. سوريا -- الأحوال الاجتماعية. 3. لبنان -- وصف رحلات.
4. لبنان -- الأحوال الاجتماعية. 5. فلسطين -- وصف رحلات. 6. فلسطين -- الأحوال الاجتماعية. أ. ذهبي، وفاء. ب. إيش، أحمد. ج. السلسلة. د. العنوان



هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إصدارات
esdarat

دار الكتب الوطنية

© حقوق الطبع محفوظة

دار الكتب الوطنية

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة

«المجمع الثقافي»

© National Library

Abu Dhabi Tourism &

Culture Authority

"Cultural Foundation"

الطبعة الأولى 1434 هـ - 2012 م

الأراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - «المجمع الثقافي»

أبوظبي : الإمارات العربية المتحدة

ص. ب: 2380

publication@adach.ae

www.adach.ae

العامر والغامر

سلسلة

رؤاد المشرق العربي

تقدّم «هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة» للمكتبة العربية بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، كتاباً جديداً من هذه السلسلة الثقافية التراثية تحت عنوان: «رؤاد المشرق العربي». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنية، وذلك من خلال الحرص على جمع كافّة المصادر المتعلقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشر التراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسساتنا الثقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التراث ونشر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تراثيّة عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشعر، النحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطب وهندسة ورياضيّات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرحلات.

وما دُمنا بصدد ذكر تراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نوّكد على أنّ ثمة تياراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تراث العروبة، ألا وهو:

أدب رحلات الأوروبيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتم التركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقفني العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلات هيرودوتوس ونيارخوس، ورحلة الأناباسيس لكسينوفون الأثيني)، وكذلك في عصر الرّومان (كرحلة إيلوس غالوس، وتطواف البحر الإريثري). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشّام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها أخفقت وارتدّت على أعقابها.

فلما أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشّرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروبيين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رّحالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشّائقة الشّيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثّمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تتابع «هيئة أبوظبي للسياحة والثّقافة» اليوم نشره بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للسياحة والثّقافة

هذا الكتاب

بعد الاحتلال البريطاني للعراق (خلال الحرب العالمية الاولى) وفي السنوات الاولى لقيام الحكومة العراقية تحت الانتداب البريطاني، ظهرت في مجتمع بغداد امرأة إنكليزية فريدة احتلت مكانة بارزة ومارست نفوذاً واسعاً في تأسيس الإدارة الجديدة وفي حكم البلاد، وشاركت في حياتها السياسية، ودخلت مجتمع الرجال بلا تحفظ، فجالست ساسة البلاد وحكامه من عراقيين وبريطانيين، وشيوخ العشائر من عرب وأكراد، ورجال الدين من سنة وشيعة، وزعماء البلد ووجوهه من مواليين للسلطة ومعارضين.

تلك هي مس غرتروود بل (1868-1926) التي وإن كانت صفتها الرسمية سكرتيرة شرقية للمعتمد السامي البريطاني في العراق، فإنها في الواقع كانت كما لقبها الكثيرون «ملكة العراق غير المتوجة».. كان العراقيون يسمونها «الخاتون» ويدعوها الملك فيصل الاول «أختي العزيزة»، ويخاطبها السيد عبد الرحمن النقيب بـ «ابنتي»، ويلقبها عبد المجيد الشاوي مازحاً بـ «أم المؤمنين»، ويسعى إليها الساسة والوجوه والشيوخ وأصحاب الحاجات، ويستأذنها بعضهم حتى في زيارة المعتمد السامي، أو مواجهة الملك فيصل الأول، ويستشيرونها في الأمور المهمة ويعملون بتوجيهاتها. هذه هي المرأة التي كانت تضع مشروعات القوانين، وترشح الوزراء، ويحسب لرأيها حساب في وزارتي الخارجية والمستعمرات، وتعدّ من موجهي سياسة بريطانيا في العراق في عهدي الاحتلال والانتداب.

كانت مسِ بل إحدى الشخصيات التي رسمت مستقبل العراق السياسي لسنوات عديدة بعد الاحتلال البريطاني، وكان لها دور كبير في تأسيس الحكومة العراقية الجديدة، وكانت هي وتوماس إدوارد لورنس (لورنس العرب) وراء تنصيب الشّريف فيصل ملكاً على العراق، ولعبت كذلك قبلها دوراً في إطلاق الثورة العربية الكبرى. وهناك عدّة ترجمات أعدت للتقارير السّريّة التي كانت غترود بل ترسلها إلى مكتب الاستخبارات البريطانية الخاص بالعالم العربي في القاهرة (المكتب العربي) عن الأوضاع في جزيرة العرب، ونشرها المكتب في نشرته الخاصّة *Arab Bulletin*.

كانت ذات شخصية مؤثرة شاركت مجالس مجتمع ذلك الزّمن، كما كانت معروفة على المستوى الشعبي، وهناك قصة لها مع أحد الثّوار (الشّقاوات) «ابن عبدك» الثّائر الكردي الشّهير، الذي ذاع صيته في مناطق شمال بغداد في مطلع القرن العشرين، وحدث أن استولى على القطار الصّاعد من بغداد، فالتقى فيه بـ «مسِ بل» المسؤولة الإنكليزية المعروفة التي كانت تستقلّ القطار، وحين عرفها أكرمها وعاملها بحفاوة، فتوسّطت له وأسقطت عنه الملاحقات القانونية ووظفته في الدولة.

بين عامي 1960-1961 نشرت إليزابيث بورغوين سيرة غترود بل مستقاة من رسائلها وأوراقها الشخصية في جزأين يتضمّنان فقرات طويلة مقتبسة من تلك الرسائل. وقالت في مقدّمتها: كان التنقيح ضرورة سياسية، ولكنني في هذين الجزأين تمكنت من الإفادة بصورة كاملة من جميع رسائلها ويوميّاتها، فلم أحذف منها شيئاً ذا أهمية سياسية كانت أم شخصية، ولم أقم بأيّ تحريف في معانيها الأصلية في أيّة موضع. ففي رسائلها التي بلغ عددها الألوف، وفي 14 مجلداً من اليوميات التي خلّقتها، كتبت غترود بل حياتها، كما أنها عرضت الخفايا السياسية في عهدها.

وعلى الرّغم من أنّ الجزأين اللذين نشرتهما إليزابيث بورغوين يحتويان على أهم المعلومات عنها، فإنّ قصة المسِ بل لم تُكتب بعد كما ينبغي. وهي قصة امرأة عاطفية، ذكية، مثقفة، تهوى الآثار، وتعشق الأسفار، ولا يقرّ لها في مكان قرار. أحبّت مرتين وفُجعت بحبّها في كليتهما، فالتهمت التسيان والسلوى في الرّحلات، تارة في مدن

إيران تتعلّم الفارسية وتدرس آدابها، وطوراً في جبال الألب تتسلّق قممها وتغالب ثلوجها وأعاصيرها. ثم في صحارى جزيرة العرب، تتحدّى رمالها وتقتحم مجاهلها، وتتعرّف على قبائلها. وأخيراً في العراق تسهم في تأسيس دولته الجديدة، ورسم مستقبله وتوجيه سياسته.



يضمّ كتابها الحاضر هذا (نشرته دار هاينمان في لندن عام 1907) وقائع أولى رحلاتها في المشرق العربي، من القدس الشريف إلى أنطاكية عام 1905، وفيه نقرأ رواية شخصيّة ممتعة تطفو عليها آراء المؤلّفة الرّحالة وتفاعلاتها الإيجابيّة والسّليّة مع ما صادفها من مجتمعات وأشخاص وأماكن، كما نلمح فيه صوراً حيّة وجذّابة عن حياة المجتمع السّوري في تلك الفترة، وعن أوضاع الدّولة العثمانيّة وهيئتها الحاكمة، إضافة للأحوال الاجتماعيّة السّائدة، وملامح من حياة عامّة النّاس آنذاك ممّا تغيّر كثيراً اليوم بعد مضي قرن وسبع سنوات على رحلتها الجريئة والرّائدة التي قامت بها بمفردها، وهذا في عُرف ذلك العصر أمر يخرج عن المألوف بشكل صارخ.

هذا ولقد أضافت بل إلى كتابها مجموعة فريدة من الصّور الفوتوغرافية التي التقطتها بنفسها ووثقت بها رحلتها وتقاريرها، ومن الجدير ذكره أنها قد خلّفت وراءها أرشيفاً ضخماً من الرسائل والصّور الفوتوغرافية بلغت حوالي 7000 صورة أودعت في مكتبة جامعة نيوكاسل Newcastle، أغلبها يتعلق بالمظاهر المختلفة لحياة شعوب منطقة الشّرق الأوسط. وكنتُ قد اطّلت على قسم منها فيما يخصّ رحلتها إلى دمشق، وفيها بالفعل أشياء ثمينة حول حياة المدينة وأعيانها وحكّامها في السّنوات الأخيرة من عهد الحكم العثماني في بلاد الشّام، وصور لآثار قديمة وكتابات بدمشق لم تعد موجودة اليوم.

نُشر في الآونة الأخيرة عن حياة هذه الرّحالة المثيرة للجدل كتابان مهمّان: «غرترود بل» Gertrude Bell تأليف فيكتور ونستون (لندن 1978) و«ملكة الصّحراء» Desert Queen تأليف جانيت والّك (نيويورك 1996)، نالا شهرة كبيرة، ممّا أثار شهية

المخرج البريطاني الشهير ريدلي سكوت Ridley Scott لإخراج فيلم تاريخي عن حياتها يجري العمل عليه حالياً، ويتراوح اختيار البطلة التي ستمثل شخصية مس بل بين أنجلينا جولي ونعومي واتس.

* * *

أما هذا العنوان «العامر والغامر» فقد أحببتُ نقله عن علامة الشام المرحوم أحمد وصفي زكريا، الذي كان ببلاغته الرفيعة ترجم به العنوان الأصلي لكتاب المس غرتروود بل *The Desert And The Sown* عندما أشار إليها وأشاد برحلاتها وكتبها في كتابه «عشائر الشام».

بذلتُ كالعادة جهداً كبيراً في تحرير النص وضبط أسماء الأعلام والأماكن بشكل صحيح، كما رددت الأشعار الفصحى والعامية إلى منطوقها الأصلي بدلاً من ترجمتها عن الإنكليزية. وميّزتُ حواشي المؤلفة عن سواها، وكل ما عداها فهو لي. وأرجو أن يكون في عملنا هذا ما يمتع ويفيد.

والحمد لله على ما وفق وأعان.

جبل، 7 فبراير 2012

د. أحمد إيش

SYRIA
THE DESERT & THE SOWN

BY
GERTRUDE LOWTHIAN BELL

WITH MANY ILLUSTRATIONS
AND A MAP



NEW AND CHEAPER EDITION



LONDON: WILLIAM HEINEMANN

«سوريا. العامر والغامر»

نموذج عنوان طبعة قديمة صدرت عام 1919

عن طبعة لندن الأولى بدار وليم هاينمان 1907



غرترود بيل وتوماس إدوارد لورنس
في مؤتمر القاهرة 12 مارس 1921



صورة نادرة تمثل بعض أعضاء مؤتمر القاهرة 12 مارس 1921
وبينهم: سير ونستون تشرشل، غرتروود بيل، توماس إدوارد لورنس



الملك عبد العزيز 2 - سير پيرسي كوكس 3 - غرتروود بل

4 - شيخ المحمرة 5 - شيخ الكويت

نقاط حول الترجمة

عند ترجمة الحروف والاسماء الأجنبية، يواجه القارئ العربي دوماً خلاً كبيراً لم يتمكن مجامعنا اللغوية من حسمه إلى اليوم. لكن بما أن هذا الأمر يحتاج إلى بحث مستفيض، أقصر هنا على ذكر سبع نقاط:

1 - بخصوص حرف الجرّ الفرنسي de أو du لا أتبع أبداً طريقة مثقفينا بلبنان بتعريبه: دو، ولا طريقة مثقفينا بمصر بتعريبه: دي. إنما الأفضل برأيي اتباع طريقة اللغة التركية العثمانية القديمة: (دى) بالمطلق. هذا في الاسماء الفرنسية، أما في الاسماء الإيطالية والإسبانية فأتركه: دي.

2 - الحرف (چ) يُلفظ: تش، كما في اسم: چركس، لاجين، سَلچوق. وهو ليس بحرف عربي، ويمثله في الإنكليزية ch كقولك: chuck, church. وأيضاً ch في الإسبانية كقولك: leche, mucho, chica. وكذلك يمثله في الإيطالية حرف c المتبوع بحرفي العلة e أو i كقولك: ciao, Cesare. ويمثله في التركية حرف ç كقولك: çay, çok, çinar. لكن مع أنني أكتب بعض الأسماء: چستر، فرانچيسكو، چيكو، بحرف (چ) فثمة أسماء تستعصي لشهرتها بصيغة (تش)، مثلاً: تشارلز، تشرشل، تشيلي. وحرف (چ) ما زال يستخدم في العراق، كقولك: أحبّج، شلونج، پاچه. لكنه يُستخدم في مصر بشكل مغلوط جداً (فيكتبون: چورچ) لترجمة الجيم المُعطشة المرققة، التي تُعتبر عنها في التركية العثمانية والفارسية والأوردية بحرف: ژ، ويمثلها في الفرنسية

والبرتغالية z والإنكليزية zh والروسية ж والبولونية ž والحكيّة ž.

3 - أمّا عقدة التّرجمة الكبرى فهي حرف G الذي أعجز مجامعنا اللغويّة، فاسم Google يُكتب بمصر: جوجل، وفي الشّام: غوغل، وفي العراق: گوگل، وفي السّعودية: قوقل، وفي المغرب بكاف موسومة بثلاث نقاط، وفي تونس: فوغل، وفي فلسطين: چوجل، إذ يعرّبون لوحات الطّرق: چلعداد، چدعون، چدول، رامات چان (علماً أنّ ڨم هي ذاتها جتّة بالعربيّة أي حديقة). المجموع: 7 طرق لكتابة الحرف G! ومنذ مدّة قرأتُ على شبكة الإنترنت نزاعاً طريفاً حول كتابة اسم Lady Gaga: أهّي ليدي غاغا أم جاجا أم قاقا؟ وكم أشعر بالغرابة عندما أقرأ: لقزس، قوديز، كِلوقز، قَلَف. ومن مظاهر التشويش الذي يفرضه الأمر أن بعض الكلمات صارت تُلفظ مغلوطة بجيم شجريّة: جَلنط Galant، كتالوج Catalogue جندول Gondol.

هذا الحرف تصنّفه اللسانيّات العربيّة باسم (الجيم اللّهُويّة) تميّزاً له عن (الجيم الشّجريّة) المُشبعة، ويقع لفظياً بين الجيم والكاف والقاف. وعلى الرّغم من أنّ أصله في لهجات العربيّة القديمة جيم (وبقي بلفظه في اليَمَن ومصر) فأرى الأجدى والأدق (في الوقت الحاضر) اتّباع أسلوب أجدادنا العرب في الأندلس بترجمته غيناً، كما عزّبوا مثلاً: غرناطة، البرتغال، بُرغش، أراغون. لكن على أن نسمّه بثلاث نقاط: (غّ) تميّزاً له عن الغين العربيّة المُشبعة.

لكن مع ذلك، علينا أن نبتدع لهذه الأزمة حرفاً جديداً لا يلتبس: أي جيم موسومة برمز مميّز: ولتكن بقلم المُسنَد الجِميري اليماني، أو جيماً كنعانيّة، تحتها أو فوقها على طريقة حروف لغة الأردو. لكن متى ترانا نفعل؟! ولماذا الجيم دون الغين أو الكاف؟ لأنّ «اللسانيّات التّيمانيّة» تحتمل الإقلاب بين الجيم المُشبعة وهذه الجيم اللّهُويّة، التي حافظت عليها القبطيّة بمصر كاليونانيّة γ المُفتقرة إلى جيم مُشبعة، وبقيت في لهجة اليمن عن أصل العربيّة الجنوبيّة القديمة، وما زالت في العبريّة والسّريانيّة كالجيم المصريّة.

الواقع أنّ الفرنسيين كانوا أكثر حدقاً منا عندما حلّوا مشكلة لفظ حرف G بين جيم

شجرية وجيم لهويّة، بأن أضافوا إليه ببساطة حرف u كقولهم: guérir (غيرير) أو كما في اسم: Guillaume (غُيوم). وكذلك حلّ الطّليان المشكلة بإضافة حرف h كقولهم: Ghisi (غيزي). وهذا طبعاً في الاسماء التي يتبع الحرف G بها حرفا العلة e أو i، أما عندما يتبعه حرف ساكن أو حرفا العلة a أو o فلا مشكلة، ويُلفظ جيماً لهويّة. والأمر ذاته مع حرف C في الإيطالية فأضافوا إليه h حتى لا يُلفظ (تش)، كقولهم: chiaro (كيارو)، Chievo (كِييفو).

وأما الأتراك، فأيضاً حلّوا الأزمة بشكل حاسم قديماً وحديثاً: فبالعثمانيّة القديمة تُكتب الجيم الشجرية كالعربيّة ج، وأما اللهويّة فاستعاروها من الفارسيّة گ. وفي التّركيّة الحديثة بالأبجدية اللاتينيّة جاء الحل بشكل سهل وذكي، فخصّصوا حرف g للجيم اللهويّة، كقولهم: gerçek (غِرْجَك)، وحرف c للجيم الشجرية، كقولهم: geceler (عِجَلار)، Avcı (أوجي)، Cem (جم).

أما الألمان فقد ارتاحوا من عناء هذه المشكلة، إذ ليس لديهم جيم شجرية أصلاً بل لهويّة فحسب، كما في: Gewehr (غُفير)، وإن أرادوا رسم الاسماء العربيّة لقوا التّبايح، كقولهم في «جبل»: Dschebel، حيث أن حرف J (بوت) هنا لن يفيد، فهو يُلفظ ياءً بالمُطلق. وأما لدى الإسبان، فحرف G له أحكام يطول شرحها، فالأصل في القشتاليّة أن يُلفظ جيماً لهويّة (غ)، وإن تلاه e أو i يلفظ خاءً، ولذا يضيفون u عند اللزوم كما في: Miguel ميغيل. ومن الناحية الصّوتيّة اللفظيّة ثمة مناطق تلفظه غيناً لهويّة، وسمعتُ بأذني في غرناطة من يلفظ اسم Aragon: «أراغون»، وليس آراغون. هذا عدا عن أن حرف G يلتبس لفظياً مع J الذي يُلفظ أيضاً خاءً مع كل حرف صوتي، كقولك: Jerez, Jiménez, Jaén, Juan, Jordi.

لكنّ التعبير في العربيّة عن حرف الجيم اللهوي بكتابته جيماً (كما في مصر) أو بقاف (كما في السّعوديّة) يمكن حسم بُطلانه بلحظة واحدة: احتكّموا إلى لغة القرآن الكريم، ففيها الجيم حرف شجري مُشبع لا يحتمل تأويلاً ولا تفسيراً، والقاف حرف لهوي مُشبع، وكلاهما من حروف القلقلة. ثم إنّ الجيم لا تصلح للتعبير عن جميع

الكلمات الأجنبية، وحتى في مصر لا يمكن لأحد أن يكتب: جرناطة، بُرْتُجال، بلجاريّا، مجنطيس، إجريق، شيكاجو.. أم هل نسمّى البُرْغل مثلاً: بُرْجل؟ (وهي كلمة معرّبة عن التركيّة bulgur).

4 - ثمة أسماء في اللغة الفرنسيّة تنتهي بكسرة مُمالة ممدودة، على غرار اسم: Colet أو René أو Garnier أو Gervais، ونظراً لانعدام وجود الكسرة الممالة في العربيّة (كما هي في السّريانيّة والعبريّة مثلاً) فإنّ التباساً ينشأ في طريقة نقل الاسم إلى العربيّة. وفي المغرب العربي تشيع طريقة غير صحيحة البتّة باستخدام الياء وحدها كقولهم: لويّز كولّي (وهي أديبة ورّحالة فرنسيّة)، رغم أنّ اسمها هو: Louise Colet والياء هنا لا تؤدّي المنطوق الصّحيح أبداً. كذلك نلاحظ في أسماء الأرمن مثل: Vahé, Shahé أنهم يكتبونها بالعربيّة في لبنان وسوريا: واهي، شاهي.

فإذا عدنا إلى عهد عظماء كتاب العربيّة في العصر العباسي، نجد أنّ هذه المعضلة التي واجهتهم في الأسماء الأعجميّة قد حلّوها على نحو أدقّ باستعمال ياء وهاء، كقولهم: سيبويه، خسرويه، خُمارويه، خالويه، نفطويه. وهذا يضارع أسلوب زمرة اللغات الكنعانيّة باستعمال الكسرة والهاء، كقولك: أرييه، موشيه. وهو قطعاً الحلّ الأمثل للمعضلة، وستنبّعه فنكتب الأسماء الفرنسيّة: كوليه، رُنيه، غارنيه، جرّفيه. والأسماء الإسبانيّة: خوسيه، بيكيه.

أمّا في الأسماء الإنكليزيّة، فرغم تشابه حرف a أو ثنائيّة ay مع الكسرة المُمالة، تبقى مدّتها طويلة، ولذا نكتب Gray: غراي، Mabel: مايبل.

أمّا في الأسماء التي تنتهي بكسرة مُمالة قصيرة، فتكفي بالعربيّة كسرة وهاء، كما في الاسم الإسباني Condé كوندّه، أو Enrique إنريكيّه، والألماني Porsche پورشه، أو Pritzke پريتسكيّه، والهولندي Goeje خويّه، والپولوني Tyskie تيسكيّه، والإيطالي Simone سيمونه، أو Michele ميكيله.

5 - نصرّ في هذه السّلسلة على كتابة الأسماء الأجنبية كما ترد في لغاتها، لا

كما تمّت قولبتها بالإنكليزية والفرنسية. فالأصح بالألمانية: مدينة لايتسيك وليس لايزغ، زولنغن وليس سولنجن، كولن وليس كولونيا، قلّهلم وليس وليم، ريخارد وليس ريتشارد. ثم نكتب أميركا وليس أمريكا، فارشافا وليس وارسو، پراغا (پراها) وليس براغ، بيجينغ وليس بكين. وفي البرتغالية الأصح لفظ: كريشتيانو، كوشتا، جوزيه، جُواو. ولكن ثمة أسماء رسخت بشكل مغلوط في الأذن العربية مثل: برشلونة (وصوابها بالقطلانية: بارثيلونا)، دون كيشوت (وصوابه بالقشتالية: دون كيخوته)، باريز أو بارييس (وصوابه بالفرنسية: پاري)، لويس (لوي)، ملك القدس جاي أوف لوزجنان (غي دي لوزينيان)، وليم الصُوري (غُيوم)، برج إيثل (وصوابه: آيفل).

لكن أعجب ما أسمعه هنا في لبنان، أنّ أحفاد كنعان العاشقين للفرنسية يصرون على لفظ الكنى الأرمنية المنتهية جميعها بلاحة: ian بلفظ فرنسي فيه عُنة، كما لو كانوا يلفظون اسم Evian أو Christian، حتى لم يسلم من ذلك الاسم التركي إردوغان Erdoğan الذي بات وكأنه فرنسي ابن فرنسي، علماً أنّ ثمة شيئاً في التركية يسمّى: Yumuşak Ge أي الجيم الطرية، تلفظ كمدة مكبوتة لا كعين، كقولك: Doğan دوآن، أو: Ağaç آج.

6 - حرف H يُكتب ولا يُنطق بجميع اللغات اللاتينية: الإيطالية والإسبانية والبرتغالية والفرنسية والرومانش والرومانية، ما خلا حالة في البرتغالية بآخر الكلمة مع الألف والواو فيقرأ ياءً، مثل: Covilhã كوفيليا، filha فيليا، ilha إيليا، Mourinho مورينيو. وعلى ذلك، فمن الخطأ لفظ الاسم الفرنسي Henri هنري بل أنري، وهو بالإيطالية إنريكو، والإسبانية إنريكه. وأيضاً فيكتور أوغو Victor Hugo وليس هيجو أو هيغو.

7 - وأغرب الأمثلة هي الأسماء العربية التي ترد على ألسنة المسلمين من غير العرب، فنستوردها بصيغ لفظية مختلفة دون انتباه لأصولها العربية، كالاسم التركي ميرفت Mervet الذي ترتمت به الأسماع دون إدراك أنّ أصله: مروة. أو اسم فتاة الشاشة التركية Tuba الذي يُكتب لدينا بالعربية «توبا» على أنّه اسم تركي فريد، وما هو إلا اسم من القرآن الكريم: طوبى.

وثمة كنية عريقة في لبنان: جائبته، يطيب للناس أن يلفظوها بلكنة فرنسيّة: Jean-Bey بينما الاسم تركي قديم يعود إلى عصر المماليك، ولفظه بالتركية: Can-Bey (جان بيه)، ومعناه: رُوح أو نَفْس. وكذلك اسم قَبْلان، وصوابه: Kaplan ومعناه بالتركية: نمر.

والأعجب من هذا وذاك اسم سوريا، الذي هو صيغة هيلينيّة (إغريقيّة) Συρία (سُوريّا) مقولبة لاسم «آشور» الدّولة العظيمة في بلاد الرّافدين، سمّيت بها بلاد الشام الواقعة على البحر الأبيض بما يشمل اليوم سوريا ولبنان، على اعتبارها كانت في وقت مضى تتبع لها. غير أنّ المضحك أن حرف الشين لا يوجد في الألفباء اليونانيّة، فأقلب سيناً وما زلنا إلى اليوم نلفظه مغلوطاً بعد 27 قرناً من الزّمان. وكذلك فمن الخطأ كتابته: سورية، لأنّ الهاء بآخر الكلمة ترد بالتسميات العربيّة والكنعانيّة، لا اليونانيّة. وللبحث صلة..

د. أحمد إيش

مقدمة

السّت خاتون - غرترود بل

«بالنسبة إلى هؤلاء الذين نشأوا في وضع اجتماعي منمّق، ما أندر لحظات البهجة التي يمكن أن تتابهم كتلك التي تقف عند عتبة السّفر البرّي». (غرترود بل في كتابها «العامر والغامر»).

في السّنوات المئة التي سبقت الحرب العالميّة الأولى، لم يكتفِ الأوروبيون باستعمار مناطق كبيرة من العالم، لكنّهم أبدوا أيضاً توقّفاً ملحاً للسّفر والاستكشاف. كانوا يسافرون في بعض الأحيان للبحث عن أسواق أو معلومات سياسيّة أو عسكريّة، وأحياناً ليعثروا على خرائب أثريّة وقبائل مفقودة، وأحياناً أخرى وببساطة لمجرّد حماسهم للسّفر في مناطق مجهولة. لقد حازت منطقة الشّرق الأوسط بشكل خاص ولقرون عدّة على مهتمّين ورّحّالين أوروبيين، ولكن كان شيئاً مميّزاً أن تنطلق امرأة أوروبية برحلة في جبال وصحارى الشّرق الأوسط دون صحبة رجل أوروبي. إنه أمر مفاجئ بما فيه الكفاية في المجتمع المقيد للعصر الفيكتوري والإدواردي المتأخّر في إنكلترا، بأن تبدأ غرترود بل Gertrude Bell بأيّ حال رحلات مثل هذه. وهو أيضاً أمر غير عادي بشكل كبير، ففي السّنوات الأخيرة كان عليها أن تصبح ذات تأثير كبير في توجيه الحكومة البريطانيّة في سياسة الشّرق الأوسط.

وجدت غرترود بل في العالم العربي متعة وإثارة هيمنت على حياتها. وقد حازت أيضاً على مكان بين عظماء المستكشفين البريطانيين في الشّرق الأوسط - إلى جانب أسماء مثل ريتشارد برتون Richard Burton، وتشارلز داوتي Charles Doughty،

وولفريد سكاون بلنت Wilfred Scawen Blunt - وذلك بسبب رحلاتها الرائعة إلى قلب جزيرة العرب. كانت شجاعته الشخصية وقدرتها على الاحتمال أمرين يفوقان كل التوقعات، كما كانت لديها قابلية لوصف ما رأت بشكل حرفي واضح. ولقد شاركت هؤلاء الرّحّالين الآخرين بشخصيتها المستقلة التي ظهرت في بعض الأحيان على نحوٍ مدهش.

وُلدت في عام 1868 لعائلة ثريّة صاحبة مصانع في بلدة دُرهام Durham، وكان جدّها لأبيها، سير لوذيان بل Sir Lowthian Bell، رائداً في مجال تكنولوجيا الحديد والفولاذ، في حين كان والدها سير هيو بل Sir Hugh Bell، وهو مالك مصنع حديد ومنجم فحم، رجلاً ذا مكانة اجتماعية محلية هامة أيضاً. كان قاضي صلح ثم أصبح ملازماً مسؤولاً لجمعية North Riding of Yorkshire في 1906. كان طوال عمره يساريّاً، وترشّح للبرلمان مرتين لكن دون أن ينجح.

تُوفيت ماري Mary والدّة غترود في عام 1871 بعد ولادتها مباشرة، لكن زوجة أبيها السيدة فلورنس بل Florence Bell تركت تأثيراً عليها كان هو التّالي بعد تأثير والدها. كانت السيدة بل Bell امرأة ذات قدرة أدبية هامة، وقد كتبت عدّة مسرحيّات مثّلت على مسرح لندن وتعدّ الآن مسرحيّات كلاسيكية لوصف حياة الطبقة العاملة في ميدلزبرو Middlesbrough: «في العمل» *At the Works*، وهي دراسة لبلدة صناعيّة، وتبع إلى حدّ ما الخط المسرحي لمسرحيّتي هنري مايهيو Henry Mayhew: *London Poor* و *London Labour*.

كانت غترود كما وصفتها مارغريت تابور Margaret Tabor، إحدى كبريات كتاب السّير الذاتية: «طفلة الثّروة الموهوبة»، ليس فقط لكونها وُلدت في طبقة اجتماعيّة موسرة، ولكن بسبب أنّ والديها قد لاحظا مواهب طفليهما الحركيّة الجسديّة الدّائمة وذهنها المتّقد. وبعد بحث مطوّل، قاما بإرسالها في عمر الخامسة عشرة إلى كليّة الملكة Queen's Colledge في لندن لتتابع دراستها الثّانويّة، ومن ثمّ، وبالحاح من أستاذها في مادة التّاريخ، إلى السيّدّة مارغريت هول Margaret Hall

في أوكسفورد (1886-1888)، حيث نالت المرتبة الأولى في اختبارات النّهائية في التاريخ الحديث، ولقد وصفها جانيت Janet شقيقة دافيد جورج هوغارث D. G. Hogarth في ذلك الوقت بأنّها «امتزاج غريب من النّضج والطفولة».

لكن هذه السّيرة الفكرية المبكرة، التي كانت مميّزة بشكل واضح لامرأة في ذاك الوقت، لم تكن تعني أنّها نشأت بعيدة عن عائلتها. بل على العكس تماماً، فقد بقيت مرتبطة بالديها بشدّة طوال حياتها. وعلّقت أختها من أبيها إلزاريتشmond Elsa Richmond، بقولها: «لقد كان بيتها ووالداها صخوراً في أساسات بنية حياتها، وهذا الاعتماد المحفوظ الذي طلبت تركه بكلّ تفاصيله ولم تلق له بالاً، كان بداية غريبة لمهنة أصبحت مليئة بالمغامرة والأصالة».

يمكن لهذا أن يفسّر فقدانها الظاهري للأسى عندما رفض والداها رغبتها بالزّواج في سنّ الثالثة والعشرين. وفي العام 1892 كانت قد شرعت في رحلتها الأولى إلى الشرق الأوسط، متجوّلة في بلاد فارس كضيفة لزوج أخت السيّد Bell السيّد فرانك لاسلز Frank Lascelles، الذي شغل مؤخراً مهمّة سفير في طهران. كان اعتراض والديها على دبلوماسي شاب من رتبة وضيعة في الخدمة في ذاك الوقت، هو هنري كادوغان Henry Cadogan. ويبدو أن افتراقهما عن بعضهما وموت كادوغان المفاجئ بعد تسعة أشهر كان أحد الأزمات العاطفية الرئيسيّة الأولى في حياتها.

في السّنوات التي تلت زيارتها إلى إيران، والتي أنتجت خلالها أوّل كتابين لها «سفرنامه» *Safar Namah*، صور فارسيّة (1894) وترجمة لكتاب شعر فارسي يُدعى «قصائد من ديوان حافظ» *Divan of Hafiz* (1897)، أصبح السفر اهتمامها الأساسيّ. وسمح غنى والديها وإرادتهما بالاستجابة لاهتماماتها بأنّ تسافر على نحو واسع في رحلتين عالميتين، وكان هذا أيضاً خلال تلك الفترة التي قامت فيها برحلتها الأولى إلى القدس. لكنّ خبرتها في بلاد فارس كانت هي التي أثارت أولاً اهتمامها بـ «الشرق». ولكونها لغوية بارعة، فقد بدأت بتعلّم اللّغة العربيّة - وعلى ما يبدو دون أيّ هدف محدّد في ذهنها، لكن في الواقع لتحظى بتركيز لاهتمامها ولقدرتها الاستثنائيّة

للعمل. ولقد مارست لغتها العربيّة خلال إقامتها في القدس في 1899 وقامت لاحقاً برحلة قصيرة في أرجاء فلسطين قبل مباشرتها لرحلة في عام 1905 إلى الأراضي السّوريّة والتي هي موضوع كتابنا هذا «العامر والغامر».

في عام 1905، عندما بدأت غترود بل رحلاتها، كان الحكم العثماني يدخل عقده الأخير. ولقد حافظت هذه الإمبراطوريّة الآيلة للأفول على سيطرة غير ثابتة على جزئها العربي المتبقي الأكثر أهميّة من إقليم سوريا الأكبر، وهي منطقة حدوديّة في ولايات الأيّام الحاليّة في سوريا ولبنان والأردن وفلسطين والضّفة الغربيّة المحتلّة وقطاع غزّة. وقد علّقت غترود في عام 1916 وهي تنظر فيما مضى على سجل القانون العثماني:

«لم تكن هناك أيّ دولة جذبت إلى أنظار العالم مظهراً من قانون رسميّ وحكومة مركزيّة أكثر من الإمبراطوريّة العثمانيّة». بلاد الخيال (أرض الأكاذيب). (حرب العرب، ص 9). كانت القصّة هي أنّ سلطان الحكومة كان يُقبل في كل مكان من مقاطعات الإمبراطورية، واستطاع موظفوها جمع الضرائب ورفع قوّاتها المجنّدة. وأظهرت خبرة بل في جبل الدروز بشكل قوي ضعف الموظفين الأتراك الذين أرسلوا إلى هناك.

وإذا كان القانون العثماني ضعيفاً في بعض المناطق «المأهولة» فقد وُجد بصعوبة في الصّحاري الشّرقية والجنوبيّة، حيث تسيطر أحلاف القبائل البدويّة، مجبرة المسافرين على مفاوضة إدارة آمنة من إقليم بدوي إلى التّالي. ولقد جلب ضغط من القوى العظمى في أواسط القرن التاسع عشر بعض الإصلاحات الإداريّة ودرجة أعظم من الأمن للمسافرين في سوريا. ويمكن أن تكون غترود بل قد لاقت صعوبة أكبر لو أنّها قامت برحلتها قبل ثلاثين سنة أو أربعين. هذه السّهولة في السّفر بالإضافة إلى وصول خدمات السّفن التّظاميّة إلى المرافئ المتوسّطية الشّرقية جلب أيضاً تدفقاً من السّيّاح والحجّاج الأوروبيين الذين اندفعوا إلى القدس والمدن السّاحليّة السوريّة. كانت غترود تريد أن ترحل عن طريق مألوفة عندما عبرت نهر الأردن لزيارة الصّحاري والجبال في الدّاخل. وبقيت دمشق «عاصمة الصّحراء» كما وصفتها، خالية

من الحجاج والسّياح نسبياً، بينما في جبل الدّروز «كان هناك بعض الاهتمام يحيط بي، كوني المرأة الأجنبية الأولى التي زارت تلك الأجزاء على الإطلاق». (رسائل ص 63).

لكن التّفوذ الأوروبي السياسي والاقتصادي للمنطقة كان هاماً عند بداية القرن. وحُكِمَ الأُجانب أيضاً من قبل دستور شرعي منفصل. وقد بدأت بعض الأعراق المختلفة والجماعات الدّينية في سوريا بالظهور، والتي عمل العثمانيون طويلاً على تحريضها بعضها ضدّ بعض، وبدؤوا يتطلّعون إلى القوى الأجنبية المتعدّدة للحماية، أو للمنافع التجاريّة، في ظلّ سلطة عثمانية متهاكمة آخذة بالزوال. وعلى سبيل المثال، فقد تطلّع الدّروز إلى البريطانيّين من أجل الدّعم، وهو الشّيء الذي يفسر على الأقلّ الترحيب الحارّ التي تلقّته غرترود بلّ منهم. وقد بدأت في ذلك الوقت الهجرة من سوريا إلى القارّة الأميركيّة بشكل خاصّ.

وفي كتاب «العامر والغامر» تبين غرترود بلّ وضعها الأكثر حيويّة وخبراتها في التّرحال خارج رسائلها المعروفة، والتي صدرت لأوّل مرّة من قبل زوجة أبيها السيّد بلّ Bell في عام 1927، مع اختيار إضافي يظهر في كتاب إليزابيث بورغوين Elizabeth Burgoyne: «غرترود بلّ من خلال أوراقها الشّخصيّة» *Gertrude Bell- From her Personal Papers* الذي صدرت في عام 1985. كانت كاتبة رسائل خصبّة الإنتاج، وظهر هذا في الأوصاف المفصّلة والطويلة للأحداث، والشّخصيّات والحوارات التي كتبتها بشكل أساسي لعائلتها وصديقها المقرب سير فالنتين تشيرون Sir Valentine Chirol والتي تُخبر (أي الرّسائل) عن تجاربها بشكل مفعم بالحيويّة. ويعتمد كتاب «العامر والغامر» في الحقيقة إلى حدّ بعيد على أوصاف لرحلتها السّوريّة المقدّمة في رسائلها بالإضافة لتفصيل أكثر على نحو فعلي لأبحاثها الأثريّة.

تحتفظ كتابتها بالحدّاث والحماسة لاكتشاف جديد. ولقد امتزج فضولها واهتمامها التّهم بالنّاس الآخرين وطرق حياتهم بإصرار جريء لدورها في الحكاية حاملة بعض الشّبه لكتابة فريا ستارك Freya Stark، إحدى النّساء البريطانيّات الأقلّ شهرة التي

تبعتها في رحلاتها إلى أجزاء من العالم العربي غير المشهورة. ويحول اهتمام غرترود بل بالعالم من حولها دون وقوع كتاباتها في الانحراف عن مسارها، أو اتسامها بدوافع نموذجية كروايات توماس إدوارد لورنس T. E. Lawrence لرحلة الشرق الأوسط، أو نشر كطريقة كتابة فيليب Philby في التعبير المجازي، أو التنصيب التذكاري الرائع لكتاب رحلات في شمالي جزيرة العرب *Arabia Deserta* لشارلز داوتي Charles Doughty. وهي تصف متاعب الطريق والحر والغبار والأمطار مع الرطوبة بحس فكاهي ومتعة مع القليل من الجدة وحتى المازوشية (التلذذ بالاضطهاد)، لتكون مكتشفة في داوتي Doughty أو لورنس Lawrence.

هذا ولقد حازت أيضاً على مهارة جديرة بالاعتبار كراوية للأحداث التي خاضتها والشخصيات التي قابلتها، هذا الشيء هو الذي جعل حتى تقاريرها الفكرية الرسمية اللاحقة مقروءة على نحو رفيع. ولقد سمحت لها كفاءتها - المتزايدة باللغة العربية من خلال رحلاتها في سوريا - باكتشاف وجهات النظر لهؤلاء الذين سافروا معها: خادماها ميخائيل وفتوح؛ وأفراد الطابعية zaptiehs، والجنود الأتراك الذين أرسلوا لمرافقتها، والكثير من الناس الذين بقيت معهم. وكان لديها أيضاً مراجعها المفضلة: على سبيل المثال: الدروز الذين أكبرتهم بسبب مقدراتهم العسكرية، وأسلوبهم المباشر في الكلام وحسن ضيافتهم؛ والبدو الذين أحببتهم - كعدة مسافرين أوروبيين - عموماً أكثر بكثير من أهل المدن والقرويين.

في البداية يبدو أمراً مفاجئاً أنها كرسست اهتماماً قليلاً جداً للمرأة في الجماعات التي تقابلها، وهنّ (أي النساء) في الخلفية، منكبّات على حاجاتها، ولكنهنّ يوصفن بالتفصيل فقط عندما تأتي امرأة على وجه التخصيص لتتكلّم معها، ولكنها أظهرت اهتماماً قليلاً بقضايا تؤثر بالنساء في بريطانيا، لذلك كان موقفها في الشرق الأوسط مختلفاً قليلاً، وكان هذا التصرف مدعوماً من قبل النساء اللواتي استضفنها والتي استغلّت حسن ضيافتهنّ، وعلى الرغم من كونها امرأة أوروبية منفردة وحيدة لم تقم بأية محاولة لإخفاء جنسها، فقد استقبلت كضيف «ذكر» تأكل وتتكلّم مع الرجال في

منزل الضيوف أو في بيت القهوة أكثر من إمضاء الوقت في شقق النساء أو خيامهن، وفي معظم المجتمعات التي زارتها كانت قوانين الفصل بين الجنسين في الأمكنة في الأسرة صارمة جداً. وكشخص كان اهتمامه الرئيسي في السياسات والشؤون العالمية، كان صعباً بالنسبة لها أن تتمنى أشياء مختلفة، طالما أن تلك الأمور كانت تقريباً ميداناً للرجال على وجه الحصر.

وبالطبع فإن الصعوبات التي واجهتها كانت بشكل خاص عندما تنتقل من حماية قبيلة أو جماعة لأخرى. ولكن فكرة غرتروود كانت أنه لو أن الرحالة الأوروبي يرغب بقبول واحترام المبادئ السلوكية والعادات التي يقابلها ولا يحاول أن يقلد اللباس المحلي أو السلوك فإن كل شيء سيكون جيداً، وتضيف غرتروود أنه، بالنسبة للمرأة، فإن هذه القاعدة هي إحدى القوانين الأكثر أهمية، نظراً لأن المرأة لا تستطيع أبداً أن تخفي نفسها بشكل فعلي. «وينبغي أن تعرف بأنها تأتي إلى قبيلة عظيمة وشريفة تُعدّ عاداتها رفيعة، وتعتبر هذه الشهرة أفضل طريقة للتعريف عنها».

لقد اعتُبرت رحلة غرتروود بل في عام 1905 شيئاً من الحد الفاصل في ذلك الوقت، وسيطر الاهتمام بالسفر والشرق الأوسط على حياتها. ولقد قادها اهتمامها بالآثار، كما يتضح في كتاب «العامر والغامر»، إلى عدّة بعثات في سوريا وآسيا الصغرى، وفي كتابي «أديرة طور عبيد» (1910) *Tur Abdin* و«قصر ومسجد الأخيضر» (1910) *Amurath*، بالإضافة إلى كتاب سفر آخر هو «من مُراد إلى مُراد» (1911) *Amurath to Amurath*. لكن، وكما أذعنت لاحقاً، فلم يكن لديها التدريب ولا الصبر للبحث الدقيق لعالم الآثار الحقيقي، ولقد كان الشيء الأكثر أهمية هو تصميمها الذي صيغ خلال رحلتها السورية في عام 1905، لاكتشاف صحاري المناطق الداخلية لسوريا والعراق وجزيرة العرب، وقامت برحلة كبيرة عبر الصحراء السورية إلى العراق في عامي (1910-1911)، وشرعت في عامي (1913-1914)، فيما يمكن أن يُعتبر إنجازها الأكثر أهمية في الاستكشاف، بالرحلة إلى حائل (Hail)، جزيرة العرب المركزية، مقرّ سلالة آل الرّشيد الحاكمة. ولو أنّها في رحلاتها السورية لم تر عائلاً

شخصياً في كونها امرأة، فإن الصعوبات لبعثة حائل، الجسدية والسياسية على حد سواء، أجبرتها على الاعتراف بأنها ربما بلغت أقصى الحدود التي كانت ممكنة بالنسبة لها في مجال الاستكشاف، ولقد دوّنت ذلك في مذكراتها:

هناك طريقتان لسفر مريح في جزيرة العرب. الأول طريق صحراء جزيرة العرب، بأن تعيش مع الناس، وأن تعيش مثلهم، لأشهر وسنوات. وبذلك يمكنك أن تتعلم بعض الأشياء، كما فعل داوتي Doughty، مع أنك قد لا تكون قادراً على قول ذلك مرة أخرى كما فعل هو. ومن الواضح أنه لا يمكنني سلوك ذلك الطريق، لأن حقيقة كوني امرأة تمنعني عنه. والآخر هو طريق ليتشمان Leachman، أن تركب بخفة عبر البلد وفي يدك بوصلتك للاستكشاف، وليس لأي شيء آخر، ومن الممكن أن أكون قادرة على فعل ذلك في مدة محدّدة من الزمن ولكنني لست متأكّدة، وعلى كل فليس هذا هو ما أقوم به الآن. (Burgoyne I, pp.296-7).

وبالنسبة لغيرتروود بل، فقد كانت لهذه الرحلة الأخيرة نتائج مهمة جداً، ووفقاً للمستعرب والرحالة هاري سنت جون فيلبي Harry St. J. Philby، فقد كانت هناك صلة مباشرة بين رحلة حائل Hail وبين عملها اللاحق (بعد فترة فاصلة وجيزة قامت بأعمال إغاثة بارزة في فرنسا زمن الحرب) كمراسلة لمكتب البصرة Basra وهو مكتب عربي مقره القاهرة. لقد كان هذا المكتب عبارة عن فريق من «الخبراء العرب» - تأسس في عام (1914-1915) - لتوجيه النصح لمكتب الخارجية والمخابرات العسكرية عن أحسن الطرق لاستثمار استياء العرب من الأتراك، والذين هم الآن أعداء لبريطانيا. قال فيلبي Philby بأن رحلة حائل «كانت عملاً مهماً لاستكشاف خطير، وكتيجة مباشرة لذلك حازت بعد سنتين على وظيفة في قسم دائرة الاستخبارات العسكرية في البصرة للمساعدة في المحافظة على توجه السياسات العربية المركزية خلال الحرب العظمى». كتب فيلبي H. St. J. Philby تقديراً لغيرتروود بل في عام 1945، (نسخة آلة كاتبة في أوراق فيلبي، كليّة أنطوني Antony أوكسفورد).

خلال هذه المرحلة الأخيرة من مهنتها، أصبحت غيرتروود بل مضطربة بشدة في

صيغة السياسة البريطانية تجاه العرب. كانت السياسات الاستعمارية، حتى أكثر من السفر، تستبعد النساء بشكل طبيعي، ولكن بالاعتماد على قوة خبرتها وعملها خلال الحرب فقد أُعطيت مركز السكرتير الشرقي للمدير المدني للعراق في عام 1919، وهو مركز شبه رسمي براتب ضئيل. وأصبحت متورطة إلى حد بعيد في التحركات البريطانية الهادفة إلى وضع ملك عربي موالٍ على عرش العراق، تستطيع بريطانيا من خلاله أن تحكم بشكل غير مباشر تحت مسميات من (عصبة انتداب الأمم). وكانت غرترود بل في ذلك الوقت قد لُقبت من قبل البعض، ولكن بشيء من المكر: «ملكة العراق غير المتوجة»، بسبب تأثيرها السري على الملك الجديد فيصل، خلال السنة الأولى من حكمه (1921-1922).

نادراً ما تفسّر دوافع غرترود بل في كل مرحلة من حياتها في الترحال والمغامرة على نحو مباشر في كتاباتها. ولقد أصبح السفر بسرعة أسلوب حياة بالنسبة لها، وقد مكّنها دعم عائلتها المالي من جعلها غير محتاجة لكسب الرزق. وبالطبع، ومن حين لآخر، فإن السفر وعيش حياة في ثقافة مغايرة كان يمثل هروباً من المشاكل الشخصية ومن الحزن.

على الرغم من عدم ذكر ذلك إلا بشكل نادر، فإن حزنها بعد موت هنري كادوغان Henry Cadogan ربما شجّعها لاستغلال كل فرصة لمغامرة جديدة، وأوضح مثال على ذلك رحلتها إلى حائل Hail، وانهماكها الشديد في الحياة، وشؤون العراق منذ عام 1916 وما بعد. كانت على الأقلّ طرقاً لمواجهة الصدمة العاطفية في حياتها - قصة حبّها مع الموظف البريطاني والرحالة، الكابتن تشارلز داوتي وإيلي Charles Doughty Wylie (ابن أخ تشارلز داوتي Charles Doughty) التي بدأت في عام 1912، واستمرت حتى وفاته في غاليليو Gallepoli في عام 1915، كان داوتي وإيلي Doughty Wylie متزوجاً وغير مستعدّ لترك زوجته، بالإضافة للسرية التامة التي تحتاجها مواقف كهذه، فقد سبّب لغرترود بل توتراً شديداً ومعاناة، تبدّت بشكل واضح في يومياتها التي كتبها لوإيلي Wylie خلال رحلتها إلى حائل (نُشرت

في كتاب بورغوين E. Burgoyne «غترود بل - من خلال أوراقها الشخصية»، ج 1، ص 284-313). وبعد موته، فإنَّ رغبتها الضَّعيفة في العودة إلى إنكلترا لأيّ شيء أكثر من زيارات قصيرة لرؤية عائلتها، كانت قد تلاشت تقريباً.

ساعد أيضاً الإحساس المتزايد بالابتعاد عن العيش في لندن على تفسير طريقة حياتها التي اتخذتها حياتها المهنية. ومنذ الأيام الأولى لزيارتها لبلاد فارس تخللها حسٌّ من الإثارة والاكتشاف، ومن حاجة أساسية ضمنية، لإيجاد مخرج لطاقتها الهائلة ومواهبها الجديرة بالاعتبار، وفي إنكلترا، لا تنح لها إلا مخارج قليلة مثل هذه. كانت حياتها هناك قد قيّدت بشكل كبير بالدائرة الاجتماعية لقاءات الاستقبال، الذي سرعان ما أصبحت معها نافذة الصبر. وعلى الرّغم من انهماك والديها بالسياسات البريطانية، والعمل الخيري المحلي، فإنَّ غترود بل نفسها أظهرت اهتماماً عملياً قليلاً بتلك القضايا.

كانت في الحقيقة، كنتيجة لرحلاتها، قادرة على تحقيق نوع من التأثير السياسي تمّ تطبيقه بشكل نادر من قبل نساء من خلال المراحل التقليدية للسياسات البريطانية.

ساعد هذا الوضع غير السوي للشرق الأوسط على وضع السياسات الاستعمارية في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى مباشرة. ولم يكن هناك فقط نزاعات بين الحكومة الأجنبية والحكومة الهندية حول كيفية تنفيذ السياسة، ولقد شعر موظفو الحكومة البريطانية بأنّ لدى الحكومة فهماً ضئيلاً بأحداث المنطقة. إن طبيعة هذه العلاقات قد جعلت صنّاع السياسة يلتفتون إلى النصيحة من هؤلاء الذين أعطاهم عملهم أو أسفارهم معرفة بالظروف المحليّة في المناطق المفهومة على نحو ضئيل ضيق مثل سوريا وجزيرة العرب والعراق. بعض هؤلاء الذين تشملهم هذه الفئة هو العالم دافيد جورج هوغارث D. G. Hogarth الذي ترأّس «المكتب العربي» Arab Bureau، والذي كان عنصراً مؤثراً بشكل نسبي في دوائر صنع القرار، ولكن الآخرين - بل نفسها وتوماس إدوارد لورنس T. E. Lawrence، وجورج لويد George Lloyd، وأوبري هربرت Aubrey Herbert، وهاري سنت جون فيلبي H. St. J.

Philby، ومارك سايكس Mark Sykes - كانوا شباناً نسيّاً، ومع ذلك فإنّ ارتباطهم العائلي لم يؤمّن لهم منزلة عالية في الحكومة أو في القوّات المسلّحة وربّما كان فقط في هذه الظروف الخاصّة، مع الضّرورات المُلحّة للحرب، هو ما جعل من الممكن لامرأة أن تُقبل بسهولة كمستشار سياسي في شؤون إمبراطورية.

لقد زكّاها اللّورد كرومر، الذي كان صديقاً شخصيّاً لها، في رسالة إلى اللورد بلفور A. J. Balfour (ديسمبر 1915)، ولكنّه أضاف ملاحظة بتحقّظ على حكمها السياسي الأوسع (والقبول الحسن لامرأة ذكيّة جدّاً لا يعني بالضرّورة أن تُركّى للعمل في دوائر القرار الذكوريّة):

«إنّها امرأة ذكيّة جدّاً، ولها تأثير غير مشكوك به في كلّ شيء يتعلّق بالعرب وجزيرة العرب وبلاد ما بين النهرين [العراق]، ولا أعني بهذه الشّهادة أن أقول بأنّ حكمها على القضايا العامّة لسياسات الشرق الأدنى موثوق تماماً». (PRO/FO 633/24).

لم تكن غرترود نفسها غافلة عن كونها غالباً ما تُعد متجاوزة لِميادين الرّجال. ولقد علّقت على استقبال التقرير الحكومي الرّسمي الذي كانت قد كتبتّه في عام 1921 عن الحكومة المدنيّة للعراق: «إنّ الخطّ العامّ المأخوذ من قبل الصّحافة يبدو أنّه من الملفت للنّظر أن يتمكّن كلب من الوقوف على أقدامه الخلفيّة - أعني أن تقوم امرأة بكتابة تقرير حكومي رسمي. وآمل أن يكفّوا عن التّعجب وينتبهوا للتّقرير نفسه». (Burgoyne Vol II, p. 198).

كان وضعها الاستشاري شَبه الرّسمي في العراق وتعهّدها للصدّاقات مع العراقيين قد جعلها موضع شك واستياء بين بعض الموظّفين الرّسميين، وليس فقط مديرها، مدير التّمثيل الوطني ويلسون A. T. Wilson (1919-1920)، الذي تجادلت معه في أمور شخصيّة وسياسيّة. وقد سعى ليطلب (على نحو غير ناجح) نقلها بسبب ما اعتبره مراوغة وخداع من وراء ظهره.

كانت آراء بعض الموظّفين البريطانيّين الشّبّان بها يظهر جليّاً في رسالة كُتبت في

1924 إلى فيلبي Philby من قبل أليك هولت Alec Holt، الموظف في إدارة السكك الحديدية:

لا أعتقد أنّ الملك المفروض [فيصل] هو في مأمن الآن ممّا كان عليه في (يونيو 1921)... ولكن بالتأكيد إن «الملكة غير المتوجة» لم تعد هي الوحيدة في هذه البلاد.

وعلى الرّغم من ذلك فإنّ غرترود كانت على الأرجح عرضة للتّحيّز العنفي الذّكوري بشكل أقلّ من معظم محاولات النّساء في ذلك الوقت لممارسة عمل أو مهنة عامة في بريطانيا. كان موقفها الخاصّ أحد أكثر أنواع الثّقة بالنّفس الجديرة بالاعتبار، مؤكّداً بأنّها كانت مساوية، فكرياً، لأغلب الرّجال الذين عرفتهم.

لكن بقدر ما كان لديها نصحاء مخلصون، فقد كانوا جميعهم رجالاً: أولاً، وفي المقام الأوّل، والدها الذي غالباً ما كانت تأخذ منه النّصيحة؛ ودافيد جورج هوغارث D. G. Hogarth في المكتب العربي، والأكثر أهميّة سير پرسی كوكس Sir Percy Cox الذي خلف ويلسون A. T. Wilson في عام 1920 كمدير مدني في العراق وأصبح لاحقاً مندوباً سامياً. ولقد احترمت بشكل كبير أسلوبه التحرّري الاستعماري والعنيف، والذي في بعض الأحيان كان كأسلوب مكيا فيللي في السياسة. ولم تعانِ من سذّج، ذكوراً وإنثاءً، لحسن الحظّ، ولكن على الرّغم من أنّه كان لديها أصدقاء نسوة وعلاقات مع من اعتمدت عليهم عاطفياً، فقد كانت ترجع إلى الرّجال لتحفيزها فكرياً. لقد كانت بالتأكيد متكبرة فكرياً، وأوصافها للنّساء، وبشكل خاصّ لزوجات الرّملاء، ساخرة غالباً أو وقحة.

جعلتها حرّيتها الخاصّة المطلقة ونجاحها تتعاطف بشكل قليل مع القيود التي كانت معظم النّساء البريطانيات تزرع تحتها، وفي الحقيقة فقد صوّتت ضدّ عدم اقتراع النّساء، وأمضت عدّة فصول صيف في لندن منظمّة حملة مع عصبة معارضة التصويت المنشأة حديثاً ضدّ الحركة المنادية بمنح المرأة حقّ الاقتراع الفعّالة على نحو متزايد. كانت العصبة قد أنشئت في العام 1908 من قبل عدّة نساء غيّات، بما فيهن ليدي جرزي Lady Jersey ومسز همفري وارد Mrs Humphry Ward بالإضافة إلى

القنصلين الإمبراطوريين العظميين السابقين اللورد كرومر Lord Cromer واللورد كُرزون Lord Curzon اللذين عرفتهما غرتروود وأعجبت بهما، وقد وجَّها دعمهما للعُصبة.

لقد كتبت القليل من آرائها عن هذا الموضوع، ولكن كان موقفها، بحسب الظاهر، مفاجئاً لامرأة مع آرائها التحرّرية نسبياً وعدم احتمال التعصّب الأعمى، وربما كانت مشاعرها الخاصة من الثّقة قد قادتها لاعتبار بأنّه باستطاعة الآخرين عمل الشّيء ذاته كما فعلت فيما لو حاولوا فقط بجهد كاف. في الوقت نفسه شاركت العصبة أيضاً في دور بريطانيا الاستعماري، والتي ناقش أعضاؤها بأنّ «مسؤوليات» الإمبراطورية جعلتها غير ملائمة للنساء ليكون لهنّ تأثير مباشر على بنية السّلطة السّياسيّة في بريطانيا. ومهما كانت سخريّة هذا النّقاش قابلة للظهور الآن، فإنّ حقبة الملك إدوارد كانت مع ذلك الدّروة من الوعي الاستعماري، الذي شاركت فيه غرتروود بل إلى أقصى حد.

وفي الحقيقة فإنّ غرتروود بل قد شاركت في العديد من الأفكار والمواقف التي ميّزت الرّحّالين الآخرين من الحقبتين الفيكتورية والإدواردية المتأخّرة، وضمتّ الشّعور بالإثارة والمغامرة التي دفعت الكثير منهم للسّفر، حتّى تحت الظروف الأكثر صعوبة كان شعوراً بالحرّيّة والقوّة. كانت الحرّيّة التي خبروها من ضرورات الطّبعة الاجتماعيّة التي انتموا إليها. ويمكن لغرتروود بل أن تضع تعليقها عند بداية كتاب «العامر والغامر» حول متعة «السّفر البرّي» في سوريا برغم إدراكها بأنّ البلد كانت تضمّ وضعاً اجتماعيّاً مرّكباً. ويتجلّى مفهوم الحرّيّة بأنّها في الحقيقة لم تكن مقيدة بهذا الوضع، ما عد متطلّبات الحصافة والكياسة.

يُعتقد بأنّ الرّحّالين الأوروبيين قد وجدوا أنّه من الأسهل الفهم والتّكيّف مع السّلطات من العالم العربي، وبشكل خاص أولئك من قبائل الصّحراء، أكثر من التّكيّف مع التّماذج الاجتماعيّة المتغيّرة في الوطن. وعلى سبيل المثال، يعلّق توماس أسد Thomas Assad في كتابه *Three Victorian Travellers* «ثلاثة رّحّالين من العهد الفيكتوري» بأنّ ولفريد سكاون بلنت Wilfred Scawen Blunt، وهو ذاته ينتمي إلى

طبقة أعيان الرّيف، «قد شاهد في الحياة القبليّة العربيّة النّوع من البنية الاجتماعيّة الذي راق له». (ص 135) وقد فُتنت غُرتروُد بل أيضاً بالتسلسل الهرمي للمجتمع القبلي مدركة على نحو مرهف للمنزلة سواءً كانت في صحراء أو قرية أو ريف.

مع ذلك، فإنّ الأماكن العظيمة الفارغة من صحراء جزيرة العرب كانت تشكّل فتنه ساحرة لمعظم هؤلاء الرّحّالين؛ فقد كانت تُعد ذروة التّحرّر من تجاربهم الخاصّة. عند جلوس غُرتروُد بل على ضوء نار المخيم تشرب القهوة مع مجموعة من البدو في هضاب الأردن مستمعة لحديثهم، فإنّ إثارتهما كانت جدّ واضحة: «وهكذا فقد استمرّت القصة خلال المراحل المألوفة من العداء الدّموي وتحميل الجِمال، وإشاعات الصّحراء - وكدت أبكي من متعة الاستماع لها مرّة أخرى». («العامر والغامر»، ص 15) وأيضاً، حتّى بالنّسبة للبدو أنفسهم، ليس هناك وجود سحري كهذا. «لا يتكلّم العرب عن الصّحراء أو البريّة كما نفعل نحن. لماذا يتوجّب عليهم ذلك؟ بالنّسبة لهم فهي ليست صحراء ولا بريّة، ولكن أرض يعلمون جميع تفاصيلها، الوطن الأم والذي يحتوي أصغر محصول على استخدام مناسب لحاجاتهم». (المصدر ذاته، ص 60) ولكنها، مثل العديد من معاصريها، كانت مدركة بأنّ التّأثير المتنامي للغرب في العالم العربي، والتّغير الدّاخلي، يمكن أن يدمّر تدريجيّاً الطّريقة البدويّة لحياة كانت من أشدّ المعجبين بها. وفي رسالة مكتوبة خلال رحلتها في عام 1905 تعلق في جملة معترضة: «بعد زمن طويل، لن يبقى هناك بدو في جزيرة العرب - ولكن هذا الزّمن ما يزال بعيداً وهو ما يجعلني سعيدة». انظر:

Letters, ed, Lady Bell, p. 174.

كان التّاريخ مصدراً آخر للرّومانسيّة والفرار للغربي في الشّرق، وعلى سبيل المثال فقد «التمس داوتي Doughty في الشّرق جذور النّصرانيّة والبشريّة» (Assad, p. 134)؛ وتأخذ بل كملحدة قديمة، نظرة متعصّبة إلى حدّ ما لثقافة العرب والإسلام. وبالنّسبة لها فإنّ الإثارة تكمن في آثار الثقافات الغابرة التي تفرّقت في كلّ مكان من سوريا والعراق. وعن العراق كتبت:

«لقد كتبتُ عن السياسات والتجارة، عن البواخر ووسائل التّنقل، ولكنّي لم أتلقّظ الكلمة التي تعبّر حقيقة عن العراق؛ إنّها الرومانسيّة. في أيّ مكان تبحث عنها ستجدها، في التّهرين التّوأمن العظيمين، المسمّين على نحو متألّق، والسّهول البابليّة الهائلة، التي هي الآن صحراء، والتي كانت ذات مرّة حديقة العالم. تمتدّ القصّة إلى الورا في الأعماق المظلمة من الزّمن - كلّ شيء فيهم يضجّ بالرومانسيّة». (حرب العرب، نسخة عن مخطوطة كُتبت خلال الحرب العالميّة الأولى).

ولكن هذه المشاعر في الرومانسيّة والحرّيّة نادراً ما كانت مختلطة بالّلطف. ولم تغفل غرترود بل ولا زملاؤها الرّحّالون عن مقدار القوّة والتّأثير لثقافة حضارتهم الخاصّة، أو من وجهة نظرهم، لتفوّقها الأساسي. إنّ قوّتهم كأوروبيين كانت في القدرة على التّحرّك بحرّيّة والحكم بحرّيّة على ثقافة الآخرين. وبطرق متنوّعة تشربوا نظرة «المستشرق» الشّائعة في وقتها بأنّ الشّرق من الممكن الحكم عليه من قبل معايير جوهرية تُعدّ غير مقبولة في تقييم ثقافة غربيّة.

لم تُطبّق هذه النّظريّة على العلماء والرّحّالين فقط في القرن التّاسع عشر، ولكن على هؤلاء الذين أصبحوا منهمكين بشدّة في السياسات الاستعماريّة للحرب العالميّة الأولى، كما فعلت غرترود بل. ويلخص إدوارد سعيد أفكارهم على نحو ملائم:

لقد شكّلوا «عُصبة» كما سمّاها لورنس ذات مرّة - ويقدّوا معاً ضمن انطباعات متناقضة وتشابهات شخصيّة. شخصيّاتٌ عظيمة، تعاطفٌ وتماثلٌ بديهيّ مع الشّرق، شعورٌ متحفّظٌ على نحو غيور للمهمّة الشّخصيّة في الشّرق، غرابةٌ مصقولة ورفضٌ حاسمٌ للشّرق. وبالنسبة لهم جميعاً فقد كان الشّرق تجربتهم الشّخصيّة المباشرة عنه. (الاستشراق، ص 224).

تخلط كتابات غرترود بل المبكرة بين ملاحظة قريبة للأفراد والتّعليق على آرائهم وبين تعميمات شاملة حول «العرب» و«الشّرقين» و«الشّرق» مشتركين في هذا العصر. وهكذا فقد كانت قادرة على تقديم موضوعها في «العامر والغامر» مع هذا التّعليق: «إنّ الشّرقى بمثابة طفل كبير جدّاً، فهو غير مطّلع على كثير من فروع المعرفة

التي أصبحنا نعتبرها ضرورة أوليّة. وعلى نحو متكرّر، لكن ليس دائماً، فإنّ عقله مشغول قليلاً بالحاجة لئليها، وهو نادراً ما يقلق نفسه بآية حال بما ندعوه منفعة عمليّة» (المقدمة، ص ix). تتبع هذه نظرة واسعة بأنّ العصر الذهبي للحضارات في الشرق كان منصرماً منذ عهد بعيد، ولقد غرقت الآن على نحو نهائي في الانحطاط.

في الوقت نفسه، كانت بل مدركة دوماً لقوّة ونشاط بريطانيا، التي اعتبرتها أنّها يمكن أن تقدر بشكل أفضل على إنقاذ عالم العرب من السّبات والاستبداد العثماني. ومصر التي حُكمت من قبل بريطانيا منذ عام 1882، كانت بالنسبة لها مثلاً كيف ينبغي للأشياء أن تتم. وتعلّق في رسالة من عام 1905: «إن مصر نوعٌ من أرض موعودة، ليس لديك أدنى فكرة ما هو الانطباع الذي صنّعه حكومتنا هناك على العقل الشرقي». (رسائل، ص 158).

وعلى غرار اللورد كرومر Lord Cromer في مصر، كانت مزدرية لتلك القوميات العربية التي طالبت بالاستقلال أكثر من التّبديل من سيّد أعلى لآخر. ومثل Cromer أيضاً، كانت ميّالة لاعتبار أشخاص كهؤلاء «زعماء الدّهماء والمهتجين». ومنذ الوقت الذي أخذت فيه غرترود بل دوراً رسمياً في العراق خلال الحرب العالميّة الأولى، أصبحت تقديراتها الشخصيّة العنيفة (اللاذعة) للعرب مُعرضة أكثر وأكثر بهدف إلصاق التّصنيفات بهم كـ «معتدين» أو «متطرفين»، أو «مؤيدين لبريطانيا» أو «مناهضين لبريطانيا». ولكن، وبسبب أنّها ومن دون شكّ كان لديها أصدقاء عرب شعرت معهم برباط وثيق وبشكل خاص بين الوجهاء من بغداد وبين القبائل من الصّحراء المحيطة، فقد كان لديها مثل لورنس Lawrence وفيلبي Philby في أسلوبيهما المختلفين، فلم تستطع دعم الإمبريالية الفاشيّة قديمة الطراز في النظام الهندي، كما مثّلت من قبل رئيسها الأوّل في العراق ويلسون A. T. Wilson. وقد أخذت الفكرة بأنّ التّأثير البريطاني يمكن أن يكون أكثر فعاليّة وأقلّ كلفة، فيما لو استُخدم بشكل غير مباشر. لقد كان هذا الاعتبار هو الذي حثّها لدعم تنصيب الأمير فيصل الهاشمي في العراق كملك، بعد أن كان قد أجبر على الخروج من دمشق على أيدي الفرنسيين، مع أنّها كانت قد عارضت الفكرة أصلاً.

ولكن من وجهة نظر القوميات الأكثر تطرفاً، كانت السّياسة الإمبرياليّة للإقناع

والدّسائس والتأثير من وراء الكواليس والتي تمثّلت من قبل غرترود بل وسير پرسی كوكس Sir Percy Cox لم يكن هناك أكثر قبولاً من أسلحة ومراسيم A. T. Wilson. والتوصيف التالي لغرترود بل في أيامها الأخيرة في العراق من قبل الكاتب اللبناني «أمين الرّيحاني» يقترح إثارة الشّكوك حول دورها في العراق، وأيضاً مفاجئة للرّيحاني في أن يجد امرأة بمثل تلك المقدرة:

يسمّيها العراقيون خاتون، وهي سيّدة القصر التي تُبقي على عين وأذن مفتوحة لمصلحة الدّولة. لقد وجدتُ الأنسة بل قد حازت على فارسين مخلصين آخرين - لسانها وعقلها - والشّعور في كونها كأنّها في منزلها عندما تكون في بغداد. إنّ شكلها إنكليزي تماماً - طويلة ونحيلة؛ ووجهها أرستقراطي - طويل وحاد إلى حدّ ما، وشعرها الفضّي غير متنافر مع أناقتها ورقّتها.

بشكل عام... فهي تسيطر على الحوار في يدها. وهي تتكلّم العربيّة من دون لكمة تقريباً، مازجة إياها غالباً مع إنكليزيّتها وتؤكدّها بجزم مع إيماءات لبقّة. ولقد أذهلني نشاطها ورشاقتها.

مقتبسة في كتاب:

II.V.F. Winstone Gertrude Bell, London 1978, pp.243-4.

وعلى الرّغم من ذلك، فقد أظهرت غرترود بل قليلاً من القلق على العالم الذي فاجأ لورنس T. E. Lawrence في العشرينيات من القرن الماضي، أهوال الحرب العالميّة الأولى، والتي كانت مدركة لها بشدّة، هزّت ثقتها بالوضع العالمي والتي كانت واضحة جدّاً في «العامر والغامر» وكتبت السيّدة بل في 1920:

...أمّل في بعض الأحيان ألا يكون ما أشاهده هو انهيار العالم، ولكن الانهيار لنأثوف لهذا الجزء من الصّخرة وذاك الجزء من العشب الذي ينهار مع كلّ مد - الآن فقط إنّي مدركة بشدّة لاندفاع كلّ منها تبعاً... وعلى الرّغم من أنّي لن أقول إنّ هذه الفوضى لم تكن موجودة في الماضي، فأنا أقرّ بأنّه نادراً ما كانت هناك ظروف أسوأ ربّما منذ سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة... (Burgoyne, II, p. 188).

وببقائها في العراق، فقد وجدت بعض الهروب من هذا الشعور لانحلال العالم المألوف، فالسياسة بشكل عام وأسلوب «تجهيز الملوك» كانت تمدها لفترة بالانتعاش والشعور بالقوة الذي كانت تجتنيه. وعلى الرغم من ضباية وضعها الذي شغلته في العراق فقد أصبح بمثابة بلدها الأم حتى ماتت في عام 1926 عن عمر يناهز 58 عاماً. ولقد كان المركز الاجتماعي الاستثنائي الذي شغلته في السياسة في السنوات التي سبقت الحرب مؤقتاً، وقد تأكل تدريجياً حيث أن الخبراء استبدلوا بمنتدين في نوع جديد من سياسة الاستعمار الجديدة. وفوق ذلك فلم تستطع أن تقطع روابطها مع الشرق الأوسط، وبقيت في بغداد، ملتفتة إلى اهتمامها بعلم الآثار وثقافات الماضي العظيمة. وبالنسبة لها، فإن الشرق كان قد بدأ في مطلع القرن كمثال وميدان للإثارة والتحدّي، وكهروب من خيبة الحياة العليا للطبقة الوسطى الإنكليزية. ولقد أصبح أخيراً نوعاً صعباً من الواقعية بين بريطانيا الاستعمارية وعراق نام سعت لجعله موطناً لها.



مقدمة المؤلف

لا ريب أنه ينبغي لأولئك الذين يغامرون لإضافة كتاب جديد للأدب الواسع للسفر أن يكونوا قد هتأوا عذراً ما لم يكونوا رجال معرفة أو سياسيين، وبالتسبة لي فإن عذري جاهز وأرجو أن يكون هذا العذر جديراً بالتصديق. لم أكن أرغب بأن أولف كتاب سفر، بل أردت أن أكتب رواية عن أولئك الأشخاص الذين قابلتهم أو الذين رافقوني في الطريق، ولأظهر ماهية العالم الذي يقطنونه وكيف يبدو لهم. وحيث أنه من الأفضل أن يرووا، بقدر الإمكان، قصتهم الخاصة، فقد نظمت كلماتهم على مسار الطريق، أروي القصص كما سمعتها منهم والتي أمضى بها الرعاية والجنود الساعات من السير، الكلام الذي مرّ من فم إلى فم حول نار المخيم، في خيمة العرب السوداء ومضافة الدروز، بالإضافة إلى الكلام الحذر للمسؤولين الأتراك والسوريين.

إنّ فنّ الحكم عندهم يتألف من ظنون لاذعة غالباً، وهي النتيجة التي تنبثق ربّما من التصادم مع القوى غير المعروفة، حيث تكون القوة والهدف لهذه القوى عصيين على الفهم؛ وحكمتهم هي حكمة أناس تُعدّ قنوات المعرفة لديهم ومقاييس المقارنة مختلفة عن مقاييسنا، وهي تقدّم مجموعة مختلفة من التّصورات المسبقة ليتمكّنوا من تحمّل المعضلات المطروحة أمامهم. يُعتبر الشرقيّ بمثابة طفل كبير، فهو غير مطلع على الكثير من فروع المعرفة، التي أصبحنا نعتبرها كحاجة أولية؛ وعادة، ولكن ليس دائماً، ما يشغل عقله بالحاجة لإحرازها، ونادراً ما يشغل نفسه بكلّ ما ندعوه سعة عمليّة، وهو لا يزيد في مقدراته العملية عن طفل إذا صح التعبير، ومتطلّباته

تختلف عن متطلّباتنا. ومن جهة أخرى، فإنّ عمله محكوم بعادات السلوك والأخلاق التي تعود إلى بدايات الحضارة، عادات لم تتغيّر حتّى الآن بأيّ تغيير مهمّ في أسلوب الحياة التي يطبّقونها وبعيداً عن التي نشؤوا فيها.

وإذا أقصينا تلك الأشياء جانباً، فإنّه إنسان مثلنا؛ فالطبيعة البشريّة غير خاضعة للتّغيير في شرقي السّويس، وليس من المستحيل أن تكون علاقات صداقة وانسجام مع المقيمين في تلك المناطق. وهي في بعض الجوانب حتّى أكثر سهولة منها في أوروبا. وبإمكانك أن تجد في عادات الشّرق في التّواصل تقيّداً بالقيود الزّائفة بدرجة أقلّ، وتتمتّع بتسامح أوسع نتيجة تنوّع أكبر. ينقسم المجتمع إلى طبقات وفرق وقبائل في عدد غير متناهٍ من المجموعات، تتبع كلّ واحدة منها قانونها الخاصّ، ومهما بدا هذا غريباً بالنّسبة لنا فإنّ هذا القانون هو بالنّسبة للشّرقى رحب ويتمتّع بتفسير مُرضٍ لكلّ غرائب الحياة. ويمكن للإنسان أن يجول بين النّاس وهو ملثم حتّى العينين، أو مرثدٍ لو أراد إزاراً فقط، دون أن يشير أيّ انتباه. ولماذا يفعل ذلك؟ فهو مثل أيّ شخص آخر يتبع قانونه الخاصّ.

وقد يسير الأوروبيّ هنا أيضاً، هنا وهناك وفي الأماكن الأكثر وحشيّة، مواجهاً فضولاً قليلاً وحتّى انتقاداً أقلّ. ويمكن أن يستمع للأخبار التي يحضرها بعناية وإصغاء، كما ويمكن لأرائه أن تحظى بالاهتمام، ولن يُعدّ شاذّاً أو مجنوناً ولا حتّى مخطئاً وذلك لأنّ ممارساته وطرقه في التّفكير متفاوتة عن هؤلاء النّاس الذين يجد نفسه بينهم. إنّها «عاداته»: ولهذا السّبب فإنّه سيكون حكيماً جدّاً إذا لم يطلب أن ينال الخطوة لنفسه عند الشّرقيّين بمحاولة تقليد عاداتهم ما لم يكن ماهراً جدّاً بتقليدها حتّى يستطيع أن يمرّر نفسه كواحد منهم. عليه تطبيق قانون الآخرين باحترام، ولكنه سيقابل هو نفسه باحترام أكبر فيما لو تقيّد على نحو تام بعاداته، وبالنّسبة للمرأة فإنّ هذا القانون هو الأكثر أهميّة، وذلك لأنّ المرأة لا تستطيع أبداً أن تخفي نفسها بالكلية. ولذلك عليها أن تعرف أنّها قادمة إلى عرق عظيم ومحترم لا تُنتهك عاداته، ومن الأفضل لها احترامها.

لا يُعد أي بلد من البلدان التي زرتها أرضاً عذراء بالنسبة للرحالين، فهناك أجزاء منها تمت زيارتها ولكن بشكل نادر، ووصفت فقط بأعمال مكلفة ويصعب الحصول عليها غالباً. لقد أوليت تلك الأماكن اهتماماً بسيطاً، وعدداً كبيراً من الصور عندما يبدو الأمر مهماً. وقد لاحظت أيضاً في المدن الجنوبية لسوريا آثار العصور القديمة التي تلفت نظر المراقب العابر. ولا يزال هناك الكثير من الأماكن التي تحتاج للاستكشاف في سوريا وعلى حافة الصحراء، وهناك أيضاً الكثير من المشاكل الصعبة التي تحتاج إلى حل. لقد تم العمل بشكل جيد من قبل: دى فوغيه dc Vogüé، وفيتسشتاين Wetzstein، وبرونوف Brunnow، وزاخاو Sachau، ودُسو Dussaud، وبوخشتاين Puchstein وزملائه، أعضاء إرسالية برنستون Princeton وآخرين غيرهم. وأشير إلى كتبهم لهؤلاء الذين يودون أن يعرفوا كم هي غنية تلك البلاد بالآثار المعمارية وبالسجلات المنقوشة من التاريخ البعيد.

لم تنتهِ رحلتي في الإسكندرون Alexandretta كما تنتهي قصتي هذه. وعلى كلٍّ، فقد كنت في آسيا الصغرى مهتمة بشكل أساسي بعلم الآثار؛ ولقد تم نشر العمل الذي قمت به هناك في سلسلة من مقالات على صفحات «المجلة الآثارية» Revue Archéologique، حيث وجد محررها السيد سلومون رايناخ Mosnieur Salomon Reinach متلطفاً أن نشرها هنا يتيح الاطلاع عليها أكثر من نشرها في كتاب كهذا.

إنني لا أعرف السكّان أو اللغة في آسيا الصغرى على نحو جيّد بما يكفي لأكون على تماس قريب مع البلاد، ولكنني مهتأة، ولو باطلاع بسيط، لأقدّر صفات فلاح تركي. فقد منح فضائل عديدة، وتعدّ فضيلة حسن الضيافة فوق كل الفضائل الأخرى التي منحها.

وأشعر ببعض الألم لسرد الظروف السياسيّة الحاليّة للأشخاص غير المهمّين، فهم لا يظهرون كذلك بشكل كبير لمن يعيش بينهم، ومن جهتي فإنّي شاكرة دوماً لهؤلاء الذين زودوني بمعلومات عن علاقاتهم مع بعضهم البعض. ولكنني لست مهتمة بتبرير إدانة أفعال الحكم التركي. فلقد عشت لمدة طويلة كافية في سوريا لأدرك بأنّ

حكمه كان بعيداً جداً من أن يكون الحكم المثالي، وشاهدتُ ما يكفي من العناصر المتمردة التي يحتفظ بها بطريقة أو بأخرى من أجل العلم بأن مهمته صعبة. ولا أصدق بأن أية حكومة يمكن أن تنال رضى عالمياً؛ وفي الواقع، فإن الحكومات التي حصلت على الخطوة المطلوبة حتى في أكثر البلاد اتحاداً هي قليلة حقاً. وكوني إنكليزية فإنني مقتنعة بأننا الأشخاص الذين استطعنا رعاية سوريا بشكل أفضل مع إمكانية نجاح أفضل من ذلك الذي يمكن إحرازه من قبل سلطان عاقل معتدل. ولقد اعترفنا منذ مدة طويلة بأن المهمة يمكن ألا تقع على عاتقنا.

ولسوء الحظ فقد قمنا بأكثر من ذلك، فقد سمحنا في جميع أرجاء الأقاليم التركية بإضعاف مكانتنا التي كانت عالية جداً وانحدارها، حيث رفضنا قبول المسؤولية فيما يتعلق بالمسألة الشرقية وضرورة تدخلنا، بل وسمحنا للاحتجاجات التي يعوزها الحس بالمسؤولية بأن تظهر بحماس على نحو عاطفي. وأسمح لنفسني أن أقيم هذه السياسة بوصفي جاهلة فأقول: إن تعاملتنا مع الأتراك أظهرت جواً من التذبذب الذي يمكن أن يُصَفَّح عنه بسبب غدر يمكن أن يؤخذ بعين الاعتبار. تلك المشاعر مجتمعة مع فزع راسخ لإمبراطورية آسيوية عظمى والتي هي أيضاً قيّمة على مصر وعلى البحر، اعتقد أنها دفعت الباب العالي (الإمبراطورية العثمانية) لأن ينتهز الفرصة الأولى لفتح باب مقاومة للمطالب الإنكليزية، سواء بسبب خطأ حسابي بسيط للجروح التي يمكن أن تستيقظ، أو بالأمل بعون أجنبي، لم يحسم بعد.

إن النتيجة بائسة على حدّ سواء، وإذا حاکمتُ القضية بأية حال على نحو صحيح، فإن جذورها تمتد في توارى التأثير البريطاني في إسطنبول. فإن التفوذ الذي شغلناه قد أخذ منا من قبل آخرين، وهو كذلك ويجب أن يكون موضع اهتمام أكبر لنا أكثر من أي أحد آخر بأنه يجب علينا أن نكون عند الضرورة قادرين على توجيه السياسات الملتوية لقصر يلدز Yıldız Kiosk. ولا تستطيع جميع القوّات الإسلامية السماح لعلاقاتها مع خليفة المسلمين بأن تكون منتظمة أو مستقرة على نحو بسيط جداً، وفيما إذا كان عناد السلطان في نزاع Tabah يمكن أن يبرهن لنا مدى انفلات الأعنة من بين أيدينا،

فإنه يمكن أن يفيد في عودتها. وفي وجودنا مسيطرين على البحر المتوسط ونمتلك
تحت سيطرتنا كما أعتقد مقداراً معتبراً من الودّ داخل الإمبراطورية التركية والذكريات
لصداقة قديمة، ويجب أن يكون من المستحيل عدم استرداد المكان الذي خسناه.
ولكن هذه قضايا تقع خارج نطاق الكتاب الحالي، وسيحظى اعتزازي بنهاية أفضل
بالتعبير الذي يبدأ به كل كاتب شرقي كتابه قائلاً: «بسم الله الرحمن الرحيم».

* * *

قَالَ تَابَتْ سَرّاً
يَرَى الْوَحْشَةَ الْأَنْسَ الْأَنْيَسَ وَيَهْتَدِي * بِحَيْثُ اهْتَدَتْ أُمُّ التَّجُومِ الشَّوَابِكِ

He deems the Wild the sweetest of friends, and travels on
where travels above him the Mother of all the clustered stars.
TA'ABATA SHARRAN.

الفصل الأوّل

بالنسبة إلى هؤلاء الذين وُلدوا في مجتمعات متطوّرة، نادرة هي اللحظات التي تماثل في بهجتها تلك التي يقفون فيها على مستهلّ رحلة متهوّرة. فعندما تفتح بوابات الحديقة المسوّرة، وتنخفض السلسلة عند مدخل المنزل، مع نظرة حذرة نحو اليمين واليسار تشعر بأنك تخطو إلى الأمام وتنظر نحو العالم غير المحدود. إنه عالم المغامرة والمخاطرة، المظلم بالعواطف الصاخبة، المتألق في ضوء الشمس المحرقة، سؤال بلا جواب وشكّ غير قابل للتفسير يختبئان في زاوية كلّ تلة. في ذلك العالم عليك أن تذهب وحيداً، منفصلاً عن جيوش الأصدقاء الذين يمشون على الطرقات الوردية، متجرّداً من الملابس البنفسجية والكتّانية الناعمة التي تعوّق الجيش المقاتل، عليك أن تذهب بلا مأوى، بلا دفاع، ومن دون ممتلكات.



مسجد عُمر في القدس

سيُسمع صوت الرّياح بدلاً من أصوات المستشارين المقنّعة، وينبغي لبلبل المطر ووخز الصقيع أن يكونا محفرين أكثر من الإطراء أو اللّوم، وعلى الرّغبة الملحة أن

تتكلم بثقة غير معلومة لتلك الحكمة المستعارة التي يخضع لها الناس أو يبنذونها عندما يريدون. لذا فإنك تترك المأوى مغلقاً، ومثل الرجل في قصص الجنيات، ستشعر بأن القيود التي تُبَتّ بإحكام حول قلبك تتكسر وأنت تدخل الطريق الذي يمتدّ عبر المنعطف المستدير للأرض.

لقد كان صباحاً عاصفاً، في الخامس من فبراير. اندفعت الرياح الغربيّة من البحر المتوسط، وأسرعت عبر السّهل حيث خاض الكنعانيون Canaanites حرباً مع السّكان العنيدين من برّية اليهوديّة Judaea، وتخطّوا حدود الجبال إلى حيث كان الملوك الآشوريّون Assyrian والمصريّون قد قادوا حصاراً عقيماً ضدهم. أعلنت الأخبار عن الأمطار في القدس التي تقدّمت أسفل المنحدرات الشرقيّة القاحلة، منطقة قاع الأردن بوثة واحدة، وتلاشت عبر التلال من مؤاب في الصحراء. تبعثها جميع كلاب العاصفة في الخلف في قطيع ينبح وهي تجري نحو الشرق صاحبة بمرح.



كنيسة قبر المسيح في القدس

لا يمكن لأي أحد يتمتّع بالحياة في جسده أن يبقى في البيت في يوم كهذا، أما بالنسبة إلي فقد كان هناك خيار ضئيل. في فجر الشّتاء الكثيب كانت البغال قد تقدّمت حاملة كل أغراض الديويّة وهي عبارة عن خيمتين، صندوق أدوات المائدة، مؤونة شهر من وسائل الترفاهية التي يمكن أن يقتنيها رَحالة بسيط، وصندوقين صغيرين على البغل يوجد

فيهما - بشكل أساسي - أدوات التصوير، وبعض الكتب وحزمة كبيرة من الخرائط. كنت قد أحضرت البغال وثلاثة من البغالين معي من بيروت، ووددت بشكل كبير أن يتابعوا معي لرحلة أبعد. كان الرجال جميعهم من لبنان؛ أب وابن كلاهما مسيحيان، جاءا من قرية تقع بأعلى بيروت: كان الأب شخصاً مسناً ومن دون أسنان، يتمتم، وهو يقود البغل حاملاً الصناديق، راكباً منفرج الساقين. امتزجت البركات والهتافات التّقية مع احتجاجات عن تقواه، وكونه مستخدماً أكثر اعتدالاً، ولكن لم ير أية حاجة للمساهمة بمساعدة أخرى لصالح المجموعة - كان اسم هذا المُسنّ إبراهيم؛ والابن حبيب، شابٌ في الثّانية والعشرين أو الثّالثة والعشرين من عمره، أسمر، منتصب القامة، عريض المنكبين، بهيئة يمكن أن يحسده عليها إغريقي، ونظرة جريئة تحت حاجبين سوداوين.



شارع في القدس

كان الثّالث درزيّاً، وهو رجل ضخم مثاقيل الحركة، كسول بشدة، مختال في طريقته المتواضعة، على الرّغم من أنه استطاع دوماً أن يقلّل من نقمتي المشروعة في قضية السّكر نسروق أو قروش (بيزو) المفقودة بعينين لامعتين مستغيثتين تنظران دون أن تطرفا مثل

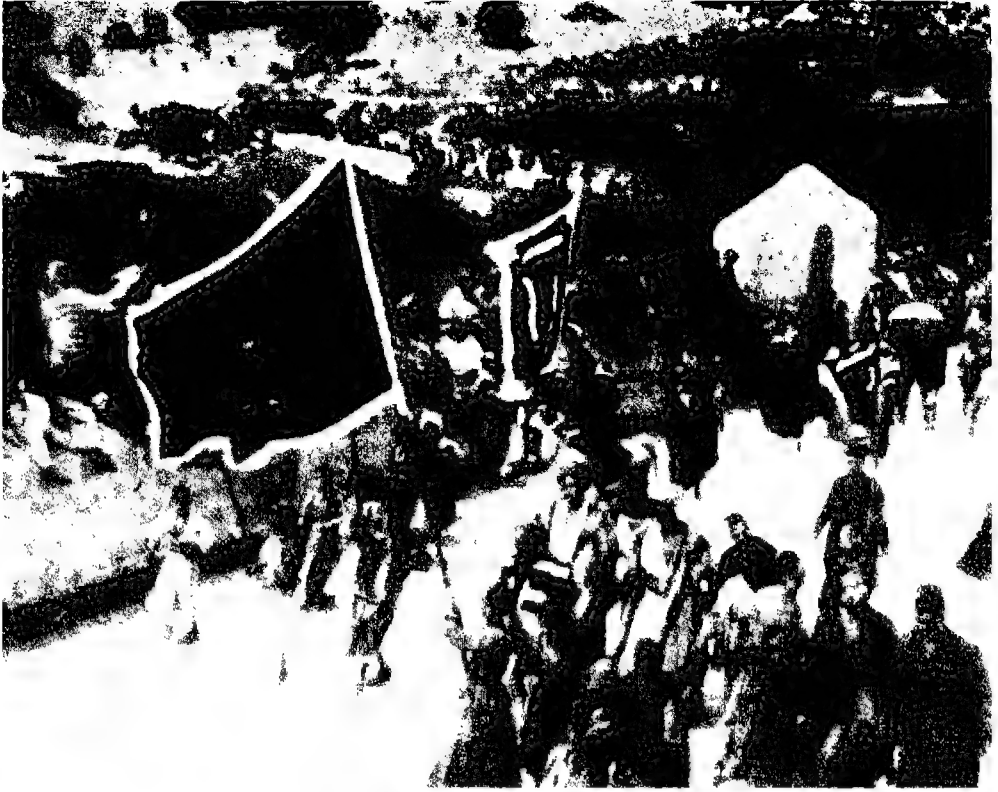
عيني كلب. لقد كان جشعاً وأحمق إلى حدّ ما، وهي علل من الصّعب تجنبها في حمية من الخبز الجاف، والأرز والزبد الفاسد؛ ولكن عندما وضعته في الوسط بين أعدائه الدمويين أبطأ في عمله وسار خلف بغله وحماره بهيئة منعزلة كسولة كالتّي أظهرها في شوارع بيروت. كان اسمه محمّداً. أمّا العضو الأخير من القافلة فقد كان الطّباخ - ميخائيل، وهو مواطن مسيحي من القدس. لم يكن قويّ الإيمان كثيراً، وكان قد سافر مع السيّد مارك سايكس Mark Sykes ونال منه الوصف التّالي: «فهو لا يعلم الكثير عن الطّبخ، باستثناء ما تعلّمه منّي عندما كان معي، ولكن لم يبدُ أنه مهتمّ أبداً فيما لو كان على قيد الحياة أو مقتولاً». وعندما أعدت تلك الكلمات على مسامع ميخائيل انتكس في نوبات من ضحك مكتوم، وتعاقدتُ معه في الحال. لم يكن سبياً كافياً ولكنّه لا بأس به مثل كثيرين غيره. لقد خدمني جيداً وفقاً لفلسفته في الحياة؛ ولكنّه كان رجلاً ضيّل الجسم متّقدّاً شديد الحساسية، مستعدّاً دوماً لمواجهة أيّة إهانة متوقّعة في منتصف الطّريق، مع تخيل للحدود التي لم أصل إليها أبداً خلال معرفتي به لمدة ثلاثة أشهر، ولسوء الحظّ كان قد تعلّم أشياء أخرى بالإضافة للطّبخ خلال السّنوات التي قضاها عندما غرق هو والسيّد سايكس Sykes معاً في حادث تحطّم سفينة في بحيرة وان Van.



بوابة القديس إسطفان في القدس

لقد كان أمراً عادياً أنه لم يكلف نفسه عناء إخباري بقصة المغامرة، على الرغم من أنني عندما ألمحت إليها أوماً برأسه وعلّق قائلاً: «لقد كنا قريبين من الموت كاقتراب شحاذ من الفقر، ولكن كما تعلمين سعادتك فإنّ الرّجل يموت مرّة واحدة فقط»، في حين أمطر أذنيّ بقصص السّائحين الذين أكّد أنهم لم يستطيعوا ولم يرغبوا بالسّفر من سوريا دون أن يثقوا بفنونه في الطهي. كانت زجاجة العرق عاتقه الدائم؛ وبعد محاولة كلّ التّظريّات الوقائيّة، المتعلّقة بمداهنة نتاجه انفصلت عنه على نحو مفاجئ على ساحل كيليكيا Cilician coast، دون إحساس بالنّدم أكثر من رغبة طبيعيّة ليختته كثيرة التوابل وفطائره المحلّاة الباردة.

كانت لدي رغبة شديدة في السّير وحدي عبر الطّريق القفر إلى أريحا Jericho، كما فعلت من قبل عندما كانت وجهتي باتّجاه الصّحراء، ولقد كان لميخائيل رأي آخر يمكن أن يتعارض مع وقاري، ولقد علمت بأنّه حتى صحبته المثرثرة لا يمكن أن تتسلّل عبر ذاك الطّريق المقفر. كنّا في السّاعة التّاسعة على سروج الخيول، نسير بوقار حول أسوار القدس، أسفل الوادي من جتسماني Gethsemane عابرين بستان الآلام Agony صاعدين جبل الزيتون. توقّف هنا لبرهة لأسترد الانطباع لحيميّة لا يمكن أن تُنسى، للمدينة المسوّرة على التّلة، رماديّة في منظر حجري رمادي أسفل السّماء المثقلّة بالغيوم، ولكنّها مُنارة بالأمل والرّغبة التي لا يمكن إطفائها لأجيال الحجاج. طموح بشري، الوصول الأعمى خارج الرّوح المقيّدة باتّجاه هدف حيث تتحقّق جميع الرّغبات وتجدر الرّوح سلاماً. أحاطت هذه الأشياء بالمدينة مثل هالة نصف متألّقة، نصف هزيلة، متألّقة بالدّموع وملطّخة بكثير من الأوهام. أدارت الرّياح الغربيّة حصاني وجعلته يعدو فوق حافة التّلة وينزل الطّريق الذي يخترق براري اليهوديّة Judaea.



موكب إسلامي يمرّ في غياض الرّبتون

يوجد عند سفح المنحدر الأول نبع «عين الشمس» كما يسمّيها العرب، ولكن يطلق عليها الحجاج المسيحيّون اسم «بئر الحواريّين». ومن التّادر أن تمرّ هناك في الشّتاء دون أن ترى بعض الفلاحين الرّوس يستريحون في طريقهم المجهّد الآتي من الأردن. يتدفّق عشرة آلاف منهم سنويّاً إلى الأرض المقدّسة، معظمهم رجال ونساء مستون قُتروا على أنفسهم وكرّسوا كلّ حياتهم ليجمعوا الثلاثين جنيهاً أو أكثر التي ستحملهم إلى القدس. يأتون من أقاصي الإمبراطوريّة الرّوسيّة على أقدامهم إلى البحر الأسود، حيث يركبون على سطح المركب في قوارب روسيّة صغيرة وقذرة. ولقد سافرت مع ثلاثمئة منهم من إزمير إلى يافا، وكنتُ المسافرة الوحيدة التي أخذت قُمرة.



حجّاج روس

كان الوقت منتصف الشتاء، وكان الطقس عاصفاً وبارداً لهؤلاء الذين ينامون على السطح، حتى ولو كانوا يرتدون معاطف من جلد الأغنام ويلبسون أحذية عالية. كان رفاق سفري قد جلبوا مؤنهم الخاصة معهم لحاجة اقتصادية: كتلة من خبز، قليل من الزيتون، بصل نيء، ومن ذلك كان يتألف طعامهم اليومي. كانوا يجتمعون صباحاً ومساءً في صلاة مقابل أيقونة معلقة على قادس مطبخ السفينة، ويرتفع صوت ابتهالاتهم إلى السماء ممزوجة مع ارتجاج النابض ورذاذ رشاش الماء. يصل الحجاج إلى القدس قبل عيد الميلاد ويبقون إلى ما بعد عيد الفصح حيث يمكنهم إشعال شموعهم من النار المقدسة التي تخرج من الضريح في صباح البعث. ويتجولون على الأقدام عبر جميع الأماكن المقدسة، مقيمين في فنادق كبيرة بُنيت لهم من قبل الحكومة الروسية. سمعت الكثير منهم بسبب التعرض للعوامل الجوية والتعب والمناخ غير المسالِف؛ لكن الموت في فلسطين يُعد أفضل الهبات التي يمكن أن تمنحها القدرة الإلهية، أن يرفد عظامهم بسلام في أرض الميعاد وتحلّق أرواحهم مباشرة إلى الجنة.

يمكنك أن تقابل هؤلاء المسافرين شديدي البساطة على كلّ طريق رئيسي، يمشون جهدين بصبر تحت الشمس المحرقة أو تحت أمطار الشتاء، مرتدين دائماً من فراء

بلادهم ويحملون في أيديهم أعواداً من قصب قيعان نهر الأردن، مما يضيف علامات الشفقة على منظر عام يلامس الكثير من مواضيع الشعر الحزين. لقد سمعت قصّة في القدس تعبّر عن حالهم أكثر من كتابة صفحات من الوصف. إنها تتحدّث عن رجل كان لص منازل وتمّ التقاطه متلبساً بالجرم وأُرسل إلى سيبيريا، حيث أمضى عدة سنوات في الأشغال الشاقّة. ولكن عندما انتهت مدّة عقوبته عاد إلى موطنه إلى أمّه المُستّة بقلب جديد، وسافر كلاهما إلى الأرض المقدّسة حيث يمكن له أن يكفّر عن خطاياّه. هنا وفي الفصل الذي يكون فيه الحجاج في القدس، فإنّ الرّاع من سوريا يحتشدون هناك ليخدعوا بساطتهم ويزعجوهم من أجل الصّدقات، وجاء أحد هؤلاء المتشرّدين إلى هذا الحاجّ الروسي وتوسّل إليه في الوقت الذي لم يعد لديه أيّ شيء ليعطيه. سخط السّوري من رفضه، وطرحه البقيّة على الأرض وجرحوه جراحاً بليغة كل على حدة حيث بقي في المستشفى لمُدّة ثلاثة أشهر. وعندما تعافى جاء قنصل بلاده إليه وقال: «لقد قبضنا على الرّجل الذي كاد أن يقتلك؛ وعليك أن تقدّم ادّعاءً ضده قبل أن تغادر»، لكنّ الحاجّ أجاب: «لا، دعه يذهب. فأنا أيضاً مجرم».



حجاج يتمّ تعميدهم في نهر الأردن

كان الطريق فيما وراء التبع خالياً، وعلى الرغم من أنني كنت أعرفه جيداً فقد فوجئت مرة أخرى بقفره الذي لا يصدق. حيث لا حياة، لا أزهار، ما عدا التسويقات الجرداء لأشواك السنة الماضية، والهضاب الجرداء والطريق الحجري. وكأن قفر جبال اليهود قد تغذى بالروح المتقدمة للإنسان. لقد مشى عليه أنبياء متجهمون يتوعدون بهلاك عالم لم يكونوا جزءاً منه ولم يفهموه؛ والوديان ممتلئة بالكهوف التي خبأتهم، ليس هذا فحسب، فالبعض منها مسكون حتى الآن بصنف من أناس جائعين ومتنسكين هزيلين متمسكين بعادات التقوى التي وجدت الفطرة السليمة أنه يصعب تكذيبها. وصلنا قبل الظهر إلى الخان في منتصف الطريق إلى أريحا، الذي تقول الأسطورة إنه المكان الذي قابل فيه السامري الصالح الرجل الذي سقط على جانب الطريق، ودخلت لتناول طعام الغداء بعيداً عن وصول الرياح العاصفة. كان ثلاثة من التجار الألمان يكتبون على بطاقات بريدية مصورة في غرفة الخان، ويتفقون مع صاحب الخان من أجل خناجر بدوية مزيفة. جلستُ واستمعت لحديثهم السوقي التافه - لقد كان آخر ما سمعته من كلام أوروبي لعدة أسابيع، ولم أجد أي سبب للأسف على الحضارة التي كنت أتركها. ينحدر الطريق شرق الخان، ويعبر مجرى ماء جاف كان مسرحاً للعديد من المآسي. فقد اعتاد بعض قطاع الطرق أن يتمددوا تحت الجرف ينتظرون أن ينهبوا الحجاج ويقتلوهم وهم يعبرون. وقبل خمس عشرة سنة كان طريق أريحا غير مأمون مثله مثل المنطقة التي تقع وراء الأردن الآن: امتد الأمان لعدة أميال شرقاً خلال العشر سنوات الأخيرة. وصلنا أخيراً إلى أعلى آخر تلة وشاهدنا وادي الأردن والبحر الميت، وخلفه المنحدرات الضبابية لمؤاب، وحدود الصحراء. كانت أريحا تمتد تحت أقدامنا، وهي قرية غير جميلة تتألف من فنادق متداعية وأكواخ يسكن فيها العرب الوحيدون الذين سيتعرف عليهم السائحون، وهم سلاوة متواضعة، مجموعة من أدنى السلم العرقي، نصف مولدين من عبيد زنوج. تركت حصاني مع سائسي البغال الذين كنا قد أخذناهم على المنحدر - «وفقك الله!» «الحمد لله!» «إذا كنت سعادتك بخير فنحن بخير» - ونزلوا أسفل التلة إلى القرية.

لكن لم يكن دخول أريحا كافياً لذلك اليوم الأول المشرق من الطريق. لقد تشوّقت بشدّة لترك السّائحين خلفي، وكذلك الفنادق والبطاقات البريدية المصوّرة. ساعتان إضافيتان ونصل شاطئ الأردن، وعند مقدّمة الجسر الخشبي الذي يؤدّي من الضّفة الغربيّة إلى الشّرقية حيث يمكن أن نخيم في مكان مستور تحت رواابي طينية وسط أجسامات من القصب والطرفاء (وهي شجرة نحيلة الأغصان)، توقّفنا برهة لشراء ذرة من أجل الجياد والبغال، وخرجنا مرة أخرى عبر المسار الضيّق للأرض المزروعة الممتدّة حول أريحا، وخارج الغور، وادي الأردن.



دير القرنفل فوق أريحا

يُعدّ طريق أريحا منعزلاً بما يكفي، ولكن لوادي الأردن مظهر من الوحشيّة هي شريرة غالباً. وإذا كان أنبياء العهد القديم قد قاموا بشجب من أنكرهم بعنف، كما فعلوا في بابل أو صور، فسيكون هذا أفضل برهان على قوّة بصيرتهم؛ ولكنهم كانوا صامتين، وعلى الخيال أن يعود إلى النوراء لرؤى متوهجة لبلدتي سدوم Sodom وعمورة Gomorrah، الأساطير المبهمة للخطيئة التي لازمت طفولتنا كما لازمت طفولة الشعوب السامية. خيم جو خانق ثقيل فوق هذا المستوى الأكثر انخفاضاً على سطح الأرض؛ وكانت الرّيح تهبّ بسرعة عبر قمم التّلة فوقنا في المناطق حيث يتنفس النّاس الهواء الطّبيعي، ولكن الوادي كان

راكداً ودون حياة مثل قعر بحر عميق. مررنا بسرعة عبر أجسام منخفضة من شجر سدر شائك، وهو عوسج القدس Spina Christi الذي يقل إن أغصانه تُجدل ويصنع منها تاج الشوك Crown of Thorns. وهناك نوعان من أغصان السدر تلك، التي يسميها العرب الزقوم والدوم. ويستخرجون من الزقوم زيتاً طيباً، ويحمل الدوم فاكهة صغيرة مثل تفاح برّي تصبح عندما تنضج بلون أحمر بني مغري المظهر. إنها من فاكهة البحر الميت جميلة المنظر وتترك على الشفاة مذاقاً رملياً مرّاً.

تضاءلت أشجار السدر واختفت، وإلى الأمام منا تمتد قطعة من طين قاس لا ينمو فيها أي شيء أخضر. كان أصفر اللون ملطخاً بملح سام رمادي أبيض، وغالباً لا تدرك العين بوضوح عداوته للحياة. وبينما كنا نسير هنا هطلت علينا دوامة من مطر غزير من العالم الأعلى. بدا البغالون شاحبي الوجه، واستطال حتى وجه ميخائيل، وذلك لوجود آبار الحُمَر (القطران) المذكورة في سفر التكوين The Slime Pits أمامنا، ولا يمكن لأي حصان أو بغل عبورها ما لم تكن جافة. استمر هطول الأمطار لبضع دقائق، ولكنها كانت كافية ليتحول طين السهل الجاف إلى ما يشبه الزبدة، وغاصت أقدام الخيول فيها حتى كواحلها، وعوى كلبى كُرت Kurt وهو يسحب أقدامه من الطين الأصفر الذي يشبه الغراء، وهكذا أتينا إلى آبار الحُمَر (القطران) Slime Pits المظهر الأقوى لتلك الأرض الغريبة. وعلى بعد ربع ميل إلى الغرب من الأردن - يصبح الحزام أكثر ضيقاً إلى الشرق من النهر - ويحوّل الطريق الناعم نفسه فجأة إلى سلسلة من ضفاف طينية منحدرّة تقاطعت بأخاديد ضيقة من فعل مياه الأمطار.



عبور النهر

والضفاف ليست عالية، فهي تقارب ثلاثين أو أربعين قدماً على الأكثر، ولكن ذراها حادة جداً والجوانب شديدة الانحدار حيث يتوجب على الرّحالة أن يجد طريقه عبرها وحولها بحذر أكبر. ولقد جعل المطر تلك المنحدرات زلقة مثل الزجاج، وكان من المستحيل حتّى أثناء السّير على الأقدام البقاء منتصباً. سقط حصاني وأنا أقوده؛ ولحسن الحظ فقد كان سقوطه على حافة صغيرة بين رايتين، وبفعل مرونة مدهشة استطاع إنقاذ نفسه. تنفّست الصّعداء شاكرة الله عندما رأيت قافلتني تظهر من آبار الحُمّر Slime Pits، وفيما لو استمرّت الأمطار بالهطول فقد كان من الممكن أن نُحبس هناك لعدّة ساعات، لأنّه لو سقط فارس إلى القاع من الحفر اللّزجة فعليه الانتظار هناك حتّى تجف.

كانت هناك حياة على طول ضفّة النّهر. اكتست الأرض بعشب نضر وزهر ربيع أصفر، وأظهرت الأعشاب الصّغيرة من أجسام الطّرفاء بعض الإشارات الباهتة للربيع. خبئ بجوادي على الجسر العظيم بجوانبه المعرّشة وسقفه الخشبي - القطعة الأكثر إثارة في فن العمارة في العالم، حيث أنّها بوّابة الصّحراء. لقد كان هناك المكان المكشوف كما أذكره، المغطى بطبقة رقيقة من التّربة، المحميّ بضفاف طيّنة عالية، كان فارغاً والحمد لله! وكان لدينا سبب للقلق عند هذا المرتفع.



الجسر على نهر الأردن

كانت الحكومة التُركيّة في ذلك الوقت ترسل كل الفرق التي أمكنها تجنيدها لقمع العصيان المسلّح في اليَمَن. كانت الأفواج من جنوب سوريا قد أرسلت سيراً نحو الأسفل إلى الجسر، ومنها إلى عَمّان، حيث أُرُكبت في قطار وأُرسلت على طول السكّة الحديدية إلى مكّة حيث كانت هناك بلدة مَعان الحدّ النهائي قرب البتراء⁽¹⁾. ومن مَعان كان عليهم القيام بسير رهيب عبر قفر رملي إلى رأس خليج العقبة. وقد هلك المئات من الرّجال وعدّة آلاف من الجمال قبل أن يصلوا إلى الخليج، ذلك لأنّه لا يوجد في ذاك الطريق إلّا ثلاثة أبار فحسب (حسب قول العرب)، وتقع إحدى هذه الآبار على بعد يقارب الميّلين من الطريق ولا يمكن أن يكتشفها من ليست له دراية بالمكان.

نصبنا الخيام، وربطنا الخيول، وأشعلنا ناراً كبيرة من أغصان شجر الطّرفاء والصفصاف. كانت اللّيلة رماديّة وساكنة؛ كانت هناك أمطار على التّلال، ولكن لا شيء عندنا. وكان المعدّل السنوي للهطول في وادي الأردن بضع إنشات. لم نكن لوحدنا تماماً إذ تفرض الحكومة التُركيّة رسماً ضئيلاً على من يعبر ذاهباً وعائداً عبر الجسر، وتحفظ هناك بموظف لهذا الهدف. إنه يعيش في كوخ من القصب عند بوّابة الجسر، ويشاركه في عزلة واحد أو اثنان من العرب الشّعث من الغور. ومن بينهم كان زنجي أشيب الشّعر، قام بجمع الحطب من أجل نارنا، ونظراً لخدماته فقد أمضى اللّيلة معنا. كان ذا روح مرحة واسمه مبروك⁽²⁾ Mabūk. رقص بفرح حول نار المخيم، غير أنّه لكونه مشوّهاً على نحو غير طبيعي بالنسبة لكائن إنساني. أخبرنا قصصاً عن الجند وكيف أتوا وهم في أسمال بالية، وتسقط أحذيتهم من أقدامهم على الرغم من أنّه كان لا يزال اليوم الأول فقط من مسيرهم، نصف جائعين، بائسين فقراء. اجتاز طابور (مكوّن من 900 رجل) في ذاك الصّباح وتمّ توقّع طابور آخر غداً. كنّا قد افتقدناهم. قال ميخائيل: «ما شاء الله! سعادتك محظوظة. فقد نجوت أولاً

(1) جرت العادة حتى اليوم تسمية هذه العاصمة النبطيّة العظيمة بصيغتها اليونانيّة: پترا. والمفترض أن نطلق عليها اسمها الحقيقي باللغة النبطيّة: سِلْع، التي تعني الصّخرة أصلاً وعنها تُرجمت التسمية اليونانيّة پترا Πετρα التي تعني الصّخرة.

(2) تكتب المؤلّفة الاسم بالإنكليزية: Mabuk، وتحت حرف k نقطة كدلالة على التّفخيم، أي قاف، ولكن ماذا يكون الاسم في هذه الحال؟ مَبُوق؟ أم مبروك كما كتبناه؟

من التلال الطينية ثم من الردفاء⁽¹⁾ Redifs». تمت مبروك: «الحمد لله!»، ومنذ ذلك اليوم اعتبر نجمي نجم الحظ. وسمعنا من مبروك الإشاعة الأولى للصحراء. كان كلامه دوماً عن ابن الرشيد⁽²⁾، الزعيم الشاب لقبيلة شمر، الذي ترك له عمه القوي محمد ميراثاً صعباً جداً من السيادة في وسط الجزيرة العربية. لم أسمع في السنتين الأوليين أي أخبار عن نجد - وعن التنافس بين ابن سعود، حاكم الرياض وابن الرشيد؟ إلى أين وصلت الحرب بينهما؟ كان مبروك قد سمع عدة شائعات؛ وقال الناس بأن ابن الرشيد كان في وضع صعب، ربما لأن الردفاء كانوا مرتبطين بنجد وليس باليمن، من يعلم؟ وكنا قد سمعنا بأن شيخاً من قبيلة الصخور Sukhur كان قد قُتل من قبل العجاردة Ajarmch فور عودة القبيلة من المراعي الشرقية.... لذا فقد انتقلت القصة عبر المستويات المألوفة للعداوات الدموية وتحميل الجمل، وإشاعات الصحراء - كدت أبكي من الفرح عند سماع ذلك مرة أخرى.



دير مار سابا في برية اليهودية

- (1) الردف في المصطلح العسكري للدولة العثمانية يعني المجند في قوات الاحتياط.
 (2) المقصود به عبد الأمير العزيز بن متعب بن عبد الله بن رشيد، سادس حكام إمارة آل الرشيد في حائل بين 1906 - 1897. تولى الحكم بعد وفاة عمه محمد بن عبد الله الرشيد، انذي لم يعقب ذكورا، وكان تزوج من ابنته نورة. قتل في مناخ روضة مهتا عام 1906.

كان هناك جلبة من اللهجات العربية حول نار مخيمي ذلك المساء، وبالتسبة لميخائيل فقد تكلم بلهجة القدس الدارجة، وهي لغة تفتقر للوقار، وتكلم حبيب بلهجة لبنانية بسرعة هائلة، وكان محمد يتشدد باللهجة البيروتية بإيقاعها الخالي من التعبير، في حين صدر من فم الزنجي شيء مما يقارب كلام البدو القوي والفخم. وقد شُبه الرجال أنفسهم من اختلاف اللهجات، والتفتوا إليّ فوراً وسألوني أيها الأصح. ولم أستطع إلا أن أقول: «الله أعلم! لأنه هو العليم»، واستقبل جوابي بضحكة القبول على الرغم من أنني أعترف بأنني قدّمته ببعض الرّيبة.

كان الفجر ساكناً ورمادياً. استيقظت قبل ساعة ونصف من الفجر حتّى أجهّز البغال لبدء الرحلة وهي القاعدة التي التزمناها، ولكننا كنّا في بعض الأحيان نستيقظ أبكر بعشر دقائق، وأحياناً للأسف متأخرين عشر دقائق. أمضيت الوقت بالتحدّث مع حارس الجسر، وهو مواطن من القدس. وقد أفضى إليّ بأسراره وأحزانه نتيجة تعاطفي معه، تحدّث عن الحيل الدنيئة التي اعتادت الحكومة العثمانية فعلها معه، والعبء الثقيل خلال حرّ الصيف. ومن ثمّ وبالتسبة للتّعويض! لا شيء في النهاية! كانت مكاسبه أكبر على أيّة حال أكثر ممّا صرّح به، لأنّي اكتشفت فيما بعد بأنّه أخذ مني ثلاثة قروش بدلاً من اثنين عن كل واحد من حيواناتي السبعة. من السهل أن تكون على علاقات ممتازة مع الشرقيين، وإذا كان لصداقتهم ثمن فإنه ثمن غالباً ضئيل. عبرنا نهر اليرموك⁽¹⁾ Rubicon مقابل ثلاثة قروش للشخص الواحد، وأخذنا الطريق الشمالي الذي يؤدّي إلى السّلط.

يتّجه الطريق الأوسط إلى حشبان⁽²⁾ Heshban، حيث يقيم الشيخ العظيم لكلّ عرب النلفاء، سلطان بن علي ذياب العدوان، وهو رجل ماهر بكلّ معنى الكلمة، ويتّجه الطريق الجنوبي إلى مأدبا في مؤاب. والجانب الشرقي من الغور أكثر خصوبة من الغربي. يتدفّق

(1) تطلق المؤلفة على النهر تسمية: رويكون، وهو اسم نهر معروف في إيطاليا.

(2) ترد التسمية في الكتاب بالإنكليزية: حشبان، وهذا بحسب اللفظ الكنعاني القديم، لكن الشين تنقلب في العربية كما هو معروف إلى سين.

ماء غزير من التلال الجميلة من عجلون ليحوّل السهل إلى بستان، ولكنّ الكميّة غير كافية لتُخترن، ويكتفي عرب من قبائل العدوان بزراعة كمّيّات قليلة من الدّرة، ولم يأتِ أوان الإزهار بعد. وعند نهاية مارس يصبح الجانب الشرقي من الغور بساطاً من أزهار جميلة متنوّعة، تبقى لمُدّة شهر واحد فقط في حرارة الوادي الشّديدة، وفي الحقيقة فهو شهر ترى فيه التّباتات خلال مرحلة التبرعم والإزهار والتضج. أرانا عربي أشعث الطريق، كان قد نزل لينضمّ للرّدفاء Redifs، وكان قد تمّ شراؤه كشخص بديل بسعر خمسين ناپوليوناً (ليرة ذهبية فرنسيّة) من قبل ثري من سكّان السلط. وعندما وصل الجسر اكتشف أنّه تأخر جدّاً، فقد اجتاز فوجه قبل يومين. شعر بالأسف، فمن الممكن أنّه كان يريد السير مباشرة إلى الحرب (علاوة على ذلك، فأنا أتصوّر أنّ عليه إعادة خمسين ليرة إلى أصحابها). ولكن ابنته ستكون سعيدة، حيث أنّها بكّت عندما رآته يذهب. وقف ليخلّص أحد خفيّه الجلديين من الطين.



حائط المبكى في القدس

قال وهو يلحق بي مرّة أخرى: «في السّنة القادمة، سوف أسافر إلى أميركا إن شاء الله». نظرت مندهشة إلى شخص نصف عارٍ، وقد خرج حذاؤه من قدميه الحافيتين، وانزلت

العبادة الممزّقة عن أكتافه، وغطاء رأسه الصّحراوي وعقاله المصنوع من وبر الجمال.

سألته: «هل بإمكانك تحدّث الإنكليزية؟».

أجاب بهدوء: «لا، ولكن عليّ توفير تكاليف الرّحلة، والله لا يوجد هنا أيّ طائل من العمل».

سألته ماذا سيفعل عندما سيصل إلى الولايات المتّحدة.

أجاب: «أشتري وأبيع، وعندما أوّفر مبلغ مئتي ليرة سأعود».

يمكن سماع القصّة ذاتها في جميع أنحاء سوريا؛ يهاجر المئات خارج البلاد كلّ سنة، حيث يجدون في أيّ مكان يقيمون فيه بعضاً من أهل بلدتهم فيمدّون لهم يد المساعدة. يتجولون في الطّرق ببضائع رخيصة، وينامون تحت الجسور، ويقتاتون على طعام يأبى أيّ مواطن حرّ النظر إليه، وعندما يوفّرون مبلغ مئتي ليرة تقريباً، يعودون رجالاً أغنياء من وجهة نظر أهل قريتهم. أما في شرق الأردن فإنّ الهجرة الجماعيّة ليست كبيرة جدّاً، وذات مرّة في جبال حوران عندما توقّفتُ لأسأل عن الطّريق شاهدتُ درزيّاً، فأجابني بلهجة أميركيّة واضحة جدّاً. كتمتُ إعجابي عندما أخبرني قصّته، وسألته عند نهايتها إذا كان سيعود مرّة أخرى. نظر حوله إلى الحجارة، وأكواخ القرية، ثم ركع على ركبتيه في الطّين والثلج الذّائب وأجاب: «ثقي تماماً!» وعندما التفت بعيداً أجاب مبتهجاً من خلفي «إلى اللقاء!».



يهوديتان من بخارى

بعد أن مشينا لمدة ساعتين دخلنا التلال عند وادٍ متعرج سمّاه صديقي وادي الحسنية Wād el Hassaniyyeh، وفقاً لاسم القبيلة التي تحمل الاسم ذاته. كان مليئاً بشقائق التعمان ونبات الرّتم أبيض اللون (يسمّيه العرب rattam)، وبخور مريم، والمكحلة الياقوتية الحدقية وأشجار لوز برية. وبالنسبة للنباتات التي لا استخدام لها، مهما تكن جميلة، فليس لها اسم بالعربية؛ فهي جميعها حشيش؛ في حين أن أصغر الخضراوات المستخدمة معروفة ومميّزة في كلامهم. بدأ الطريق يرتفع تدريجياً، وكان مجرد طريق مبطن للحركة. وفي الحال وقبل أن ندخل الضباب الذي غطّى قمة التلة رأينا البحر الميت أسفل ممّا إلى الجنوب، يمتدّ تحت السماء الرمادية مثل قطعة كبيرة من مرآة غير صافية. وصلنا السلط عند الساعة الرابعة في جوّ جبلي حقيقي، رطوبة وضباب متحرّك. فضلاً عن ذلك كانت الأرض قرب القرية عبارة عن أرض سبخة، بسبب المطر الذي كان قد هطل هنا، والذي انهمر علينا في الليلة الماضية.

تردّدت في أن أخيم إلى أن استطعت إيجاد مأوى أكثر جفافاً. كان الأمر الأوّل هو أن نبحث عن بيت حبيب أفندي فارس Fāris، الذي أتيت إلى السلط لرؤيته، على الرّغم من أنّي لا أعرفه. وكان طلبي له (لأنّي اعتمدت بشكل كامل على مساعدته لمتابعة رحلتي) بسبب هذه الحكمة: لقد كان متزوجاً بانه مبشّر محليّ في حيفا، وهو رجل مسنّ نبيل وصديق حميم لي. كانت أورفة Urfa على الفرات موئل العائلة⁽¹⁾ Stammplatz، وكان أبو نمرود قد عاش طويلاً في السلط وعرف الصّحراء، وأمضى الجزء الأكبر من السّاعات التي كان من المفترض أن يعلّمني فيها قواعد اللّغة العربيّة في الاستماع إلى قصص العرب وابنه نمرود، الذي عمل مع حبيب فارس، والذي كان اسمه معلوماً لكلّ عرب البلقاء.

قال أبو نمرود: «إذا ما رغبت في أي وقت بالدّخول هناك، اذهبي إلى نمرود». وبناءً عليه ذهبت إلى نمرود.

وبعد استفسار قصير دلّنا على منزل حبيب فارس. استقبلت بحفاوة، كان حبيب في

(1) تستخدم المؤلفة العبارة بالألمانية «شتامپلاتس»، وتعني: الموئل، المركز.

الخارج، بينما كان نمرود مسافراً (هل تخلى عني حظي؟)، ولكن ألا يمكنني الدخول والاستراحة؟ كان المنزل صغيراً ومن الأطفال كثرة غامرة، وبينما كنت أفكر فيما إذا كانت الأرض المغمورة بالماء في الخارج لن تقدّم مسكناً أفضل، ظهر هناك رجل مُسنّ مهيب بكامل الثياب العربية، أخذ بلجام جوادي معلناً بأن عليه هو وليس أحد غيره أن يؤويني، وهكذا قادني بعيداً. تركت جوادي في الخان، وتسَلّقت سلماً طويلاً موحلاً ودخلت فناء مرصوفاً بالحجارة. أسرع يوسف أفندي إلى الدّاخل وفتح باب حجرة الضيوف، كانت الأرض والأريكة مغطاة بسجّاد سميك، والتّوافذ زجاجيّة (على الرّغم من أنّ الكثير من الألواح الرّجائيّة كانت مكسورة). كان هناك خزانة أوروپيّة ملتصقة بالجدار: هذا أكثر من جيّد. وفي دقيقة كنت قد جلست، وأنا أشرب قهوة يوسف وآكل كعكي الخاص.

كان يوسف أفندي سكر Yusef Effendi Sukkar (حيّاه الله!) مسيحيّاً، وأغنى سكّان السّلط. وهو رجل مقتضب في الكلام، ولكن لا يوازيه بكرم ضيافته أحد، فقد جهّز لي عشاءً ممتازاً، وعندما انتهيت قدّم البقايا لميخائيل. وبعد أن قدّم لي حاجاتي الماديّة لم يستطع أو لم يرد فعل أيّ شيء لتهدئة قلقي الفكري حول جولتي الأبعد. ولحسن الحظ وصل في تلك اللّحظة حبيب فارس وأخت زوجته پولينا Paulina، وهي امرأة مسنّة مطلّعة، وعدّة أشخاص معروفين، وأسرع الجميع لينالوا شرف قضاء أمسية في الحديث معي. (لا وأيمُ الله! فقد كان الشّرف لي!) جلسنا من أجل شرب القهوة، القهوة العربيّة المرّة، والتي هي أطيب من أيّ طعم آخر. يُقدّم الفنجان مع كلمة «تفضّل»، وتعيده فارغاً متمتماً «عشت!» وأنت ترتشف رشفة، «صحتين»، وتردّ «على قلبك!»، وبعد أن دارت الفناجين مرة أو مرتين وتمّ تبادل جميع العبارات المؤدّبة الضّروريّة دخلت في موضوع عمل اللّيلة.



كاهنان حبشيان

كيف يمكنني الوصول إلى جبل الدّروز؟ ربما ترفض الحكومة إعطائي الإذن بذلك، وهناك في عمّان مركز عسكري على مدخل طريق الصّحراء؛ وقد عرفوني في بصرى، فقد أفلتُ من بين أصابعهم قبل خمس سنوات، وهي حيلة سيكون من الصعب لعبها مرّة ثانية في المكان نفسه. واهتمّ حبيب فارس بالموضوع، واتّفقنا أخيراً على خطة فيما بيننا. سوف يرسلني غداً إلى طنّيب Tncib، إلى أرضه المزروعة بالحبوب عند حافة الصّحراء؛ وهناك سوف أجد نمرود، الذي سيرسل رسالة إلى إحدى القبائل الكبيرة وسأتمكّن مع مرافق منهم من السير بأمان إلى التّلال. جلس ابنا يوسف الصّغيران يستمعان مذهولين، وفي نهاية الحديث أحضر واحد منهما لي قصاصة ورق لإعلان عليها خريطة أميركا. وعندها أريتهم خرائطي وأخبرتهم كم العالم كبير وكم هو مكان جميل، وهكذا حتّى انفضّ الجمع عند الساعة العاشرة، وبدأ يوسف يمدّ الأغطية من أجل سريري.

لم أكن قد رأيت مضيفتي بعد. كانت امرأة ذات جمال استثنائي، طويلة وشاحبة،

وكان وجهها بيضاوياً ممتلئاً، وعيناها الرائعتان مثل نجمتين. كانت تلبس ثياباً عربية، عبارة عن ثوب ضيق بلون أزرق غامق يصطدم بكاحليها وهي تمشي، وربطت حجاباً قطنياً أزرق اللون حول جبهتها مع منديل آخر سقط إلى الخلف على ظهرها حتى الأرض تقريباً. وقد وُشم كل من ذقنها وعنقها بوشم جميل أزرق اللون وفقاً لعادة النساء البدويات. أحضرت لي ماءً، وصبتّه على يديّ، وتنقلت في الغرفة بهدوء وجلال ومهابة، وعندما أنهت خدماتها اختفت بالهدوء ذاته الذي ظهرت به ولم أرها بعد ذلك. يقول الشاعر الذي كان مسجوناً في مكة:

أَلَمْتُ فحَيْثُ نَمَ قَامْتُ فودَعْتُ فلَمَّا تولَّتْ كادتِ النَّفْسُ تزهقُ

لا أحد يرى زوجة يوسف. فعلى الرغم من أنّه كان مسيحياً، فهو يحتفظ بها متوحدة على نحو صارم أكثر من أية امرأة مسلمة؛ ورغم كلّ شيء ربّما يكون على حق. ضرب المطر على النوافذ، واستلقيت على البطائن وهمسات ميخائيل المندهشة في أذني: «ما شاء الله، سعادتك محظوظة».



الفصل الثاني

تُعد قرية السَّلط مجتمعاً مزدهراً متألّفاً يتألّف ممّا يزيد عن عشرة آلاف نسمة، نصفهم من المسيحيّين. وهي تمتدّ في منطقة غنيّة مشهورة بالعنب والمشمش، وتُذكر حدائقها بالثناء منذ القرن الرابع عشر من قِبَل عالم الجغرافيا العربيّ أبي الفداء. يوجد فيها قلعة متهدّمة، لكني لا أعلم تاريخها، على التلّة فوق أسطح المنازل ذات العناقيد. والعرف السائد بين السكّان هو أن البلدة قديمة جداً؛ وفي الواقع، يصرّح المسيحيّون بأنّه كان يوجد في السَّلط أولى الطوائف المسيحيّة، وما تزال هناك أيضاً أسطورة تقول بأنّ المسيح ألقى موعظته الأولى هنا. وعلى الرّغم من أنّ شجر المشمش لم يثمر أيّ شيء حتّى الآن، فقد كانت أغصان الوادي العارية تبدي جوّاً من ابتسامة غنيّة وأنا أسير عبرها مع حبيب فارس، الذي كان قد امتطى فرسه كي يدلّني على الطريق. كانت لديه حصّته من بساتين المشمش والكروم، وابتسم بلطف كرجل محترم وأنا أمتدحها. ومن يستطيع ألاّ يتسم في صباح كهذا؟ أشرقّت الشّمس، وتألّقت الأرض بالصّقيع، واحتوى الهواء شفافيّة مذهلة لا تأتي إلّا في يوم شتوي متألّق بعد المطر.

لم يكن مجرّد شعور من الودّ ذاك الذي ألهب كلماتي؛ ولكن يُعتبر مسيحيو السَّلط ومادبا أذكاء ومن عرق مجدّد، ويستحقّون المديح. وخلال السّنوات الخمس منذ أن قمت بزيارة تلك المنطقة قاموا بدفع حدود الأماكن المزروعة إلى الأمام على مسافة ساعتين على ظهر الجواد نحو الشرق، وأثبتوا قيمة الأرض على نحو قاطع بحيث أنه عندما مُدّت سكة حديد الحج عبرها وضع السُّلطان يده على طريق عظيم يمتدّ جنوباً

إلى معان، قاصداً تحويلها إلى أراضي دولة زراعية. وستمُنحه هو وقاطنيها ثروة كبيرة، فعلى الرغم من كونه حاكماً رديئاً، فهو إقطاعي جيد.

بعد مسيرة نصف ساعة من السَّط، تركني حبيب، وعهد بي إلى عامله الزراعي يوسف، وهو رجل قويّ البنية مشى سريعاً بجانبني حاملاً هراوته الخشبية (يستخدمها العرب قنوة Gunwa) على كتفه. سافرنا عبر وديان واسعة، لا شجر فيها، غير مسكونة، وغير مزروعة إلى حدّ ما، حول رأس سهل البلقاء Belka، واجتازنا سهل وادي السير Wady Sir المفتوح، نحو الأسفل حيث يمكن للشخص أن يسير عبر أشجار البلوط طوال الطريق حتّى الغور. ويمكن أن يكون هناك أشجار على التلال أيضاً فيما لو سمح لها الفخامون بالنمو - مررنا بعدة أجمات قزمة من البلوط والزعرور - ولم أرغب بأيّ تغيير في الأرض الفاتنة شرقي الأردن. وبعد جيل أو اثنين من الآن سوف تُزرع بالحبوب وتتناثر فوقها القرى، وسوف تدير مياه وادي السير دواليب الطحن، وربما يكون هناك طرقات: الحمد لله! فلن أكون هناك لأرى ذلك. ففي زمني ستبقى هذه التجود تلك المنطقة السارة التي يشير إليها عمر الخيام بقوله: «الطريق العشبي الذي يفصل الصحراء عن الأرض المزروعة»؛ وستبقى فارغة باستثناء راع تائه يقف قرب قطيعه ومعه بندقيّة طويلة؛ وعندما أقابل فارساً فذاً يسير بجواده فوق تلك التلال وأسأله من أين أتى، سيحجب دوماً: «الله يوسّع عليك! من عند العرب».



عربي من مجموعة حراس العُدوان

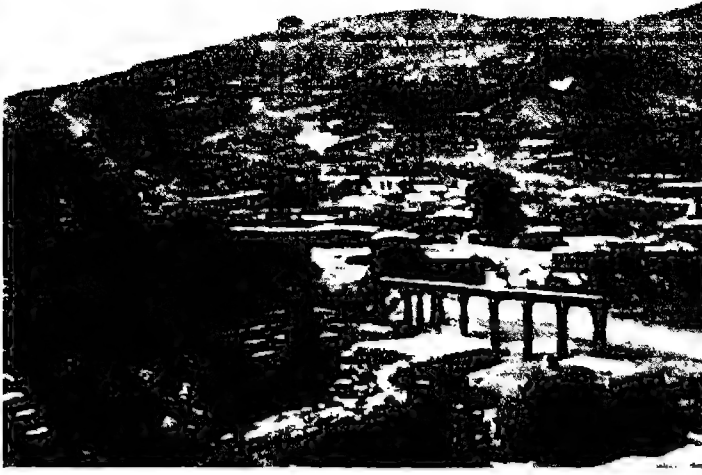
كان هذا ما كنا ذاهبين إليه، إلى العرب. فهناك في الصحراء لا يوجد بدو، وقاطنو الخيام كلهم عرب (بايقاع جميل من البلعوم)، ولا تُستخدم كلمة خيام ولكن بيوت - «بيوت من شعر» يقولونها إذا اقتضى الأمر بعض الشرح، ولكن يكتفون عادة بـ «بيوت» فقط باستخفاف متعال لأي دلالة أخرى لكلمة تحمل معنى بيت سقفه من شعر ماعز أسود. ومن الممكن أن تسمّى عربياً حتى لو كنت تسكن بين الجدران. يُصنّف سكّان السلط بين قبائل البلقاء مع العبادي Abadeh والدّعة Da'ja والحسّنية Hassaniyyeh وغيرها الكثير التي تشكّل قبيلة العدوان العظمى. ويتنازع الحكّام الأقوياء السيادة هنا على الصحراء السّوريّة، وهم بنو صخر Beni Sakhr وعِزّة Anazeh. وتوجد صداقة تقليديّة بين الصّخور وقبائل البلقاء ولكن تفسّرها حوادث مؤسفة، ربّما كان ذلك هو السّبب الذي جعلني أسمع في تلك الأجزاء بأنّ عِزّة كانت الأكثر عدداً، ولكن الأقلّ تميّزاً بالشّجاعة بين القبيلتين. وأنا على معرفة شخصيّة مقرونة بالاحترام مع أحد أبناء طلال الفايز زعيم قبيلة بني صخر كلّها. وقد التقيتُ به قبل خمس سنوات في هذه السّهول بالذّات، بعد شهر من الفصل الذي تنتقل فيه قبيلته نحو الأردن خارج المراعي الشّرقية الحارّة.



مضارب عند البحر الميت

كنت أسير على جوادي يرافقني ضابط چركسي من مآدبا إلى المشتى Mshitta - وكان ذلك قبل أن يقوم الألمان بقطع الواجهة المنحوتة من ذلك المبنى الجميل. كان السهل مغطى بالقطيع والخيام السوداء لقبيلة الصّخور، وعندما سرنا بينهم أسرع باعتراضنا ثلاثة فرسان، سود الحواجب، مسلّحون حتى أسنانهم، بملاحم متوّعة. ألقوا علينا التّحية من بعيد، ولكن عندما رأوا الجندي استداروا وعادوا ببطء. ضحك الجركسي وقال: «كان ذاك الشيخ فايز بن طلال. مثل الأغنام والله! مثل الأغنام عندما تقابل واحداً منا». أنا لا أعرف غنزة وذلك بسبب أن إقامتهم المعتادة في الشتاء تكون أقرب إلى الفرات ولكن مع اختلافهم مع الصّخور فأنا أميل إلى أن منافسيهم هم الأرستقراطيون الأصليون في الصّحراء. وتتمتع عائلتهم الحاكمة، بنو الشّعلان، باسم وجاهٍ محترمين، وخيولهم هي الأفضل في كل منطقة الجزيرة العربيّة، ومن أجل ذلك، حتى شمّر، وأتباع ابن الرّشيد، يقصدونهم ليحسنوا من نسل خيولهم.

ومن التّجود الوعرة التي تنتصب بأعلى الغور، دخلنا أرضاً متموّجة قليلاً وفيها عدة أماكن صغيرة مخزّبة مبعثرة عليها. كانت هناك واحدة عند رأس وادي السّير Wady Sir وقبل أن نصل إليه ربع ساعة كنا قد رأينا مقداراً كبيراً من الأساسات وصهريجاً كبيراً، يسمّيه العرب بركة أم العمود. قال يوسف إنّ اسمه يعود إلى عمود واقف في منتصف البركة، وهو محاط بالماء؛ وقام عربي بإطلاق النّار عليه وكسره، وتقع أجزاءه المتكسّرة في قعر البركة. والتّل المجاور لها الذي يحمل اسم عمره مغطى بالخرائب، وإلى مكان أبعد عند يادودة هناك أضرحة منحوتة الحجارة وتوابيت حجرية تمتدّ على حافة الصّهرج. وانتشرت في جميع مشارف الصّحراء بقايا أثرية مشابهة من ماضٍ كثيف السّكان، بقرى من القرنين الخامس والسادس عندما كانت مآدبا مدينة مسيحيّة غنيّة ومزدهرة، على الرّغم من أنّه، وبالتّأكيد، لا يزال هناك بعض البقايا التي تعود ربّما إلى ما قبل الرّومان.

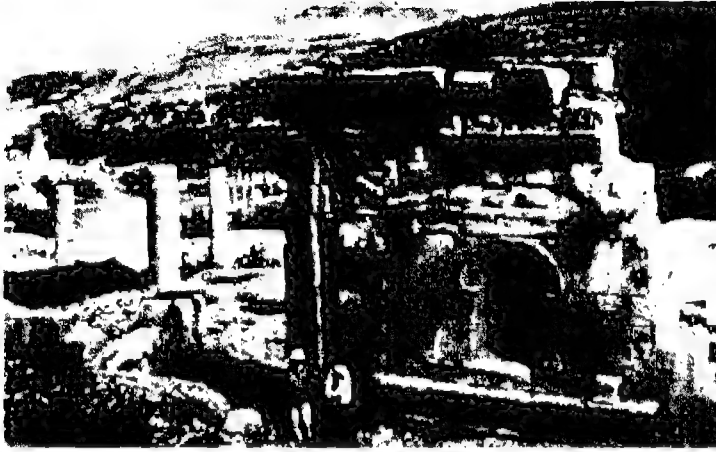


المسرح في عمّان

وقد سُكنت يادودة ذات القبور من قبل أحد مسيحيي السَّلط، ومن أعظم زارعي القمح في تلك الأماكن، والذي عاش بخشونة في بيت ريفي بُني على قمة التل؛ وهو أيضاً أحد الوافدين الجدد الفعّالين الذين انهمكوا في توسيع أطراف مناطق الزراعة. ومن هنا غادرنا المدينة المتموّجة وانتقلنا إلى حوافّ سهل غير محدود، أخضر اللون بعشب قليل، تتخلّله تلة مستديرة أو ظهر جرف منخفض - ومن ثمّ يمتدّ السهل مرّة أخرى، بشكل مريح للعين، لا يدعو إلى الملل أبداً، وهو ينحدر تحت أشعة غروب شمس الشتاء السّاحرة، ووديان متعرّجة بليّن مغطّاة بالضباب، ومنحدرات مرتفعة يرفق لتحتضن ضوء الشّمس، وفوقها جميعاً قبة السّماء التي تقنطر الصّحراء كما تقنطر سحر.

كانت الزّاوية الأولى تسمّى طنب Tneib، وقد وصلنا إليها بعد سير تسع ساعات، عند الساعة الخامسة والتّصف، والشّمس تغيب، ونصبنا الخيام على المنحدر الجنوبي. كانت التّلة مليئة بالخرائب، جدران منخفضة من الحجارة المنحوتة امتدّت من دون ملاط، أحواض من صخور مقطّعة، خصّص بعضها أصلاً من دون شك من

أجل الحبوب وليس من أجل الماء، وتُستخدم لهذا الغرض في الوقت الحالي، وبركة مفتوحة مليئة بالتراب. كان نمرود قد ذهب لزيارة أرض زراعية مجاورة، ولكن أحد رجاله قام بالذهاب لإخباره عن وصولي وعاد عند الساعة العاشرة تحت ضوء النجوم الجليدي، مع الكثير من تأكيدات السرور والسلامة بأن أمنياتي كانت سهلة التنفيذ. لذا ذهبْتُ لأنام متلغفة بصمت الصحراء البارد، واستيقظت في اليوم التالي لعالم متألق من أشعة الشمس والآمال المشرقة.



بوابة في عمان

كان أول شيء ينبغي فعله هو أن نرسل رسولا إلى العرب. وبعد مشاورة، قُرّر بأن الدّعة⁽¹⁾ Da'ja، وهي قبيلة من البلقاء، هي التي ستكون الأقرب إلينا والخيار الأفضل للاتصال، وقد أرسل إلى مخيمهم رسول. أمضينا فترة الصباح نتفحص الرّابية ونشاهد مجموعة من قطع نقود نحاسية خرجت بفعل محراث نمرود - كانت كلها

(1) الدّعة من تحالف عشائر البلقاء، من جذمي قحطان وعدنان، والدّعة الأصليون يرجعون بنسبهم إلى جذام من قحطان، وتتألف من ثلاث فرق رئيسية هي: الرّشيدة، والشّبيكات، والخصيلات. وتقع ديرتها في محيط مدينة عمان وتمتد شرقاً حتى الأزرق، ويحدها من الشمال أراضي قبيلة بني حسن التي ستذكرها المؤلفة مراراً. والنخوة العامة لعشائر الدّعة: عيال الامنيات.

رومانية، وتظهر واحدة منها على نحو مبهم ملامح قسطنطين، وكان بعضها أقدم ولكن لا توجد ولا واحدة من الزمن البيزنطي المتأخر، ولا من أيام الحروب الصليبية؛ وبقدر ما كانت العملات برهاناً فإن طينب كانت قد طمرت منذ زمن الاجتياح العربي.

ولقد اكتشف نمرود المقبرة الكبيرة، ولكن لم يكن هناك ما يمكن إيجاده في القبور، التي كانت قد نهبت على الأرجح قبل قرون. كانت منحوتة بالحجارة وبأشياء تشبه صهريجاً. وهناك قوسان من الصخر الأصم مع فسحات بينها لمدخل ضيق على سطح الأرض، وبعض الزيادات الثابتة على الجدران الجانبية، تشكّل مواطئ أقدام هؤلاء الذين عليهم التزول، تجاوبت تمتد مثل الرفوف حول الحجرات وتصفّ الواحدة فوق الأخرى، وهكذا كان مظهرها. وباتجاه أسفل الزاوية على الجانب الجنوبي كانت هناك أساسات بناء وربما كان آثار كنيسة. ولكن كانت تلك نتائج (مكتشفات) هزيلة ليوم من الاستكشاف.

سرنا في شمس بعد الظهر الذهبية لمدة ساعتين إلى الشمال في وادٍ عريض يقع بين حرفين منخفضين. كانت هناك خرائب تبعثرت على مسافات حول حافته، وإلى الشرق كانت توجد بعض الجدران المهذمة تقف في وسط الوادي - ودعا نمرود هذا الموضع، قصير السهل Kuseir es Sahl، أي حصن السهل الصغير. كان هدفنا مجموعة من الأبنية عند النهاية الغربية، هي خريبة السوق Khureibet es Suk. أتينا أولاً إلى صرح بقياس (41 قدماً في 39 قدماً وثمانية إنشات، وكان الجانب الأطول يمتد من الشرق إلى الغرب) مدفون إلى نصفه في الأرض. أشار تابوتان حجريان في الخارج إلى أنّ المكان كان مقبرة. كان الجدار الغربيّ مخترقاً بمدخل مقنطر، وكانت القنطرة قد زينت بحلية معمارية مسطحة، ويضيق الجدار فوق مستوى القنطرة بسبب امتداد ارتداد جدار صغير، وطبقتين فوق إفريز منحوت يمتد حول البناء.

وعلى بُعد مئتي ياردة غرب القصر أو القلعة (يسمي العرب معظم الأطلال إما قلعة أو دير) يوجد معبد مخرب. ومن الجليّ أنّه تحوّل في بعض الأزمنة إلى استخدامات أخرى أكثر من تلك التي بُني من أجلها، لأنّه كانت هناك جدران محطمة حول صفين

من سبعة أعمدة، وجدران متصالبة يتعدّر تعليلها باتجاه النّهاية الغربيّة لصفوف الأعمدة. بدا أنه كانت هناك ساحتان في الخلف، ولا تزال تمتدّ في اتجاه الغرب تركيبة من أساسات مخزّبة. كان المدخل نحو الشّرق، زُيّنت دعاماته بنقوش جميلة، قطع صغيرة مستطيلة (عصابة رأس)، وبلميط (نوع من النّخل قصير مروحي السّعف)، وقطعة مستطيلة أخرى مسطّحة، ونتوء مستدير معمول على شكل ورق عنب، وخرزة وبكرة، وبيضة وسهم مُرَيّش وبلميطة أخرى على السّيمة (cyma)، كانت جميعها تشبه إلى حدّ بعيد جداً الآثار في تدمر- ولا يمكن محاكاة المخزّمات الحجريّة في المشتّى Mshitta إلا بصعوبة، وبالإضافة إلى ذلك فهي تمنح شعوراً أكثر اتزاناً، وقريباً بشكل أكبر للأشكال التّقليديّة، أكثر من تلك الموجودة هناك.



معبد خربة السّوق

وإلى الشمال من المعبد وعلى قمة أرض مرتفعة قليلاً، كانت هناك خربة أخرى وثبت أنها مقبرة أخرى. إنه مبنى مستطيل الشكل، بُني من حجارة كبيرة رُصفت فوق بعضها من دون ملاط، ويمتد عند الزاوية الجنوبية الشرقية درج إلى ما يشبه حجرة انتظار، على مستوى سطح الأرض عند الجانب الشرقي بسبب انحدار التلة. كان هناك عمود يرتكز على الجانب الخارجي لحجرة الانتظار هذه، وربما هو أثر لصف الأعمدة التي زينت واجهة المبنى الشرقيّة. وضعت ستة توابيت حجرية بالطول، اثنان على طول كل جدار من الجدران الباقية، شمالاً وجنوباً وغرباً. وتمتد إلى الأسفل من قاعدة الأعمدة في جانبي الدرج حلية معمارية تتألف من نتوء مستدير واضح بين قطعتين مستطيلتين، وتظهر التزيينات ذاتها على الجانب الداخلي من التابوت. ترتفع واجهة دعامة الحائط على الجانب الجنوبي في شكلين، ومن ناحية أخرى فإنّ البناء كله كان بسيطاً تماماً، على الرغم من بعض الأجزاء المبعثرة في الجوار على العشب وقد نُقشت على شكل ورق عنب متدل. تعيد هذه المقبرة إلى الأذهان نموذج المعبد الهرمي الشائع في شمال سوريا؛ ولا أتذكر أي مثال آخر له بعيداً في الجنوب. ربما كان يشبه الأثر الجميل مع الواجهة المعمّدة والذي يعتبر أحد مواضع اعتزاز الدانا Dana الجنوبية، وربما كانت القطع من أوراق العنب جزءاً من السطح المعمّد.



ضريح في خربة السّوق

عندما عدتُ إلى مخيّمي قبل الغروب بقليل ، علمت بأن الصّبّي الذي كنّا قد أرسلناه في الصّباح تلكاً في الطّريق ، وذعرت عندما تأخّر الوقت ، وعاد دون أن يتمّ مهمّته . كان هذا شيئاً مزعجاً إلى حدّ بعيد ، ولكن لم يكن هناك أي شيء يقارن مع تقلّبات الطّقس في اليوم التالي . استيقظت لأستكشف السّهل العظيم المغطّى بالضّباب والمطر . هبّت علينا طوال اليوم رياح جنوبيّة ، والعاصفة تضرب فوق جدران خيمتنا القماشية . وفي المساء أحضر نمرود أخباراً بأنّ كهفه قد غزاه الضّيوف . كان هناك بعض الخيام للصّخور على بعد ميل أو اثنين منّا (وكان معظم أفراد القبيلة لا يزالون بعيدين في الشّرق ، حيث المناخ الشّتوي أقلّ قسوة) . كانت أمطار اليوم غزيرة جدّاً ، بحيث لا يمكن إقامة مساكن للرّجال ، فامتطوا جيادهم وساروا إلى طنّيب ، تاركين نساءهم وأطفالهم ليغيّروا أماكنهم بأنفسهم خلال اللّيل . تجاذب الجمع الحديث بعد يوم طويل مبتلّ ، فانضممتُ إليهم .

يقع كهف نمرود بعيداً داخل الهضبة ، حيث يمكن أن يصل إلى منتصف تلة طنّيب Tneib . كانت الحجرة الأولى الكبيرة طبيعيّة على نحو بيّن ، إلّا فيما يتعلّق بأماكن التّوم المنخفضة ومعالف الماشية التي كانت محفورة حول الجدران . يقود ممّر صغير منحوت في الصّخر إلى غرفة أصغر ، ويوجد أيضاً غرف أخرى في الخلف استخدمتهما بثقة . كان للهواء الحارّ الفاسد والأسراب التي لا تُحصى من الدّباب دورٌ في ثنيي عن اكتشاف ما هو أبعد .

في ذلك المساء أظهر الكهف مشهداً بدائياً ومتوحّشاً بما يكفي ليُرضي أكثر الأرواح حبّاً للمغامرة . كان العرب ، الذين يبلغ عددهم ما بين العشرة إلى الاثني عشرة ينتعلون أحذية جلديّة حمراء اللّون ويرتدون معاطف مخطّطة مبلّلة بمياه المطر . كانوا يجلسون في المنتصف حول نار ضعيفة وقد وضع فوق رمادها ثلاث دِلال قهوة حُضرت خصيصاً لمجتمع الصّحراء . جلست خلفهم امرأة تطبخ أرزاً على نار أقوى تطلق ضوءاً مضطرباً في تجاويف الكهف ، وأظهرت ماشية نمرود وهي تمضغ تبناً من المعالف المقطوعة في الصّخر .

نُظِّفَ مكان لي من الطّين نسيباً في حلقة الرّجال، وحُضِرَ فنجان قهوة ودار الحديث لمُدّة ربما تكفي لأن يدخّن عربيّ غليونه خمس مرّات. كان الحديث بشكل أساسيّ حول ظلم الحكومة. إن يد العدالة، أو على الأصحّ التهديد بالقوّة المسلّحة، يعتبر تهديداً متواصلاً على أطراف الصّحراء. وفي تلك السّنة أذكت ضرورات الحرب النّار لنشاط مشوّم وتمت مصادرة الجمال والجياد بالجملة على طول الحدود دون أمل بتعويض ماليّ أو أيّ بديل عنه. كان العرب قد جمعوا معاً مواشيهم التي تُركت لهم وأرسلوها بعيداً على بعد خمسة أو ستّة أيّام شرقاً، حيث لا يجرؤ الجند على الوصول إليها، وفعل نمرود مثلهم، محتفظاً فقط ببعض الماشية التي يحتاجها للحرائث، وتابع واحد تلو الآخر من الضيوف سرد القصّة: وقعقت أصوات قويّة حول الكهف. أقسم بالله وبمحمّد نبيّ الله بأننا أنزلنا اللّعنات على الفرسان الجركس ويتوجّب علينا جعل هؤلاء الفرسان الأقوياء يترتّحون من على صهوات جيادهم.



عرب البلقاء

ومن وقت لآخر كان رأس مكسو بخصلات شعر سوداء صغيرة حول الوجنتين تحت الوشاح المخطّط ينحني إلى الأمام باتجاه وهج الرّماد لالتقاط جمرة حارّة من أجل الغليون، وتمدّد إلى فناجين القهوة، أو إلى نار الطّهي التي تتوهج أسفل كومة

من الشوك، ويجعل ضوء مفاجئ الذباب يطرّ والأبقار تتحرّك بصعوبة. لم يكن نمرود مسروراً لرؤية ذخيره من حطب الوقود الذي جمعه بمشقةً تبتدّد تدريجياً، وحبوب قهوته تختفي في حفّات قليلة في الهاون. («والله! إنهم يأكلون القليل عندما يأكلون لوحدهم، ولكن عندما يكونون ضيوفاً يأكلون الكثير هم وجيادهم؛ والقمح قليل في هذا الوقت من السنة»).

ولكنّ كلمة «ضيف» كلمة مقدّسة من الأردن إلى الفرات ويعلم نمرود جيّداً بأنّه يدين بجزء كبير من وضعه وأمنه لحسن الضيافة الذي يطال جميع الوافدين، بغض النظر عن المكان والزمان. أضفتُ حصّتي من المرح للمجموعة بتوزيع صندوق من السجائر، وقبل أن أغادر كان جوّ من الودّ قد ساد بيني وبين الرّجال من بني صخر.

كان اليوم التّالي واعدّاً على نحو أقلّ من ذاك الذي سبقه. لم يكن البغالون يرغبون كثيراً بمغادرة حمى الكهوف وتعرض حيواناتهم لمطر كهذا في الصّحراء المفتوحة. وافقتُ على تأخير الرّحلة على مضض، وأرسلتهم إلى مأدبا، على بعد ثلاث ساعات، لشراء شوفان للأحصنة، محدّرة إياهم بالأذىذكروا من أين أتوا. خفّ هطول الأمطار في فترة ما بعد الظّهر، وسرّتُ عبر السّهل جنوباً إلى القسطل، وهو معسكر رومانيّ محصّن يقع على تلة.

لم يكن هذا التّموج من الحصون نادراً على الحدود الشرقيّة للإمبراطوريّة، وكان قد قلّده الغساسنة Ghassanids عندما أسسوا دولتهم في الصّحراء السوريّة، لو كانت المشتّى في الواقع، وكما يُظنّ، تعود إلى زمنهم. ولكن مع نموذج أكثر إتقاناً من أبنية الطّراز ذاته في المنطقة. يتكوّن حصن القسطل من سور قويّ دائري، وله مدخل واحد نحو الشرق وأجزاء مستديرة ناتئة عند الزّوايا في كل الجوانب. وفي الدّاخل، توجد سلسلة من حجرات مقنطرة متوازية تاركة فناءً مفتوحاً في الوسط - ويختلف المخطّط بشكل بسيط عن قصر البيضا el Beida في الصّفا وعن الخانات الحديثة⁽¹⁾.

(1) كتبت المؤلّفة: لقد تمّ طبع مخطّطات رائعة وصور للقلعة من قبل بروثوف Brunnow ودوماشيفسكي Domaszewski في المجلد الثاني من مؤلفهما الكبير المعنون: Die Provin- cia Arabia. ولم يكن هذا المجلد قد طبع عندما زرتُ القسطل.

ويوجد إلى الشمال بناء منفصل، وعلى الأرجح هو مركز الحكم Praetorium، منزل قائد القلعة، وهو يتألف من حجرة مقنطرة كبيرة، مع ساحة مسوّرة أمامه، وبرج مستدير عند الزاوية الجنوبيّة الغربيّة. ويوجد داخل البرج درج ملتف ومجموعة من تزيينات حول الجزء الخارجي المكوّن من إطار من الأعلى وأفاريز مستطيلة ناتئة محزّزة في الأسفل، مع فواصل ضيقة من دون زخرفة بينها. ويعتبر المبنى جيّداً على نحو غير عادي، بتلك الجدران ذات السماكة الكبيرة؛ والحمايات الممتدة إلى أبعد حدوده، ربما كان سكان روما ينامون بأمان طوال الليالي.

عندما مررتُ بالقسطل قبل خمس سنوات لم تكن مسكونة وكانت الأرض التي حولها غير مزروعة، ولكن بعض عائلات الفلاحين تستوطن الآن تحت السرايب المخربة وتنمو الحنطة النضرة أسفل الأسوار، بظروف لا بدّ أنّها ومن دون أيّ شك ستدفع قلب محبّ الإنسانيّة، ولكنها سترسل شعوراً بارداً في صدر محبّ الآثار؛ إذ ليس هناك ماحٍ للآثار مثل شفرات المحراث، ولا هادم مثل الفلاح الذي يبحث عن حجارة مقطوعة لبني كوخه. ولاحظت إشارة أخرى على التّعدي على الحضارة من خلال تصرف جنديين نصف جائعين، وهما حارسي أقرب موقف لسكّة حديد الحجاز، التي تُدعى زيزاء⁽¹⁾ Ziza بعد الخرائب على بعد أميال إلى الغرب منها. كان هدف زيارتهما دجاجة هزيلة قام واحد منهما بإمسакها بيده. كان قد سحبها من بين رفيقاتها الهزيلة في فناء القلعة - ومهما تكن الظروف فقد كان من الأفضل عدم البحث في هذا الموضوع، حيث أنّ الإنسان الجائع لا يعرف قانوناً. لم أكن متلهّفة بشكل خاصّ لتواجدي في تلك الحدود الخاضعة للسلطات في عمّان، وإلى حدّ ما غادرت بسرعة وسرت شرقاً إلى زيزاء Ziza.

(1) يلفظ البدو اسمها باللهجة المحليّة: زيزيا، وفيها بركة ماء معروفة كان يستقي منها الحجاج في طريقهم إلى الحجاز.



كنيسة دائرة في مادبا

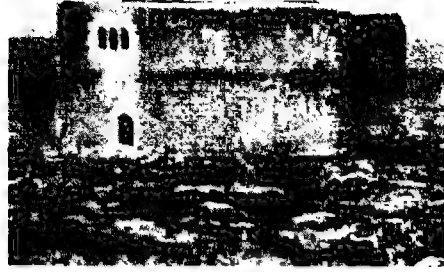
كانت الأمطار قد ملأت مجاري الصّحراء المائيّة، وهي لا تتدفّق غالباً بهذه الغزارة أو بهذه السّرعة كما هو الحال في المجرى الذي كان علينا عبوره في تلك الظّهيرة. كانت بركة زيزاء Ziza الرّوماني الكبير قد امتلأت أيضاً حتى الحافّة، وعليه فإنّ الصّخور سيجدون هناك ماءً خلال فترة الصّيف التّالية. وتنتشر الخرائب على نحو بعيد جدّاً أكثر من تلك الموجودة في القسطل؛ ويفترض وجود مدينة كبيرة هنا، وذلك بسبب وجود أساسات المنازل التي تغطّي منطقة واسعة. ربّما كانت القسطل المخيم الحصين الذي يحمي تلك المدينة، ويتشارك الاثنان معاً اسم زيزاء Ziza الذي ذُكر في التذكرة Notitia:

“Equites Dalmatici Illyriciana Ziza”.

وهناك قلعة تعود إلى العصور الإسلاميّة Saraccenic، وقد رُمّمت من قبل الشيخ⁽¹⁾ Soktan من الصّخور، فُرشت من قبله، بفخامة غير معروفة في الصّحراء، وفقاً لما قاله نمرود؛ ولكنها سقطت الآن بيد السّلطان، حيث أنّها واقعة في حدود دولته وأصبحت بناءً عليه خربة. تمتلئ التّلال الخلفيّة بالأساسات، ومن بينها أساسات مسجد، كان المحراب لا يزال واضحاً في الجنوب. احتلّت زيزاء Ziza من قبل حامية عسكريّة

(1) أظهرها تعني الشيخ سظام بن فندي الفايز، شيخ مشايخ بني صخر آنذاك. وقد سكن الشيخ سظام قرية أم العمد، فلعلها هي المكان الذي تذكره بل أعلاه.

مصريّة في زمن إبراهيم باشا، وكان جنوده هم الذين أكملوا تدمير الأبنية القديمة. وقبل أن يأتوا كانت عدّة صروح بما فيها عدة كنائس مسيحيّة، لا تزال قائمة في حالة من الصيانة الجيدة إلى حدّ ما، وفقاً لقول العرب.



القلعة عند زيزاء

جعلنا طريق عودتنا على طول حافة جسر سكة الحديد، وكنا ونحن نسير نتكلم عن الفوائد الممكنة التي يمكن للأرض أن تجنيها من الطريق نفسه. كان نمرود متردداً بشأن هذا الموضوع. نظر شزراً إلى الموظفين والجند، الذين لم يكن لحسن الضيافة أن ينتزع جشعهم أكثر من العرب الذين كان لديهم عدّة أسباب لإيذائه بشكل كبير. كان قد أرسل حمولات قليلة من الحنطة إلى دمشق عن طريق شاحنات القطار السّنة الفائتة؛ أجل، لقد كانت طريقة أسهل وأسرع في التّقل أكثر من أن تكون عن طريق جماله، هذا إذا وصلت البضائع بأيّة حال؛ لكن وبشكل عام فإنّ أكياس الحنطة كانت أخفّ بكثير عندما وصلت المدينة أكثر منها عندما حمّلها نمرود في الشّاحنات وبناء على ذلك اختفت الفائدة. من الممكن أن يتحسن هذا الوضع مع الوقت - في الوقت الذي يُسمح فيه للمصاييح والوسائد وجميع التّجهيزات لسكة حديد الصّحراء باستثناء المقاعد العارية أن تبقى في مكانها كما هي يوم صنّعت وبيعت.

تحدّثنا أيضاً عن الخرافة والمخاوف التي تقبض القلب ليلاً. قال إن هناك أماكن لا

يمكن للعرب أبدأً أن يغامروا في المرور بها بعد حلول الظلام - مثل الآبار التي تتنابها الأشباح والتي لا يجرؤ الرجال الذين يعانون العطش على الاقتراب منها، والخرائب التي لا يمكن للمتعبين اتخاذها ملجأ، والوديان التي كانت أراضي سيئة غير قابلة للتخميم أو الانزواء. مم كانوا يخافون؟ من الجن؟ من كان يستطيع الإخبار عن الذي يخيف الرجال؟ لقد جعل هو نفسه عربياً يخرج عن طوره بالقفز عارياً من بركة ماء منعزلة في الفجر نصف المظلم. ركض الرجل عائداً إلى خيامه، وأقسم بأنه قد رأى جنياً، وعلى قومه ألا ينزلوا للشرب في المكان حيث يقيم، إلى أن دخل نمرود وهو يضحك عليه وأخبره بقصته.

لم نرجع إلى خيامنا فوراً، فقد دُعيت إلى العشاء تلك الليلة من قبل الشيخ نهار Nahar من بني صخر، وهو الذي كان قد أمضى الليلة الماضية في كهف نمرود؛ وأخذ القرار بعد التشاور بأن الدعوة يجب ألا تقبلها واحدة في مثل مقامي الرفيع. وأضاف نمرود: «ولكن بشكل عام عليك ألا تذهبي إلا إلى خيمة شيخ عظيم، أو أنك ستقعين في أيدي أولئك الذين يدعونك من أجل الحصول على هداياك فقط. حسناً، وإن نهار رجل شريف على الرغم من أنه مسكين»، وهي كلمة تغطي كل أشكال الازدراء، من تلك التي تمتد من الفقر الشريف عبر البلاهة إلى الدرجات الأولى من الرذيلة.



مضارب لقوم مسيحين

استقبلني المسكين بجلال كآتي أميرة، واستدعاني إلى مكان الشرف على سجادة بالية بين الحفرة المربعة في الأرض التي تُستخدم كموقد وبين الحاجز الذي يفصل أماكن النساء عن الرجال. ربطنا خيولنا إلى حبال الخيمة التي تعطي قوة رائعة لمثل هذا المنزل البسيط، وجالت أعيننا خارجاً في المكان حيث جلسنا باتجاه السهول الممتدة شرقاً - علوً وانحداراً، ترتفع وتنخفض وكأن الصحراء تتنفس بهدوء تحت الظلام الحالك. إن الجانب المحجوب عن الريح في خيمة العربي مفتوح دائماً للهواء الطلق، وإذا تغير اتجاه الريح تقوم النساء بإزالة جدار الخيمة ويجعلنه مقابل اتجاه آخر، وخلال دقائق يغير منزلك إطلالته واتجاهاته بمرح إلى المشهد الأكثر ملاءمة. يعد هذا البيت صغيراً جداً، وخفيفاً جداً ومع ذلك فهو ثابت بقوة على الأرض حيث لا تستطيع العواصف التأثير عليه كثيراً؛ وتتفخ الخيام الخشنة المصنوعة من شعر الماعز وتتقارب معاً في الجو الممطر بحيث تحتاج أمطاراً مستمرة مسبقة بريح عاتية حتى تسرب مياه العاصفة الباردة إلى داخل المنزل.

خُمّست حبات البن وطُحنت، وكانت دلال القهوة تغلي على الرماد المشتعل، عندما جاء ثلاثة أشخاص من جهة الشرق وتوقفوا عند الخيمة المفتوحة. كانوا رجالاً قصار القامة وبدينين، عريضي الأكتاف، بملامح شاذة بشكل واضح وأسنان بارزة، وكانوا يشعرون بالبرد ومبتلين بمياه الأمطار. جُهّزت لهم غرفة في الحلقة حول الموقد، ومدّوا أصابعهم نحو اللهب، بينما استمر الحديث دون انقطاع، كانوا ثلاثة رجال فقط من الشرارات، جاؤوا لشراء حنطة من مؤاب، وعلى الرغم من أنّ الشرارات تعدّ إحدى أكبر وأقوى القبائل والمولدين الأكثر شهرة للجمال، فإنهم سلالة رديئة، لا يمكن لأحد من عرب البلقاء الزواج منهم. إنهم لا يملكون منازل ثابتة ولا حتى في وقت الصيف الجاف، ولكنهم يطوفون الصحراء الداخلية غير عابئين بعدم وجود ماء لعدة أيام معاً.

كان النقاش حول نار نهار يدور حول رحلتي. كان زنجي من قبيلة الصخور، وهو جل قوي بملامح ذكّية، قلقاً بسبب المجيء معي كمرشد إلى جبل الدروز، ولكنه

وافق على أن يتركني ويعود حال وصوله إلى منطقة هؤلاء الرجال الجبليين الشجعان - هناك دوماً عداوة بين الدروز وبني صخر. يعامل العبيد الزنوج من الصّخور معاملة جيّدة من قبل أسيادهم، الذين يقدرّون قيمتهم، ولهم منزلتهم المعتبرة في الصّحراء، وهو وضع جيّد يعكس تقدير هذه القبيلة لخدمتهم. كنت أفكر نوعاً ما بقبول العرض المُقدّم على الرّغم من احتمال العودة عند موت الزّنجي بين يدي عند أوّل قرية درزيّة، عندما قُطعت سلسلة أفكارني بوصول ضيف جديد. كان رجلاً شاباً طويل القامة، بوجه ناعم جميل أبيض البشرة، بجدائل طويلة بنية اللّون نوعاً ما. عندما اقترب، نهض نهار والشيوخ الآخرون من الصّخور لملاقاته، وقبل أن يدخل الخيمة قام كل واحد منهم بدوره بتقبيله على وجنتيه. نهض نمرود أيضاً وصرخ عندما اقترب الضيف أكثر:

«جيّد؟ الحمد لله! من معك؟».

رفع الشاب يده وأجاب: «الله!».

لقد كان وحيداً.



قطعان عرب الصّخور

ودون أن يبدو عليه أنه لاحظ المجموعة، أحاطت عيناه بالشيوخ الثلاثة من الشرارات وهم يأكلون لحم الضأن وخثارة اللبن عند المدخل، والمرأة الغريبة قرب النار، ومع همهمة بالتحيتات اجتاز إلى مؤخرة الخيمة، رافضاً عرض نهار بتناول الطعام. كان اسمه قبلان Gablan من أسرة شيوخ قبيلة الدّعة، وهو ابن عم الشيخ الحاكم، وكما اكتشفت فيما بعد كان قد سمع باحتياج نمرود لدليل لأجنبيّة - حيث أنّ الأخبار تنتقل بسرعة في الصحراء - وقد جاء لأخذي إلى خيام عمّه. لم نكن قد جلسنا لأكثر من خمس دقائق بعد وصوله عندما همس نهار بشيء ما إلى نمرود، الذي التفت إليّ واقترح أنّ علينا الذهاب طالما أنّنا تناولنا العشاء وأخذ قبلان معنا.

فوجئت بسرعة قطع دردشة ذاك المساء، ولكنّي علمت أنّه من الأفضل عدم الاعتراض، وعندما كنّا نخب إلى البيت عبر أرض نمرود Namrud وفوق تلة طيب، عرفت السبب، لقد كان هناك ثأر بين الدّعة والشرارات. وقد لاحظ قبلان من النظرة الأولى نسب ضيوف صديقه، ولذلك فقد انسحب بصمت إلى أعماق الخيمة، ولم يغمس يده في نفس الطبق معهم. وعرف نهار Nahar، ومن لم يعرف؟ صعوبة الموقف، ولكن لم يستطع التنبؤ كيف يمكن لرجال الشرارات التعامل معه، وخوفاً من المفاجآت، أسرع بنا بعيداً. ولكن في صباح اليوم التالي صفا الجو (على نحو مجازي لا فعلي)، وأبقى الجو العاصف أعداء الدّم جالسين على نحو سلميّ حول دلال قهوة نمرود Namrud في الكهف.

كان مطر اليوم الثالث غزيراً بحيث لا يمكن لإنسان تحمّله. وكنت قد نسيت في ذاك الوقت ما هو الإحساس بالجفاف والشّعور بدفء القدمين وثياب النوم الجافّة. أمضى قبلان ساعة معي في الصباح، مكتشفاً ما الذي أريده منه. شرحت له أنّه إذا استطاع أخذي عبر الصحراء حيث لا أرى مركزاً عسكرياً ثم يتركني عند سفوح التلال، فلا أتوق لأكثر من ذلك. فكّر قبلان قليلاً ثم قال: «آه يا سّتي، هل تعتقدين بأنك ستخوضين صراعاً مع الجنود؟ إذا كان الأمر كذلك فساخذ بندقيتي معي».

أجبتُ بأنّي لا أفكر بإعلان حرب مفتوحة مع جميع خيالة السلطان، وبانتباه قليل يمكن تجنب احتمال الصدام؛ ولكن كان لدى قبلان وجهة نظر بأنّ الخطة الإستراتيجية

قد تذهب أبعد من ذلك عندما يطلق الرصاص، وقرّر بأنه مع ذلك سيأخذ بندقيته معه.
بعد الظّهر، لم يكن لديّ ما أقوم به أفضل من مشاهدة الشرارات يشترتون الحنطة
من نمرود. ولكن في هذا الوقت، وبالترجوع بضع آلاف من السنين إلى الوراء، تخيلت
أبناء يعقوب الذين نزلوا مصر ليتشاجروا بشأن حمولة الأكياس مع أخيه يوسف. كان
القمح قد حُفظ في حفرة عميقة جافة قُطعت في الصّخر، وكان يُخرج مثل الماء بدلو
ذهبيّ ممتلئ. لقد تمّ تخزينه مع القشّ لحمايته بشكل أفضل، وكان العمل الأوّل هو
القيام بنخله عند المنبع وهو جهد لا يمكن أن ينجز دون مناقشة كثيرة ومعقّدة. وحتى
الجمال لم تكن صامتة، لكنّها شاركت بالجدال مع الهمهمات والبعبات، مثلها مثل
العرب وهم يقومون بتحميلها بالأكياس الممتلئة. جلس شيوخ الصّخور والشرارات
بالقرب على الحجارة في الضباب الممزوج بالرّذاذ، وهم يدمدمون أحياناً، «الله!
الله!» ويهتفون أحياناً: «إنه رؤوف رحيم!» وكثيراً ما كان القمح المنخول يُصبّ مرّة
أخرى بين القمح غير المنخول، ويدور حوار من هذا النوع:

نمرود: «عليك! عليك! يا ولد، الله يخرب بيتك! الله يعكّر أيامك!».

بنو صخر: «بوجه نبي الله عليه السّلام!».

الشرارات (بصوت مكبوت): «الله! ومحمّد نبيّ الله، عليه السّلام!».

جماعة حفاة مرتدون الفراء: «ذهب، ذهب! والله! مطر وبرد!».

نمرود: «اسكتوا، يا إخوان! انزلوا إلى البئر واستخرجوا قمحاً. المكان دافئ هناك».

بنو صخر: «الحمد لله القادر!».

أصوات الجمال: "B-b-b-b-b-d-d-G-r-r-o-o-a-a".

سائسو الجمال: «اصمت، أيّها الملعون! عسى أن تنزل في الوحل! ينزل عليك
غضب الله!».

الصّخور (بانسجام): «الله! الله! بنور وجهه!».



علامة طريق رومانية

ذهبتُ عند الغسق إلى خيمة الخدم ووجدت نمرود يهمس بقصص جريمة عند النار التي كان عشائي يُطهى عليها.

قال: عندما كنتُ صبيّاً، منذ زمن قريب، لم يكن باستطاعتك عبور الغور بسلام. ولكن كان لديّ فرس سارت فيه - والله! كيف سارت! سارت بي ما بين طلوع الشمس وغروبها من المزيريب إلى السلط، دون توقف. بالإضافة إلى أنني كنت معروفاً جداً لكل أهل الغور (الغوارنة). وفي إحدى ليالي الصيف كان عليّ الذهاب إلى القدس - أعانني الله! على ظهر فرسي. كانت مياه نهر الأردن قليلة، فعبرتُ عند المخاضة، حيث لم يكن هناك وقتها جسر. وعندما وصلتُ الضفة الأبعد سمعت صياحاً وطلقات رصاص. اختبأت في شجيرات الطرفاء لأكثر من ساعة حتى غاب القمر، ومن ثمّ سرت بعيداً بهدوء.

وعند مدخل التلال الموحلة بدأت الفرس تبتعد عن الطريق، ونظرت إلى الأسفل فشاهدت جثة رجل، عارٍ ومليء بطعنات سكين. كان ميتاً تماماً. وعندما كنت أحقق به قفزوا نحوي من التلال الموحلة، كانوا عبارة عن عشرة فرسان، وكنت لوحدي

فقط. انسحبت إلى الحشائش الكثيفة وأطلقت النار، طلقتين من مسدسي، ولكنهم أحاطوا بي ورموني عن ظهر الفرس وقيدوني، وأجلسوني مرة أخرى على الفرس وساروا بي بعيداً. وعندما جاؤوا إلى المكان المراد، نزلوا المناقشة فيما إذا كان عليهم قتلي، وقال أحدهم: «والله! دعونا نضع نهاية». اقترب مني ونظر في وجهي، وكان الوقت فجراً. وقال: «إنه نمرود!» حيث إنه كان يعرفني وطلبتُ عونه. ومن ثم فكّوا قيدي وتركوني في حال سبيلي، وسرت إلى القدس».

استمعت أنا والبعالون منقطعي الأنفاس مستمتعين بالقصة تلو القصة.

قال نمرود: «توجد عادات جيّدة وأخرى سيّئة عند العرب، ولكنّ الجيّد كثيرة. فعندما يرغبون بإنهاء صراع دموي، يأتي الطرفان المتعاديان معاً إلى خيمة المعتدي عليه. ويقوم سيّد البيت بحمل سيفه ويلتفت نحو الجنوب ويقوم برسم دائرة على الأرض، ويدعو باسم الله. ومن ثم يأخذ قطعة صغيرة من قماش الخيمة وحفنة من رماد الموقد ويلقيها في الدائرة، ويضرب خط الدائرة سبع مرّات بسيفه المسلول. ويقفز المعتدي داخل الدائرة، ويقوم أحد أقارب عدوّه بالصّياح عالياً: «أنا أتحمل مسؤولية الجريمة التي أوقعها عليّ!» وعقب ذلك يكون هناك سلام.

آه يا ست! تمتلك النّساء سلطة كبيرة في القبيلة، ويتمّ الاهتمام بالعذراوات بشكل جيّد. بحيث لو قالت العذراء: «أريد فلاناً زوجاً لي» فعليه أن يتزوّجها خشية أن تكتسب العار. وفيما لو كان لديه بالأساس أربع زوجات فعليه أن يطلق إحداهنّ، ويتزوج العذراء التي وقع اختيارها عليه بدلاً منها. هذه إحدى العادات الموجودة بين العرب».

وإثر ذلك التفت إلى بغّالي الدّرزي وتابع:

«أوه يا محمّد! انتبه. فإنّ خيام الصّخور قريبة، وليس هناك سلام أبداً بين بني صّخر وبين الدّروز. وإذا حدث أن عرفوك، فمن المؤكّد أنّهم سيقتلونك - ولن يكتفوا بقتلك فقط، ولكنهم سيحرقونك وأنت على قيد الحياة، ولن تستطيع الستّ حمايتك، ولا حتّى أنا».

تجهّم وجه صديقي نهار، الذي كان قد تبادل معي حسن الضيافة مقابل منديل،
وكانت الجماعة القليلة حول النار قد ذهبت إلى حدّ ما. ولكن ميخائيل تصرّف بلياقة.
قال وهو يضع بعض الخضراوات المطهّوة في الصّحن برفق: «لا تفكّر به يا
سيّدتي، عليه أن يبقى مسيحياً حتّى نصل إلى جبل الدّروز، لن يكون اسمه محمّداً
وإنّما طريف Tarif، لأنّه اسم متداول بين المسيحيين».
وهكذا حوّلنا وعمّدنا محمّداً المشدوه قبل تناول شرائح اللحم المشوي من
المقلاة.



الفصل الثالث

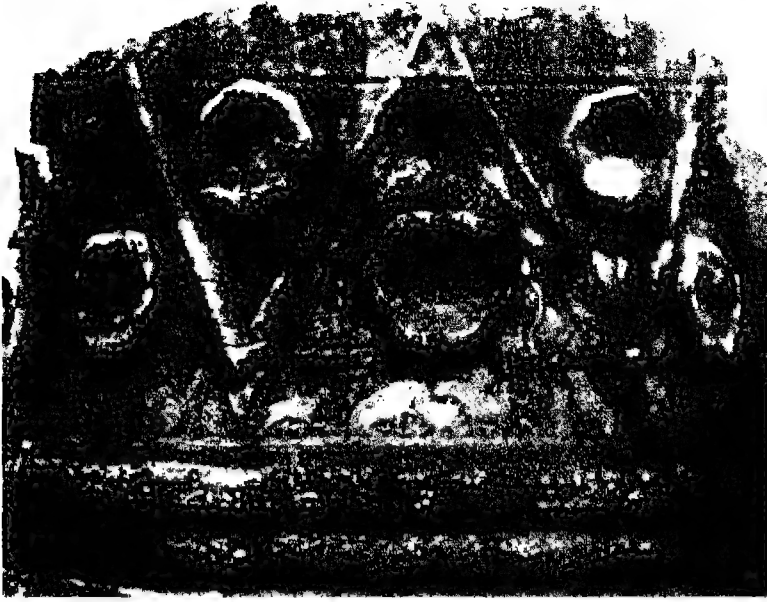
كان الجوّ ما يزال عاصفاً في صباح يوم الأحد الثاني عشر من فبراير، ولكنّي صمّمت على الذهاب. لم تكن الأيام التي أمضيها في طنب قد ضاعت سُدى. إنها فرصة لمشاهدة طبيعة حياة سكّان هذه المزارع النَّائية النَّادرة ساعة بعد ساعة، ولكنّ أفكاري كانت تحلم بسفر أبعد، وثُقت إلى المسير في الطّريق الذي مشوا فيه. لقد أدركتهم، وبدأ لي الأمر كذلك عندما سمعت أنا وقبلان ونمرود أصوات حوافر جيانا تقرع معادن سكة حديد طريق الحجّ، ويممنا وجوهنا شطر الصّحراء المكشوفة.

سرنا شرقاً إلى جهة الشّمال، تاركين المشتّى Mshitta إلى الجنوب قليلاً، على الرّغم من أنّ أحداً ممّن عرفها وعرف جمالها لم يستطع العودة لزيارة تلك الجدران الرّائعة، فيجب ألا ننسى أنه يتوجب قول شيء تجاه ذاك التّصرّف في التّخريب المتعمّد الذي تتعرّض له. ولو كان هناك أمل جيّد بأنّه يتوجب على الآثار أن تبقى كما بقيت لما يزيد عن ألف سنة دون أذى من الأمطار الشّتوية، ويجب أن يُسمح بأن تبقى سليمة في البلدة المتقلّبة حيث تعطي انطباعاً قوياً جدّاً لجمال مرهف، جمال خيالي؛ ولكنّ سكة الحديد اقتربت، وستملي السّهول، ولا يمكن للفلاح السّوري ولا الجندي التّركي أن يقتنعا بإمكانية استغلال الجدران الباقية في استخدامات عمليّة. وبناء عليه لندع الذين شاهدوها عندما كانت لا تزال واقفة قبل تعرّضها للأذى، ولا تزال ذكراها ماثلة في الذهن مع عرفان بالجميل، ودون شعور عميق بالأسف.



المشنى

تحادث كل من نمرود وقبلان دون توقّف. وفي وقت متأخر من الليلة السّالفة جاء جنديّان عند باب الكهف، وبعد أن حصلا على إذن بالدّخول وجلسا، أخبرا قصّة غريبة. قالّا بأنّهما كانا من بين الجنود الذين أرسلهم السّلطان من بغداد لمساعدة ابن الرّشيد Ibn er Rashid ضدّ ابن سعود. ورووا كيف أنّ ابن سعود اضطرهم للتّراجع خطوة وراء خطوة إلى أبواب حائل، عاصمة ابن الرّشيد وكيف وقف الجيشان وجهاً لوجه مع ابن سعود مع القليل من أصحابه والذي كان قد سار إلى خيمة عدوّه ووضع يده على سارية الخيمة وهكذا فلم يكن لدى أمير شمر أيّ خيار آخر سوى السّماح له بالدخول. وفوراً وصلوا إلى اتّفاق في المكان نفسه، بأن يتخلّى ابن الرّشيد عن جميع أراضيه داخل ميل أو اثنين من حائل، على أن يحتفظ بتلك المدينة والأراضي الواقعة إلى الشّمال منها، بما فيها الجوف، مع الاعتراف بسيادة ابن سعود على الرياض وإقطاعياتها الممتدّة.



المشتى، الواجهة

قام الجنديان بأفضل ما يمكن فعله وهو الهروب والاتّجاه غرباً عبر الصحراء، وقالوا إنّ معظم رفاقهما في الجيش قُتلوا وهرب البقية. لقد كانت هذه أكثر الأخبار الموثوقة إلى حدّ بعيد التي تلقّيتها من نجد، وكان لديّ سبب للتصديق بأنّها كانت صحيحة فعلياً⁽¹⁾. وقد سألت الكثير من العرب أيضاً عن شخصيّة ابن الرّشيد، وكانت الإجابات متشابهة تقريباً على نحو ثابت. يقولون عنه: «شاطر جداً، وداهية كبير»، وبعد دقيقة يضيفون: «لكنه مجنون». وقد رأيت فيه رجلاً متهوراً حادّ الطبع، ذا عقل

(1) كتبت المؤلّفة: بعد تسجيل الأحداث أعلاه، أعتقد بأن ابن سعود قد وصل إلى تفاهم مع السلطان بعد فشله بالحصول على حليف قوي، وذكّر بأن ابن الرّشيد طرد القوّة العسكريّة التي جاءت اسمياً لمساعدته، وهناك بعض الإشاعات الجديدة جداً تقول بأن ابن الرّشيد قد مات. قلت: هذا صحيح، على اعتبار أنّ رحلة المس بل كانت في عام 1905، وتم طبع كتابها في عام 1907، وهي هنا تكتب الحواشي بعد نهاية رحلتها، ووفاة الأمير عبد العزيز بن متعب الرّشيد كانت في عام 1906، وذلك في مناخ روضة مهتا.

غير مستقرّ ومحاكمة ضعيفة، وليس قوياً بما يكفي، وربما غير قاسٍ بما يكفي لتقوية سلطته على القبائل الجامحة التي لجمها عمّه محمّد بلجام الخوف (ويحتوي تاريخ الحرب سلسلة طويلة من الخيانات من طرف حلفائه)، وكان متكبراً جداً، فيما لو حكمت عليه الصّحراء بشكل صحيح، إلى حدّ يمنعه من قبول شروط السّلام القائم. وقد تمّ إقناعه بأنّ الحكومة الإنكليزيّة قد سلّحت ابن سعود ضدّه، وقناعته بأنّ ذلك كان عن طريق شيخ الكويت الذي يعتقد بأنّه من حلفائنا، وهو الذي جهّز ذلك الشريد المنفي بوسائل لإعادة تأسيس نفسه في البلدة التي حكمها أجداده، ويأمل أن يُضعف ذلك من تأثير السّلطان على حدود الكويت. وربّما كانت بداية المشكلة عندما بدأت الصّداقة مع السّلطان التي رآها ابن الرّشيد أنّها مناسبة للدّخول، أذيع نبأ تلك الصّداقة في العالم عن طريق ظهور الخيول الشّمريّة في القسطنطينية والفتيات الجركسيات في حائل؛ ولكن في النهاية، ليست هناك نهاية لحرب في الصّحراء، وأيّ مظلمة سوف تخدم دور شيخ شاب طائش.



المشّي، القاعات الدّاخلية

على الرّغم من أنّنا كنّا نسير عبر سهول كانت مهجورة تماماً وتبدو للمراقب غير المبالى عديمة الملامح تقريباً، فنادرًا ما كنّا نساfer لأكثر من ميل دون الوصول إلى نقطة نحمل اسمًا. وعند الاستماع لحديث العرب فإنّك تُدهش بتلك التّسميات الكثيرة.

وإذا سألت عن شيخ معين أين نصب خيمته فإنك سوف تُعطى في الحال إجابة دقيقة. والخارطة ليس فيها معالم، وعندما تصل للمخيم فإن المنظر لا يوجد فيه معالم مميزة أيضاً. فوجود ارتفاع في الأرض، أو حجر كبير، أو أثر قليل لطل، دون الحديث عن كل حفرة يمكن أن يكون فيها مياه سواء في الشتاء أو في الصيف، فهي تشكّل علامات مميزة على نحو كافٍ لعين البدوي. اركب مع عربي وستعرف لماذا كانت الأشعار قبل مجيء محمد⁽¹⁾ مليئة بالأسماء، وكيف أنه من التفاهة محاولة تعيين نقطة محدّدة لتلك الأعداد الكبيرة من الأماكن، حيث يتكرّر الاسم ذاته مئات المرات.

أتينا الآن إلى هضبة صغيرة أطلق عليها قبلان اسم ثلييلة الجرشة Thelelet el Hirshch، ومن ثمّ إلى هضبة أخرى أصغر دعاها ثلييلة Thelelch، وهنا شدّ قبلان لجام فرسه وأشار إلى زوج من أحجار على الأرض مسوّدة بفعل النار.



عرب البلقاء

قال: «ذاك، كان موقدي. هنا خيّم قبل خمس سنوات. وهناك كانت خيمة والدي، ونصب ابن عمّي خيمته أسفل المنحدر».

تخيّلْتُ نفسي راكبة مع امرئ القيس، أو مع أي شاعر عظيم من عصر الجاهليّة،

(1) عليه أفضل الصلوة والسلام، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الذين طارت قصائدهم الغنائية في لحن لا يتغير للصّحراء سريعة الزوال.

انهمرت أمطار الغيوم علينا، وتركنا ثليّة Theleleh وأسرعنا نحو الشرق - وعندما يسافر عربي، نادراً ما يسير أسرع من الخطو - بينما كان نمرود قد أمضى الطريق برواية الحكايات وفقاً لعادته.

قال: «يا سيدتي، سوف أخبرك بقصة معروفة جداً بين العرب، ولا بدّ أنّ قبّلان كان قد سمعها. كان هناك رجل - هو متوفى الآن، ولكن لا يزال أبنائوه على قيد الحياة - بينه وبين القبائل عداوة دم، وفي الليل هاجمه أعداؤه مع عدّة فرسان، وأخذوا مواشيه وجماله وجياده واستولوا على خيامه وكل ما كان يملك. وأصبح وهو الغنيّ المحترم جداً فقيراً بأمرّ الحاجة. لذا فقد تنقّل بين الأماكن إلى أن وصل إلى خيام قبيلة لم تكن صديقة له ولا معادية وذهب إلى خيمة الشّيخ ووضع يده على سارية الخيمة وقال: «يا شيخ! أنا دخيلك»، (وهي عبارة يقولها من يبحث عن الضيافة والحماية). فنهض الشّيخ وأدخله وأجلسه قرب الموقد، وعامله بلطف، وقام بإعطائه خرافاً وبعض الجمال وخيمة، وعقب ذلك ذهب الرّجل وازدهرت أعماله وعاد غنيّاً كما كان في غضون عشر سنوات.

والآن وبعد عشر سنوات حدث أن تعرض الشّيخ المضيف لنكبة وخسر بدوره كل أملاكه. وقال الشّيخ: «سأذهب إلى مخيم ضيفي، الذي ينعم بالغنى الآن، وسوف يعاملني كما عاملته». عندما وصل المخيم لم يكن الرجل موجوداً، ولكن كان ابنه في الدّاخل. فوضع الشّيخ يده على سارية الخيمة وقال: «أنا دخيلك»، فأجاب ابن الرّجل: «أنا لا أعرفك، ولكن طالما طلبت حمايتنا تعال ادخل وستصنع لك أمّي القهوة». وهكذا دخل الشّيخ، ودعته المرأة قرب موقدها وصنعت له القهوة، وتعدّ هذه إهانة بين العرب عندما تقوم المرأة بعمل القهوة. وبينما كان جالساً قرب موقد المرأة، عاد رب البيت، فخرج ابنه وأخبره بقدوم الشّيخ. وقال: «سوف نحمله تلك الليلة طالما أنّه ضيفنا، وعند الفجر سوف نرسله بعيداً خشية تحمّل عداوته». وقاموا بوضع الشّيخ في زاوية الخيمة وزودوه بخبز وقهوة فقط، وفي اليوم التّالي أمرّوه بالانصراف، وأرسلوا

معه مرافقة مؤلفة من فارسين تستمرّ لمسيرة رحلة يوم، كما هو العرف بين العرب لمن يطلب حمايتهم ويشعر بالخطر على حياته، ثم تركوه ليعاني الجوع أو ليقع بين أيدي أعدائه. ولكن نكران المعروف هذا يعتبر نادراً، الحمد لله!، لذلك لم تُنس القصّة».

كنا نقرب الآن من بعض المنحدرات التي شرّفت ربما باسم تلال تجاوزاً. وقد شكّلت نصف دائرة كبيرة تمتدّ بعيداً نحو الجنوب حيث نصب فلاح العيسى خيامه في واديهـا. وعندما كنت معهم قام الدّعجة باحتلال كل السهل الواقع أسفل المنحدرات من جبل العليا el 'Alya وأيضاً البلدة الواقعة إلى الشمال الغربي بين التلال ونهر الزرقا. كان الشيخ الشاب مجيمر Mujemir قد خيم عند الشمال، وخيم عمّاه فلاح العيسى وحمود والد قبلان معاً في السهل نحو الجنوب. لم يحدث أن رأيت حموداً Hamud؛ إذ كان قد غادر بعيداً لتفقد بعض قطعانه.



فلاح العيسى الدّعجة

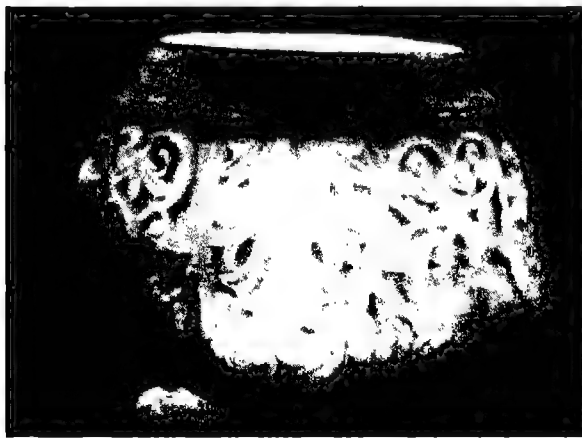
وضع قبلان حصانه مع أحد الأتباع وتقدّم ليعلن وصولنا. وعندما كنّا نسير نحو خيمة الشيخ الكبير خرج رجل أشيب للترّحيب بنا. كان مضيّفي فلاح العيسى، وهو شيخ معروف في كلّ أرجاء البلقاء بسبب حكمته وامتلاكه سلطة تتجاوز تلك التي يمارسها رجل مُسَرّ من بيت حاكم على قبيلته. وقبل ستّة أشهر كان ضيف شرف بين الدّروز، الذين لم يعتادوا استقبال شيوخ عرب كأصدقاء، ولهذا السّبب كان نمرود قد اختاره كأفضل مستشار في قضايا رحلتي. أُجبرنا على البقاء في خيمته إلى أن يتمّ إعداد القهوة، وهو عمل يستغرق ساعة كاملة. تمّ العمل في صمت جليل، يقطعه فقط صوت يد المهبّاج وهي تسحق حبّوب البنّ في الهاون، وهي موسيقى عزيزة على أذان أهل الصّحراء، وليس من السّهل إنجازها على نحو تامّ. وفي وقت شرب القهوة كانت الشّمس قد تجاوزت وقت الشّروق وسرت مع قبلان ونمرود فوق التّلال شمال المخيم لمعاينة بعض الخرائب التي تحدّث عنها العرب.

أثبت جبل العليّا أنه أرض مرتفعة متموّجة تمتدّ لعدّة أميال، ينحدر تدريجياً بعيداً باتجاه الشّمال والشّمال الشّرقى. إن الاتّجاه العام لسلسلة الجبال هو من الغرب إلى الجنوب الشّرقى؛ وترتفع على نحو مفاجئ فوق السّهول وتحمل على قمّتها سلسلة من خرائب شاهدهت منها اثنين. بدت وكأنّها خطّ من قلاع تحمي الحدود التي، في غياب التقوش، يمكن أن يخمّن الشّخص أنّها ترجع للغساسنة Ghassanid. تمتدّ المواقع الأثريّة الأولى فوق مخيم فلاح العيسى مباشرة. وأظنّ أنّه Kasr el Ahla (وهو اسم غير معروف للدّعجة) وقد أشير إليه على خارطة اكتشاف فلسطين بالقرب من طريق الحجّ. وإذا كان هذا صحيحاً، فإنّه يمتدّ أربعة أو خمسة أميال على مسافة أبعد نحو الشّرق من المكان الذي وضعه فيه واضع الخريطة، ومن المفروض أن يكون اسمه مكتوباً قصر العليّا Kasr el 'Alya. وقد كان تلاً (tell) صغيراً، طوّق بأساسات أسوار تحيط بكتل غير متميّزة من الخرائب.

تقدّمنا مسافة ثلاثة أو أربعة أميال نحو الشّرق، وعند رأس وادٍ ضحل على الجانب الشّرقى لجبل العليّا Jebel el 'Alya وجدنا بركة كبيرة، بما يقارب مئة وعشرين قدماً

بمئة وخمسين، بُنيت بدقّة من حجارة منقوشة وكانت ممثلة إلى منتصفها بالتراب. وفوقها، وعلى مسافة أقرب إلى قِمّة التلّة، كان هناك مجموعة من خرائب يسمّيها العرب «الموقّر»⁽¹⁾ El Muwaggar. ولا بدّ أنّها كانت نقطة عسكريّة، حيث ظهرت بعض البقايا من المنازل التي يمكن أن تشير إلى وجود بلدة.

ويمتدّ نحو الشرق بناء لا يزال العرب يستخدمونه كإصطبل. لقد تمّ تخطيطه مثل كنيسة، بثلاث حجرات متوازيّة، وقد قسّم الصّحن من الممشى برواق مقنطر بستّة أقواس في كل جانب لا تزال قائمة، وأقواس مستديرة لا تزال على دعائم المبنى. وعلى الجوانب الدّاخلية من تلك الدّعائم كان هناك خلالها ثقب وذلك لتثبيت حبال طويلة، ومن المحتمل أنّ المكان كان في بعض الأزمنة إصطبلًا للخيول حيث كانت تربط بين القناطر. كانت الحجرات الثلاث قد سقفت بقباب أسطوانية، وكلّ من الجدار والقبّة قد بنا من حجارة صغيرة ثبتت بملاط هشّ متفتّت. وعلى بعد بضعة مئات من الياردات نحو الشّمال الغربيّ كانت هناك بركة كبيرة مفتوحة، لا ماء فيها، بجوانب من الجصّ ومجموعة درجات في إحدى الزّوايا.

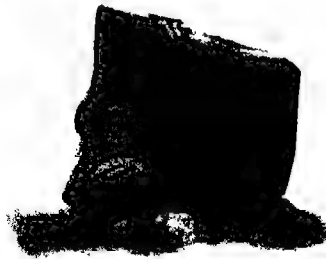


تاج عمود في الموقّر

(1) كتبت المؤلّفة: تُكتب التسمية: El Muwakkar ولكن البدو يغيّرون حرف K المشدّد بحرف G، وقد تم وصف الموقع في: ..Die Provincia Arabia, vol ii.

بينما كان المَعْلَم الأثري الأكبر لا يزال على مسافة أبعد نحو الشّمال الغربيّ، عند قَمّة التّلة تقريباً؛ ويسمّيه العرب القصر، وربّما كان حصناً أو ثكنة. كان المدخل الأساسي في جهة الشّرق، وحيث أنّ الأرض انحدرت بعيداً هنا، فقد دُعِمت واجهة المبنى على أساس مؤلف من ثماني قناطر، كان فوقها آثار لثلاثة أو ربّما أربعة مداخل لا يمكن بلوغها إلّا عن طريق مجموعة متواصلة من الدرجات. كانت هناك أعمدة مزينة تقوم على كل جانب من المداخل - بعضها لا يزال في أماكنه - وكانت واجهة المبنى غنية بالأعمدة والأفاريز، التي تناثرت أجزاؤها في الأسفل على الأرض مع عدّة رؤوس أعمدة من تصاميم متنوّعة، وكانت جميعها قد شكّلت من النّموذج الكورنثي البدائي، رغم أنّ الكثير منها كان متبايناً إلى حدّ بعيد عن النّمط الأصلي. أظهرت بعض النماذج تعريقات rinceaux بسيطة جداً، وزخارف بشكل ورقة ثلاثيّة الوريقات في منحنيات متعاقبة لأغصان متدلّية، وكانت الأخريات على شكل نتوءات مستديرة وقد غطّيت بنماذج على شكل جذع نخلة.

كان عرض واجهة البناء أربعين خطوة؛ وتوجد خلفه حجرة انتظار فصلت بجدار عرضي عن ساحة مسيّجة. لا أستطيع أن أجزم فيما إذا كان هناك غرف حول تلك السّاحة الدّاخلية المغلقة؛ إذ كدّست الأرض بالأنقاض وكسيت بالأعشاب. وعلى كلّ جانب من القناطر الثّماني المتوازية كان هناك قبو آخر فيصبح المجموع عشرة؛ ولكن لم يظهر أنّ القبوين الإضافيين قد دعما البناء الفوقيّ بأيّ نوع من أيّ أساس، حيث أنّ الجدران الجانبيّة الضّخمة لغرفة الانتظار تستند إلى جدران خارجيّة للقناطر الثّمانيّة المركزيّة. كان البناء مكوّناً من حجارة مربعة وبينها كِسْر تُبِت بملاط.



تاج عمود في الموقع

نزلنا التَّلَّةَ بشكلٍ مستقيمٍ وتابعنا على طول السَّهْلِ عند سفحه، لنعبِ موقعاً أثرياً آخر، كان اسمه نجرة Najerch. ويسمِّي العرب هذه الكومة من الحجارة المقطَّعة رُجْماً "rujm"؛ ومن اللَّافَتِ للنَّظَرِ أن يعرف الشخص كم عليه أن يبتعد باتجاه الشرق حتَّى يجدها، وكم كانت الصَّحراء مأهولة بالسَّكَّانِ على نحوٍ متواصل. قال قبلان إنَّه على بُعد مسيرة يومٍ من العُليا 'Alya يوجد حصن آخر يسمَّى الحَرَانة Kharanch، وحصن ثالث ليس بعيد عنه اسمه أم الرِّصاص Umm er Resas، وأكثر من ذلك، فبعضها يوجد فيها نقوش، وجميعها تسهل زيارتها في الشَّتاء عندما تكون المراعي الغربيَّة خاوية نسبياً⁽¹⁾.

وعندما كنَّا نسير علَّمني أن أقرأ الصَّحراء، وذلك بأن ألاحظ الحجارة الكبيرة المربَّعة التي سَطَّحت لتكون أسرةً للأولاد العرب والأوكار نصف الدائريَّة في الأرض التي تحفرها النَّوَق من أجل صغارها. وعلَّمني أيضاً أسماء جميع النَّباتات التي تغطِّي الأرض، ووجدت أنَّه على الرَّغم من أنَّ أزهار الصَّحراء قليلة من حيث الكَمِّ، فإنَّها متنوِّعة جدًّا، وتَمَّ غالباً إيجاد الفوائد لها من قِبَل العرب. فمِن أوراق العُطْرِفان utrufan يعطِّرون زبدتهم، ومن القُرْصِنة Kursa'anch الشَّائكة يصنعون سلطة ممتازة، وتتغذَّى الجِمال على أعواد البَلَّان الجافَّة، وتتغذَّى الأغنام على نبات الشَّيْح، ويستخدم رماد القلي gali في صنع الصَّابون. ولقد استمتع قبلان بدور المعلِّم، فعندما كنَّا نعبِ من أجمة من نبات شائك أزرَق إلى أخرى مشابهة، كان يسأل: «يا سَتِّي؟ ما هذا؟» ويتسم بابتهاج إذا كان الجواب صحيحاً.

(1) كتبت المؤلِّفة: قام بزيارة العديد من تلك الأطلال الأثريَّة موزيل Musil، ولكنَّ كتابه لم يُطَبَّع بعد. قلت: تقصد به الرحالة التشيكي المُجيد ألُويز موزيل، الذي نشرنا مختصراً لأحد كتبه. وسوف نقوم بتعريب كتبه الستة المهمَّة بأكملها، وهي بالفعل كنز ثمين في الطبوغرافيا التاريخيَّة والآثار والتراث الشعبي لبداية تَدْمُر والحِماد ووادي السَّرحان والجوف وشمالِي نجد وشمالِي الحجاز.



ناج عمود في الموقر

كان المقرّر أن أتناول العشاء تلك الليلة في خيمة فلاح العيسى Fellah ul 'Isa وعندما كان خيط الشفق الأحمر الأخير لا يزال يمتدّ عبر الغرب جاء قبلان ليأخذني. كان المخيم الصغير مفعماً بالحياة بكل مظاهر الضجيج التي تعطي الصحراء الحيوية بعد غياب الشمس، المؤلف من عنين ورغاء الإبل، إلى ثغاء الأغنام والماعز ونباح الكلاب المتواصل، لم يكن في خيمة الشيخ ضوء ما عدا ضوء النار؛ وكان مضيئي اندي يجلس قبالي يختفي في عمود دخان كثيف ويتضح أحياناً أخرى بلهب متصاعد. وعندما يأتي شخص مهم كضيف، يجب أن تذبج الخراف على شرف المناسبة، وبناء عليه أكلنا بأصابعنا وجبة لذيدة مؤلفة من لحم الضأن وخثارة اللبن وشرائح من الخبز. ولكن حتّى في الولاثم الليلية فإنّ العرب يأكلون كمّيات قليلة على نحو مذهل، أقلّ بكثير من امرأة أوروبية تتمتع بشهية جيدة، وعندما لا يكون هناك ضيف في المخيم، فإنّ الخبز ووعاء من حليب الجمل هو كل ما يحتاجونه.

وإنه لحقيقة أنهم يمضون أغلب يومهم نائمين أو يتحدثون في الشمس، وقد رأيت 'العقيلات' Agel' يسرون لمدة أربعة أشهر ولم يكن معهم ما يكفي من الطعام. وعلى الرغم من أنّه بإمكانهم العيش على تلك الكمّيات القليلة من الطعام، فإنك نادراً ما ترى البدو لا يعانون الجوع؛ فهم دوماً هزيلون وأجسادهم نحيلة، وأي مرض يصيب القبيلة يحصد نسبة كبيرة من أفرادها. حضر خدمي الوليمة أيضاً، وبما أننا تركنا محمّداً، أو

على الأصح طريف التصراني، لحماية الخيام في غيابنا، فقد أرسل طبق خشبي مليء بالطعام في الليل «للصيف الذي بقي في الخلف».

دخل كل من فلاح العيسى ونمرود في نقاش ممتع حول القهوة، الشيء الذي ألقى ضوءاً كبيراً على حال القبائل في اللقاء. حيث أنهم تأثروا بشكل كبير بانتهاك الحضارة لهم. فقد امتلأت مرابعهم الصيفية تدريجياً بالفلاحين، ولا تزال الأمور إلى الأسوأ، وقد شغلت منابع مياههم الصيفية الآن بالجر كس الذين أسكنهم السلطان في شرق سوريا عندما أخرجهم الروس من منزلهم وموطنهم في القفقاس Caucasus. والجر كس شعب حاد الطبع، نكد المزاج ومشاكس، لكنهم مجدون ومغامرون إلى درجة كبيرة، وينتصرون دوماً في صراعاتهم اليومي مع العرب. ومؤخراً قاموا بجر مياه من نهر الزرقا، التي كان البدو يعتمدون عليها في فترة الصيف، والتي هي سبب الحرب، وأصبح من المستحيل أكثر وأكثر الذهاب إلى عمان، المركز الرئيسي للجر كس، لشراء بعض الحاجيات الضرورية لحياة العرب، مثل البن والسكر والتبغ.

كان رأي نمرود بأن على قبائل اللقاء أن تطلب من الحكومة تعيين قائم مقام على منطقتهم لحماية مصالحهم؛ ولكن فلاح العيسى تردد في استدعاء الحكومة الغاشمة خوفاً من الخدمة العسكرية التي يمكن أن تفرض، والتسجيل الإجباري لأعداد الماشية بالإضافة إلى الممارسات البغيضة الأخرى. والحقيقة هي أن أيام عرب اللقاء باتت معدودة. وبالنظر إلى الخرائب، فمن الممكن، كما كان ممكناً في القرون الماضية، توطيد سكانه على نحو ثابت على مقاطعتهم كلها، وسيكون عليهم أن يختاروا بين أن يبنوا قراهم بأنفسهم أو أن يزرعوا الأرض، أو أن ينسحبوا إلى جهة الشرق حيث لا يمكن الحصول على الماء في فصل الصيف، والحرارة أعلى مما اعتادوا عليها.



حلب النعاج

انتقل نمرود من تلك الأسئلة المربكة ليطري على الحكم الإنكليزي في مصر. وهو لم يذهب إلى هناك أبداً، لكنّه سمع قصصاً من أحد أبناء عمومته الذي كان يعمل كاتباً في الإسكندرية؛ ولقد علم أنّ الفلاحين أصبحوا أثرياء وأنّ الصّحراء أصبحت تنعم بالسّلام مثلها مثل المدن.

قال: وتوقّفت العداوات الدّمويّة والغارات، وعندما يقوم شخص بسرقة جمال شخص آخر، انظري ماذا يحصل، يأتي صاحب الجِمال إلى أقرب مخفر ويقدم شكواه، ويركب ضابط شرطة الوحدة عبر الصّحراء إلى أن يصل إلى خيمة السّارق، ثم يلقي السّلام ويدخل. وماذا يفعل صاحب الخيمة؟ يقوم بصنع القهوة ويحاول أن يعامل الضابط كضيف. ولكن عندما يشرب الجندي القهوة يقوم بوضع نقود عند الموقد ويقول: «خذ هذه القروش»، وبذلك يكون قد دفع ثمن جميع ما أكله وشربه ولا يقبل الضّيافة. وفي الصّباح يغامر معطياً الأوامر بأنّه في غضون بضعة أيّام يجب أن تكون الجِمال في المخفر. وعندها يخاف السّارق ويجمع الجِمال معاً ويرسلها إلى المخفر، وإذا نقص عدد الجِمال عندها يقول القاضي لصاحب الجِمال: «هل اكتمل العدد؟» فيردّ: «هناك بعير ناقص»، فيقول: «كم ثمنه؟» فيجيب: «ثمانى ليرات»، فيقول القاضي للسّارق: «ادفع له ثمانى ليرات، ويدفع والله!».

لم يعبر فلاح العيسى عن أيّة موافقة صريحة عن مزايا هذا النّظام، ولكنّه استمع

باهتمام بينما كنت أشرح مبادئ مصرف الفلاحين، كما فهمتها، وعند نهاية الحديث سألت فيما إذا كان بإمكان اللورد كرومر أن يقتنع بمدّ حكمه إلى سوريا، وهو اقترح لا يمكنني الشروع بقبوله باسمه. لقد طُرح عليّ قبل خمس سنوات في جبال حوران سؤال مشابه، والإجابة عليه أثقلت دبلوماسيتي.

كان قد اجتمع شيوخ الدروز من قنوات Kanawat في خيمتي في الليل وبعد عدّة تحذيرات جرت حول الموضوع، وعدّة تأكيدات من طرفي بأنّه لا يوجد هناك من يتسمّع على الحديث، سألوا إذا كان الأتراك قد خرقوا مرّة أخرى معاهداتهم مع الجبل عندها يمكن للدروز أن يلجؤوا إلى اللورد كرومر في مصر، وإذا ما كنت سأقبل بحمل رسالة له. أجبتُ بجوّ من يقَلب الوضع في جميع مجالاته حيث أنّ الدروز كانوا شعباً جبليّاً، وأنّ مصر كانت سهلاً، ولذلك سوف لن تتلاءم معهم. نظر شيخ البلد Sheikh el Balad إلى شيخ الدّين Sheikh ed Din، فانفتحت أمام أعينهم صورة رهيبة لأرض دون معازل جبليّة تتخذ ملاذاً، أو دون طرق جبليّة يسهل الدّفاع عنها، فأجابوا بأنّ الأمر يتطلب تفكيراً أكثر، ولم أسمع عن الموضوع مرّة أخرى.

مع ذلك فالمعنى واضح: في جميع أنحاء سوريا وحتى في الصّحراء مهما كان موضع الإنسان سواء بإحساسه بالظلم أو خضوعه لعجزه، فإنّه يرغب بأن يكون تحت الحكم الذي منح الغنى لمصر، وإن احتلنا لذلك البلد، الذي فعل الكثير من الجهد ليحول عنا تعاطف المسلمين في البداية، قد قدّم تصرّفنا هناك أفضل دعاية للنّظمة الإنكليزيّة في الحكم⁽¹⁾.

(1) كتبت المؤلّفة: ومن الممكن أن يكون الاضطراب الحالي في مصر كما يبدو يلقي شكاً على حقيقة هذه الملاحظات، ولكنني لا أظن أن هذه هي القضية. فقد نسي المصريون المآسي التي خلصتهم منها إدارتنا، والتي لا يزال السوريون وسكان الصّحراء يرزحون تحتها، ومن وجهة نظرهم بأن جيرانهم يتمتعون براحة حقيقية يحسدون عليها ولكن عندما يطرد الذئب بعيداً عن باب البيت فالكوابح التي تفرضها القوانين الثابتة تؤثّر سلباً في المزاج غير المستقرّ، فالناس غير المستقرّين معتادون على اعتبار الحكم سيئاً والاستفادة من اللّين المعتاد والفرص العرضيّة للتقدّم غير المستحق الذي يميّزه. والعدالة شيء كبير جدّاً عندما تقوم بالشهر على حقوقك، ولكنّها لعينة جدّاً عندما ترغب باغتصاب



قَبْلان بن حُمود الدَّعْجَة

عندما كنتُ جالسةُ أستمع للحديث الذي يدور من حولي وأنظر إلى الخارج في اللَّيلة المُرَصَّعة بالتَّجوم، عاد بي فكري في قطار الذِّكريات الذي كان أساس اليوم كلَّه، والموضوع الذي كان قَبْلان قد بدأه عندما وقف وأشار إلى آثار مخيمه السَّالف فقلت: «في العصور قبل النَّبي تكلم أجدادكم اللِّغة ذاتها التي تتكلَّمونها أنتم، ولكننا لا نعلم الأساليب التي أضعتم بها معاني الكلمات التي استخدموها. والآن أخبروني ما معنى هذه العبارة أو تلك؟».

انحنى الرِّجال حول النار، وعندما ارتفع اللَّهب رأيت وجوههم التَّسمراء وهم يستمعون إلى كلامي، ثم أجابوا:

«بالله! هل تكلموا بذلك قبل مجيء النَّبي؟».

«ما شاء الله! لا نزال نستخدم تلك الكلمة، إنَّها العلامة على الأرض حيث نُصِبت «خيمة».

حقوق الآخرين ولن يتوانى فلاح العيسى وأمثاله عن اكتشاف عيوبها.

شجّعني هذا لأقتبس بيتين من الشعر لا مرئ القيس الذي أوحى بهما كلام قبلان:
قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلٍ بسقط اللوى بين الدّخول فحوملٍ
كان قبلان يقف عند سارية الخيمة فرفع رأسه وهتف:
«ما شاء الله! إنه عنترة».

يُنسب جميع الشعر من قبل العرب الأُميين إلى عنترة؛ ولا يعرف قبلان اسم شاعر آخر.

أجبتُ: «لا؛ فقد تحدّث عنترة بطريقة أخرى. لقد قال:
هل غادرَ الشعراءُ من مُنرَدَمٍ أم هل عرفتَ الدّارَ بعدَ توهمٍ
وكان لبيد أفضلهم عندما قال:
عفت الدّيارَ محلّها فمقامها بمني تأبّد غولها فرجالها
فمدافع الرّيان عُريّ رسمُها خلقاً كما ضمن الوحي سلامها
أوماً قبلان موافقاً.

قال: «بالله! كان السّهل قد امتلأ بالمواضع حيث أقمت».

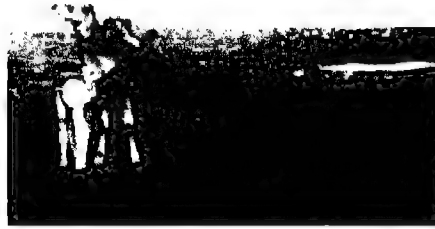
التقط قبلان الملاحظة. ونظرتُ خلفه في الليل ورأيت الصّحراء بعينيه، لم تعد فارغة تماماً ولكنها ملئت بالبشر الأصحاب أكثر من أيّ مدينة. فكلّ خطّ فيها له معنى، وكلّ حجر كأنه أثر باهت لموقد في دفء حياة العرب التي يصعب أن ينالها البرد، على الرّغم من أنّ النّار قد خمدت في غضون المئة سنة الأخيرة هذه. لقد كانت مدينة من حدود وهميّة متداخلة، تُرى الواحدة تحت الأخرى، تتلاشى وتبتدل، تتجمّع في أشكال بعناصر جديدة لكنها قديمة قدم الزّمان، ويتعدّر تمييز الجديد منها من القديم والقديم من الجديد.

لا يوجد اسم لها. لا يتكلّم العرب عن الصّحراء أو القفر كما نفعل نحن ولماذا عليهم فعل ذلك؟ فهي بالنسبة لهم لا صحراء ولا قفر، ولكنها أرضٌ يعرفون جميع معالمها، البلدة الأم حيث يقدّم أصغر منتج فيها إشباعاً لاحتياجاتهم. وهم يعلمون،

أو على الأقل قد عرفوا في الأيام عندما صاغت أفكارهم فيها ذواتهم في شعر خالد، وعرفوا كيف يتمتعون بجمال الأماكن الشاسعة، وكيف يحترمون اندفاع العاصفة. ولقد مجدوا في عدة قصائد جمال مواقع المياه؛ وتغنوا بالذباب الذي دندن هناك، كرجل يدندن سعيداً بنشوة الخمر نغمات لنفسه، وبرك مياه الأمطار التي تسطع كقطع الفضة، أو تومض في الظلام كدرع الفارس عندما تحركها الرياح. ولقد راقبوا، وهم يعبرون قنوات المياه الجافة، سير الليل البطيء، عندما تبدو التجوم كأنها ربطت بسلاسل إلى السماء كما لو أن الفجر لن يأتي أبداً. وقد رأى امرؤ القيس الثرياً قد التقطت مثل جواهر في شبكة حزام، ومع ذئب ينبح في الظلام وكأنه يطلب الرفقة:

كلانا إذا ما نال شيئاً أفاته ومن يحترث حرثي وحرثك بهزل

ولكن لم يكن هناك في الليل أو النهار رعبٌ قاهر، ولا خوف لا معنى له، ولا عدواً لا يمكن هزيمته. ولم يطلب شعراء الجاهلية هؤلاء المساعدة لا من الأشخاص ولا من الله؛ ولكن عندما حلّ بهم الخطر تذكروا صانع سيفهم ونسب جوادهم وبسالة قبيلتهم، وكانت ذراعهم القوية قادرة على التجدة والنجاح. ولذا فقد تألقوا كما يجب أن يتألق الرجال الذين تجري الدماء حارة في عروقهم، ولم يمدحوا إلا من يستحق المدح.



على طريق الحج

هذا مزاج شعر عظيم يعادل في روعته أفضل ما تفوّه به بشر. وكلّ مجال من تجربة 'عربي قد لمس في دوره، ودوّت أعمق المشاعر العاطفية. وليس هناك أبيات أروع من

تلك التي يلخص فيها لبيد إدراكه للوجود، وهو شعر كل بيت من أبياته الأربعة عشرة
قد شجن بوقار وجلال مأساوي وراء كل مديح. ويبدو أنه حزين أمام العمر المديد
والموت ونهايات بتسليم مهيب لمحدودية الحكمة البشرية:

لعمرك ما تدري الصوارب بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع
إن صوت الإنذار لا يشبه أبداً صوت الرعب. فهو يتكرر بما يكفي ولكنه لا يعكس
الجرأة المفرطة للشاعر.

يقول طرفة:

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطول المرخي وثنيه باليد
ألا أيهذا اللامي أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي
ويقدم زهير أيضاً تجربته بقوة:

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم
رأيت المنايا خبط عشواء من نصب ثمته ومن تخطئ يعمر فيهم

وقد لمست نسمة الحياة الجميع على حد سواء، شباباً وكهولاً، رجالاً ونساءً، ومن
بين الآثار الباقية الأكثر روعة في ميراث الصحراء قصيدة حزينة ألفت من أخت على
أخيها المتوفى، وقيمتها كوثيقة تاريخية لا تقل عن روعة كونها قصيدة وجدانية. فقد
أخذ النضر بن الحارث أسيراً من قبل محمد⁽¹⁾ في الأثل، بعد معركة بدر، وحكم
عليه بالموت من قبل الرسول، ومن خلال أبيات قتيلة Kutaila تلمس ثورة الشاعر
التي قوبلت بها دعوة النبي من قبل معاصريه الذين لم يخضعوا له، ممزوجة باحترام
ضروري مناسب لرجل ذي نسب شريف مثلهم. وقد بكته في قصيدة «يا راكباً»:

يا راكباً إن الأثل مظنة من صبح خامسة وأنت موقف
بلغ بها مينا بأن تحية ما إن تزال بها الركائب تخفق

(1) عليه أفضل الصلاة والسلام، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

مَنِّي إِلَيْهِ وَعَبْرَةٌ مَسْفُوحَةٌ	جَادَتْ لِمَائِحِهَا وَأُخْرَى تَخْنُقُ
فَلْيَسْمَعَنَّ التَّضَرُّعُ إِنْ نَادَيْتَهُ	إِنْ كَانَ يَسْمَعُ مَيْتٌ أَوْ يَنْطُقُ
ظَلَمْتُ سَيُوفَ بَنِي أَبِيهِ تَنْوِشُهُ	لِلَّهِ أَرْحَامٌ هُنَاكَ تَشَقُّقُ
أُمَحَمَّدٌ وَلَأَنْتِ نَجْلٌ كَرِيمَةٌ	مَنْ قَوْمِهَا وَالْفَحْلُ فَحْلٌ مَعْرُقُ
مَا كَانَ ضَرْكَ لَوْ عَفَوْتَ وَرَبَّمَا	مَنْ الْفَتَى وَهُوَ الْمَغِيْظُ الْمَحْنُقُ
وَالْتَضَرُّ أَقْرَبَ مِنْ أَصَبْتُ وَسَيْلَةً	وَأَحَقَّهُمْ إِنْ كَانَ عَتَقْتُ يُعْتَقُ

وعلى جناح أقوى لروح حرّة جامحة للصّحراء ارتفعت في صور من يمكث في سجن في مكّة، وغنّى للحب والموت بصوت لا يُنسى:

هَوَايَ مَعَ الرِّكَبِ الْيَمَانِينَ مَصْعَدٌ	جَنِيبٌ وَجْثَمَانِي بِمَكَّةَ مَوْتٌ
عَجِبْتُ لِمَسْرَاهَا وَأَتَى تَخَلَّصْتُ	أَيَّ وَبَابِ السَّجْنِ دُونِي مَغْلُوقٌ
أَلَمْتُ فَحَيْثُ نَمَّ قَامَتْ فَوَدَعْتُ	فَلَمَّا تَوَلَّتْ كَادَتْ النَّفْسُ تَرْهَقُ
فَلَا تَحْسَبُوا أَنِّي تَخَشَعْتُ بَعْدَكُمْ	لَشَيْءٍ وَلَا أَنِّي مِنَ الْمَوْتِ أَفْرَقُ
وَلَا أَنْفَسِي يَزْدَهِيهَا وَعَبْدَكُمْ	وَلَا أَنَّنِي فِي الْمَشْيِ فِي الْقَبْرِ أَشْفَقُ
وَلَكِنْ عَرَنْتِي فِي هَوَاكَ صَبَابَةٌ	كَمَا كُنْتُ أَلْقَى مِنْكَ إِذَا أَنَا مَطْلُوقٌ

فأما كَرَب الأسر والصّورة المتخيّلة لحبيبة القلب التي لم تستطع قضبان السّجن أن تبعدها، ثمّ الاحتجاج اللّطيف كيلا يحلم أعداؤه بأنّ روحه قد اضطربت، وكذلك المذاكرة القويّة للرّجل الشّجاع للعاطفة التي هزّت حياته وتركت روحه لا تزال مستعدّة لموت قاهر - فهناك أمثلة قليلة لمثل هذه العاطفة النّبيلة، ولدت ونشأت في روح الصّحراء. ولقد ترك شعراء عصر الجاهليّة خلفهم سجلاً عن عرقهم الذي لا يمكن لأمم أغنى وأكثر حكمة أن تجاريه^(١).

* * *

(١) كتبت المؤلّفة: لقد استعرت ترجمة سر تشارلز لايل Sir Charles Lyall الأجل والأكثر منهجيّة لهذه القصيدة والقصيدة التي قبلها.

الفصل الرابع

ثمّة مثل عربي يقول: «حَيَّة رَبدَا ولا ضيف مُضحى»^(١) - حَيَّة رَبدَا ولا ضيف الظَّهيرة. لقد كنا حذرين بالآ نخرق سلوكنا في بقائنا مدّة أطول أكثر من المفروض، وكانت خيمتنا قد قُوِّضت قبل غياب الشَّمس. أن تستيقظ في ذاك الفجر الصّحراوي أمر شبيه تماماً بأن تستيقظ في قلب حجر من الأوبال opal. كانت طبقات السّديم تعطي برؤوسها خارج الوديان، وتطفو حبّات النّدى في أكاليل زهور شبحيّة من الخيام السّود، وكانت انطلقت أولاً مع تألّقات باهتة للسماء الشّرقية ثمّ تلتها الأشعة الصّفراء القويّة للشَّمس السّاطعة. أرسلتُ منديلاً أرجوانيّاً فضيّاً لفلاح العيسى «للفتى الصّغير» الذي كان يلعب على نحو رزين حول الموقد. ودّعت نمرود وداعاً لائقاً، وشربت قهوة الوداع، وأمسك الشّيخ المسنّ بركاب جوادي، صعدت الجبل وسرت مع قبّان.

تسلّقنا جبل العليا Jebel el 'Alya وعبرنا قمّة السّلسلة الجبليّة الواسعة؛ وكان المنظر ممثلاً لحدود بلادنا الإنكليزيّة لكنّه أكبر، الانحناءات المتعرجة أوسع، والمسافات أبعد. أسكر الهواء البارد الرّائع جميع أحاسيسي جاعلاً دمائي تخفق - وبالنّسبة لي فإنّ الكلام عن خليج نابولي Naples يجب أن يستمرّ على نحو مختلف. انظر إلى

(١) كتبت المؤلّفة المثل بالإنكليزية:

“Hayyeh rubda wa la daif mudha”.

الصّحراء في صيف لطيف ثم مُت - إن استطعت⁽¹⁾. حتّى البغال العجماء شعرت بالتّسيم وبدأت تتسابق عبر الأرض الرّطبة الإسفنجيّة. «مجنون! هذا الملعون!» إلى أن تأرجحت حمولتها عن ظهرها ووقعت، وتوقّفنا مرّتين لوضعها وتحميلها مرّة أخرى. أشرفت علينا أعلى قمّة لجبل الدّروز بابتهاج وهي تلمع بعباءتها الثلجيّة بعيداً في الشّمال.

وعند سفح المنحدرات الشّماليّة في هضاب العليّا Alya، دخلنا سهلاً واسعاً متموّجاً مثل ذاك الذي تركناه في الجنوب. عبرنا العديد من تلك الرّجوم rjgm الغامضة التي تجعل الخيال يفكّر بالتّاريخ البعيد لتلك الأرض، ورأينا على التّو منظر المخيم المتناثر لقبيلة الحسنيّة⁽²⁾ Hassaniyyeh، الذين هم أصدقاء جيّدون للدّعجة Da'ja ويتمون إلى أصل القبيلة ذاته. ولمحنا هنا خياليّن قادمين عبر السّهل وذهب قبلان للترّحيب بهما وبقي بعض الوقت يتحدّث معهما، ومن ثمّ عاد بوجه مكفهر. في اليوم قبل الماضي وبينما كنّا نسير بأمان من طنيب قام أربعمئة فارس من الصّخور والحويطات Howeital المتحالّفين مع الشّر، باكتساح هذه السّهول، وفاجأوا جماعة قصيّة من بني حسن⁽³⁾ Beni Hassan واقتلعوا الخيام مع ألفي رأس من الماشية.

فكّرتُ بأنّه كان أمراً باعثاً على الشّفقة، حيث أنّنا قدمنا في وقت متأخّر جداً من اليوم ولكن قبلان بدا أكثر تجمّهاً عند هذا الأمر، وقال إنّّه قد يضطر للانضمام إلى هذا النّزاع، نعم حتّى أنّه من الممكن أن يضطر لأن يتركني، على الرّغم من أنّي اضطررت للتّسليم برعايته، وذلك لأنّ الدّعجة قد ألزمت بمساعدة بني حسن ضدّ الصّخور. وربما كان عمل البارحة كفيلاً بحلّ الهدنة حديثة العهد بين تلك القبيلة

(1) من الواضح أنّ المؤلّفة تلمح إلى المثل المتداول بالإيطاليّة:

“vedi Napoli e poi muori.”

(2) تعني المؤلّفة بني حسن الذين تذكرهم مراراً في هذا الفصل.

(3) بنو حسن قبيلة بدوية في الأردن، تعود بنسبها إلى الأشراف من الحسينيين الجعافرة (نسبة إلى جعفر الصادق) وهي تنقسم إلى عدّة عشائر كبيرة هي: الخوالدة، الخلايلة، الزّواهره، العموش، المشاقبة، الزّبود، العليمات، الخزاعلة، الحراحشة، الغويري، الزّبون.

لقوية والحلفاء من غِنَزَة ووضع كامل الصّحراء في حرب من جديد. كان هناك حزن في خيام بني حَسَن. ولقد رأينا رجلاً يبكي عند سارية الخيمة واضعاً رأسه بين يديه، فقد سُلِب منه كل ما كان يملك. وبينما كنا نسير تحدّثنا كثيراً عن الغزو والقواعد التي تحكمه. تتغيّر ثروة العرب مثل ثروة مقامر في سوق الأوراق الماليّة. فقد يكون الرّجل الأغنى في الصّحراء، وفي الصّباح التالي ربما يكون لا يملك بغيراً واحداً باسمه. فهو يعيش في حالة حرب، وحتى إذا ما تمّ تبادل أقوى الموائيق مع القبائل المجاورة فليس هناك ثقة بالأشخاص مجموعة من الغازين من بعد مئات الأميال بالهجوم على معسكرهم في الليل، كما حدث عندما قامت قبيلة غير معروفة في سوريا، هي بنو العواجي Beni Awajeh، قبل سنتين بالنزول على الأراضي الجنوبيّة الشرقيّة لحلب، قاطعة ثلاثمئة ميل عبر الصّحراء، مردوفين Marduf (اثنين على جمل) من مقرّهم فوق بغداد، حاملين معهم جميع الماشية التابعة للقبيلة وقتلوا عشرين رجلاً.



عرب يركبون بطريقة المردوف

ي ترى كم من ألف سنة مرّت والعرب هكذا حالهم، إن هؤلاء الذين سوف يقرؤون السدّونات الأولى المبكرة للصّحراء الداخليّة سيخبروننا بذلك، لأنّ المدونات تعود إلى الأيّام الأولى للإنسان، ولكن لم يكتسب العرب في جميع القرون حكمة من التجربة. فلعربي ليس بمأمن أبداً، ومع ذلك يتصرّف كما لو كان الأمان خبزه اليومي. وهو ينصب

مخيماته الضعيفة القليلة، بما يعادل عشرة أو خمسة عشرة خيمة معاً، على امتداد واسع في منطقة غير محمية أبداً. وهو بعيد عن رفاقه بشكل كبير جداً بحيث يصعب عليه الاستغاثة بهم عند الهجوم بشكل يسمح بتجمع عدد من الفرسان معاً واللحاق بالغزاة الذين من المفترض أن يكون انسحابهم ببطء شديد، مثقلين بالغنائم من قطعان الماشية، مما يتيح إعادة القطعان المسلووبة إذا تمّ تجمع الفرسان بالعدد المناسب والسرعة المناسبة. وعندما يفقد العربي جميع مقتنياته الدنيوية يذهب في الصحراء ويشكو حاله، ويقوم شخص بإعطائه قطعة أو قطعتي قماش من شعر الماعز، ويقوم آخر بإعطائه دلة قهوة، وثالث يهديه جملاً، ورابع بعض الأغنام إلى أن يصبح لديه سقف يؤويه وما يكفي من الحيوانات لتقي عائلته من الجوع. وكما قال نمرود فهناك الكثير من العادات الجيدة بين العرب. وهو يواجه أوقاته العصيبة لعدة أشهر، وربما لسنوات، إلى أن تسمح الظروف أخيراً، وتقوم خيالة من قبيلته مع حلفائهم بالذهاب بعيداً ويقومون بإعادة جميع القطعان التي سلبت ومعها الكثير أيضاً، وتدخل العداوة دوراً آخر.

والحقيقة هي أنّ الغزو هو العمل الوحيد الذي تعرفه الصحراء والهواية الوحيدة أيضاً. وكعمل، فإنه يبدو للعقل التجاري أنّه يعتمد على فهم خاطئ لقوانين العرض والطلب، ولكن كهواية، فهناك الكثير ليقال عنه من هذه الناحية، حيث تجد روح المغامرة مجالاً واسعاً فيه - بإمكانك تصوّر الإثارة في الليل وأنت تسير ركباً عبر السهل، واندفاع الخيول في الهجوم، وأزيز الرصاص الرائع (غير المؤذي نسبياً) والانتعاش بمعرفة أنّك شخص كفؤ وأنت تعود إلى بيتك مع الغنيمة. إنّهُ النوع الأفضل للفتازية، كما يقولون في الصحراء، مع بهار من شعور بالخطر يكمن خلفها. وهو ليس إنذاراً بالخطر كبيراً جداً، إنّما هو مقدار جدير بالاعتبار من التسلية يمكن الحصول عليها دون إراقة الكثير من الدماء. نادراً ما يميل الغزاة العرب للقتل، فالعربي لا يرفع يده مطلقاً على النساء أو الأطفال، وإذا ما سقط رجل هنا أو هناك يكون ذلك بمحض المصادفة، إذ من يمكنه التأكّد ما هو مسار طلقة البندقية النهائي عندما تطلق في الليل على نحو عشوائي؟

هذه هي نظرة العرب للغزو؛ بينما ينظر إليه الدّروز بطريقة مختلفة. إنه بالنّسبة لهم حربٌ حمراء، فهم لا يلعبون اللّعبة كما ينبغي أن تُلعب، بل يخرجون للقتل، ولا يستثنون أحداً. وطالما أنّ لديهم مقداراً ولو ضئيلاً من البارود في قواريرهم وقوّة لسحب زند البندقية فإنّهم يقتلون كلّ شخص يواجهونه سواء كان رجلاً أو امرأة أو طفلاً.



مضارب مرتحلة من العقيل

وأنا أعلم باستقلالية المرأة العربيّة والحريّة التي يتمّ من خلالها عقد الزّواج بين قبائل مختلفة من أصل متساو، وقد رأيت العديد من القصص الواقعية العاطفيّة لحب ممزوج بكراهية في صور مركّبة بين عائلي مونتيغو⁽¹⁾ Montagues وكابولييت Capulets. يقول عنتره:

عَلَّقْتُهَا عَرْضاً وَأَقْتُلُ قَوْمَهَا زَعِماً لَعَمْرُؤُ أَبِيكَ لَيْسَ بِمَزْعَمٍ

ردّ قبلان قائلاً بأنّ هذه الحالات الصّعبة قد وُجدت حقّاً، وانتهت في بعض الأحيان مني نحو مأساوي، ولكن إذا اقتنع الحبيبان بالانتظار، فيمكن لتسوية أن تتمّ مستقبلاً، أو يستطيعان الزّواج خلال بعض الفواصل التي تكون في وقت هدنة ما. ولكنّ الخطر الحقيقي يكمن عندما تكون عداوة الدّم قد بدأت داخل القبيلة نفسها ويكون رجل ما

(1) كناية باسم العائليتين المتعاديّتين اللتين ينتمي إليهما العاشقان الشهيران روميو وجولييت في مسرحيّة شيكسبير الشهيرة.

قد قتل أحد أفراد قبيلته عندها يُرمى خارج قبيلته، ويصبح دون مأوى أو ملجأ، فيضطر للجوء إلى الأغراب أو الأعداء. وهكذا كان امرؤ القيس الخارج عن القانون المنبوذ، يقول مناجياً الليل:

ألا أيها الليل الطويلُ ألا انجلي بصُبحٍ وما الإصباحُ منك بأمثلٍ

على بعد بضعة أميال نحو الشمال كانت مضارب الحَسَنِيَّة Hassaniyyeh لم تسمع بعد أخبار يوم أمس السيِّئة، وكنا مسرورين بنشرها. سار قبلان إلى جميع المجموعات التي اجتزناها ونقل الخبر الذي يثقل قلبه؛ وعندما كنا نذهب تضاعف عدد الرجال الذين يرددون ثياباً بأقمشة خشنة، وربما كنتُ مخطئة بقبول التصريح الأصلي بأنهم أربعمئة، وذلك لأنهم كان لديهم الكثير من الوقت ليتكاثروا خلال الأربع وعشرين ساعة التي انقضت بين مغادرتهم ووصولنا. كانت جميع الخيام مشغولة بالتحضيرات ولكن ليس للحرب وإنما للوليمة. حيث يصادف يوم غد العيد الكبير عند المسلمين (عيد الأضحى)، وذلك عندما يقوم الحجاج في مكة بذبح ذبائحهم، ويحذو حذوهم المؤمنون الصادقون في بيوتهم. كان هناك في كل خيمة كومة ضخمة من الأشواك والتي عليها سيشوى الجمل أو الغنم في اليوم التالي، وكانت قمصان أفراد القبيلة قد نشرت في الخارج لتجف في الشمس بعد غسلها، الشيء الذي يتم حسب اعتقادي مرّة واحدة في السنة.



بئر في الصحراء

وصلنا عند غياب الشمس إلى مخيم كبير لبني حسن Beni Hassan، حيث قرّر قبلان أن يمضي الليلة فيه. كانت هناك مياه في الغدير الطيني في متناول اليد وموقع جيد لخيامنا في منخفض من الأرض حيث يقيم العرب. لم يكن أحد من الشيوخ قد خيم هناك، وهذا ما شغل بال نمرود اليقظ. رفضت جميع الدعوات وأمضيت الليلة في الخيمة، أراقب غروب الشمس واضطرام نار الطهي والدخان الأزرق الذي يرتفع بعيداً في الشفق. كان جمل الأضحية بزر كساته الوفيرة يرعى بين بغالي، وبعد حلول الظلام استقبل العيد بإطلاق مديد لرصاص البنادق. جلس قبلان صامتاً قرب نار المخيم، كانت أفكاره مشغولة بالللهو الصاخب الذي كان جارياً في المخيم. لقد كان يشعر بالمرارة حيث يتوجب عليه أن يكون غائباً في يوم كهذا. قال: «كم من الفرسان سيحلّون غداً في خيمة أبي! ولن أكون هناك نلتريح بهم أو لأتمنى يوم عيد مبارك لابني الصغير!».



مجرى ماء في الصحراء

كنّا في الخارج قبل بدء الصخب. ولم يكن لدي رغبة في مشاهدة اللحظات الأخيرة للجزور، وعلاوة على ذلك كان لدينا مسيرة يوم طويل عبر منطقة لم تكن آمنة بشكل خاص. وبقدر ما كانت قافلتني موضع اهتمام فإن المخاطرة كانت قليلة. كانت

معي رسالة في جيبي من فلاح العيسى إلى نسيب الأطرش، شيخ صلّخد في جبل الدّروز. «إلى الشيخ المعتر والمحترم نسيب الأطرش»، وتتابع (وقد سمعت مضيبي يملي ذلك على نمرود ورأيت يختهما بختمه)، «الموقر، أمدّ الله في عمره! فقد أرسلنا تحيات لك ولكل سّكان صلّخد، ولأخيك جاد الله، ولابن عمّك محمّد الأطرش في أم الرّومان Umm er Rumman، وإلى أصدقائنا في امتان Imtain. وأيضاً، سوف يأتي إليكم من عندنا سيّدة من أعرق الأسر الإنكليزيّة، كما نحبي محمّداً وأصدقاءنا الخ... (وهنا يتابع بوضع لائحة أخرى من الأسماء)، وهذا كل ما لزم إخباركم به، والسّلام عليكم».

وبالإضافة إلى تلك الرّسالة كان معي ضمان بسبب قوميتي، حيث أنّ الدّروز لم ينسوا بعد تدخلنا لصالحهم⁽¹⁾ في 1860 (مذابح السّتين)؛ وفضلاً عن ذلك فقد تعرّفت على عدّة شيوخ من الطّرشان⁽²⁾، العائلة القويّة التي ينتمي إليها نسيب. ولكنّ قبلان كان في وضع مختلف، فقد كان مدرّكاً تماماً لغموض وضعه، وعلى الرّغم من زيارة عمّه للجبل، فلم يكن متأكّداً تماماً كيف سيستقبله الدّروز؛ لقد كان يغادر مراكز حدود حلفائه، ويدخل أرضاً حدوديّة معادية تقليدياً (وهو نفسه لم يكن على معرفة بذلك، فيما عدا الحملات التي كان يجمعها للغزو)، وإذا لم يجد له أعداء بين الدّروز فربّما سيكون قد وقع بيد حثالة من أعتى أعداء الدّعجة وهم الحُسنَة Hasench أو ما شابههم، المخيّمين شرقي الهضبة.

بعد ساعة أو ساعتين من السّفر، تغيّرت طبيعة المكان تماماً: إذ انتهت رمال الصّحراء النّاعمة، وبدأت صخور حوران البركانيّة. سرنا بعض الوقت فوق أخدود من الحمم البركانيّة، تاركين الخيام الأخيرة للحسنيّة في مكان صغير مفتوح بين

(1) من المعروف في لبنان وسوريا إبان حوادث عام 1860 الطائفية (المعروفة باسم: طوشة التّصارى) أن فرنسا أخذت جانب المسيحيين الموارنة وناصرتهم، بينما وقف الإنكليز (منافسو فرنسا القدامى) إلى جانب الدّروز وأدّلوا بدلّوهم في الأحداث الجارية.

(2) تعني المؤلفة آل الأطرش، من كبار شيوخ الدّروز وأعيانهم في السويداء وصلّخد والقرى وشهبا وكافة نواحي جبل العرب.

بعض الرّوابي، ووجدنا أنفسنا على حافة سهل امتدّ حتّى سفح جبل الدّروز في امتداد متواصل مهجور تماماً، خالٍ تقريباً من الثّبات ومكسو بأحجار بركانية سوداء. وقد قيل إنّ حدود الصّحراء هي أشبه بشاطئ صخري قد تتحطّم عليه سفينة البحار الذي أبحر في المياه العميقة بنجاح ويحاول من ثمّ الاقتراب بسفينته نحو المرفأ. لقد كانت تلك الأرض التي علينا أن نخيم فيها.



أباعر عشيرة الحسنيّة

وفي مكان ما بيننا وبين التّلال كانت توجد أطلال أمّ الجمال Umm ej Jemal، التي تمثّيت الوصول إليها مع الدّروز، ولكن من أجل سلامتنا لم نستطع التحدّث عن مكان وجودها. كان السّهل مرتفعاً على نحو كافٍ ومنحدرّاً بما يكفي لحجبها عن الأنظار. ممتلك أمّ الجمال الآن اسماً مشؤوماً - أعتقد بأنّي ثاني شخص أوروبي ينصب مخيمه فيها، الأوّل كان عضواً في بعثة أميركيّة أثريّة غادر قبل أسبوعين من وصولي - وقد عزّز قلق قبلان الواضح سمعته السيّئة، والتفت نحوي مرّتين وسألني فيما إذا كان هناك ضرورة للتّخيم هناك فأجبت بأنّه تولّى أن يقودني إلى أمّ الجمال، وهكذا لم يكن هناك

أيّ مجال للتساؤل عن ذهابي، ومرة أخرى عززت عنادي وأشرت إلى أننا بحاجة إلى الماء تلك الليلة من أجل الحيوانات، ولذلك فقد كانت هناك فرصة ضئيلة للعثور على الماء إلاّ من صهاريج القرية الأثرية. وللتوّ أخرجت خارطتي، وبعد محاولة تخمين أيّ نقطة على الورقة البيضاء هي التي يتوجب أن نكون قد وصلنا إليها، تحوّلت بقاфلتي قليلاً نحو الغرب باتجاه ارتفاع ضئيل والذي منه ربّما نطلّ على هدف رحلتنا.



أمّ الجمال

تلقي قبّلان القرار بقبول حسن، وأعرب عن أسفه بأنّه لم يستطع أن يقدّم خدمة أفضل في توجيهنا. كان قد ذهب مرّة واحدة في حياته إلى أمّ الجمال، ولكن ذلك كان في ليلة مظلمة عندما كان غازياً ووقف هو وجماعته لمُدّة نصف ساعة لسقي جيادهم ثم اجتازوا شرقاً، عائدين من طريق آخر. أجل، لقد كانت غزوة ناجحة، الحمد لله! وواحدة من أولى الغزوات التي قادها. استمع ميخائيل بلا مبالة إلى مشاوراتنا، ولم يشترك البغالون في النقاش، ولكن عندما انطلقنا مرّة أخرى هيّأ حبيب مسدّسه ببراعة أكثر في حزامه، بحيث يكون جاهزاً عند الضّرورة.

تابعنا المسير، وكنت مشغولة في البحث عن الرّصيف، وهو طريق روماني مرصوف بالحجارة يمتدّ من قلعة الزّرقا Kal'at ez Zarka مباشرة إلى بُصرى، وشغلّت أيضاً

بالتساؤل ماذا عليّ أن أفعل إذا اضطررت لحماية الصديق والمرشد الذي كان لصحبته السعيدة دور في إصفاء البهجة والتشاط على ساعات السفر، والذي يجب ألا يتعرّض لأيّ أذى طالما أنّه معنا. ولدى اقترابنا من الأرض المرتفعة أكثر أدركنا بأنّها كانت مغطاة بحظائر الأغنام، واستطعنا فوراً رؤية رجال يجمعون قطعانهم معاً ويسوقونها خلف الجدران السوداء، وكانت تحرّكاتهم السريعة تنذر بالخطر. لاحظنا أيضاً بعض الأشخاص وقد كان من غير الممكن تبين فيما إذا كانوا راكبين أم راجلين، وكانوا يتقدّمون منّا من وادٍ إلى اليسار، وبعد دقيقة ارتفعت سحباً دخان أمامهم وسمعنا صوت البنادق.

التفت قبلان إليّ بإيماء سريعة وقال: «لقد ضربونا، قد أطلقوا علينا الرصاص».

قلت بصوت عالٍ: «إنّهم خائفون»، ولكّني قلتُ لِنفسي: «ونحن أيضاً خائفون».

ارتفع قبلان في ركبته، وسحب عباءته بطرفها المكسو بالفرو من على أكتافه، ولقّها حول ذراعه الأيسر وحركها فوق رأسه، وسرت معه ببطء إلى الأمام. انطلقت طلقتان أخريان، وتابعنا سيرنا نحو الأمام وقبلان يرفع راية السلام. ثمّ توقّف إطلاق النّار؛ ولم يحدث أيّ شيء على الإطلاق بعد ذلك فيما عدا ترحيب متوقّع للغرباء المعمول به مع الطّيش المعتاد للبربر. وتبيّن أنّ مهاجمينا كانوا اثنين من العرب، يتسمون ابتسامة عريضة (من الأذن إلى الأذن) ومستعدّين تماماً للتّفاهم معنا حالما يتبيّن لهم بأنّنا لسنا من لصوص المواشي، ورغبنا بشدّة أن يوصلانا مباشرة إلى أمّ الجمال. وحال التفافنا حول التل رأينا أمّ الجمال أماناً، ولمحنا أبراجها السوداء وجدرانها تنتصب بقوة في الصّحراء، فكان من المستحيل تصديق أنّها خربت وهجرت قبل ألف وثلاثمئة سنة (ثلاثة عشر قرناً). ولم نستطع أن نتبيّن الشقوق والصدوع في المبنى الحجري المسامي والثغرات في جدار المدينة إلّا بعد أن أصبحنا قريبين منها. اندفعْتُ إلى الأمام على جوادي إلى قلب المدينة، ولكن قبلان قام يماسكي ووضع يده على ركب جوادي.

قال: «أنا أذهب أولاً، فأنت في عهدي يا سيّدي».

وطالما أنّه الشّخص الوحيد الذي كان هدفاً لأيّ مخاطرة، وكان عارفاً بشكل جيّد بالواقع، فإنّ قراره جعله موثقاً به.



سقاية الأباغر

تحرّكنا بجلبة فوق الجدار الخرب، وعبرنا حول ساحة برج الدّير، الذي يُعدّ المعلّم الرئيسي لأمّ الجمال، وركبنا إلى مكان مفتوح بين طرقات فارغة، ولم يكن هناك أيّ شيء نخاف منه ولا توجد أية إشارة لحياة ما عدا وجود خيمتين سوداوين صغيرتين، رحب بنا أهلها بحماس وعرضوا علينا أن يبيعونا حليياً وبيضاً بأسلوب ودّي جدّاً. يُدعى العرب الذين يقطنون عند سفح جبال حوران القبليّة Jebeliyyeh، عرب الهضاب، وهم لا يتمتّعون بأيّ تقدير أو احترام، وإنّما مجرد خدم أو رعاة عند الدّروز. وفي الشّتاء يرعون قطعانهم التي أرسلت إلى السهل، وفي الصّيف يُسمح لهم برعي المنحدرات غير المزروعة لأغنامهم الخاصّة.

أمضيت السّاعة المتبقّيّة من النّهار أتفحص المقبرة النبطيّة الكبيرة الرّائعة خارج الأسوار. كان السّيّد دُسو⁽¹⁾ Dussaud قد بدأ العمل عليها قبل خمس سنوات؛ وكذلك

(1) الأثاري الفرنسي الشهير رُنيه دُسو René Dussaud (1868-1958) عالم آثار ومستشرق

مستر بتلر⁽¹⁾ Mr. Bulter والدكتور ليمان⁽²⁾ Dr. Littmann، اللذان سبقتا زيارتهما زيارتي مباشرة، وسيجدان أنّ عليهما متابعة ذلك عندما يقدمان كتبهما التالية للعالم. لقد شاهدا عدة قبور لم تكن مكتشفة، ولاحظا عدة رواب لا بدّ أنّها تخفي قبوراً أخرى. أرسلت رفاقي بعيداً وتحوّلت في فترة الغسق عبر الطّرق الأثريّة للبلدة في غرف كبيرة وفوق درجات متكسّرة، إلى أن جاء قبلان وناداني للدّخول إلى الخيمة قائلاً لو أنّ رجلاً رأى شيئاً ما في معطف الفرو يقوم باستكشاف تلك الأماكن الغربية بعد حلول الظّلام فسيعتقد بكلّ بساطة أنّه غول ويطلق عليه النار. وأكثر من ذلك، فقد رغب في أن يسألني عن احتمال عدم عودته إلى طيّب، ويمكن لأحد الأعراب أن يقودنا في اليوم التّالي إلى أوّل قرية درزيّة، وعندها سيصبح قبلان غير قادر على الاقتراب أكثر من الجبل.

وافقتُ عن طيب خاطر، وفي الحقيقة كان ضمان سلامته مريحاً لي. تلقّيت ثلاثّة فرنكات (ليرات ذهبية فرنسيّة) مقابل أتعابه، ورسالة شكر حارة كي يوصلها إلى فلاح العيسى، وودّعنا مع تأكيدات شديدة بأننا سنسافر معاً مرّة أخرى إن شاء الله.

انتشرت القرى المهجورة في سفوح جبال حوران الصّخريّة منذ المدّ الإسلامي في القرن السّابع للميلاد. وقد قمت بزيارة اثنتين منها تقعان على مسافة ليست بالبعيدة عن طريقي، وهي شهباء والشّهابيّة Shabhiyyeh، ووجدتهما تشبهان أمّ الجمال تماماً، وتبدوان

ولغوي تخصص في دراسة آثار ونقوش الحثيين والحيوريين والفينيقيين والسريانيين. عمل مدّة محافظاً لآثار الشرق الأدنى في متحف اللوفر، واختير عضواً في أكاديمية النقوش الكتابيّة والآداب. له عدد كبير من الدّراسات المهمة عن حضارات المشرق، سنتناول بعضها بالترجمة لهذه السّلسلة.

(1) هاورد كروسبي بتلر Howard Crosby Butler (1872-1922)، عالم آثار أميركي قام بثلاث بعثات أثريّة في الصحراء السّورية وجنوبي بلاد الشام، وله مؤلفات عديدة مهمة.

(2) الباحث الألماني لودفيغ ريكارد إننو ليمان Ludwig Richard Enno Littmann (1875-1958) مستشرق ألماني عني بدراسة اللغات والنقوش السّامية (والنسمية مغلوطة وصوابها: لغات جزيرة العرب، أو اللغات العروبيّة). له العديد من الأبحاث الهامة ومسارد النقوش، قد نترجم بعضها في المستقبل.

عن بعد مثل المدن متقنة البناء بأبراج مربعة ترتفع فوق طرقات من أبنية ثلاثية الطوابق. في الأماكن التي سقطت فيها الجدران بقيت في المكان ذاته حيث سقطت، إذ لم يعبأ أحد برفع الأنقاض، ولقد كان المسيو دي فوغيه⁽¹⁾ Monsieur de Vogüé الباحث الأول الذي وصف آثار حوران؛ ولا تزال كتبه الشهيرة تعدّ المرجع الرئيسي للمعلومات.

ولقد بنيت بيوت السّكن حول فناء يوجد داخله عادة درج خارجي يؤدي إلى الطابق الأعلى. لا يُستعمل الخشب في الأبنية، حتّى الأبواب فإنّها مصنوعة من حجارة صلبة صمّاء، وتدور على مفصّلات حجرية، وكذلك التّوافذ فهي مصنوعة من مسطّحات حجرية حُفرت بطريقة تجعلها قابلة للفتح. وفي بعض الأحيان تجد آثاراً الرواق ذي أعمدة، أو ترى أن الجدران تتخلّلها نافذة مزدوجة، والأقواس قد دُعمت بعمود صغير ورأس عمود بسيط خشن؛ وغالباً ما ترى عتبات الأبواب قد زُخرفت بصليب أو رمز مسيحي، ولكن فيما عدا ذلك فإنّ الزّينة قليلة، وقد سُقفت الغرف بالألواح حجرية مثبّته على ظهر أقواس مستعرضة.



نقض المضارب

(1) الآثاري الفرنسي الشهير أوجين ملكيور فيكونت دي فوغيه Eugène-Melchior, vicomte de Vogüé (1848-1910) دبلوماسي ومستشرق وكاتب رحلات وعالم آثار وناقد أدبي. اختير عام 1888 عضواً في أكاديمية العلوم الفرنسية، وله عدد كبير من المؤلفات.

وبعيداً عن أيّ تأكيد فإنّ النقوش النبطيّة والقبور هي المعالم الأثريّة الأقدم التي اكتُشفت في المنطقة؛ تبعها العديد من البقايا الأثريّة المهمّة للروم الوثنيين، ولكنّ الحقبة المزدهرة من دون ريب يبدو أنّها الحقبة المسيحيّة. بعد الغزو الإسلامي، الذي وضع نهاية لازدهار مرتفعات حوران، سُكنت بعض القرى من جديد، وعندما جاء الدروز قبل ما يقارب مئة وخمسين سنة، وجدوها غير مسكونة، فجعلوا الجبل ملكهم، وأعادوا إعمارهم وبالتالي دمّروا القرى القديمة، وبسطوا سلطتهم على السهول من جهة الجنوب، على الرّغم من أنّهم لم يكونوا قد وُطدوا أقدامهم في القرى من تلك الأرض المتنازع عليها، والتي بقيت أرض صيد سعيدة لعلماء الآثار. سوف تفعل البعثة الأميركيّة خيراً باستخدام الكميّة الهائلة للمواد الموجودة هناك، وقد علمت أنّ العمل قد تمّ بأيدي أفضل من يدي، وتوقّفت عن حساب المسافات وتابعت المسير. لكنّي لم أستطع حتّى الآن التعلّب على موهبة طبيعية بالتوقّف عن نسخ النقوش، وكانت قطعة أو قطعتان من النقوش هما اللتان أفلتتا من عين الدكتور ليمان Dr. Littmann اليقظة وجاءتا بمحض المصادفة أمام عينيّ فسلمتهما له عندما التقينا في دمشق⁽¹⁾.

وبالنسبة لدليلنا الجديد، فنّدي، فقد أخذ على عاتقه أن ينقل لي الأقاويل الموجودة في الجبل. لقد كان ملك الموت مشغولاً في عائلة الطرشان الكبيرة في السنوات الخمس الأخيرة. فقد كان فايز الأطرش شيخ القرية قد مات مسموماً، كما يقول البعض، وقبل أسبوع أو أسبوعين من وصولي كان الرّجل الأكثر شهرة بين زعماء

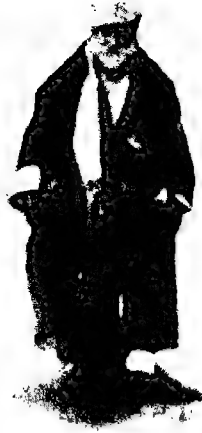
(1) بوركت يا غرترود، هذه هي نفسية الباحث العاشق للعلم والبحث. لكن ذلك يذكرني بذكرى مريرة محزنة حول عشرات الألوف من النقوش الصّفاية القديمة، وبعض النقوش اليونانيّة والعربيّة الكوفية والأيوبيّة والمملوكيّة، التي رأيّتها بأمر عينيّ في ديرة التلّول (وخاصة جبل سيس) وعلى امتداد حرّة الصّفا، وبأكتاف منقوع الرّحبة والزّلف والنّمارة وبثر الرّصيعي، مع العديد من رسوم الحيوانات البدائيّة.. شاهدتها على امتداد ست سنوات بين 1996-2001 ثم كم ألمي في عام 2005 أن أرى تلك النقوش الرائعة والثمينة قد تعرّضت لأعمال نهب فادحة جداً، حرمتنا من جزء غالي جداً من تاريخنا، يؤرّخ حركة انتقال قبائل العرب منذ أقدم العصور باتجاه الشّمال، وكانت تلك النقوش تاريخاً حيّاً خطّوه بأياديهم عبر آلاف السنين، فانتهى به الأمر اليوم إلى التّهب والبيع في أسواق الآثار العالميّة.. يا للعار!!!

الدّروز، وهو شبلي بك الأطرش قد مات بمرض عضال في ظروف غامضة - وقد قيل بأنّه السّم مجدّداً. ثم كانت هذه الحرب الواقعة الآن، وهي غارة مخيفة لعرب وادي السّرحان Wady Sirhan من أجل الثّأر، وحساب مع الصّخور يجب أن يُسدّد، لكن، وبشكل عام، كان هناك ازدهار وسلام يتمتّع به الدّروز على نحو كاف.

كانت المحادثة قد انقطعت ببعض الطّلاقات التي أطلقت على أرناب تستلقي نائمة في الشّمس. لعلّها لا تُعدّ رياضة نبيلة، ولكنّها تساعد على ملء قدر الطعام وتنويع محتوياته. تركتُ بعد مدّة وجيزة البغال وفندي ليسيروا في طريقهم الخاصّ، وأخذت ميخائيل معي، وقمتُ بجولة طويلة لزيارة المناطق الأثريّة الخربة. كنّا قد أنهينا للتو تناول غداءنا تحت جدار متهدّم، منفصلين تماماً عن بقية المجموعة، عندما رأينا فارسين يقتربان منّا عبر السّهل. جمعنا فوراً ما تبقى من طعامنا وامتطينا جيادنا بسرعة، وشعرنا بأنّ أيّ تحيّة يمكن أن يلقيها علينا يفضّل أن تكون ونحن نمتطي صهوة جيادنا. وقفنا أمامنا وألقينا علينا التّحيّة، وأتبعها بسؤال مفاجئ عن وجهتنا. أجبتُ: «إلى صلّخد، إلى نسيب الأطرش»، فسمحوا لنا بالمرور دون ملاحظة أخرى. لم يكونا من الدّروز، وذلك لأنّهما لم يكونا بلبسان لفّة (غطاء رأس الدّروز)، ولكنّهما مسيحيان من القرية Kreyeh حيث يوجد تجمّع مسيحي كبير، وكانا ذاهبين إلى أمّ الجمال Umm ej Jemal لزيارة مرابع قطعانهم الشّتويّة، هذا ما قاله فندي، حيث مرّاه على مسافة ميل إلى الأمام.

قبل عدّة ساعات من وصولنا الحدود الحاليّة للأرض المحروثة شاهدنا علامات زراعة قديمة على شكل خطوط طويلة متوازية من حجارة كُدّست على جانب الأرض التي كانت ذات يوم خصبة مثمرة. لقد بدت كأنّها مرتفع وأخدود لمرج هائل، ومثل أيّ حافة وأخدود يصعب إزالتها تقريباً، وهي علامات العمل الذي لا بدّ أنّه توقّف مع قدوم اجتياح العرب. وعند سفح أوّل قمّة من قمم التّلال، تلّ الشّيح Tell esh Shih (المسمّى بذلك تبعاً لأرض الشّيح بلونها الأبيض الرّمادي والتي هي أفضل مرعى للأغنام)، تركنا الصّحراء غير المزروعة ودخلنا منطقة الحقول المحروثة - وتركنا أيضاً السّهول الطّويلة التّظيفة للبراري المكشوفة وعلّقنا مع سنابك خيولنا في الطّريق

السّوري الموحّل الذي قادنا إلى تلة أم الرُّمّان Umm er Rumman على حافة أخفض سهل من جبل الدّروز، كبقعة موحلة قليلاً وجرداء كأخفض نقطة يمكنك أن تراها.



الشيخ محمد الأطرش

توقفتُ عند مدخل القرية، وسألت مجموعة من الدّروز أين يمكنني أن أجد أرضاً مناسبة كي أنصب عليها خيامي، فأرشدوني إلى مكان بمنتهى القذارة أسفل المقبرة، قائلين بأنّه لا يوجد هناك مكان آخر أستطيع التّخيم فيه حيث عليّ ألا أفسد المحاصيل أو العشب. وممّا يدعوا للسخرية هو أنّ الزّرع لا يزال تحت الأرض لم ينبت بعد، ويتكوّن العشب من أوراق قليلة يابسة وقد غطي نصفها بثلج ذائب. لم أستطع تقبّل فكرة نصب الخيام في منطقة قرية جدّاً من المقبرة، وطلبت التّوجّه إلى بيت محمد الأطرش، شيخ أم الرُّمّان. كان هذا الأمير من عائلة الطرشان جالساً على سطح منزله، مشغولاً بتوجيه بعض العمليات الزراعيّة التي كانت تتمّ أمامه في الأرض الموحلة في الأسفل. لقد جعلته سنوات العمر المديدة شخصاً عديم الملامح وقد تعزّز التأثير بعدد لا يُحصى من الأثواب التي أجبره برد الشّتاء على لفّ جسده البدين المسنّ بها. اقتربت منه بقدر ما سمح لي به الوحل، وصحت:

«السلام عليكم يا شيخ!».

صاح مجيئاً: «وعليك السّلام!».

«أين يمكنني أن أجد في قريبتكم مكاناً جافاً لأخيم فيه؟».

تشاور بأعلى صوته مع أتباعه الذين في الوحل، وأجاب أخيراً بآته لا يعلم، والله! وبينما كنت محتارة إلى أين أذهب تقدّم درزيّ إلى الأمام وأوضح أنّه بإمكانه أن يريني مكاناً خارج البلدة، وأوصاني الشيخ الذي ارتاح بخلاصه من المسؤولية بصوت عالٍ أن أذهب بسلام، واستأنف أعماله.

كان دليلي رجلاً شاباً بملامح واضحة وحادة وتعايير ذكاء صارمة تعكس عرقه. وقد اتّسم أيضاً مثله مثل جميع أفراد عشيرته بفضول واضح. وبينما كان يقفز من جانب إلى آخر في الطريق لتجنّب بُرك الوحل والثلج نصف الذائب، كان قد سمع منّي قصّتي كلّها، المكان الذي أتيت منه وإلى أين سأذهب، ومن هم أصدقائي في جبل الدّروز وما هو اسم والدي - وهذا مختلف جداً عن عادة العرب، فبالنسبة لهم إنّها نقطة جوهرية تدلّ على الأصل الجيّد وهي عدم سؤال الغريب أو الضيف أكثر ممّا يراه مناسباً أن يفصح عنه.

في تاريخ الطّبري هناك قصّة طريفة عن رجل طلب اللّجوء من أحد مشايخ العرب، وطالت إقامته ومات الشيخ وجاء ابنه الذي حكم مكان والده وتقدّم الابن بالعمر وأخيراً جاء الحفيد الأكبر للمضيف الأصلي وسأل أباه: «من هو هذا الرّجل الذي يسكن معنا؟» فأجاب الأب: «يا بني، لقد جاء في زمن والدي، وتقدّم والدي في العمر وتوفّي، وتابع بقاءه معنا تحت حمايتي، وها أنا ذا قد تقدّمت في العمر أيضاً؛ ولكن طوال تلك السّنوات لم نسأله أبداً لماذا لجأ إلينا ولا ما هو اسمه. وعليك ألاّ تسأله». وبعد فقد ابتهجتُ عندما وجدتُ نفسي مرّة أخرى بين أذكّاء متميّزين ويتمتّعون بعيون جبلية مكحلة وحادة النّظر، حيث يتطلّب كلّ سؤال إجابة سريعة أو تجنّباً رشيقيّاً، وعندما زاد محاورتي فضوله كان عليّ أن أجيب فقط:

«اسمع، أنت! أنا لستُ أنتِ، نادني جنابك»، وعندها ضحك وفهم وأخذ التّعنيف مأخذ الجدّ.

هناك العديد من النقوش في أم الرُّمَّان Umm er Rumman، بعضها نَبْطِي والباقي كوفي، ممَّا يثبت أنَّ البلدة التي على رفِّ الهضاب وُجدت منذ زمن مبكر وقد كانت إحدى القرى التي شغلها العرب من جديد لمدة من الزمن بعد الاجتياح. قام حشد مبتهج من صبية صغار باللحاق بي من منزل إلى منزل، يتعشرون واحداً فوق الآخر في تلهفهم في اكتشاف حجارة منقوشة مبنية في أحد الجدران أو تقبع في الأرضية الحجرية قرب الموقد. وفي أحد المنازل قامت امرأة بإمساكي من ذراعي وتوسّلت إليّ بأن أعالج زوجها. كان الرّجل مستلقياً في زاوية مظلمة في غرفة ليس فيها نوافذ، وقد غطي وجهه بضمادات فذرة، وعندما أزيلت تلك الضمادات كشفت عن جرح مربع، وهو عبارة عن أثر رصاصة اخترقت الخدّ وحطّمت الفك. لم أستطع فعل شيء إلا أن أعطيه مطهراً، وناشدت المرأة بأن تغسل الجرح وأن تحافظ على الضمادات نظيفة، وفوق كلّ ذلك ألا تسمح له بشرب الدّواء المطهّر على الرّغم من أنّي شعرت بأن الفرق سيكون طفيفاً بصرف النظر عن طريقة استعماله له، وقد تخطفه الموت سريعاً جداً بعد مغادرتي.

كانت هذه الأولى من سلسلة المعاناة الطويلة التي لا بدّ أن تقع أمام العين وتأخذ على نحو مؤسف بمشاعر جميع الرّحّالين في الأماكن المقفرة. لقد ابتلي الرّجال والنساء بالتقرّحات والآلام المبرّحة، مع الحمّى والروماتيزم، وأصيب الأطفال بالشلل فور ولادتهم، ولا يوجد بين العميان والمعمّرين أحد لا يتمنّى أن تجد الحكمة الغربية غير المحدودة علاجاً لهم. وتقفُ مشدوهاً أمام عمق المأساة البشرية وأمام عجزك عن مدّ يد المساعدة حيال ذلك.

قادني طريق الآثار في النهاية إلى باب الشيخ، ودخلت لأقوم بزيارة رسمية له. لقد كان الآن أكثر ميلاً لإظهار حسن ضيافته وذلك لأنّ عمل اليوم قد انتهى؛ جلسنا معاً في المقعد، قاعة المقابلات (غرفة الضيوف)، وهي عبارة عن غرفة مظلمة وقذرة خارج المنزل، بموقد حديدي في وسطها، وناقشنا الحرب اليابانية، والغزوات الصحراوية ومواضع أخرى محلّية، بينما قام سلمان ابن الشيخ وهو صبي جذّاب في السادسة عشرة من عمره بصنع قهوة لنا. ومحمّد هو أخو زوجة شبلي ويحيى بك الأطرش،

الذي كان مضيفي الأوّل قبل خمس سنوات عندما هربت إلى قريته عرى 'Areh من المدير التركي في بُصرى، وسلمان هو الابن الوحيد لأبيه المسنّ والتليل الوحيد لعائلة عرى الشهيرة من الطرشان، حيث أن شبلي مات، ويحيى ليس لديه أولاد. عاد الصّبي معي إلى مخيمي، وهو يخطو برفق عبر الوحل، وهو شخص شغوف ومرح على نحو مؤثّر وذو هيئة مميّزة تتناسب مع من ينحدر من أسرة نبيلة مثله. لم يكن قد التحق بالمدرسة، على الرّغم من وجود مكتب درزي كبير في القرية Kreyeh، على بعد خمسة عشر ميلاً، يديره مسيحي وبعض المتعلّمين.

أوضح لي: «يكنّ لي والدي معزّة كبيرة، ولذلك لن يسمح لي بتركه».

بدأت: «يا سلمان».

أجاب: «يا الله!» على عادة من يردّ بقوة عندما ينادى باسمه.

«إنّ عقول الدّروز تشبه الفولاذ الجيّد، ولكن ما قيمة الفولاذ إذا لم يُصنع منه نصل سيف؟».

أجاب سلمان: «كذلك عمّي شبلي لا يقرأ ولا يكتب».

قلت: «لقد تغيّر الزّمان. وسيحتاج الطرشان عقولاً مثقّفة إذا ما أرادوا أن يحكموا الجبل كما فعلوا من قبل».

لكن هذه الزّعامه هي شيء من الماضي، فشبلي مات، ويحيى لا ولد له، ومحمّد مسنّ، وسلمان غير متطوّر، وخلف فايز أربعة أبناء لكنهم لا يتمتّعون بسمعة طيّبة، ونسيب جذّاب لكنّه جاهل جدّاً، ويوجد مصطفى في امتان⁽¹⁾ والذي تخلى عن دوره كرجل مهمّ وهو قليل الذّكاء، وخمود في السويداء وهو يميّز بقدر كبير بثرائه. والرجل الأقدر بين الدّروز هو دون أيّ شك أبو طلال من شهباء، والشيخ الأكثر تألقاً هو الشيخ محمّد النّصار. كانت اللّيلة باردة على نحو قاسٍ، وكان ميزان حرارتي قد كُسِر لذا لم نتمكن من

(1) لفظ الاسم باللهجة الدّرزية بإمالة الألف. ولذا تكتب المس بل الاسم بالإنكليزية: Imtain وليس: Imtan.

تسجيل درجة الحرارة بدقّة، ولكنّ الماء الموجود في الكأس الذي بجانبه كان يتجمّد كلّ صباح، وحتى وصولنا إلى دمشق، ليصبح كقطعة من الجليد، وفي إحدى الليالي تجمّد جدول صغير خارج المخيم وتوقّف جريانه. كانت الحيوانات والبغالون قد أروا كالعادة إلى خان في فترة الصقيع، واختفى محمد الدّرزي الذي عاد إلى اسمه الأصلي ودينه في اللحظة التي نُصب فيها المخيم، وأمضى الليلة مستمتعاً بضيافة أقربائه. قال ميخائيل متهمّاً: «لأنّ كلّ رجل قدّم وجبة طعام يعتبره ابن عمّه».

كنت مجبرة على تأجيل انطلاقي في الصّباح التّالي من أجل اغتنام دعوة الشّيخ على الفطور عند الساعة التاسعة القابلة للتمدد جدّاً - ولقد كان بعد شروق الشّمس بساعتين، ومن يعلم تماماً متى الوقت المناسب لذاك التّجمّع كي يظهر؟ ولقد كان جمعاً بهيجاً. ناقشنا أمور الحرب في اليمن بكلّ ما تحمله من أبعاد - نظريّاً، حيث كنت الوحيدة التي لديّ أنباء عنها، وقد استقيتها من جريدة «التّايمز الأسبوعيّة» *Weekly Times* قبل شهر - ومن ثمّ سألتني محمّد لماذا يبحث الأوروبيون عن النقوش والآثار. وأضاف: «لكنّي أعتقد بأنّي أعرف السّبب، وهو أنّهم يمكن أن يعيدوا الأرض إلى ملائكتها».

أكّدت له بأنّ آخر سلالة ملائكتها الأصليين الأسلاف في حوران قد مات قبل ألف سنة، وقد استمع بأدب ثمّ غيّر الموضوع بزفرة من لا يستطيع الحصول على جواب صحيح.



نباتات الصّحراء وحيواناتها

ركب معنا الشاب الذي كان قد أَرانا أرض المخيم إلى صَلَخد، قائلاً إِنَّ لديه عملاً هناك وقد يرافقتنا في الطريق. كان اسمه صالح؛ وهو من عائلة متديّنة، يقرأ ويكتب. ولقد كنتُ غير لبقّة إلى حدّ كبير عندما سألتُه فيما إذا كان من العقّال 'akil، واستهلّيتُ كلامي - ينقسم الدّروز إلى عُقل وجُهال، ولكن حدّ التّميّز لا يتبع ذلك التّفوّق الاجتماعي، حيث أنّ معظم عائلة الأطرش من الجُهال⁽¹⁾. ألقى عليّ نظرة حادّة وأجاب:

«ماذا تقصدين؟» فأدركت خطأي وأقفلت الموضوع.

لكن لم يكن صالح ليترك أيّ فرصة للحصول على المعلومات، وسألني بدقّة عن عاداتنا منتهياً إلى قوانين الزّواج والطلاق عندنا. وقد فكّر مليّاً بالقانون الإنكليزي الذي يتوجّب فيه على الأب أن يدفع مالاً للرّجل الذي سيتزوّج ابنته (وبهذا فسّر العادة بأنّه يعطيها مهر الزّواج) وضحكنا معاً على سخافة النّظام. ولقد كان قلقاً لمعرفة وجهات النّظر الغربيّة حول خلق العالم وأصل المادة، وقد أجبرتُ على تقديم بعض الآراء الهرطقيّة له والتي تقبلها ببعْد نظر وتفهم أكثر ممّا تقدّمه.

أمضينا صباحاً مقبولاً، بغض النّظر عن الوحل ووعورة الطّريق، وعلى حافة الأكاليل الثّلجيّة كوّن الزعفران الأرجواني براعمه، ومعه ثوم أبيض نجمي - وترى الجبل غيماً جدّاً بأزهار الرّبيع. وإلى الجنوب كانت المناظر في السّهل الواسع الذي عبرناه فاتنة؛ وارتفعت الهضاب نحو الشّمال في منحدرات مغطّاة بالثلج دون انقطاع، وبدت منطقة القليب (القلب الصّغير) تشبه جبال الألب بقممها المتجمّدة المغطّاة تقريباً بالضّباب، ووصلنا بعد الظّهر بساعتين إلى صَلَخد، هدف رحلتنا الأوّل.



(1) لم تفهم بل هذا المصطلح الدّيني لدى الدّروز، فالفارق لديهم بين العقّال والجُهال ليس في الثقافة والقراءة والكتابة، بل العاقل هو من تلقى تعاليم دينه (في سنّ الأربعين)، والجاهل من لم يتلقّاها، سواء لعدم بلوغه الأربعين أو لعدم أهليّته العقلية أو الأخلاقيّة. ولهذا صُعق الرّجل بوصفها لال الأطرش بالجُهال.

الفصل الخامس

من المفترض أن تكون سَلْحَة⁽¹⁾ SALCAH، مدينة الملك عوج Og في باشان Bashan، مكاناً محصناً منذ بداية التاريخ. تتجمع القرية الحديثة حول قاعدة بركان صغير، حيث توجد قلعة متهدمة على القمة في قلب فوهة البركان، ولقد شكّلت هذه القلعة وأسلافها من القلاع في الوسط القاعدة العسكرية الأمامية لجبال حوران ضد الصحراء، مركز الدفاع لأولى الحضارات ضد الغزاة الناهبين الأوائل. وتميل الأرض فجأة نحو الجنوب والشرق، تغطيها رابية بركانية أو اثنتان في الجوار مباشرة، وتستقر في الأسفل في السهول الطويلة التي تصل إلى نهر الفرات؛ مستقيمة مثل سهم انطلق من قوس الطريق الروماني واستمرّ خارجاً من صلّحد إلى الصحراء في خط لم يسر فيه رحالة حديث أكثر من مرحلتين أو ثلاث.

يبدأ طريق القوافل إلى نجد من هنا⁽²⁾ ويمرّ بكاف Kaf وإثرة Ethreh على طول

(1) تشير المؤلفة إلى ما يرد في سفر التثنية (10: 3): «كلّ مُدن السّهل وكلّ جلعاد وكلّ باشان إلى سَلْحَة وإذري مدينتي مملكة عوج في باشان». ومعنى كلامها أن بلدة صلّحد في جبل العرب هي ذاتها سَلْحَة القديمة، وهذا بالطبع أمر مرجّح. لكنني أنبه إلى أنّ هذه جميعها تسميات كنعانية سابقة بكثير لعهد التّوراة التي دوّنت في القرن الخامس ق.م.

(2) نحيل القارئ الكريم إلى تتبع خطى الرّحّالين الذين قصدوا الجوف في شمالي جزيرة العرب قادمين من هذا الطريق، وأهمهم: الليدي البريطانية آن بلنت وزوجها عام 1878، ومواطنهما آر تشيبولد فوردر عام 1900، والألماني يوليوس أويتنغ عام 1883 ومواطنه البارون إدوارد نولده عام 1893. أما الإيطالي كارلو غوارماني فقد قصد الجوف عام 1864 قادماً من فلسطين عبر طريق آخر من وادي زرقاء معين فالحمد القبلي إلى وادي السرحان.

وادي السّرحان إلى الجوف وحائل، وهو طريق محفوف بالمخاطر، على الرّغم من أنّ الزوجين بلّنت Blunt قد سلكاه بنجاح ومن بعدهم جاء أويتنغ Euting. وقد جاء وصف أويتنغ له متمّعاً بكل ما يتصف به الألمان من العلم والملاحظة الدّقيقة، وهو أفضل ما لدينا. وعلى خطّ مستقيم جنوب صلّحد توجد قلعة متهدّمة رائعة، هي قلعة الأزرق، في واحة توجد فيها أجمات مليئة بالخنازير البريّة: ولقد زارها دُسو Dussaud وقدم وصفاً ممتازاً لرحلته. بالتّأكيد لا يزال هناك الكثير لاكتشافه؛ وفي الصّحراء هناك العديد من القصص التي لم تُرو بعد، ويصعب عليك في صلّحد أن تحفظ قدميك من الالتفاف نحو الجنوب، حيث تدعوك هذه السّهول العظيمة الغامضة على نحو مغرٍ.

في الحال ذهبْتُ إلى بيت نسيب الأطرش وقَدّمت رسالة فلاح العيسى. ونسيب رجل في السّابعة والعشرين من عمره، على الرّغم من أنّه يبدو أكبر بعشر سنوات، قصير القامة وأنيق بملامح قاسية يميّز بها الدّروز، وبتعبير يوحى بالمكر أكثر من البهجة. لقد استقبلني في مضافته حيث كان يجلس مع أخيه جاد الله، وهو شابّ طويل القامة وسيم الوجه ولكن بتعابير توحى بالغباء. وقد رَحّب بي بكلمة «بونجور»⁽¹⁾ "Bonjour" ثم عاود الصّمت، منتهياً بالكلمة الفرنسيّة الوحيدة التي يعلمها. وكما استعار عبارة واحدة من اللّغة الأوروبيّة، فقد استعار أيضاً قطعة ثياب من خزانة الثّياب الأوروبيّة أيضاً: إذ اختار ياقة سمكة عالية، بدت غريبة مع ثيابه العربيّة. كان هناك بعض الدّروز يشربون القهوة في المضافة، وشخص آخر أدركت فوراً أنّه غريب. وقد تبين أنّه مدير المال في الحكومة التّركيّة - ولا أعلم ما هي مهمّاته بالضّبط، ولكنّ شكله يدلّ على أنّه موظّف الماليّة.

(1) بالفرنسيّة تعني: يوماً طيّباً، صباح الخير. لكنها اليوم تكتب هكذا: Bonjour متصلة.



قلعة صَلَخَد

تُعَدَّ صَلَخَد إحدى القرى الثلاث في جبل الدروز (والأخرى هي السويداء وعِرى Arch) التي فيها للسلطان قائم مقام ومحطة تلغراف. ولقد دُهِش كل من يوسف أفندي القائم مقام وملحِم إليان مدير المال إلى حدٍّ كبير عندما جئت من الصحراء دون إنذار أو إذن؛ ولقد أرسلنا ثلاث برقيات يومياً إلى والي دمشق، ذاكرين فيها كل ما قمْتُ به أو قلته، وعلى الرّغم من أنّي كنت على علاقة جيّدة بكلّ منهما، فقد وجدت فعلاً أن ملحِم هو الرّجل الأكثر ذكاءً وقبولاً في القرية، وخشيت أن أكون قد سبّبت لهما الكثير من القلق الذهني.

دعني أقول هنا بأنّ خبرتي بالموظفين الأتراك قادتني إلى اعتبارهم من بين الرّجال الأكثر تهديباً ولطفاً. فإذا أتيت إليهم مزوداً بالشّهادات المناسبة فليس هناك ما لا يقومون به لمساعدتك؛ وعندما يوقفونك فذلك بسبب أنّهم قد ألزموا بطاعة الأوامر من السّلطات العليا؛ وحتى عندما تُهمل، كما يجب أن يحصل بين فترة وأخرى، فإنّهم صوغون الرّفص دائماً بلغة استرضائية وكأنّه كان غلطة، وهم يخفون انزعاجهم فقط ولا يبدون لك أيّ تدمّر من المتاعب التي سبّبتها لهم.

يشغل موظفو الحكومة في صَلَخَد وضعا ليس بالهين، وإنّها لحقيقة وجود سلام في الجبل من حوالي خمس سنوات، لكن الدّروز عرق مراوغ وسريع الغضب. لقد

استوعبهم ملجئ جيداً، ويُعدّ منصبه في مكتب البريد الجديد في صلّخْد دليلاً على رغبة الوالي الحقيقيّة في تجنّب المشاكل في المستقبل. ولقد أمضى عدّة سنوات في السويداء قبل أن يأتي إلى صلّخْد؛ وقد كان مسيحيّاً، لذلك لم يفرّق بين الدّروز بالهوّ العميقة من الكراهية الموجودة بينهم وبين المسلمين، ولقد كان مدركاً إلى حدّ كبير أنّ الحكم التّركي في جبل حوران يعتمد على قلة المطالب لهذا الشعب التّابع اسميّاً للدّولة والمستقل عمليّاً. ولم يكن يوسف أفندي بعيداً عنه في قوّة اقتناعه بهذه المسألة، وكان لديه أفضل الأسباب لإدراك مدى ضعف سلطته.



نسيب الأطرش

هذا ولا يوجد في منطقة الجبل كلّها أكثر من مئتي جندي تركي؛ والبقية من القوّات العثمانيّة هم من الظابطيّة zaptiehs الدّروز المسرورين بلباسهم الحكومي الرّسمي وبأخذ الرّواتب الحكوميّة في المناسبات النّادرة عندما تصل إليهم، على الرّغم من أنّه يصعب اعتبارهم حرساً جديرين بالثّقة في حال نشوء خلافات جدّيّة بين شعبهم وبين السّلطان. ووفقاً للمظهر الخارجيّ فإنّ نسيباً وأخاه يرتبطان بعلاقات صداقة وثيقة مع القائم مقام؛ وهما يجلسان دائماً في مضافته ويشربان قهوته، لكن ذات مرة عندما

حصل أن كنت وحيدة معه، قال يوسف أفندي بصوت مثير للشفقة بعربية ممزوجة بالتركية: «ليس لدي علم أبداً بما يقومون به: فهم يعتبرونني عدواً. ولو رغبوا بعصيان الأوامر القادمة من دمشق، فإنهم يقطعون أسلاك البرق ويمضون في حال سبيلهم. وليس لدي من القدرة ما يمنعهم من ذلك».

مع ذلك فهناك إشارات تدلّ على أنّ السكّان المتمرّدين في الجبل قد صرفوا فكرهم إلى أمور أخرى غير الحرب مع العثمانيين، ومن بين أهمّ هذه الأمور الطواحين المائية التي تطحن القمح في صلحّد وبعض القرى القريبة. ويكون الرّجل الذي يملك طاحونة ماء مضطراً للمحافظة على النّظام، فهو قد بناها بنفقة طائلة، ولا يرغب برؤيتها محطّمة من قبل الجيش التركي الغازي وضياح رأسماله؛ بل على العكس من ذلك فإنّه يأمل بجمع ثروة منها، وقد وجد نشاطه المتواصل منفذاً جديداً ومربحاً في ذاك الاتجاه. وفي رأيي فإنّ السّلام مستقرّ على قواعد أكثر ثباتاً ممّا كان عليه قبل خمس سنوات، ولم تتوان الحكومة العثمانية عن تعلّم الدّروس من الحرب الأخيرة - ولو كان باستطاعة والي دمشق تعلّم كم كانت إجراءاته الحديثة مناسبة وما هو مقدار تأثيرها في المرأة الإنكليزية المخادعة، لكان وفرّ على موظفي البرق العديد من ساعات العمل.



مجموعة من الدّروز

ومن النادر الحصول على مثال عن الحرّية التي يدير بها الدّور شؤنهم الخاصّة أكثر من تلك التي قدّمت في حادثة جرت في اللّيلة التي وصلتُ فيها تماماً. وقد تمّ التصريح سلفاً حسب شهادة فنّدي بأنّ العلاقات بين الجبل والصحراء مشحونة باحتمالات حادثة قتال مألوفة، ولم تمضِ فترة الظّهيرة في صلّحد حتّى اكتشفنا أنّ الغزو العظيم الذي وقع قبل بضعة أشهر كان الموضوع الرّئيسي الذي شغل إلى حدّ كبير نسيباً وأخاه. لم يكن هذا هو ما تحدّثنا به معي، لكنّهما استمعنا بتلهّف عندما تكلمنا عن الغزو على الحسنيّة Hassaniyyeh والدّور الذي لعبه الصّخور في هذا الغزو، واستخلصوا منّا كلّ ما نعرفه أو نخمّنه مثل مواقع المضارب الحاليّة لقبيلة الصّخور Sukhur، وما هي المسافة التي اجتازها الغازون، وفي أيّ اتجاه انسحبوا.

وقد سمع البغالون الرّجال يهمسون في زوايا الشّارع، وكانت همساتهم عن استعدادات حربيّة؛ أمّا المجموعات حول نار ميخائيل، والتي هي دوماً مركز نشاط اجتماعي، فقد تكلمت عن الأضرار التي لا يمكن تحمّلها أو التّغاضي عنها، ولقد زوّد أحد أبناء عم محمّد الكثر ذاك البيروتي الجائع بغداء منكّه بإشارات سوداء لتحالف بين وادي السّرحان Wadi Sirhan وبني صخر Beni Sakhr والذي يجب أن يُكبّح قبل أن ينضج ويتخذ نسبة من الخطر. لا يمكن لموجة الغزو أن تصل صلّحد إلّا بصعوبة كبيرة، ولكن قد يحصل الأذى قبل أن تصل تلك النّقطة بمسافة طويلة، وخاصّة في فصل الشّتاء عندما تكون جميع المخلوقات ذوات الأربع، ما عدا الخيول الصّوريّة للرّكوب، بعيدة في السّهل الجنوبي.

كانت خيمتي قد نُصبت في حقل خارج البلدة عند السّفح الشّرقي لهضبة القلعة. وكانت المنحدرات الشّماليّة مغطّاة بالثلوج حتّى جدران القلعة المتهدّمة، وحتّى في المكان الذي نزلنا فيه كان هناك بعض بقع الثّلج المتناثرة تلمع تحت ضوء البدر. كنت قد أنهيت عشائي للتوّ، وأفكر فيما إذا كان عليّ كتابة يومياتي في هذا الطّقس شديد البرودة، عندما سمعت صوت غناء فظّ مزّق صمت اللّيل، وارتفع دخان عظيم في السّماء في أعلى الجدران في القلعة. لقد كانت نار إنذار أضرمّت لتخبر بقدوم

غزو إلى العديد من القرى الدرزية القابعة على السهل أسفل القلعة، وكانت الأغنية دعوة للاستلاح. كان هناك ضابط ظابطية zaptich درزي جالس قرب نار مخيمي؛ فقفز وحملق بي في البداية ثم في اللهب الأحمر فوقنا. فقلت:



منظر من قلعة صلخد

«هل تسمحون لي بالذهاب إلى الأعلى؟».

أجاب: «لا يوجد أي مانع. شرفي».

تسلقنا معاً على وحل نصف متجمّد، عند الجانب الشمالي المثلج للبركان، وجعلنا سريقتين في الظلام حول أسوار القلعة حيث كان رماد الحمم البركانية تحت أقدامنا، ثم خرجنا في ضوء القمر المكتمل إلى أكثر المناظر وحشة يمكن أن تراها العين. وقف جمع من الدروز من الشباب والصبيان على حافة الخندق المائي على كتف ضيق من التلة. كانوا جميعهم مسلّحين بالسيوف والخناجر ويصرخون بعبارة تلو الأخرى صوت مفزع. كان كل مقطع منها يعاد عشرين مرّة أو أكثر حتى يتبين للسامع أنها قد

التصقت في الأعماق الدّاخلية للعقل كما يلتحم الحمض بالتّحاس.

«عليهم، عليهم! يا ربّنا يا الله! ليقع عدوّنا بضربات سيوفنا!

عليهم عليهم! لتشرب رماحنا من قلوبهم!

لنجعل الرّضيع يترك ثدي أمّه!

لنجعل الشّاب ينهض ويذهب!

عليهم عليهم! يا مولانا يا الله! لتشرب سيوفنا من قلوبهم...».

هكذا غنّوا، وبدا وكأنّ ثورة غضبهم الشّديد لا يمكن أن تخمد أبداً، وكأنّ جدران القلعة لن توقّف عن ترديد صدى غضبهم اللّامتناهي، ولن يعرف الليل السّكون مرّة أخرى، وعندما توقّف الغناء فجأة تفرّق الهانفون وشكّلوا أنفسهم في حلقة، حيث أمسك كلّ رجل بيد جاره. وإلى داخل الحلقة مشى ثلاثة شباب دروز حاملين سيوفاً مسلولة، وداروا بخطى واسعة حول حلقة الشّباب المتلهّف المحيطة بهم، ووقفوا أمام كلّ واحد بدوره وهزّوا سيوفهم وصرخوا:

«هل أنت رجل جيّد؟ هل أنت رجل حقيقي؟».

وأجاب كلّ واحد بصرخة:

«ها! ها!».

وسقط ضوء القمر على الوجوه السّمراء، ولمع على نصل السيوف المسلولة، وانتقلت الحماسة الحربيّة المتقدّمة من يد إلى يد، وبكت الأرض إلى السماء: حرب! حرب حمراء!

ثمّ شاهدني أحد الشّبان الثلاثة وأنا أقف في الحلقة، ومشى بسرعة ورفع سيفه فوق رأسه، وكأنّ أمّة تقابل أمّة.

وقال: «سيّدتي! إنّ الإنكليز والدّروز شعب واحد».

قلت: «الحمد لله!، ونحن أيضاً سلاله محاربة».

حقاً، وفي تلك اللحظة، لم يبدو أنّ هناك شيء أكثر متعة من أن تذهب وتقتل عدوك. عندما انتهت تأكيدات المحاربين تلك، نزلنا التلّة تحت ضوء القمر، وما زالت أيدينا متشابكة، وعندما رأيتُ أنّ بعضهم كانوا لا يزالون أطفالاً لم ينضجوا بعد، قلت لرفيقي الذي كانت يده ممسكة بيدي:

«هل سيذهب جميع هؤلاء معك؟».

أجاب: «بالله! ليس الجميع. على الصّبية الصّغار أن يبقوا في البيت ويدعوا الله أن يأتي يومهم الذي سيكبرون فيه بسرعة».

عندما وصلوا إلى مدخل البلدة، قفز الدّروز على سطح منزل، وبدؤوا بأغنياتهم الشّيطانية. أُضرمّت التيران على أسوار القلعة، وأصبح اللّيل بارداً فجأة، وبدأت أشكّ فيما إذا تمكّن ملحم ووالي دمشق من رؤيتي مشتركة بمظاهرة عسكريّة ضدّ الصّخور Sukhur فهل سيبقيان مؤمنين ببراءة رحلتي؛ لذا فقد تراجعت إلى الظلّ وركضت إلى خيامي في الأسفل وأصبحت أوروبية مرّة أخرى، وانكبت على أعمال سلميّة غير ملحة بالعواطف الفطريّة المجرّدة للجنس البشري.

كانت لدينا تساؤلات معيّنة لنجعل لرحلتنا معنى، وأن نخزّن مواد تموينيّة قبل أن ننطلق إلى الجانب الشرقي من الجبل، حيث لا توجد قرى كبيرة، وبناء عليه فقد أمضينا يومين في صلّحد. كانت الصّعوبة الكبرى في قضيّة المؤن هي تأمين الشّعير للحيوانات. كان لدينا ما يكفي في أم الرّومان Umm er Rumman، ولكن لم يتبقّ شيء منها في صلّحد؛ ويجب الذهاب دوماً إلى السويداء للحصول عليه، والتي هي المركز الرّئيسي للحكومة التّركيّة، لكنّها كانت بعيدة عبر التلال، وقرّرنا أن نرسل إلى قرية امتان Imtein، حيث الطّريق إلى هناك خالٍ من الثلج. من المهمّ تسجيل ذلك في الشّتاء، عندما تكون قطعان الأغنام جميعها بعيدة في السّهل لعدّة ساعات، فإنّه من المستحيل شراء رأس غنم من الجبل، وعلى الرّحالة أن يغيّر إلى مثل هذه الدّجاجات

الهزيمة التي يمكن أن يجدها. ولقد أثر قصر النظر في العواقب، الذي أدى إلى جعل مخزن لحومنا فارغاً - على ميخائيل بشكل كبير، حيث أنه تباهى بتعويد نفسه على أكل فخذ الضأن المشوي، وسألني كيف أنّ جميع الكتب التي أحضرتها معي لم تلمح إلى غياب الحيوان الذي يمكن أن يسدّ مكانه مقدماً نفس الطعام الشهي. أجبتّه بأنّه يبدو أنّ كتاب هذه الأعمال قد اهتموا بشكل كبير بالآثار الرومانية أكثر من تلك الأمور الخطيرة كالشواء والأطعمة المطهّوة، ومن أجل ذلك قال بحزم:

«عندما تكتبين جنابك كتاباً، فلن تقولي: لا يوجد هنا كنيسة جميلة، وقلعة كبيرة، فالسادة يمكنهم أن يروا ذلك بأنفسهم. ولكن عليك أن تقولي: لا يوجد في تلك القرية دجاج لذا سوف يعلمون منذ البداية أي نوع من البلاد هي».

* * *



قرية

أمضيتُ اليوم الأوّل من زيارتي مع نسيب، أراقبه وهو يعطي الأوامر لطحن القمح اللازم للحملة العسكرية القادمة (الأمر الذي تجنّبنا الإلماح إليه بإصرار)، مصوّرة إياه هو والوجهاء من قريته، وتناولت معه طعام الغداء في مضافته وكان عبارة عن خبز مرقوق كالورق بني اللون ومبرغل مع الدّبس، وهو نوع من دبس السّكر مصنوع من عصير العنب

المغلي، وصنف مقرّر بشكل كبير من حساء مصنوع من اللبن الحامض مع فتات من دهن ممزوج فيه - يسمّيه الدّروز «قِرَق» Kirk وله عندهم مكانة لا مبرّر لها.

وفي فترة بعد الظّهر سار نسيب لمسافة عشرة أميال نحو الجنوب ليحلّ خلافاً بين قريتين من قراه، وقد دعاني لاصطحابه؛ لكنّي فكرت بأنّه قد تكون هناك قضايا أخرى موجودة ومن الممكن أن تكون مربكة إذا طلب غريبّ العون، وسوّيت الأمر بالموافقة على الذهاب معه لمدة ساعة ثمّ ألّفت جانباً لزيارة ضريح على قمة تلة، للولي الخضر الذي ليس بالنسبة لنا إلّا القديس جورج St. George. ركب نسيب في موكب مؤلّف من عشرين رجلاً مسلّحاً إلى جانبه، وقد لبس هو نفسه عباءة طويلة من قماش أزرق غامق اللّون مطرزة بخيوط سوداء، مع وشاح بلون أزرق باهت تُبّت بطيّات اللّفة البيضاء التي تطوّق طربوشه. بدا الموكب فخماً جدّاً، وقد التفت كلّ رجل بعباءة وحمل بندقية على ركبتيه. ناولوني البنادق واحدة تلو الأخرى كي أقرأ ما كُتب عليها. كانت من تواريخ وأصول مختلفة، كان بعضها عبارة عن قطع قديمة بطل استخدامها سُرقت من الجنود الأتراك، وكان أغلبها فرنسيّ الصّنع وحديثاً إلى حدّ ما، بينما أحضر بعضها من مصر وكُتب عليها الحرفان V.R. مع الحربة المسطّحة.

ركب نسيب معي لبعض الوقت واستجوبني حول وضعي الاجتماعي، وفيما إذا كنت أركب في بلدي مع ملك إنكلترا، وما مقدار ثروة والدي. لم يكن فضوله خالياً تماماً من دافع؛ فالدّروز يأملون دوماً أن يجدوا دولة أوروبية غنيّة يستطيعون الاعتماد عليها، ويمكن أن تمولّهم وتزوّدهم بالأسلحة إذا اندلعت أيّ حرب أخرى بينهم وبين السّلطان؛ لقد عبّرت إجاباتي عن الوضع المهين لأهليّته في هذا المجال، حيث أنّي شعرت بالتحريض لأسأل وبطريقة أكثر مناورة من طريقة نسيب عن مقدار الثّروة في الجبل. كانت الإجابة بأنّ أغنى رجل في عائلة الأطرش هو حُمود من السّويداء والذي صل دخله إلى حوالي خمسة آلاف ليرة فرنسيّة. لم يكن دخل نسيب نفسه يبلغ هذا المقدار، فدخله يقارب الألف ليرة فرنسيّة سنويّاً، وربّما تأتيه في معظمها على شكل سحاصيل؛ وتأتي كل الموارد الماليّة من الأرض، وتختلف بشكل معتبر وفقاً لحسن

طبيعة السنة الزراعيّة. أعتقد أنّ الأرقام التي أعطيت لي كانت زائدة وتعتمد على الحساب وفقاً للحصاد الأفضل أكثر من المتوسط الحسابي.

تخلّف نسيب حالياً وانشغل بمحادثة هامسة مع رجل مسنّ كان مستشاره الرئيسي، بينما احتشد الباقون حولي وأخبروني قصصاً عن الصحراء وعن الآثار العظيمة في الجنوب، وعن استعدادهم لمساعدتي في رؤيتها فيما لو بقيت معهم. قابلنا عند سفح التلّة جمعاً من الخيالة ينتظرون نسيباً ليخبروه ببعض الأمور المهمّة عن العرب. وقفت أنا وميخائيل جانباً نرى مضيفنا ينظر إلينا بارتياح من زوايا عينيه. كانت الأنباء السيئة هي كلّ ما سمعناه، ولم يتمكّن أحد من معرفة ذلك حتّى في وجه نسيب المخادع واللامبالي ومن عينيه اللتين تخفيان تحت جفنيهما ما لا يريد أن يظهره، وكأنّه يرغب في أن يكون واثقاً من عدم خروج بريق واحد منهما يمكن أن يكشف أفكاره. تركناه هنا، لنجدته الحربيّة الواضحة، وصعدنا التلّة.



خَرَاث درزي

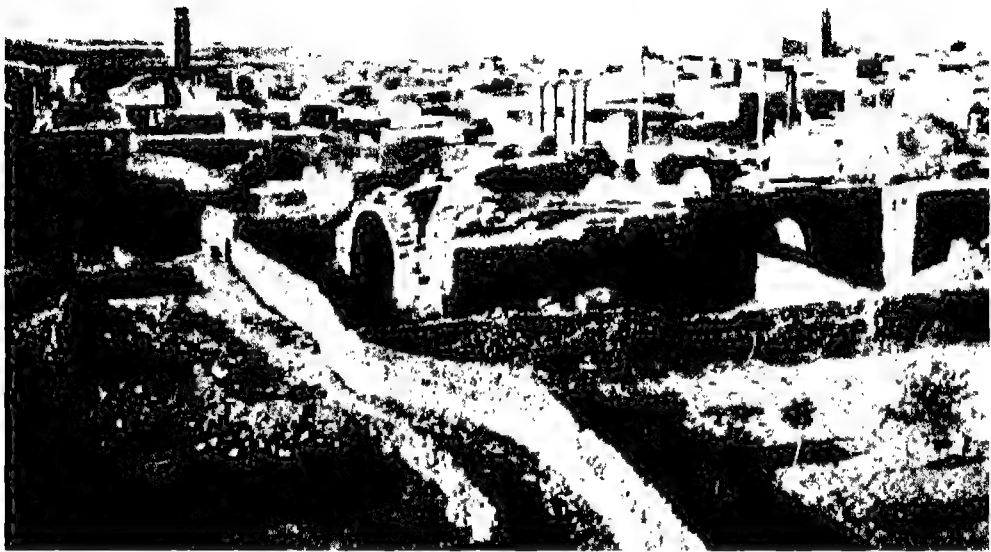
والآن لا توجد تلال بارزة في جبل الدروز ولكن تحتوي ملجأً على قمّتها، والأبنية كلّها من الطّراز الذي يعود إلى ما قبل مجيء الدّروز أو الأتراك إلى المنطقة. ما هو

تاريخها يا ترى؟ هل بُنيت يا ترى لآلهة الصخر والتلال التَّبْطِيَّة، لذي الشَّرى Drusara أو اللات Allat ومجمع الآلهة من النَّقوش السَّامِيَّة التي عبدها أهل الصَّحراء وقَدَّموا لها الأضاحي عند الكعبة وفي عَدَّة تلال منعزلة؟ وإذا كان هذا كما قلت فإنَّ الآلهة لا تزال تتمتع بسيطرة تحت أسماء متغيرة، وما تزال تشتم رائحة دَم الماعز والأغنام التي أصاب رذاذها الدَّعامات السَّوداء لأبواب منازلهم، ولا تزال تُسمع صلوات الحَبَّاج وهم يحملون أغصاناً خضراء وبقايات زهور. كما هو الحال مع الولي الخضر، يوجد هناك دائماً في الجزء الدَّاخلي من الحَرَم نُصبٌ مثل التاووس (تابوت حجري) مغطى بقطع قماش من خرق ملوَّنة، وعندما ترفع الخرق وتنظر أسفل منها ستجد بعضاً من كتل غريبة من التوفا (حجر مسامي) tufa، أصبحت ملساء بسبب إراقة دماء الأضاحي عليها مثلما يحدث بأخيها الحجر الأسود في مكَّة. وقريباً وفي متناول اليد هناك حوض ماء حجري - وكان الماء متجمداً فيه ذلك اليوم، وقد تراكم الثلج في الدَّاخِل عبر الأبواب الحجريَّة وكان يذوب من خلال السَّطح، وعليه فقد تجمَّع في برك موحلة على الأرض.

كان اليوم التَّالي بارداً إلى حدٍّ كبير جدًّا، بسماء رصاصيَّة اللَّون وريح قاسية تبشِّر بالثلج. جاء ملجَم إلبان يدعوني إلى المبيت عنده، لكنني رفضت مخافة أن أشعر ببرودة خيمتي بعد غرفته الدَّافئة. بقي لبعض الوقت ثم اغتنمتُ الفرصة لأناقش معه خطَّتي حول الرُّكوب والسير إلى الصَّفا Safa وهي القفر البركاني شرقي جبل الدَّروز. لم يشجَّعني على الإطلاق، وفي الحقيقة فقد فكَّر بأن مشروع اختراقها مستحيل في ظلِّ الظُّروف الحاليَّة، حيث يبدو بأن أفراد الغياث، وهي القبيلة التي تسكن الصَّفا، كانوا مسلَّحين ضدَّ الحكومة. لقد كمنوا وسرقوا البريد الصَّحراوي بين دمشق وبغداد، وكانوا يتوقَّعون العقوبة على يد الوالي.

وفي حال أرسلوا معي حراسة صغيرة من الظَّابطيَّة zaptiehs فإنَّهم ومن دون ريب سيقطَّعونهم إرباً. ومع ذلك فقد وافق ملجَم أنَّه من الممكن أن أذهب وحدي مع الدَّروز لأنَّ أيَّ اعتماد على سلاح الجند سيكون غير مفيد، ووعد بأن يعطيني

رسالة إلى شيخ قرية ساليه، محمد النصار، الذي وصفه بأنه صديق جيد له ويتمتع بنفوذ وحكمة. ويُعتبر الغياث في وضع مشابه مع الدروز كما هو الحال مع القبيلة Jebeliyyeh؛ فهم لا يمكنهم تحمّل أن يكونوا على علاقة سيئة مع الجبل، حيث أنّهم يعتمدون على مراعيه المرتفعة خلال فصل الصيف.



بُصرى إسكي شام

رَدَدْتُ زيارة ملحِم قبيل الغروب. كانت غرفته مليئة بالنّاس، بما فيهم نسيب العائد مؤخراً من حملته العسكريّة. طلبوا مِنّي أن أخبرهم عن تجاربي الجديدة في الصّحراء، ووجدت أن جميع أصدقائي كانوا يُعدّون أعداءً للدروز وأنّ الدروز ليس لديهم حلفاء غير الغياث Ghiath والقبيلة Jebliyyeh - حيث أنّ الشّرات والدّعجة Da'ja وبني حَسَن Beni Hassan، كان بينهم وبين الدروز الكثير من الدّماء. وفي الصّحراء تُعدّ

كلمة العدو «قوم» gom ثانوية فقط إلا للضيف، أما في الجبل فإنها تأتي أولاً. قلت:

«يا نسيب، يُشبه الدّروز أولئك الذين قصدهم قُريظ بن أُنَيْف عندما قال:

قومٌ إذا الشرُّ أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافاتٍ ووحدانا

استرخى الشيخ الماكر الهادئ لبرهة، ولكنّ الحديث كان ينحرف إلى موضوعات خطيرة جدّاً، ثم نهض بسرعة وغادر. ومُلئ مكانه بوافدين جدد. (ويتوجّب على دلة قهوة ملحّم أن تغلي على الثّار من الفجر حتّى وقت متأخّر من اللّيل)، وبعد قليل دخل شخص فنهض الجميع للسلام عليه. لقد كان الآغا الكردي وهو رجل كهل لطيف بشارب أشيب وذقن حلقة نظيفة يأتي من دمشق بين فترة وأخرى في بعض أعماله. ويعتبر ملحّم من سكّان دمشق المحليّين، وكان لديه الكثير من الأسئلة التي يودّ سماع أجوبتها؛ وتبدّل محور الحديث عن الموضوعات الصّحراوية ودار حول سكّان المدن وطرق حياتهم ووجهات نظرهم. قال الرّجل الذي كان يحضّر القهوة على المجرمة: «انظري جنابك، لا يوجد تدين في المدن كما هو موجود في مناطق الرّيف».

أعقب ملحّم: «نعم».

هتف الكردي فجأة: «الله ينعم عليك!».

«الله يكافيك يا آغا! فبإمكانك أن تجد رجالاً في المسجد الكبير في دمشق في صلوات الجمعة وأقلّ منهم في القدس، ولكن في بيروت وإزمير فإنّك تجد المساجد فارغة وكذلك الكنائس حيث لا يوجد دين أبداً».

قال الآغا: سأخبركم يا أصدقائي عن السّبب في ذلك. في الرّيف يُعدّ النّاس فقراء ومحتاجين جدّاً، فمَن الذي يطلبون منه العون سوى الله؟ حيث لا أحد غيره يشفق على الفقراء. ولكن النّاس في المدن أغنياء، ولديهم كل ما يرغبون به، فلماذا عليهم أن يصلّوا لله طالما أنّهم لا يحتاجون أي شيء؟ - تضحك السيّدة - أليس الوضع مشابهاً بالنسبة لشعبها؟».

اعترفت بأنّ هناك اختلافاً بسيطاً جدّاً في هذه القضيّة بين أوروبا وآسيا وتركت حالاً

الجماعة ليتابعوا احتساءهم قهوتهم وحديثهم من دوني.

وفي وقت متأخر من الليل طُرق باب خيمتي وناداني صوت امرأة:

«يا ستّ يا ستّ! قلب الأم (أليس الإنكليز عطوفين؟) أصغي إلى حزن قلب أم
وخذي تلك الرسالة إلى ابني!».

سألت المرأة المتوسّلة غير المرئية أين يمكن أن يوجد ابنها.

«في طرابلس، في طرابلس الغرب. هو جندي ومنفي، ولم يعد بعد الحرب مع الآخرين.
خذي هذه الرسالة، وأرسلها بيد أمينة من دمشق، لأنه لا يوجد بريد موثوق في صلّحد».

حللتُ طرف الخيمة وأخذتُ الرسالة، وتابعت البكاء قائلة:

«أخبرتني زوجة نسيب بأنك نبيلة. إنّه قلب الأم، لا بد أنّك تفهمين، إنّه قلب الأم
الذي ينتحب!».

ثمّ غادرت باكية، وأرسلتُ الرسالة الغامضة بالبريد الإنكليزي من بيروت، لكن لا
نعلم فيما إذا كانت وصلت إلى طرابلس الغرب وإلى الدّرزي المنفي ولن نعلم أبداً.



بوابة قرية حبران

في الصّباح التّالي جاء القائم مقام ليرانا قبل سفرنا وزوّدنا بنفّر ظابطيّة zaptieh درزي ليدلّنا على الطّريق إلى ساليه Sālch. كانت الرّيح باردة على نحو قاسٍ، وأخبرونا بأنّ الثّلج قد يوجد بشكل عميق جداً على التّلال، ولهذا السّبب سلّكنا الطّريق الأخفض في عرمان Orman، وهي قرية مذكورة كساحة قتال في الحرب الأخيرة. كان ملجئهم قد وثق بدليلي يوسف فأعطاه البريد الذي كان قد وصل لتوّه إلى صلّحد؛ والذي احتوى رسالة واحدة فقط، كانت لمسيحي من سكّان عرمان قابلناه خارج القرية. لقد كانت من ماساتشوسيتس Massachusetts من أحد أبنائهم الثلاثة الذين هاجروا إلى أميركا وتسير أمورهم على نحو جيّد، الحمد لله! وكانوا قد أرسلوا له بالتّشارك ثلاثين ليرة في السّنة قبل الماضيّة، وغمره الفرح زهواً عندما سلّمناه الرّسالة وفيها أخبار جديدة عنهم.

وعند عرمان اتّجه الطّريق نحو الأعلى - ولا أزال أدعوه طريقاً لأنني لم أجد اسماً سيئاً بما يكفي له. وهو جزء من نظام الدّروز في الدّفاع ويقضي بعدم وجود درب في الجبل واسع بما يكفي لسير شخصين أو ممهّد بما يكفي ليفسح السّير بسرعة دون تعثر، وهذا هو الجزء الأكثر نجاحاً في الخطة الدّفاعيّة. وسرعان ما أصبحنا في الثّلج، نصف الذّائب ونصف المتجمّد، الذي غطّى الحفر في الطّريق ولكنّه لم يكن قاسياً بما يكفي ليمنع الحيوانات من السّقوط فيها. وبين الفينة والأخرى كانت هناك جروف عميقة تصعدّها البغال بثقة كبيرة لتسقط في منتصف الطّريق وتبعثر حمولاتها، بينما كانت الجياد تخوضها وتثبت حتّى لتكاد تسقطنا عن ظهورها. أمّا ميخائيل، الذي لم يكن خيّالاً، فقد وقع في الثّلج عدّة مرّات. ولقد قام واضعو خريطة اكتشاف فلسطين بالسّماح لخيالهم بأن ينطلق حرّاً في وصف المنحدرات الشّرقية لجبل الدّروز. فقد ففّزت تلال مسافة عدّة أميال وعبرت قرى الوهاد شديدة الانحدار واستقرت في الاتّجاهات المعاكسة، وكمثال على ذلك، قرية أبو زريق Abu Zriek التي تقع على الجانب الأيسر لوادي الرّاجل Rajil، على الرّغم من أنّ الخارطة تضعها على الجانب الأيمن.

مع الوقت بدا كل شيء كما لو أننا سنقع في ذلك اليوم من رحلتنا في خطأ كبير، وبلغت مأساتنا أوجها عندما دخلنا حقل ثلج واسع مسحته عاصفة ثلجية عنيفة من المطر المتجمّد. وعند نهاية الرحلة المظلمة، التي بدت أنها لن تنتهي، استطعنا فقط أن نرى عبر جمّد المطر (القطقط) المنحدرات التي تقع عليها قرية ساله⁽¹⁾ Sāleh. لكن ونحن نتهاذى ميلاً بعد ميل (كان من غير المفيد محاولة الركوب على حيواناتنا المتعثرة بالإضافة إلى البرد الشديد) اقتربنا من هدفنا أكثر، وبعد أن كنا قد سافرنا مسافة سبع ساعات لنجتاز طريقاً يمكن قطعه بأربع ساعات، حُضنا طريقنا في الوحل والرّذاذ حتّى وصلنا في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم على الرّغم من أنّ تلال الثّلج نصف الذّائب وبرك المياه قامت بواجبها كشوارع. لم يكن هناك مكان جاف في القرية كلها، وكان الثلج يتساقط بغزارة؛ ومن الواضح أنّه لم يكن بالإمكان فعل أيّ شيء سوى القرع على باب بيت محمّد النّصار الذي يمتلك سمعة حسنة بحسن الضّيافة، وبذلّت جهدي لصعود درج مضافته المغطّى بالثلج.

إذا كانت العناية الإلهيّة ستمنحنا تعويضاً عن متاعب اليوم، فقد عوّضتنا، أو على الأقلّ عوّضتني، بمقدار وافٍ وفيض وافر من متعة المساء السّاحر الذي أمضيته في بيت الشّيخ. ومحمّد النّصار رجل متقدّم في العمر وحكيم امتدّ به العمر ليرى عائلة كبيرة العدد من أبنائه وأبناء إخوته يكبرون حوله، وليدرّب ذكاهم اللّماح بدمائه وأنموذجه الكريم. يُعدّ الدّروز كلهم أشرافاً على نحو جوهرى؛ ولكن عائلة شيوخ قرية ساله Sāleh لا يمكن التّفوّق عليها بالتّربية الجيّدة، الطّبيعيّة والمكتسبة، أو بأنبل أرسنقراطية الأعراق العجميّة أو الرّاجپوتيّة Rajputs، أو أيّة أعراق أخرى بارزة خارج أفرادهم.

لم تكن رسالة ملحم ضروريّة جدّاً لأضمن لنفسى ترحيباً لائقاً، فقد كان يكفي أنّي كنت أشعر بالبرد والجوع وأنّي امرأة إنكليزيّة. كانت النّار في الموقد الحديدي متأجّجة وتم أخذ

(1) تقع قرية ساله في الجانب الشرقي من جبل العرب، إلى الشرق من مدينة السويداء بـ 24 كلم، وفيها أبنية أثرية ونقوش كتابية مهمّة تعود إلى أيام ممالك الأنباط والرّومان. وقد سكنت في العصر الحديث في عام 1860 م. ومن المرجح أن يكون اسمها مشتقاً من اسم إله القوافل «سلمان» الذي يرد كثيراً في نقوش الصّفا، كاسم إله واسم علم مذكر.

أثوابي الخارجية المبلّلة، ومُدّت البسط والوسائد على الديوان وفق توجيهات الشيخ، وجاء جميع أقربائه الذكور القريبين والبعيدون ليحيوا المساء بالبهجة والسرور. بدأنا بشكل جيّد، وكنت أعلم بأن أوبنهايم⁽¹⁾ Oppenheim كان قد أخذ مرافقه من قرية ساليه عندما ذهب إلى الصّفا، وصادف أن كتابه كان معي - وكم ندمتُ على أنّ غريزة الحكمة لم تلهمني لاختيار مجلّدي دُسو Dussaud الرّائعين، بدلاً من اختيار كتاب أوبنهايم Oppenheim الممل⁽²⁾، المحشو بالمعلومات قليلة الفائدة في الرّحلة الحاليّة! وتقع مزيّة هذا الكتاب بوجود الصّور الإيضاحيّة فيه، ومن حسن الحظّ أنّه كان من بينها صورة محمّد النّصار مع ابنه الأصغر. وحيث أنّي كنت قد اطلّعت على خرائط كيبرت⁽³⁾ Kiepert ولخصّتها، فقد كنت كريمة إلى حدّ كبير بتقديم مجلّد من الكتاب لأحد أفراد العائلة الذين كان قد

(1) ماكس فرايهر فون أوبنهايم Max Freiherr von Oppenheim (1860-1946) مؤرخ وآثاري ورخالة ألماني شهير، كان آخر عظماء الرّوّاد المستكشفين في المشرق برأي بعض الباحثين. قام برحلات استكشافيّة مهمّة في بلاد الشام بأواخر القرن التاسع عشر وإبان الحرب العالميّة الأولى، ومن مكتشفاته مدينة تل حلف الأثريّة (غوزانا) على نهر الخابور. من خلال عمله في التنقيب عن الآثار، امتلك شخصياً جزءاً كبيراً من اللقى الأثريّة، وتمتّى لو أن متحف الدولة ببرلين يشتريها منه، خاصة أن ممتلكاته كانت تضم منحوتات بارزة مهمّة من العصر الحثي الجديد. ولما فشل في ذلك، افتتح متحفه الخاص في مبنى مصنع مهجور عام 1930. ولاحقاً عند اتخاذ إجراءات لحماية المجموعات الوطنيّة أثناء الحرب العالميّة الثانيّة، لم يتم ضمّ مجموعته من لقي تل حلف، ولذلك دمّرت في غارات القصف الجوّي في نوفمبر 1943. وبقيت بعض الشظايا في أقبية بعض متاحف ألمانيا الشرقيّة، ثم أعيد تجميعها وترميمها بعد إعادة توحيد ألمانيا. وكان الرّجل صديقاً لجديّ أحمد إيش آغا إبان إقامته بدمشق، ومنه يستقي معلوماته عن الخيول العربيّة وكان جديّ أهمّ خبير بها آنذاك.

(2) تقصد كتابه: رحلة من البحر المتوسط إلى الخليج العربي عبر حوران والصحراء السوريّة والعراق، في جزأين نشرنا عام 1899:

Vom Mittelmeer zum arabischen Golf durch den Hauran, die syrische Wüste und Mesopotamien, 2 vols., 1899.

(3) هاينريخ كيبرت Heinrich Kiepert (1818-1899) جغرافي ألماني شهير وضع مجموعة من الأطالس خاصّة حول آسيا الصغرى ومنطقة الشرق الأدنى. عُذّت معياراً ومرجعاً رئيسياً لجميع الرّحّالين والجغرافيين الذين عملوا ضمن نطاق منطقتنا العربيّة.

رافق العالم الألماني في بعثته الأثرية. وقد بقي في قرية سالِه ليكون مصدر متعة ومفخرة للشيوخ فيها، الذين سينظرون إلى الصور دون محاولة الوصول والتّمسك بالنص، ولقد سُدَّت الفجوة في أرفف كتبي بشكل جيّد بتذكّر متعتهم.



مَقْعَد للدروز في قرية حبران

تحدّثنا دون انقطاع طوال المساء، مع توقّف قصير عندما أحضر عشاء فاخر. تشاركنا الطعام أنا والشّيخ المسنّ، والضّابط يوسف، وقام أبناء الإخوة وأبناء العم الكبار بالإجهاز على الكميّة الوافرة المتبقية. كان الموضوع الذي استحوذ على اهتمامهم إلى حدّ كبير في قرية سالِه هو الحرب اليابانية - وفي الواقع فلقد كان الحديث يدور في ذاك الاتجاه على نحو ثابت في الجبل، ويكمن السّبب في اعتقاد الدروز بأنّ اليابانيين ينتمون لعرقهم. ويُعدّ خطّ النقاش والجدال المؤدّي لهذه النتيجة المدهشة بسيطاً. لقد حملت التّعاليم السّريّة لعقيدتهم الآمال بأنّه يوماً ما سيندفع جيش من الدروز من الحدود القصوى لآسيا ويحتلّ العالم. ولقد أظهر اليابانيون شجاعة لا تُقهر، وكذلك يُعدّ الدروز شجعاناً أيضاً؛ ولقد حاز اليابانيون على النّصر، ونبوءة الدروز سوف لن تقهر: ولذلك فإنّ الشّعبيين هما شعب واحد ومتشابه، وتعاطف كلّ شخص سواء كان في سوريا أو في آسيا الصّغرى، هو في جانب اليابانيين، مع استثناء وحيد من أبناء الكنيسة الأرثوذكسية، الذي يعتبرون روسيا حامية لهم. ويبدو من الطّبيعي أنّ الحكومة العثمانية ستشعر بالبهجة لمشاهدة هزيمة أعدائها العلمانيين، ولكن من الصّعب جدّاً

تفسير فرح العرب، والدروز (بغض النظر عن تنبؤات الدروز السرية المذكورة أعلاه) والأكراد، الذين بينهم وبين الأتراك الودّ مفقود.

لا تميل هذه الأعراق لأن تشعر بالسرور بهزيمة أعداء السلطان، وهي طبقة هم أنفسهم ينتمون إليها بشكل عام. وفي الواقع فهناك ومن دون أي شك متعة سادية معيّنة، والدافع الطبيعي لتأييد الرجل الضعيف ضدّ الرجل المستأسد الكبير، ووراء ذلك كلّه هناك تلك الرّابطة الغريبة التي يصعب تصنيفها إلّا من خلال اسم القارّة، والحرب التي تروق للآسيويين لأنّها ضدّ الأوروبيين. ومهما تكن منلّهفاً للاحتجاج بأنّ روسيا لا يمكن أن تعتبر أنموذجاً للحضارة الأوروبيّة، ومهما تكن عميق التفكير لتقتنع بأنّ اليابان تُظهر بعض الخصائص القليلة المشتركة مع الأتراك أو الدروز كما تُظهرها مع سكّان بحر الجنوب أو الإسكيمو، فالشرق يدعو الشرق، والصّوت يردّد الصّدى من بحار الصّين إلى البحر الأبيض المتوسّط.

تحدّثنا أيضاً عن الأتراك. وكان محمّد واحداً من عدّة شيوخ كانوا قد أرسلوا إلى المنفى بعد حرب الدروز؛ وكان قد زار إسطنبول، وشملت خبراته أيضاً آسيا الصغرى، ولذلك كان مؤهّلاً لإعطاء رأي عن الصّفات التّركيّة. وبتقييم عشوائي للنموذج الذي يدير به التّركي معظم شؤونهم، فإنّ نقل شيوخ الدروز بالجملة وإجبارهم بالقوّة على الإقامة لمدّة سنتين أو ثلاث في مدن بعيدة من الإمبراطوريّة، قد وضعت نهاية لما كان يمكن لبعده التّظر في إدارة شؤون الدّولة أن يقوم به عبثاً. فالرّجال الذين لم يُنح لهم من نواح أخرى السّفرة لأكثر من خمسين ميلاً من قريتهم قد تعلّموا بحكم الطّروف بعض المعلومات عن العالم؛ وقد عادوا ليمارسوا استقلالاً جزئياً كما فعلوا من قبل تقريباً، لكنّ عقولهم كانت قد تلقّت، على مضض، الانطباع عن الامتداد الواسع للأراضي الخاضعة لسيادة السّلطان، والعدد اللامتناهي لموارده، والمقارنة غير المهمّة بثورات الدروز في إمبراطوريّة لا تزال حيّة على الرّغم من أنّها مرتبطة مع كلّ صيغة من نزاع مدني.

كان محمّد مقتنعاً بشكل كامل بأنّ هناك عالماً خلف حدود الجبل حيث حاول دفع اثنين

من أبنائه الستّة خارج حدوده بوضعهما في مكتب حكومي في دمشق. ولقد أخفق، على الرّغم من أنّ مبادئه وحكمه كانت في آذانهما، فقد كان الولدان عنيدين جدّاً. واستخفّ بعض الشّباب بالواجب، ولو حقوا بتوبيخ شديد من قبل رئيسهم، الذي أعادهم بسرعة إلى القرية حيث بإمكانهم أن يصبحوا شيوخاً مستقلّين، نموذجيين ومحترمين.

ولقد اشترك محمّد في صحيفة أسبوعيّة تصدر في دمشق، وتابعت كلّ العائلة بأقصى درجات الاهتمام أخبار السّياسات الخارجيّة تلك، والسّياسات الإنكليزيّة على نحو خاصّ، وقد نجت من قلم الرّقيب. وغاب عن ملاحظتهم - أو عن ملاحظة المحرّر - في بعض الأحيان بعض الأحداث المهمّة، لذلك سأل مضيّفي عن السيّد ساليزبري Salisbury وقد حزنوا كثيراً لسماع أنّه توفيّ قبل عدّة سنوات. والاسم الآخر الذي كانوا يعرفونه، بالإضافة إلى اللّورد كرومر، الذي كان معروفاً دائماً وفي كلّ مكان هو مستر تشامبرلين Mr. Chamberlain، وهكذا بدأت هناك في المضافة في قرية سالي مناقشة حامية في السّؤال عن مالّيّة الحكومة وأوضحتها بشكل كبير من جانبي مع أمثلة مأخوذة من إدارة الجمارك التّركيّة. من الممكن أن تكون براهيني أقلّ كشفاً للتّناقض من تلك التي يطرحها معظم التّجار الأحرار الذين يمكنهم وضعهم من طرحها، بسبب أنّ كلّ أهالي سالي قد رفضوا بالإجماع مبادئ الحماية والانتقام (حيث لا يوجد حل وسط).

كانت هناك نقطة واحدة لم تلقَ قناعة تامّة من الجميع، ألا وهي قضيّة رحلتي إلى الصّفا. كان لديّ شكّ قوي بأنّ رسالة ملجم، التي سلّمت إليّ مختومة حيث لم أتمكن من قراءتها، كانت من طبيعة الرّسالة التي أعطيت من قبل بريلاس Prælas إلى بيليروفون Bellerophon عندما أرسله إلى ملك ليكيا Lycia، وإذا كان محمّد لم يأمر بإعدام حامل الرّسالة عند وصوله، فقد أوصى بقوة بإعاقه مشروعه. وعلى أيّة حال، فقد كان من رأيّه أنّ البعثة لا يمكن أن تتمّ ما لم أصطحب معي عليّ الأقلّ عشرين درزيّاً كحرس، الأمر الذي سيّطلب تجهيزات عديدة ونفقات، وقد أجبرت على التّخلّي عن الفكرة.

سُئِلَتْ عِنْدَ السَّاعَةِ الْعَاشِرَةِ عَنِ السَّاعَةِ الَّتِي أَرُغِبُ أَنْ أُخْلَدَ إِلَى النَّوْمِ فِيهَا، وَبَغَمَ وَاضِحٌ لَدَى أَعْضَاءِ الْمَجْمُوعَةِ تِلْكَ الَّذِينَ لَمْ يَرْكَبُوا طَوَالَ النَّهَارِ فِي الثَّلَجِ، قُلْتُ إِنَّ الْوَقْتَ قَدْ حَانَ. خَرَجَ الْأَبْنَاءُ وَأَوْلَادُ الْأَبْنَاءِ، وَجَلَبُوا الْحَفَاً مُحَشَّوَةً، كُوِّمَتْ عَلَى ثَلَاثَةِ أَسِرَّةٍ، كُلٌّ وَاحِدٍ فِي جَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِ الدِّيَّانِ الْكَبِيرِ الثَّلَاثَةِ، وَانْدَسَسْنَا أَنَا وَالشَّيْخُ وَيُوسُفُ كُلٌّ فِي سَرِيرِهِ، وَلَمْ أَعُدْ أَعْيَ أَيِّ شَيْءٍ إِلَى أَنْ اسْتَيْقَظْتُ فِي الْبَرْدِ الْقَارِسِ فِي وَقْتٍ مُبَكَّرٍ مِنَ الْفَجْرِ، فَنَهَضْتُ وَخَرَجْتُ إِلَى الْهَوَاءِ الطَّلَقِ. كَانَتْ قَرْيَةٌ سَالِهٍ تَنَامُ بِعَمَقٍ فِي الثَّلَجِ؛ وَحَتَّى الْجَدُولُ الصَّغِيرُ الَّذِي يَتَدَقَّقُ دَاخِلَ وَخَارِجَ نَبْعِ رُومَانِي فِي وَسْطِ الْقَرْيَةِ كَانَ يَنَامُ تَحْتَ غَطَاءِ سَمِيكَ مِنَ الْجَلِيدِ.

فِي السَّكُونِ الْبَارِدِ النَّقِيِّ رَحْتُ أَرَأَقِبُ السَّمَاءَ الشَّرْقِيَّةَ وَهِيَ حُمْرَاءُ وَشَاحِبَةٌ وَالشَّمْسُ تَرْسُلُ شِعَاعاً طَوِيلاً مِنَ الضَّوِّ فَوْقَ الْحَقْلِ الثَّلَجِيِّ الَّذِي كُنَّا نَنَاضِلُ فِيهِ الْبَارِحَةَ. أَرْسَلْتُ تَحِيَّةَ شُكْرٍ قَصِيرَةً لِلطَّقْسِ الرَّائِعِ، وَأَيْقَظْتُ الْبَغَالَ وَالْبَغَالِينَ مِنْ مَكَانِ اسْتِرَاحَتِهِمْ الْمَعْتَادَةِ فِي أَقْبِيَةِ الْخَانِ الْمَظْلَمَةِ، وَتَنَاوَلْتُ طَعَامَ الْإِفْطَارِ الَّذِي كَانَ مُحَمَّدُ النَّصَّارُ قَدْ أَحْضَرَهُ، ثُمَّ وَدَّعْتُ مُضِيفِي وَعَائِلَتَهُ وَدَاعاً طَوِيلاً مُعَبَّرَةً فِيهِ عَنْ امْتِنَانِي. لَمْ أَحْظَ بِاسْتِرَاحَةٍ لَيْلِيَّةٍ أَطْوَلَ وَلَا صَحْبَةً أَكْثَرَ قَبُولاً وَمَلَأْمَةً فِي أَيِّ مِنْ رِحْلَاتِي فِي السَّهُولِ وَالْجِبَالِ كَتَلْتُكَ الَّتِي حَظَيْتُ بِهَا فِي قَرْيَةِ سَالِهٍ.



سأكفة باب في الخربة

* * *

الفصل السادس

كان هدفي في ذاك اليوم قرية أم رويق Umm Ruweik على الحافة الشرقية لتلال الدروز. ولدى تذكري أغلاط وأوهام الخارطة، أخذت معي أحد أبناء إخوة محمد التّصار كدليل، كان اسمه فايز Faiz، وكان شقيق القشقاش Ghish-ghash، شيخ أم رويق. كنت قد اخترته الليلة الماضية حيث كان الفرد الأكثر دماثة في الحلقة اللطيفة في المضافة، وخلال معرفتي الشخصية به في الأيام الأربعة لم يحصل أي شيء يجعلني أندم على اختياري. كان رجلاً بلامح لا تثير الإعجاب، فأنفه معقوف، وفمه ملتو، ولا يمكنك أن تستخلص أي شيء من النظرة المستقيمة المستقرّة في عينيه؛ وكان سلوكه مهذباً على نحو واضح ولطيفاً، ويتحدّث بذكاء، وكان لديه نصيحة جيّدة وملاذ.

لم نكن قد ابتعدنا كثيراً عن حافة الهضاب، وحدّقت بالسّهل الشرقي وكأنّه في الأرض الموعودة التي لن تطأها قدماي أبداً، وذلك قبل أن يبدأ فايز بإظهار خطّة تقضي بترك البغال والخيام خلفنا في أم رويق والاندفاع عبر الصّفا إلى الرّحبة Ruhbeh، حيث يوجد مكان أشري عظيم أوقد وصفه مخيلتي. وفي لحظة تغيّر لون العالم، ولمع التّجّاح من السّماء الزّرقاء وتدلّى بسديم ذهبي على ذاك السّهل الذي أصبح فجأة في المتناول.

انحدر طريقنا تدريجياً من قرية سالة، وخلال نصف ساعة كنّا خارج منطقة التّلعج والجليد الذي هطل علينا طوال الليل والنّهار؛ وبعد نصف ساعة وصلنا وادي بوسان Busān، حيث تدير المياه سريعة الحركة طاحونة، وتركنا بلدة الشّتاء خلفنا، وظهرت سالة Sāleh القرية التي تقع على الجانب الشّمالي لوادي بوسان Busān، وبدت مكاناً

مزهراً يحتوي على بعض التماذج الجيدة من العمارة الحورانية - وأذكر على نحو خاص عتبة رائعة منقوشة بتدرج مزدوج من عنايد عنب وأوراق الكرمة تتدلى على كل جانب من مزهرية تحتل وسط قطعة الحجر. وفي سالة Sāleh قدمنا إلى حافة السهل وشاهدنا السهل العظيم للصفاء يمتد مثل بحر أسفل منا.



أسوار القنوات

كانت معالمها الغريبة تتمثل بأن سطحها أسود اللون مثل سواد سطح خيمة سوداء، وذلك بسبب غطاء الحمم والحجارة البركانية التي انتشرت فوقها. وفي بعض الأماكن كانت هناك رقع صفراء، اكتشفت لاحقاً أنها التربة التي تكوّمت عليها قطع التوفا (حجر مسامي) وانكشفت بغياب هذه الأحجار أحياناً، وهي ما يطلق عليها العرب اسم البيضا Beida، الأرض البيضاء، على النقيض من الحرة Harra أي الأرض المحترقة المؤلفة من اللابة والحجر المسامي (التوفا). وفي الصفا فإن الأرض البيضاء مُجدبة كالمحروقة، على الرغم من أن كلمة بيضاء بشكل عام تعني الأرض الصالحة للزراعة، وذلك لأنني سمعت فايزاً يصرخ بالبغالين: «حيدوا عن البيضا!» وذلك عندما شردت البغال ودخلت في حقل من قمح الشتاء. وتحمل الكلمة الأدبية في الصحراء شبهاً محيراً لهذه الكلمة الأخرى، فعلى سبيل المثال في قول المتنبي:

الخيْلُ واللَّيْلُ والبيداءُ نعرفني والسيفُ والرَّمحُ والقرطاسُ والقلمُ



الباسيليقا في قنوات

تمتدّ الصّفا إلى كتلة سوداء من الأحجار البركانيّة، تمتدّ غالباً على خطّ مستقيم شمالاً وجنوباً، ولكّتنا كنّا على ارتفاع عالٍ جداً فوقها بحيث لم يكن بالإمكان إدراك مدى ارتفاعها. ومرة أخرى استطعنا رؤية الامتداد الواسع للبيضا Beida خلفها والتي كانت سهل الرّحبة Ruhbeh. وإلى الشّرق والجنوب على الأفق الممتدّ على نحو هائل توجد بعض المخاريط البركانيّة القليلة جدّاً والتي تحدّد نهاية بروزات الحمم في حوران وبداية سهل الحّما Hamad، وهي الصّحراء الخالية من المياه التي تصل إلى بغداد. وإلى الشّمال كانت هناك تلال حول ضَمِير Dmer، وأبعد من ذلك نحو الشّمال هناك سلسلة أخرى تحيط بوادٍ عرضه عشرة أميال يؤدّي إلى تدمير. تمتدّ هذه الهضاب نحو الخلف إلى منحدرات لبنان الشّرقية، برؤوسها المغطّاة بالثلج، وتشرف على الطّريق الصّحراوي المؤدّي إلى حمص.

انعطفنا شرقاً إلى شِبكة Shibbekeh وهو مكان غريب مبني فوق وادٍ تتكوّن حافته

الشّماليّة من كهوف تشبه قرص العسل، وشمالاً إلى الشّيخلي sheikhly والرّامة Rameh على الحافّة الجنوبيّة لأخدود عميق جداً، يسمّى «وادي الشّام» Wadi esh Sham، إلى الأسفل حيث تقطنه أبعد القرى المسكونة إلى الشّرق، وهما الفدّامة⁽¹⁾ Fedhameh والجعيّة Ej Jeita. وتحظى المستوطنات على هذا الجانب من الجبل بقيمة أثرية كبيرة. وربّما كانت القرى الكهفيّة قد وجدت قبل زمن الأنباط بوقت طويل؛ وربّما كانت تعود إلى زمن ما قبل تاريخ الملك عوج Og الغامض، أو إلى الشعب الذي غطّي اسمه عندما كانت جميع المدن تُبنى تحت الأرض، والمثل الأكثر شهرة على هذا هي درعا في سهل حوران جنوب المزيّرب.

غادرنا المشنّف Mushennef واتّجهنا إلى الغرب، ولكن مع أسف شعرتُ به لأنّه لم يكن لديّ الوقت لزيارتها مرّة أخرى، إذ أنّ صهريجها العظيم يعكس أحد أكبر المعابد سحراً في جبل الدّروز، دون استثناء البقايا الأثريّة العظيمة لبلدة قنوات. تقع بلدة العجلات⁽²⁾ El Ajlat شمال وادي الشّام، على قمّة تلة عالية بما يكفي لتلمس خط تلج شهر فبراير، ويمتدّ وادٍ آخر إلى الأسفل منها نحو الصّفا - وسمعت بوجود معلم أثري ونقش في مجراه المنخفض لكنّي لم أقم بزيارتهما. وصلنا إلى أم رويق Umm Ruweik حوالي السّاعة الرّابعة، ونصبنا خيامنا على حافّة لحف الجبل حيث استطعت عبر باب خيمتي المفتوح رؤية امتداد الصّفا كلّه.

كان الشّيخ قشقاش Ghishghash يعاملني بلطف. وكان بإمكانني بالتأكيد الرّكوب إلى الرّحبة Ruhbeh لو أخذته هو وابنه أحمد وفايز معي. لقد سخر من فكرة عدد الحرس الكبير. ولوجه الحق، فقد كان الغياث خدمه وعبّده وسوف يستضيفوننا كما يُفعل بالنّبلاء

(1) لا وجود لهاتين التسميتين اليوم على خرائط محافظة السويداء، وكنت قد قمت بمسح أثري لوادي الشّام إلى الشّرق من قرية الرّشيدة جنوب شرق السويداء، فلم أر أيّة قرية تليها شرقاً، حتى وصلت إلى الرّصيعي والتمارة ومنفع الرّحبة والزّلف شمالي الرّحبة، فبلغت خربة البيضا (واسمها الحقيقي: قصر نّعة)، وتابعت بعدها شمالاً إلى جبل سيس ومكحول في الصّفا، ثم إلى (أبو الشّامات) على طريق دمشق تدمر.

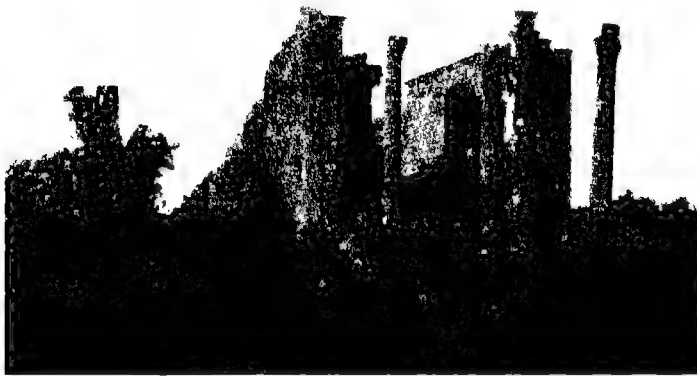
(2) ترد التسمية اليوم في خرائط محافظة السويداء: العجيلات.

ويوقرون لنا أماكن إقامة مترفة. تناولت الغداء مع القشقاش Ghishghash (حيث لم يقبل أي رفض)، واستنتجت بأنه كان رجلاً رخو المزاج، متبجحاً وأحمق، كثير الكلام، على الرغم من أن كل ما قاله لا يعادل جملة مما يقول فايز. واحتفظ فايز بصمت نسبي بين جماعته، وكذلك أحمد لم يتكلم إلا قليلاً، ولكن ذاك القليل كان مقنعاً وجديراً بأن يُسمع. روى قشقاش قصصاً كثيرة عن الصفا وما تحتويه، والنتيجة التي يستخلصها المرء، ضافة إلى موضوع الحرب الأثرية المعروف من قبل هو أنه لا يوجد شيء يستحق أن تسافر رحلة بمسيرة يوم شرق الرّحبة إلا لوجود مقلع حجارة وحصن مخرب هناك يشبه الحصن الأبيض في الرّحبة والذي كنا ذاهبين لرؤيته، إلا أنه أصغر حجماً وأقلّ صيانة. وخلف ذلك بمتد الحماد، حيث لا توجد مساكن ولا رجم - rjzm - ويضطر أشجع العرب إلى هجره في الصيف بسبب خلوه من الماء نهائياً. ذهب قلبي إلى القلعة الغامضة شرق الرّحبة، والتي اعتقد أنه لم يزرها أي من الرّحّالين من قبل؛ ولكنها كانت بعيدة جداً ومن الصعب الذهاب إليها دون تحضير مسبق. «عندما تعودين مرة أخرى يا ستي -». نعم عندما أعود. ولكن علي ألا أعتد في فرصة المستقبل على ضيافة الغياث الرائعة المترفة.



قنات، بوابة الباسيليكا

قررتُ بعد استشارة أنّ على كلّ من ميخائيل وحبيب مرافقتنا، وتم أخذ حبيب بناء على طلبه الخاص. قال إنّه سوف يركب بغلته المفضّلة، وإنّها ستستطيع أن تجاري بخطواتها أيّ فرس وتحمل بالإضافة إلى ذلك البسط والدجاجات الخمس التي أحضرناها معنا لدعم حُسن ضيافة الغياث. كان لديّ معطف من الفرو قد حُزم خلف سرجي، وكالعادة، آلة تصوير (كاميرا) ودفتر ملاحظات في الخُرج. نزلنا منحدرات الهضاب الشاهقة لمُدّة ساعة، وكان ثلاثة من الفرسان الدّروز يلحقون بنا أتّى ذهبنا. واكتشفتُ فوراً أن الشيخين قد أضافاهم إلى الحرس المتعاقد معهم ولكن لم أبدِ أيّ تعليق. كان أحدهم من أقارب القشقاش واسمه خطّاب؛ وكان قد سافر مع أوبنهايم Oppenheim وبرهن على صحبة مفيدة.



معبد في قنوات

عبرنا قرية القشقاش المفلوحة ومن ثمّ نزلنا المنحدرات القاحلة تقريباً، على الرّغم من أنّها توفّر مراعي كافية لأغنامه التي يرعاها العرب، وعند سفح التّلة دخلنا وادياً حجرياً ضحلاً كان فيه قليل من الخيام محاطة بقطعان أكبر ترعى عشاءها بين الجلاميد. وبعد ساعة من السّير في الوادي، الذي يلتفّ بين صخور بركانية، دخلنا إلى قفر الصّفا الفسيح. كان في معظمه منبسّطاً، ولكن ليس بشكل تام. اما السّطح فمتكسّر

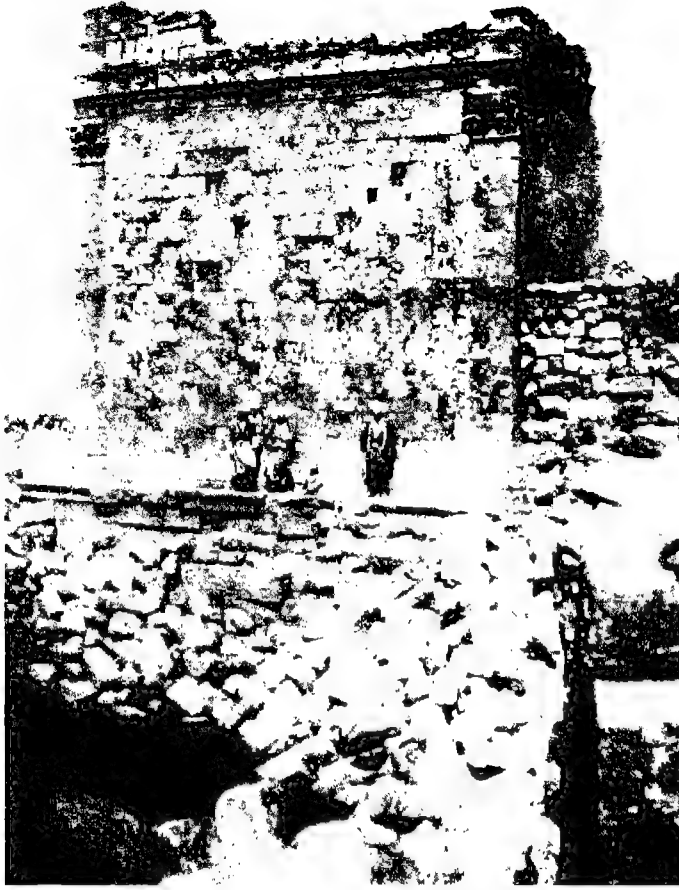
بتموجات صخرية مرتفعة قليلاً، وعميقة بما يكفي لإغلاق المشهد في وجه الخيال في المنخفض، ولذا فقد يسير لمدة ساعة أو أكثر ولا يرى أي شيء سوى أفق من حجارة سوداء أعلى من رأسه بقليل في كل جانب. وللتموجات مخطط نظامي؛ فهي تشكل ودياناً متتابعة خالية من الماء، ويعرف كل واد منها باسم عند العرب. ولقد غطي كل من الوادي وحافة الجبال بكتل الأحجار البركانية المسامية، بسماكة تتراوح بين ستة إنشات عرضاً إلى قدمين أو أكثر، وعند وجود أي مسافة بينهما بإمكانك ملاحظة التربة الصلبة الصفراء، بلون رمل البحر، حيث تمتد تحت هذه الصخور.

وتندفع أعداد كبيرة من شجرات ضئيلة الحجم في طريقها بين الأحجار، وهي الحمض والشيح والهجينة hajcineh، وتنتشر هنا وهناك أعشاب إبرة الراعي، والثوم النجمي وأوراق التوليب، ولكن بشكل عام لا يوجد بين الصخور متسع حتى لأرفع النباتات، وذلك لأنها متقاربة إلى بعضها جداً، وهي سوداء ملساء لا حواف لها، وكأنها مصقولة بفعل المياه الجارية؛ وعندما تشرق الشمس يلتصق الهواء فوقها كما يلتصق فوق قطعة معدنية مصهورة، وفي الصيف فإن المقارنة يجب أن تحمل شيئاً قوياً من سواح أخرى، لأن الحرارة العالية عديمة الرحمة لا يمكن تحملها تقريباً. ومن الصعوبة سكان اجتياز الصفا إن لم يكن بسبب حرّها فبسبب ممرّاتها الدقيقة التي تقطعها والتي لا تُعدّ ولا تُحصى. في البداية لا يكون الراكب عالماً بها، بسبب أنها صغيرة جداً وهزيلة، ولكن تأخذ الحيرة حلاً حول سبب وجود عدد كافٍ من القسامات أمامه حيث يستطيع جواده السير من خلالها، وعندها يلاحظ بأنه يسير في طريق. لقد مرّت مئات الأجيال على أقدامها مندفة جانب كتل الحجارة المسامية حتى لو كانت لمسافات صغيرة جداً وجعلت السفر ممكناً عبر ذاك القفر من الحجارة.

مررنا قرب منطقة منخفضة تدعى غدير الغرز Ghadir el Gharz، وبعد ساعتين اتقينا عند نهايتها رجلاً بشاب رثة كان اسمه قلب الله. لقد سرّ كثيراً برؤيتنا، وتصرّف كما لو كان صديق العائلة منذ عدّة سنوات (وعليّ أن أعتقد أن ذلك كان منذ ثمانين سنة على الأقل)، ولقد فوجئ كثيراً عندما اكتشف وجودي في موكب الخيالة. ثم زالت

دهشته عندما سمع أنني إنكليزية ولكن لم يغيّر ذلك أي شيء عنده، حيث أن عقله لم يستوعب أسماء وسلالات الأغراب. أخبرنا عن وجود مياه قريباً من متناول اليد وأن خيام العرب (البدو) لا تبعد أكثر من مسيرة ساعتين، وأن خطّة قشقاش Ghishghash تسير بسلام، ومن المحتمل أن يكون هناك سلام حتّى للغريب الذي برفقته. لقد كذب في موضوع الخيام، أو أننا لم نفهم ما قاله؛ ولكننا وجدنا الماء، عبارة عن بركة موحلة، وتناولنا غداءنا بالقرب منها، وتشاركنا مع قطع من الجمال.

لا يوجد في الصّفا مياه صالحة للشّرب وفقاً للمعايير الأوروبية، وكذلك الأمر نفسه في جبل الدّروز. لا توجد ينابيع في التّلال؛ وقد جُمع الماء المتوفّر في بُرك مكشوفة، ويمكن أن يعتبر الرّحالة نفسه محظوظاً إذا لم يُطلب منه أن يشرب سائلاً كان قد رأى البغال والجمال تتمرّع فيه. وفي ظلّ أكثر الظّروف ملائمة فمن المؤكّد أن يكون ممثلاً بشكل كثيف بعناصر غريبة لا تزول حتّى عند الغلي، على الرّغم من أنّها تصنّف بأنّها غير ضارّة نسبياً. ويتمتّع الشاي الذي يحضّر من هذا السائل بقوام ونكهة خاصين؛ فهو بلون القهوة العكرة ويترك مادة راسبة في قعر الفنجان. كان ميخائيل يحمل لي جرّة خزفية فيها مياه مغليّة من مخيم إلى مخيم، وقد ألجأت تلك الحيلة إلى رفض الشّرب من البرك والصّهاريج التي يمكن أن نقابلها في الطّريق، ولم أجد أيّة صعوبة في متابعة النّظام ذاته في الصّفا. كان هو والدّروز والبغالون يشربون من المياه التي يجدونها سواء في الجبل أو في الصّفا، ولم يبدُ أنّهم يعانون من أيّة أعراض مرضيّة. ومن المحتمل أنّ الجراثيم الموجودة في جرعاتهم المهملة كانت كثيرة وفعّالة إلى حدّ كبير بحيث كان لديها من القوّة ما يكفي ليدمر بعضها بعضاً.



المعبد في المشنّف

تابعنا سيرنا على كلّ الأحجار في العالم، وحتىّ القشقاش لزم الصّمت أو كان يتكلّم فقط ليتساءل متعجباً أين يمكن أن تكون خيام الغياث وارتأى خطّاب بأنّنا ما إن نصل إلى القنطرة Kantarah فلا بدّ أن نراها، وأصغيت بانتباه إلى اسم بدا أنّه يتضمّن نوعاً ما من البناء. لكن لم تكن القنطرة أكثر من ارتفاع في الأرض، أعلى بقليل من بقيّة الأرض التي حولها وليست أقلّ حجارة منها. يوجد الكثير مثلها؛ والتي تقود طرقها

في معظمها إلى القمة، وهو طريق يزحف فيه العرب على بطونهم ليراقبوا أعداءهم، مختبئين خلف ركام صغير من حجارة سوداء شُيِّد كمعقل دائم على القمة.

وفي الصيف يجتاح الغزاة الصَّفا، وتجوس قبائل كبيرة مثل غَزَرَة خلاله لتسدد ضربة مفاجئة لبعض أعدائها في الجنوب أو الشَّمال، جارفين الغياث في طريقهم، وحيث أنَّ الأماكن التي تحوي مياهاً تعتبر قليلة إلى حدِّ كبير في الحرارة الفريدة في القفر الحجري، فليس لدى الغزاة وكذلك رجال الغياث المتبقيين في السَّهل خيار إلاَّ أن يتردّدوا في العتمة على برك الماء الموحلة نفسها، وبناء عليه يقضي الغياث أيَّامهم ولياليهم مطاردين بخوف متواصل إلى أن تذهب القبائل الكبيرة شرقاً مرّة أخرى إلى الحَماد.

لم تكن هناك أيّة إشارة إلى خيام يمكن أن تُرى من القنطرة، وبدا من المحتمل أنّه علينا أن نمضي ليلة من دون مياه بين الحجارة تحت السَّماء الصَّافية الباردة، وقيل غروب الشَّمس بساعة تقريباً صرخ خطَّاب بأنّه استطاع رؤية دخان نيران المخيم في الجهة الشَّمالية الغربيّة. عدنا في طريق جيّد إلى الخلف، مشكّلين نصف دائرة في طريقنا، ووصلنا إلى الخيام عند الغروب بعد رحلة استمرّت تسع ساعات. ومع الماعز والجمال العائدة إلى مأواها بعد يوم مجهّد في المرعى، كنا نسير مضطربين فوق الحجارة، وبدا المخيم الصَّغير بائساً جدّاً، على الرّغم من أنّنا كنّا في رغبة كبيرة جدّاً بالوصول إليه. كان كلّ ما يملكه الغياث لا يصل ثمنه إلى مئتي ليرة ذهبيّة إلاَّ بصعوبة؛ حيث أنّهم لا يملكون أيّ شيء سوى الخيام السوداء وبعض الجَمال ودلال القهوة، وإذا كان لديهم شيء أكثر فإنّه سيكون قد أُخذَ منهم في غزو منتصف الصيف. وهم يعيشون على الخبز فقط - شرك Shirak وهو عبارة عن رقائق من الخبز تشبه الورق البُني - ويتجولون طوال أيَّامهم بين الحجارة خوفاً على حياتهم، عدا شهر أو شهرين حين يذهبون إلى جبل الدّروز من أجل المرعى.

وبما أنّنا مجموعة كبيرة العدد فقد توزّعنا، فذهبْتُ أنا والقشقاش وخدمي إلى بيت

الشيخ الذي كان اسمه⁽¹⁾ Understanding. وأشعل ابنه محمد وحمدان ناراً من الشوك وروث الجمل التي تدخن على نحو رديء، وجلسنا حول النار وراقبنا تحضير القهوة. تولى محمد هذه المهمة كونه الأكبر سنّاً. وقد كان ماهراً في دقّ المهباج، وقام بضرب إيقاع مرح بالهاون. كان وجهه أسمر ونحيلاً، وكانت أسنانه البيضاء تلمع عندما يتسم؛ وقد ارتدى ثياباً قطنية بيضاء متسخة، وتدلّى وشاح قطني من تحت عقاله المصنوع من وبر الجمل الموضوع على رأسه إلى صدره العاري، وتكلّم بكلام يخرج من حلقومه بحيث يصعب متابعته. كان عشاؤنا عبارة عن شرك Shirak ودبس؛ فالغياث فقراء جداً ولا يستطيعون ذبح شاة لضيفهم حتّى لو كان شخصيّة بارزة ومهمّة جداً مثل القشقاش، وهو رجل أحمق في تكوينه، وقد اهتمّ بلباسه وتألق وانتفخ غروراً، وأخذ يمشط شاربيه الطويلين أمام نظرات الإعجاب من مضيفيه وتكلّم دون توقّف حتّى وقت متأخّر من الليل بكلام سخيف، كما أعتقد أنا التي كنت أتوق كي يسمح لي بالنوم.

كان لديّ بطّانية كغطاء لي واستخدمت سرّجي كمخدّة، واستلقيت في زاوية قرب السّاحة Sahah وهو الجزء المقابل لقسم النّساء، واستمعت من حين لآخر إلى محادثة لم تكن مهذّبة على نحو خاصّ، وشتمت من حين لآخر الدّخان الحاد اللاّذع. استيقظت حوالي منتصف الليل على ضوء القمر الذي سطع بتألّق بارد داخل الخيمة. كانت النّار قد خمدت في الأسفل وارتفع الدّخان إلى الأعلى؛ كان العرب والدّروز مستلقين نائمين حول الموقد البارد؛ ووقفت فرّسان بسلام قرب سارية الخيمة وحدّقتا بعينين ذكيتين بفارسيهما في الدّاخل، وربض خلفهما بعير بغباء بين الحجارة السوداء. كان الجّمال الصّامت والغريب للمنظر القديم قدّم العالم قد أخذ بمجامع القلب وأثار الخيال حتّى بعد أن هيمن النّوم عليه مرّة أخرى.

قبل الفجر كان ميخائيل قد نجح في عمل فنجان شاي لي على لهيب منقطع من نار الشوك، وعند شروق الشّمس ركبنا جيادنا حيث كان أماننا مسيرة طويلة. وقد كسا «نور الله الجليل» السّهل الأسود بجمال فاتن. وألقت الشّمس المنبسطة التي

(1) كذا كتبت المؤلّفة، فماذا تقصد؟ هل كان اسمه فهمياً أم فهم أم ماذا؟

كنا نسير باتجاهها هالة من ذهب على كل حجرة، ووقفت سلسلة الجبال البركانية الشرقية بحدودها الواضحة المسننة مقابل السماء الصافية، وإلى الشمال الغربي كانت ثلوج جبال لبنان الشرقية والحرمون تتألق وضاءة على نحو لا يصدق فوق السواد المتألق للأرض الأمامية. أضيف أحد العرب إلى مجموعتنا، كدليل؛ اسمه عواد. كان يركب جملاً، وتحدث معنا من ذلك الموقع المتميز بصوت أجش عال، وكأنه يريد أن يجسر المسافة الهائلة بين راكب الجمل وراكب الفرس. كنا جميعاً نرتجف من البرد بسبب انطلاقنا في الفجر البارد، ولكن عواداً حول الأمر إلى دعاية حيث صاح من على ظهر جملة: «يا ست، يا ست! هل تعلمين لماذا أشعر بالبرد؟ إنه بسبب أن لدي أربع زوجات في البيت!». وضحك الآخرون، لأنه كان يتمتع بسمعة كزير نساء صغير، وهكذا تذهب الأموال التي يملكها لاستكمال نصاب حريمه فضلاً عن ملء خزانة ثيابه.

فكرت بأن علينا أن ندخل بسرعة غدير الغرز Ghadirel Gharz مرة أخرى. وبعد مسيرة ساعتين عبرنا أرضاً مرتفعة قليلاً إلى الجنوب الغربي من تلول الصفا Tulul es Safa وهو خط من أحجار بركانية، وخبينا بخيولنا عبر امتداد كبير من أرض صفراء لا حجارة فيها، واسمها البيضاء Beida إلى أن وصلنا إلى النهاية الجنوبية من قاع الحمم البركانية، وكانت الحمم البركانية تمتد عن يسارنا مثل بحر أسود مخيف كابوسي ولم تكن متجمدة مثل اللبن الخاثر، وكان فرعاً بشعاً قد أوقف تدفقها وحجّر خطوط الرعب المنكمشة على سطحها. ولكن كان هذا منذ زمن قديم جداً حيث رفعت يد قوية رأس الغرغونة⁽¹⁾ Gorgon قبل موجات تلول الصفا Tulul es Safa. كان للشمس والصقيع وتوالي الدهر سبب في تصدع المعالم الأصلية للأحجار البركانية، وتشقق قاع الأحجار البركانية المسامية، وبثرة الجرف ومحو ملامح التلال الأصلية. كانت شجرة أو اثنتان من البطم قد وطّدتا موطى قدم لهما في الصدوع، ولكن عندما مررتُ هناك كانتا لا تزالان عاريتين ورماديتين ولم تخربا

(1) أسطورة إغريقية قديمة عن ثلاث أخوات أسطوريات سيثو وأيرلن وميدوسا لهن شعر من ثعابين ومظهر مرعب، كل من ينظر اليهن يتحول إلى حجر.

شيئاً من المنظر العام للقفر الذي لا حياة فيه.

بينما كنّا ندور حول تخوم الموت هذه أدركتُ بأنّنا كنّا نتبع طريقاً قديماً إلى حدّ ما قدم هذه التّلال نفسها، خيطاً رفيعاً من تاريخ البشرية يقودنا مباشرة عبر تلك الأرض المحرّمة. استمرّ عوّاد بالكلام عن حجر سمّاه العبلا⁽¹⁾ El 'Ablā وهي كلمة ترمز إلى صخرة بيضاء يمكن رؤيتها من بعيد، ولكّتي كنت قد اعتدت إلى حدّ كبير سماع أسماء لا ترمز إلى شيء لذا لم أعطِ الموضوع أيّ اهتمام إلى أن أوقف جملة وصرخ:

«يا ستّ! هذه هي. بوجه الله، إنّها العبلا El 'Ablā».

لم تكن أكثر ولا أقلّ من حجرة بئر، وهي محاطة بثلم جبل بعمق إنشين، ويفترض أن تكون قد استخدمت لوقت طويل، وذلك لأنّ هذه الصّخرة السوداء صلبة جدّاً، ولكن لم يكن هناك بئر جديدة على بعد أميال من الموقع. وعلى مسافة قريبة كانت هناك كومة كبيرة من حجارة ثمّ كومة أخرى وأخرى، اثنتان أو ثلاث في كل ربع ميل، وعندما نظرت عن كثب أدركت أنّها قد بُنيت ولم تُلقَ اعتباطاً. كان بعضها قد فُتح من قبل بعض العرب بحثاً عن كنز، وعندما أزيلت الطّبقات العليا تكشّفت فسحة مربّعة قليلة العمق في وسط التّلة، وقد بُنيت بدقّة من كتل حجرية نصف منحوتة. قال عوّاد إنّهُ، حسب علمه، لم يعثر أحد على شيء من هذه الأماكن يدلّ على ما كانت تحويه في الماضي. ومن الواضح أنّ الكومات كانت قد صُنعت لتعلّم الخط في ذاك الطّريق القديم عبر القفر. توقّف عواد مرّة أخرى على بعد بضع مئات من الياردات من بعض الصّخور السوداء المستوية مع سطح الأرض إلى حدّ ما. لقد كانت مثل صفحات كتاب مفتوح سُجّلت فيها جميع الأعراق التي مرّت من ذاك الطّريق وكتبت أسماءها على شكل كتابة غربية يطلق عليها العلماء «الصّفائية» Safaitic في اليونانية، وفي العربية «الكوفيّة» Cufic. كان آخرها نقوش البدو الأميين حيث كتبوا هناك علامات قبيلتهم.

(1) هذه تسمية عتيقة رائعة تعود كما أظن إلى اللغة الأكاديّة القديمة، وهي اسم حضارة مدينة إيبلا (عبلاء) في تلّ مردوخ، ذات المكتبة العظيمة من الرّقم الطيبّيّة المشويّة. ومعنى التسمية بالفعل: الصّخرة البيضاء.

«مِنْ شَرِيكَ بْنِ نَقَفَاتِ بْنِ نَعْفِيسٍ؟ بْنِ نَعْمَانَ»، كان هذا أحد النّقوش؛ والآخر: «مِنْ بُوخَالِهِ بْنِ ظَنَّ بْنِ أَنْعَمَ بْنِ رَوَاقَ بْنِ بُوخَالِهِ. ولقد وجد نقش عمّه وتاق لرؤيته، و....». كما كان هناك نقش آخر على رقعة لم أنسخه بطريقة جيّدة على نحو كافٍ ليتاح لي حلّ شيفرته على نحو مؤكّد. وربّما يحتوي اسمين مرتبطين بـ «ابن». كان هناك فوق الأسماء خطوط مستقيمة، من المحتمل أنّها تعرض الكواكب السّبعة⁽¹⁾، وذلك وفقاً لاقتراح دُسو Dussaud المبدع. وتمّت تهجئة الأحرف الإغريقيّة اليونانيّة لكلمة Hanelos والتي تعني حنّا، وهو اسم سامي، ومن المحتمل أنّه كُتب من قبل كاتبه بالخطّ الغريب في الوقت الذي كان يتعلّم فيه عندما كان يخدم في الجيش الروماني.

بينما كانت الجمل الكوفيّة Cufic عبارة عن جمل دينيّة تستنزل بركة على المسافر الذي كان قد توقّف من أجل أن ينقشها. وهكذا فقد ترك كلّ رجل حسب جنسه كتابته، ورحل في غياهب الزّمن، وبعد هذه الخريشات على الصّخور السوداء، فإنّنا لا نعلم أيّ شيء عن عرقه أو تاريخه أو مهمّته التي أحضرته إلى غدير الغرز الماحل. لقد بدت العبارات وأنا أنسخها مثل همهمة أصوات ضعيفة صادرة من الأرواح في الماضي المنسي، ولم يستطع أورفيوس Orpheus بقيثارته أن يسحر الصّخور كي تتكلّم بشكل أوضح عن الأجيال الميّتة. وأرى أن الصّفا جميعها مليئة بتلك الهمهمات؛ وأنّ الظلال ليست إلّا اسماً مهترأً في الهواء المرتعش فوق الحجارة، وتدعو إلهها بألستها المتعدّدة.

نسختُ النّقوش على عجلة، حيث لم يكن هناك وقت لنضّيعه في ذلك اليوم. وقف الدّروز حولي متبرّمين، وصرخ عواد: «يا الله، يا الله! يا ست»، والتي تعني: «أسرعي!». سرنا إلى الطّرف الشرقي للصّفا، والتفّنا حول زاوية قاع الحمم البركانيّة lava bed، وشاهدنا السّهل الأصفر من الرّحبة أمامنا. لأنّني كنت قد لاحظته من جبل الدّروز فقد علمت بأنّه يمتدّ على مسافة كبيرة نحو الشرق؛ ولكن عندما وصلنا إليه بدا

(1) كتبت المؤلّفة: راجع p.64 *Mission Scientifique*، Dussaud (مهمّة علميّة)

وأنا أدين بترجمة النّقوش إلى كرم الدكتور ليتمان Littmann الذي سيضع النسخ الأصليّة في كتابه «نقوش ساميّة».

أن عرضه ليس أكثر من نصف ميل، وتمتد خلفه بحيرة رائعة من مياه سديمية مزرقة. وارتفعت الأحجار البركانية القليلة في البعيد نحو الشرق مثل جزر خارج البحر، وقد تراءت صورتها في المياه الموجودة عند سفحها؛ ولكن مع سيرنا باتجاه ذلك الفيض الداخلي، تراجعت شواطئه أمامنا، ذلك بأنه لم يكن سوى سراب بحر يحسبه ضيوف الصفا أنه يهدئ عطشهم على نحو كافٍ.

شاهدنا بعد ذلك على حافة هضاب الأحجار المسامية برجاً رمادياً، وشاهدنا في السهل أسفل منه ضريحاً مقتباً مطلياً باللون الأبيض، وكان هذان موقعي خربة البيضا Khirbet el Beida ومزار الشيخ سراق Mazar of Sheikh Serak. لقد ورث الشيخ سراق موقعه كحارس للرحبة من زيوس صفاثينوس Zeus Saphathenos والذي كان بدوره الوريث المباشر للإله إيل EL إله الصفا الأكثر قدماً^(١). كان عمله يتمثل في أنه يحمي المحاصيل التي يزرعها العرب في السنين العذرة حيث تسكن روحه؛ وكان محترماً من قبل المسلمين والدروز على حد سواء، ويحمل مسؤولية رعاية عيد سنوي مرّ قبل أسبوعين من قدومي. والمقام ذاته عبارة عن بناء وفق النموذج الحوراني، بسطح حجري مدعّم بأقواس متصلة. ويوجد فوق الأبواب عتبة عليا منحوتة أخذت من آثار قلعة البيضا.



قلعة البيضا

(١) سنأتي على هذه المواضيع بالتفصيل في كتاب ثمين جداً سنقوم بترجمته للسلسلة بعنوان: «العرب في بر الشام قبل الإسلام» للآثاري الفرنسي رنيه دُسو.

René Dussaud: *Les Arabes en Syrie avant l'Islam*.

استطعت البقاء بصعوبة بينما احتشد رجالي هنا، وكنت متلهفة جداً لرؤية قلعة البيضا - خربة أو قلعة البيضا، فالعرب يلفظونها بالوجهين على حد سواء. تركت الدروز يؤدون احترامهم لزيوس صفاثينوس Zeus Saphathenos أو أي كان، وخبيت إلى حافة مصطبة الحمم، حيث يمتد أمامها خندق عميق ممتلئ بالمياه، كان عليّ عبوره بجسر صغير من ألواح خشبية؛ كان حبيب هناك يسقي بغلته، تلك البغلة الرائعة التي تسابق الخيل، فعهدت بحصاني إليه، وأسرعت فوق صخر الحمم المتكسر إلى داخل ساحة القلعة. كان هناك قلة من العرب يمشون فيه الهويني، ولم يعيرونني أي اهتمام يذكر كما فعلت أنا أيضاً معهم.

كانت هذه هي القلعة الشهيرة التي تحرس أرضاً ميتة من سكاّنها المحرومين منها، وحامية الصفا من الحماد. ارتفعت أسوارها المكوّنة من حجارة بيضاء رمادية فوق حجارة سوداء نُحِتَت على نحو صقيل، إنه المقرّ القوي لعالم من الأشباح. يا ترى أيدي من تلك التي بنتها، ومن الذي زين حليها الحلزونية المتدفقة على أعمدة الأبواب والعتبات، وأي عين بقيت ساهرة على الأبراج، لا تستطيع أن تقرّر بيقين. ربّما نظر إليها هانيولوس Hanclos وشريك Shuraik وبوخاليه Bukhalih وهم يدورون حول زاوية وادي الغرز Gharz، وربّما يكون الإله إيل EL قد شملها بعنايته، وربّما كانت صلوات الرّجل المراقب تعود إلى معبد بعيد، وقدمت إلى آلهة يونانية ورومانية. آلاف من الأسئلة التي لا جواب لها ولا يمكن الإجابة عليها تقفز إلى ذهنك وأنت تعبر عتبة الباب.



قلعة البيضا

لقد قام كلٌّ من دي فوغيه De Vogüé وأوبنهايم Oppenheim ودُسو Dussaud بوصف خربة البيضا⁽¹⁾ Khirbet el Beida، وبإمكان أيّ شخص مهتم بقراءة دراساتهم أن يعرف أنّها بناء مربع محاط ببرج دائري عند كلّ زاوية، وتتوّات مدوّرة بين الأبراج ودعامات مستطيلة موجودة مقابل السور الجنوبي؛ وقد زينت بواباتها بنماذج تزيينية بارزة رائعة، وحلي معماريّة درجيّة وأوراق وأزهار وحيوانات ترعى خلالها؛ ربّما كانت قلعة حدود رومانيّة بُنيت بين القرنين الثّاني والرّابع الميلاديين. وتبقى الحقيقة بأنّنا لسنا متأكّدين من أصولها، أكثر ممّا نحن متأكّدون من أصل الأطلال الأثريّة التي هي قريبة منها في جبل سيس⁽²⁾ Jebel Ses أو المشتّى Mshitta، أو أيّة أبنية في الصّحراء الغربيّة.

ثمّة أشياء متشابهة بينها جميعاً، وهناك اختلافات واضحة أيضاً، كما هو واضح من الأشياء المتشابهة بين قلعة البيضا Kal'at el Beida وفن العمارة في حوران Hauran. وبعد، فأيّ نحات من الجبل قد ترك لخياله العنان، أن يتفوّق على القاعدة التّقليديّة في التّحت كما فعل الرّجل الذي نحت صور حيوانات الصّحراء حول أبواب قلعة البيضا؟ هناك روح شيء غريب عن أسلوب الفنّ في الجوار، أكثر وحشية وخيال أكثر حرّيّة، وليس ماهراً كمهارة من صنع الزّخرفة الشّجريّة في المشتّى حيث أنّها أكثر إتقاناً ولكنّها أقدم على الأغلب. كلّها أعمال خاضعة للتّخمين؛ وقد تشي الصّحراء بأسرارها، وبتاريخ الصّفا والرّحبة حيث يمكن أن تُجمع معاً من الصّخور المكتوبة،

(1) هذه الخربة الأثريّة بالفعل من أجمل آثار حرّة الصّفا، زرّتها مراراً قبل عام 2000 أثناء إعدادي لموسوعة «ريف دمشق»، والراجع اليوم لدى علماء الآثار في أصلها أنّها من بناء الغساسنة قبل الإسلام. ومن أهم ما أضيفه هنا هو اسمها الذي ما برح يحمله الباحثون حتى اليوم، وهو: «قصر نقعة» كما قرأه الباحث الكبير محمّد علي مادون في بعض النقوش الصّفايّة القريبة من الموقع. والنّقعة تعني المستنقع، وغير بعيد عنه موقع يشابهه بالاسم، هو: مَنقَع الرّحبة.

(2) أمّا أصل قصر جبل سيس فأموي لا جدال فيه، وقد عمل على بحثه الأثاريان الفرنسي جان سوفاجيه Jean Sauvaget والألماني هاينتس غاوبه Heinz Gaube، فخرجا بنتيجة واضحة أنّه من بناء الوليد بن عبد الملك بن مروان، «معمار بني أميّة» وباني جامع دمشق الأموي الكبير عام 86 هـ.

ولكن في البداية يجب القيام برحلات كثيرة وكذلك القيام بالكثير من التنقيبات في الحدود السُورِيّة، وربّما في الحيرة Hira أو في اليمّن .

أودّ فقط أن أقدم ملاحظة وهي أنّ الأبنية في قلعة البيضا لا يمكن كما هي عليه الآن أن تكون منتمية للحقبة الزمّنية نفسها. وبالتأكيد فإنّ الصّيانة قد تمّت في وقت متأخّر عن تصوّنة أسوار البرج. في حين بنيت هذه الأبراج بالملاط مثل المعسكر الرّوماني في القسطل والقلعة في الموقّر Muwakkar، فالّتصوينة عبارة عن أبنية جافّة تشبه تلك الأبنية السّائدة في حوران، والتي في أسوارها أحجار منقوشة من المؤكّد أنّها وُضعت في غير المكان الذي نُحِت من أجله. وحَتّى الزّينة حول باب القلعة الرّئيسي كانت من حجارة مأخوذة من مكان آخر؛ والكتلتان الحجريّتان المنحوتتان الموضوعتان في عتبة الباب العليا غير متوافقتين مع بعضهما ولا مع البوّابة. ولكنّ النّتيجة الوحيدة التي أغامر بكتابتها هي أنّ المقترّحين حول أصل القلعة، اللّذين قدّمهما علماء الآثار، يقول الأوّل منهما إنّ المكان كان معسكراً رومانياً، والآخر يقول إنّّه كان قلعة تعود للغساسنة Ghassanid، وقد يكون كلّ منهما صحيحاً⁽¹⁾.

تمتدّ حافة الحمم البركانية على بضعة أقدام فوق السّهل، وتوجد على طول هذا الحاجز الدّفاعي الطّبيعي أبنية أخرى إلى جانب القلعة البيضاء، لكن ولا واحد منها له الأهمّيّة المعماريّة ذاتها، حيث أن أسوارها قد بُنيت بفضاظة من كتل التّوفا tufa المساميّة المربّعة ووضعت فوق بعضها دون ملاط، على حين بُنيت القلعة من حجر رمادي، وُبني قسم منها باستخدام الملاط. والبناء الوحيد الذي له بعض الأهمّيّة من بين الأبنية التي زرّتها يقع على مسافة قليلة إلى الشّمال وقد سُقف وفقاً للأسلوب الحوراني بالأواح حجريّة ممتدّة على أقواس مستعرضة. وعلى مسافات متقطّعة على طول سرير الحمم البركانية كانت هناك أبراج صغيرة تشبه أكشاك الحرس تحذّر من الاقتراب من القلعة، وهي أيضاً كانت من بناء جاف دون ملاط.

(1) بل الثاني هو الصحيح، هذا ما يتفق عليه علماء الآثار اليوم.



قلعة البيضاء، باب السور

سمحنا لأنفسنا بالتوقف لمدة ساعتين فقط، حيث كان علينا أن نكون على مرأى من مخيمنا قبل حلول الظلام خوفاً من قضاء الليل في الصفا المكشوفة. وانطلقنا إلى مخيمنا بعد أن أجهزنا بسرعة على ما تبقى من الدجاجات الخمس اللاتي كنا قد أحضرناها معنا من أم رويق Umm Ruweik، وقد نُكِّهت بأعواد من البصل اللاذع الذي كان عواد قد عثر عليه. ورأينا بعد مسيرة خمس ساعات إلا ربع دخان نار المعسكر قبل حلول الظلام، فانطلقنا باتجاهه، وقادتنا إليه سلسلة من المجموعات الحجرية الواضحة. هذه الأمكنة المكشوفة هي مراح marah (علامات مخيم) للغة Anazeh الذي اعتادوا أن يخيموا في الصفا قبل أن يقطن الدروز في الجبل قبل أكثر من قرن من الزمان⁽¹⁾. وبناء عليه فلا يزال

(1) تعود بداية هجرة طائفة الموحدين الدروز (بني معروف) من جبل لبنان إلى جبل الرّتان شرقي حوران، بعد معركة عين دارة الشهيرة التي وقعت بين القيسية واليمانية من الدروز أنفسهم في عام 1711 وانتصر فيها القيسيون. فبدأ اليمانيون من الدروز بالهجرة إلى جبل حوران أو جبل

المراح يُشاهد بعد أكثر من قرن على الأقل، وربما سيبقى لعدة قرون أخرى.

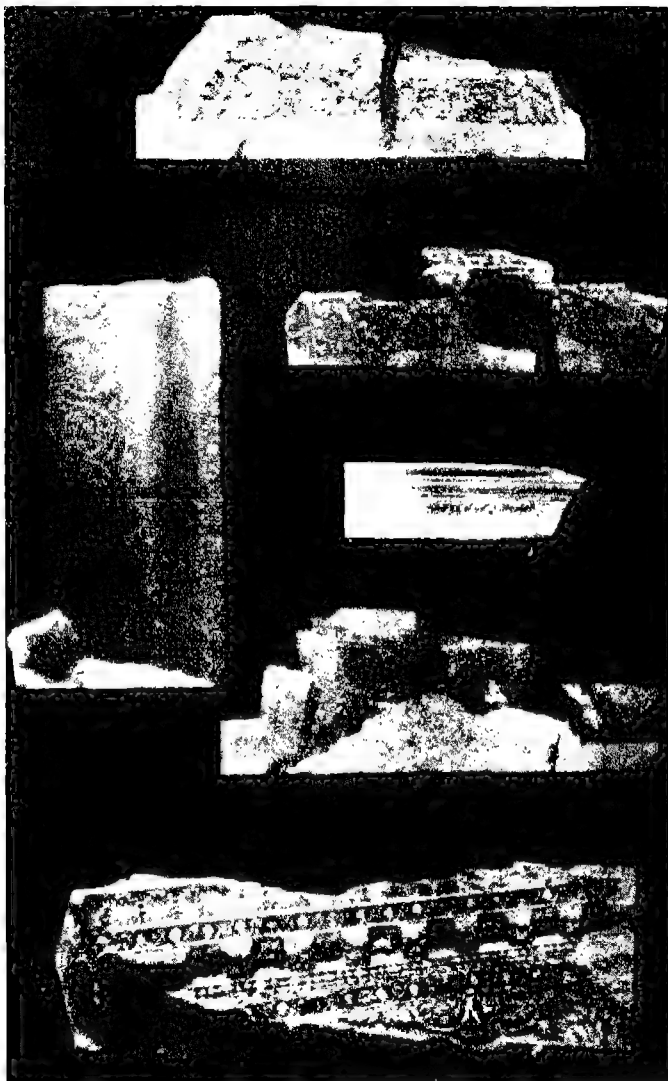
كانت هناك ريح باردة قويّة عند المساء، فحوّلنا الرّواق الرّئيسي للخيمة ليحمينا بشكل أفضل؛ ولكن نتيجة لذلك كلّ أمضينا ليلة مريحة، وأيقظني البرد عدّة مرّات على شعور غير مريح من أنّي كنت نائمة على تلّ من النمل. كيف يستطيع العرب إيجاد وسيلة لجمع الكثير من البراغيث في مقتنياتهم القليلة جدّاً، إنّه لغز لا يمكن تفسيره. وبصعوبة كان هناك مكان مناسب لهم للمبيت فيه، باستثناء جدران الخيمة نفسها، وعندما يتم هدم تلك الجدران عليها أن تبدي مهارة ورشاقة مختلفة عن العادة الشّائعة للبراغيث وذلك لحماية نفسها لتتحزم وتحمل إلى أرض المخيم التّالي ولكن وبلا شك فهي كفؤ لهذه المهمّة ويعرف ذلك كلّ من أمضى ليلة في بيت من الشّعير. وبعد ليلتين مع الغياث بدت خيامنا وكأنّها جنة النعيم وذلك عندما عدنا إليها عصر اليوم التّالي، ويُعدّ الاستحمام أمراً رائعاً لمن يستطيع تحمّل الحياة السيّيرية، حتى لو أُخذ في حرارة منخفضة بضع درجات عن درجة التجمّد.

أثناء مسيرنا إلى مخيمنا وقعت حادثة جديرة بالتّسجيل، حيث أنّها تتعلّق بالعادات الدرزيّة. كما لاحظنا من قبل فإن الطّائفة تنقسم إلى عُقال وجهّال. وبالتّسبة للغريب فإنّ الفرق الأساسي بين القسمين هو أن العقّال يمتنعون عن التّدخين، وقد لاحظتُ في اللّيلة التي أمضيتها في قرية ساليه بأن لا أحد من عائلة محمّد ونصار يدخّن. لذلك فوجئت عندما طلب فايز - الذي وجد نفسه وحيداً مع ميخائيل ومعّي - سيجارة من ميخائيل، فاعتذرتُ إليه بسبب أنّي أهملت تقديم سيجارة له من قبل قائلة بأنّي كنت قد فهمت أنّ التّدخين محظور عليه. طرّف فايز بعينه المائلتين وأجاب بأنّ الأمر كما قلت، وأنّه لم يكن ليقبل سيجارة في حال وجود درزي، ولكن طالما أنّه لم يكن يوجد أحد من أبناء طائفته فقد شعر بنفسه حرّاً في أن يفعل ما يمتعه. وعلى أيّة حال فقد توسّل إليّ ألا أذكر لأخيه تلك الزّلة الأخلاقيّة.

في تلك اللّيلة، وفي مضافة أم رويق، قمتُ أنا وثلاثة شيوخ بوضع عدّة خطط

الرّيان، الذي غدا اسمه منذ ذيك الحين: جبل الدّروز، وفي أواسط القرن العشرين لُقّب بجبل العرب تماشياً مع دعوة القومية العربيّة السّائدة آنذاك.

لرحلات استكشافية أبعد في الصّفا، وحددنا عدد الجِمال التي كان عليّ أن آخذها معي، وحتى الهدايا التي سوف أكافئ بها الحراس عند نهاية الرحلة. وبالتأكيد سيكون كلّ من فايز وأحمد وخطّاب من بين بعثة الاستكشاف إذا كان الخيار بيدي.



نماذج زخرفيّة من قلعة البيضا ومن تدمّر
والمدمالك الحجري الأعلى من قلعة البيضا

في الصّباح التّالي عند السّاعة الثّامنة والتّصف بدّأنا رحلتنا ذات الأيّام الثّلاثة إلى دمشق. وبالتّسبة لآم رويق أريد أن أضيف فقط بأنّ الأمر استغرق أربعة أيّام بالتّمام كي نجمع، وبصعوبة، من جميع سكّانها مبلغاً يعادل قيمة ليرة ذهبية واحدة. كنّا قد أحضرنا معنا حقيبة من النقود النّحاسية والفضية من القدس، ولكن عندما أنفقت وجدنا صعوبة بالغة في دفع ديوننا - هذه أيضاً إحدى التّلميحات للرّحّالين التي ناقشني ميخائيل في وجوب وضعها في الكتاب الذي سوف أكتبه. سرنا عبر منحدرات ساحرة مغطّاة - حيث كانت الثّلوج ذائبة - بالسّوسن الأزرق الغامق، وقضينا ساعة أو اثنتين في شقّا Shakka التي كانت إحدى المشاهد الرئيسيّة التي تحدّث عنها عالم الآثار دى فوغيه de Vogüé. والباسيليقا (المبنى الروماني المستطيل) الذي كانت معالمه كاملة تقريباً في كتابه هو الآن محطّم كليّاً في خربة، ولم تبق سوى الواجهة، ولكن القيصرية Kaisarieh لا تزال قائمة، والدير الذي يُعتقد أنّه واحد من أقدم الأبنية الرّهبانية في الوجود.

سرنا قرب هيت Hit، وهي بلدة لطيفة تحتوي على منزل جميل يعود إلى ما قبل الإسلام (pre-Arabic) يسكن فيه الشّيخ، وأقمنا مخيمنا عند البنية⁽¹⁾ Bathaniyyeh في جوّ صقيعي، مما جعلني آوي إلى فراشي وأنا أرتعد من البرد. كان هنا نهر جارٍ وهو الآن متجمّد تماماً. وفي اليوم التّالي قمت بجولة لزيارة الهيات Hayat حيث توجد قلبية Kalybeh جميلة كتب عنها دى فوغيه de Vogüé، وقلعة. كنت أريد أن أسدّ بعض الثّغرات في رحلتي السّالفة وأرى ما هو نوع الأبنية التي يمكن العثور عليها في المنحدرات الشّمالية من الجبل، إذا لم أستطع فعل شيء أكثر. كانت القرى القديمة قد امتلأت بسرعة بالنّاس، وخلال بضع سنوات لن يبقى سوى آثار قليلة من مبانيهم الأثرية.

(1) هكذا اسمها الصحيح، وليس البنية كما تكتب المؤلّفة.



بوابة في شقا

لذا فقد نزلنا إلى السهل المتصل بطريق اللّجاة Leja من شهباء Shahbah إلى دمشق عند لاهثة Lahitch، وتبعنا بغالنا إلى براق Brak القرية الأبعد في حوران. يوجد مركز عسكري في براق Brak فيه عشرون عسكرياً؛ وقبل أن نصل إليه بقليل التقينا بفتاة درزية صغيرة جثمت مرتعدة على جانب الطريق وبكت عندما رأتنا من الخوف، وصرخت: «أنا خدامة! أنا خدامة!». كانت كلماتها تلقي ظلاً من الشؤم على النظام التركي الذي وجدنا أنفسنا تحته مرّة أخرى. وفي مقابل الحصن تقريباً مررنا بدرزيين عندين من دمشق، وألقوا عليّ تحية ودودة فقلت:

«هل أنتم متجهون إلى الجبل؟».

قالا: «بالله! الله يحفظك!».

قلت: «أنا قادمة من هناك - سلّموا لي عليه»، فأجابا:

«الله يسلمك! مع السلامة!».

لا يمكن للرحالة أن يترك منطقة الدروز خلفه دون أن يشعر بغصة، ودون أن يأخذ على نفسه عهداً بأن يعود إليها حالما يستطيع.

وكوننا مررنا تحت حماية السلطان، فقد وجدنا بأنّ طريقي في اليوم التالي يمتدّ عبر خطر حقيقي هو جزء من المنطقة. وقد حاول الشركس Circassians والأتراك من براق Brak (فقد كان الأتراك شعباً فاتناً من الأقسام الشماليّة في آسيا الصّغرى) إقناعي بقوة بالعدول عن أخذ الطريق القصير الذي يقطع الهضاب إلى دمشق، وكان كلامهم من القوّة بحيث تخلّيت تقريباً عن الفكرة. قالوا إنّ الهضاب كانت محتلة باستمرار من قبل اللصوص وخالية ربّما من مخيمات العرب في هذا الوقت من السنة، ولذلك فقد اتخذها اللصوص طريقاً خاصاً لهم.

وسمعنا لحسن الحظّ في الصّباح التّالي عن مجموعة من الجنود قيل إنّهم سيسافرون إلى دمشق عبر الهضاب، وشجّعنا الخبر بأن نسلك الطريق ذاته. لم نرهم أبداً في طريقنا، ولم أصدّق أنّه كان لهم وجود حقيقي؛ وشاهدنا على الجانب الآخر بعض الخيام السوداء التي أعطتنا شعوراً بالثقة في أسوأ جزء من الطريق، ولا بدّ أن يكون اللصوص متورّطين في جانب آخر ولذلك لم يظهرُوا. لكنني لاحظت باهتمام أولاً أنّ الحياة الصّحراوية تمتدّ إلى حدود ساعة أو ساعتين بعيداً عن دمشق، وهي حقيقة لم أُنَبِّه إليها من قبل عندما ذهبتُ عبر الطريق العام، وثانياً أنّ سلام السلطان، إذا كان يمكن أن نطلق عليه سلاماً، يتوقّف تقريباً عند أسوار المدينة الرّئيسيّة سوريا.



دار الشيخ في هيات

عبرنا نهر الأعوج، الذي هو فَرَفَر Pharpar ووصلنا فوراً بعد منتصف النهار إلى القرية الجركسية من نجها Nejha، حيث توقفت لتناول الغداء تحت بعض أشجار الحور، وهي الأيكة الأولى من الأشجار التي رأيته منذ تركت السلط. سواء سافرت إلى دمشق عبر طريق قصير أو طريق عام، من حوران أو من تدمر، فإنها تبقى دائماً بعد من أي مكان آخر تعرفه. وربما يعود سبب ذلك إلى أن الرحالة يكون متشوقاً جداً للوصول إليها، وتقع مدينة العرب العظيمة والباهرة في حزام من أشجار مثمرة ومليئة بخير الأنهار. ولكن لو كان لديه صبر فقط فليس هناك طريق ليس له نهاية في الآخر؛ وأتينا أيضاً أخيراً إلى حافة بستان مشمس ومن ثم إلى بوابة الله، وعندها دخلنا إلى الميدان وهو عبارة عن حي طويل من المحلات والخانات يمتد مثل مقبض ملعقة ضخمة، في وعاء ممتلئ بالمآذن والقُبب في الأحياء الغنيّة. أويّت عند الساعة الرابعة إلى فندق فيكتوريا، وأخذتُ بريد شهر من الرسائل والصحف في يدي.

* * *

الفصل السابع

عندما قدمتُ إلى دمشق قبل خمس سنوات، كان مستشاري الأول وصديقي - وهو صديق سيّاسف لوفاته كثير من الرّحّالين في سوريا - هو لوتيكه⁽¹⁾ Lütticke مدير المصرف الذي يحمل الاسم ذاته وقنصل ألمانيا الفخري. لقد كانت ملاحظة عابرة أظهرت لي المكانة التي مثّلتها هذه المدينة وما زالت تمثّلها في التاريخ العربي. قال: «أنا مقتنع بأنّه يمكنك أن ترى في دمشق وما حولها أفضل سكّان عرب يمكن أن تجدهم في أيّ مكان آخر. وهم سلالات الغزاة الأصليين الذين جاؤوا مع الموجة الكبيرة الأولى للفتح، وحافظوا على سلالتهم نقيّة تقريباً»⁽²⁾.

تعدّ دمشق أكثر من جميع المدن الأخرى عاصمة للصّحراء. الصّحراء الممتدّة حتّى أسوارها، إذ تهبّ أنفاسها عليها مع كلّ ريح، وتعبر روحها من البوّابات الشرقيّة مع كلّ راكب بعير. وفي دمشق يمتلك شيوخ القبائل الغنيّة منازلهم البلديّة الخاصّة، فبإمكانك أن تقابل محمّداً شيخ قبيلة الحُسينة⁽³⁾ Hasench والشيخ Bassān شيخ

-
- (1) هو إرنست لوتيكه Ernst Lütticke القنصل الفخري لألمانيا القيصريّة بدمشق آنذاك.
- (2) هذا الكلام قطعياً غير دقيق، فمع أن الفاتحين الأوائل الذين قدموا من الحجاز صاحبّتهم قبائل يمانيّة وقيسيّة قطنت بالشام، ما برح كثير من الأقوام غيرهم يقصدون الشام وقيمون فيه، من أقطار المغرب العربي ومن التركمان والأكراد والأتراك والجرّكس والألبان والبشناق والبخاريين وغيرهم، وهذا بسبب أهميّة دمشق التجاريّة ووفرة مقومات الحياة فيها، ولوقوعها على درب الحج بالنسبة للقدام من آسيا وتركيا والبلقان.
- (3) الحُسينة قبيلة عُزّيّة معروفة في بادية حمص بوسط سوريا، وهي إحدى قبائل المنابهة من بني

قبيلة بني رشيد⁽¹⁾ يتهاديان في الأسواق في يوم جمعة لطيف، بالعباءات المطرزة والشالات الأرجوانية والفضية الملقاة على الجباه والمثبتة بعقل من شعر الجمال وقد لفت بخيوط الذهب. ويرفع شيوخ البدو رؤوسهم عالياً، سادة القفر هؤلاء، فيتمشون بين حشود يوم العطلة، ينتظرون أن يفسح لهم الطريق، كما لو كانت دمشق مدينتهم الخاصة. وهي كذلك، لأنها العاصمة الأولى للخلفاء البدو خارج الحجاز، ولا تزال تذكر أرفع التقاليد العربية وتحافظ عليها.

لقد كانت تقريباً أولى المدن المشهورة عالمياً التي تسقط أمام فرسان الصحراء الذين لا يمكن مقاومتهم، والذين دعاهم محمد⁽²⁾ لحمل السلاح وأعطاهم هدفاً وشعاراً للمعركة، ولقد كانت المدينة الوحيدة التي بقيت ذات أهمية تحت الحكم الإسلامي كما كانت تحت حكم الإمبراطورية الرومانية. اتخذها معاوية عاصمة له، واستمرت تحتل مكانة المدينة الإسلامية الرئيسية حتى سقوط الحكم الأموي بعد تسعين سنة. ولقد كانت العاصمة الإسلامية الأخيرة التي حكمت وفقاً لتقاليد الصحراء. وضع قادة الفرس بني العباس على العرش في بلاد ما بين النهرين، وكانت التأثيرات الفارسية والتركية مهيمنة في بغداد، ومعهم درجت ببطء العادات القاتلة من الرفاهية التي لم تكن الصحراء تعرفها أبداً، ولا حتى الخلفاء الأوائل الذين جلبوا أغنامهم بأيديهم وقسموا الغنائم بين المتصيرين من المؤمنين من شعبهم.

لقد دمّرت النتائج المنبعثة من البيئة الفاسدة جداً في بلاد ما بين النهرين قيم

وهب من ضنا مسلم من عنزة، ونسبتهم الى جدهم حسين بن صاعد بن منبه، وكانت ديارهم سابقاً في خيبر والعلا، وقد كانت هجرتهم الى بلاد الشام بحثاً عن المراعي والماء بقيادة الشيخ فاضل المزيّد، مع ابناء عمومته من المنابهة وفخذ المواينة من السبعة والعمور من قبيلة الدواسر. وشيوخ الحسنة آل المزيّد، ويعرفون أيضاً بالملحم نسبة إلى الشيخ ملحم بن رشيد المزيّد. ويجمع الشهابون على أنهم من أرفع شيوخ عنزة نسباً في بلاد الشام.

(1) لعلها تعني عشيرة الرشايدة العبسية؟ ولو أنّ شيوخها من آل البراك، ولم أفهم ما هو الاسم الذي تكتبه هنا، وشبهه بسم. وينبغي عدم الخلط بينهم وبين آل الرشيد حكام جبل سمر. ومع ذلك أظنها أخطأت حتى في اسم العشيرة، إذ أنها تذكر مدينة دمشق وديار الرشايدة بعيدة عنها.

(2) رسول الله، عليه أفضل الصلاة والسلام، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الرجولة. وانبعث أشباح قصور البابليين والآشوريين المتآمرة من قبورها الموحلة،
 قوّة وشريرة لتطيح بجيش الخليفة وتجرده من سلاحه، ولتقيد يديه ورجليه بالحرير
 والذهب. كانت دمشق بريئة منهم؛ وكانت دمشق تُكتسح برياح الصّحراء التّظيفة، وقد
 حكمت إمبراطورية النبي ببعض من التّشاط الإسبرطي Spartan في الأيام الأولى.
 ولم تكن محدثة النّعمة مثل العواصم التي على دجلة؛ فقد سبق أن رأت ملوكاً وأباطرة
 داخل أسوارها، وتعلّمت الفرق بين القوّة والضعف، وأيّ طريق يُؤدّي إلى السّيادة
 وأيّها يُؤدّي إلى العبوديّة.



في الصّحراء التّدمريّة

عندما وصلتُ حُيتُتُ تحيّة ممزوجة بالأخبار بأنّ رحلتي في حوران كانت قد
 أشارت على نحو معتبر فكر فخامة ناظم پاشا والي سوريا⁽¹⁾؛ وفي الحقيقة فقد أذيع

(1) الوالي حسين ناظم پاشا أحد خيار الولاة الذين حكموا دمشق بأواخر العهد العثماني في مطلع
 القرن العشرين، تولاها ثلاث مرات بلغ مجموعها ثلاثة عشر عاماً، فامتدت ولايته الأولى من
 العام 1895 حتى 1907، ودامت ولايته الثانية قرابة السنة في العام 1909، بينما استمرت ولايته
 الثالثة بضعة أشهر في العام 1911. ولقد ترك بدمشق مجموعة مهمّة من المنشآت المعماريّة،
 أهمّها: السرايا الجديدة (مقر وزارة الداخلية حالياً)، ودائرة الأملاك السلطانية (دائرة الشرطة
 والأمن العام)، ودائرة البلدية، وطبابة المركز (صيدلية المشفى الوطني) المجاور (أزيلا في

على نحو عام أنّ هذا الرجل ذا الخبرة الواسعة والكثير التهذيب قد شعر بالغيظ ليس بسبب ظهوري المفاجئ في صلّحد حيث كان نائماً في فراشه، ولكن عندما غادرت قبل وصول جاسوس يوسف أفندي، ولذا فقد اقترح البعض بأنّ السبب الحقيقي لنفور سعادته المفاجئ كان رغبة منه في تجنّب أن يكون جزءاً في مذكرة الأرشيدوق سيرج Archduke Serge. وإذا كان الأمر كذلك فقد أرسل لي يوم وصولي رسالة مهذبة يعبر فيها عن أمله بأنّه سيكون مسروراً بالتعرّف إليّ شخصياً.

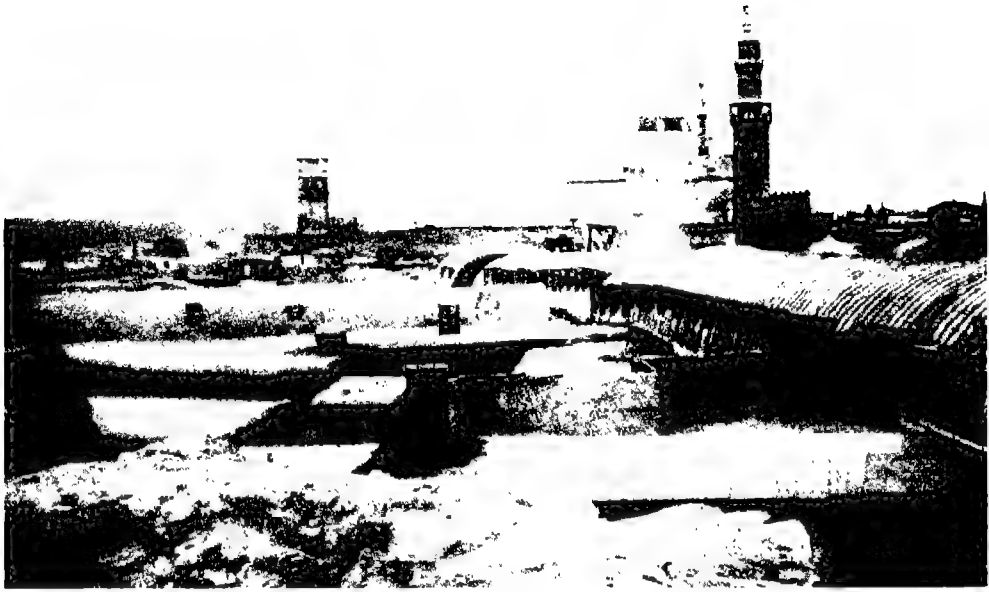
أعترف بأنّ إحساسي الأولي كان شعوراً بالتّدم عندما أذن لي بالدخول إلى البيت الكبير الجديد الذي كان الوالي قد بناه لنفسه عند نهاية الصّالحيّة، وهي من ضواحي دمشق التي تمتدّ على طول سفح الهضاب العارية إلى شمال المدينة. كان لدي رغبة قويّة بالاعتذار، أو مهما تكن الظروف لأبرهن له بأنّي لم أكن أعتبر شخصاً عدوانياً. كانت هذه المشاعر قد عزّزت بالّلطف الذي استقبلني به، وبالا احترام الذي يحدثه بهؤلاء الذين يأتون للتعرّف عليه. إنه رجل ذو مزاج عصبي، يقظ دوماً ضدّ المصاعب التي لا تتوانى ولايته بتوفيرها له، وهو حيّ الضّمير، وأظنه صادقاً وقلقاً جداً بشأن التوفيق بين المصالح المتعارضة التي لا يمكن مزجها مع بعضها بسهولة إلّا كما يُمزج الخلّ مع الزّيت، وهو ينظر من طرف عينيه باستمرار إلى سيّده السلطان الذي يحرص بأن يكون شخصاً متميّزاً مثل ناظم پاشا بعيداً عن شواطئ البوسفور على نحو معتبر.

ولقد مضى على الوالي في دمشق ثماني سنوات والمدة المعتادة للولاية هي خمس سنوات، ومن الواضح أنّه قد عزم على أن يبقى في دمشق ما لم يصبه حظّ سيّئ، حيث أنّه بنى لنفسه بيتاً كبيراً وأحاطه بحديقة جميلة⁽¹⁾، وهو التخطيط الذي يصرف ذهنه،

أواخر الخمسينيات من القرن الماضي ويرتفع مكانهما حالياً بناء الشربتلي)، والثكنة الحميدية (كلية الحقوق حالياً)، ومشفى الغرباء الحميدي (مركز رضا سعيد للمؤتمرات حالياً)، ودار الوالي ناظم پاشا (القصر الجمهوري سابقاً) وغيرها. وفي أيامه أمر بجرّ مياه عين الفيحة إلى دمشق ليُشرب أهلها ماءً نقياً، وتم ذلك للمرة الأولى عام 1908.

(1) ما زال هذا البيت موجوداً إلى اليوم، وهو القصر الجمهوري القديم في المهاجرين بالشارع الذي يحمل اسم الوالي حسين ناظم پاشا. وعند مغادرة پاشا دمشق اشترى القصر الثري

دعنا نأمل، عن المشاغل الكثيرة التي نادراً ما تكون سارة. كان أحد عوامل بقائه هو اهتمامه النشط بتشديد سكة حديد الحجاز، التي يهتم بها السلطان أشد الاهتمام، وحتى ينتهي تشييدها أو الإقلاع عن متابعة تشييدها فالأمر مفيد بما يكفي كي يبقى محتفظاً بمنصبه^(١).



الجامع الكبير وسقف السوق، منظر من القلعة

لا يعتقد الرأي العام في السوق بأن المشروع سيُهمل، على الرغم من معارضة شريف مكة وكلّ عشيرته، الذين لم يقتنعوا أبداً بحق ادعاء السلطان أنه خليفة الإسلام ولم يرغبوا بأن يكون على تماس مباشر مع العواصم الإسلامية. والسوق يساند السلطان ضدّ الشريف

المصري خورشيد، الذي كان يمتلك بأعلاه في سفح قاسيون حاكورة كبيرة ما زال الحي يحمل اسمها إلى اليوم (حيّ خورشيد).

(١) كتبت المؤلفة: بعد كتابتي هذه الرسائل دارت عجلة السياسة ضدّه وهوت به إلى الحضيض، وهو الآن يشغل مركزاً ثانوياً في جزيرة رودوس Rhodes.

وضدّ كلّ الأعداء الآخرين سواء كانوا متديّنين أو ملحدين. وتطحن عجلات مطحنة الأتراك ببطء وغالباً ما تقف، لكنّها في النّهاية تطحن القليل وخاصّة عندما تكون الحنطة المعدّة للطحن هي الطّبقة الأولى من القبائل العربيّة الهشّة بشكل خاصّ بحسدهم وشكّهم ومزاعمهم. وتشبه السياسة التّركيّة ذاك الذي قاله ابن كلثوم:

متى ننقل إلى قوم رحانا	يكونوا في اللّقاء لها طحيناً
يكون ثفالها شرقيّ نجدٍ	ولهوتها فُضاعة أجمعينا
نزلتم منزل الأضياف منّا	فأعجلنا القرى أن تشتمونا
قربناكم فأعجلنا قراكم	فُبيل الصّبح مرداة طحونا



سوق الحبوب

على الرّغم من أنّ ناظم پاشا له في دمشق ثماني سنوات، فهو لا يتكلّم العربيّة. ونحن في أوروبا الذين نتكلّم عن تركيا وكأنّها مملكة تتكوّن من أصل واحد، مثلما لو تحدّثنا عن إنكلترا باعتبارها تتضمّن الهند وبورما وولايات الشّان Shan States وهونغ كونغ وأوغندا. أمّا بالنّسبة للأرض المسكونة بالدرجة الأولى من قبل الأتراك فهي لا تمثّل ما يسمّى بالدّولة التّركيّة. وتعدّ الأجزاء من الأراضي الخاضعة لسلطانها حيث يشكّل الأتراك فيها الغالبية قليلة؛ وبشكل عام فإنّ وضعه يشبه أن يكون حكماً

أجنيباً مع عدد قليل من الجنود وخزينة فارغة، ومجموعة مختلطة من الأشخاص المعادين له والمتعاونين مع بعضهم البعض. وهو غير ملم بلغتهم، ومما يتنافى مع العقل أن نتوقع منه انسجاماً كبيراً مع طموحاته السياسيّة والدينيّة التي أصبحت بشكل عام معروفة عنه بين حملة البنادق، وفيما لو حصل وتوجه الرصاص، كما يحدث غالباً، مع القطاع الجامع وغير العقلاني في الولاية ضد إقليم آخر عنيد وغير عقلاني فمن غير المرجح أن يشعر بالأسف لضياح أرواح نتيجة ذلك.

وهو ذاته عندما يُترك لوحده ترى لديه شعوراً قوياً من الارتياح لتطبيق القانون والنظام. وإذا لاحظت التنظيمات الداخليّة لقرية تركيّة فإنك ستري بأنّ الفلاح التركي يعرف كيف يخضع لقواعد الإدارة والسلوك وكيف يطيعها. وأعتقد بأنّ أفضل موظفينا من المواطنين المحليين في مصر هم من الأتراك الذين أحضروا وعُتِنوا من أجل تطبيق النظام الجديد ويتمتعون بالشعور الطيب والموهبة الطبيعيّة بالنسبة لنظام الحكومة الذي لم يفهموا هدفه جيّداً تحت الحكم القديم. ولقد برهنت الطبقات العليا في السّلطة الحاكمة في الإمبراطوريّة العثمانيّة على فسادها، والطبقات العليا هذه مليئة باليونان والأرمن والسوريين وشخصيات من أمم متنوّعة يُنظر إليها بشكل عام في الشرق (وليس من دون سبب) بنظرة من عدم الثقة.

والحقيقة هي أنّ هؤلاء الرّجال الذين يبدو وكأنّ وصولهم للسّلطة أمر لا يمكن اجتنابه، هم السبب في الإخفاق التركي. فهو لا يستطيع أن يحكم مناطق واسعة، على الرّغم من أنّه يستطيع تنظيم مجتمع قرية؛ وفوق هذا كلّهُ فهو لا يستطيع أن يحكم بلاداً أجنبيّة، ولسوء الحظ فإنّه يؤتى به مرّة بعد أخرى إلى مناطق بعيدة ليحتك بأمم غريبة. وحتىّ أتباعه التقطوا عدوى الارتقاء، فقد أصبح اليونان والأرمن تجاراً ورجال مصارف، والسوريّون تجاراً ومالكي أراضٍ؛ وقد وجدوا أنفسهم محاطين في كل نقطة بعراقيل من قبل حكومة لن تدرك بأنّ أمة غنيّة تتكوّن من أشخاص أغنياء، ومع ذلك، وبسبب كلّ إخفاقاته، فإنّه لا يوجد أحد رغب أو سيرغب بأن يأخذ مكانه.

وبسبب غايّتي الحاليّة فإنّي أتكلّم عن سوريا فقط، الإقليم الذي أعرفه بشكل

كبير. وما هي قيمة جمعيات النّادي العربي والكرّاسات الملتهبة التي يصدرونها في مطابع دور النّشر الأجنبيّة؟ الجواب سهل: لا قيمة لها على الإطلاق. إذ لا وجود لأمة العرب⁽¹⁾؛ فالتاجر السوري تفصله مسافة كبيرة عن البدوي أكبر بكثير من تلك التي تفصله عن العثماني (العثماني)، وسوريا تسكنها أعراق تتكلّم اللّغة العربيّة وكلّ منها يتوق للإمساك بخناق العرق الآخر، والشّيء الوحيد الذي يمنعهم من إنجاز رغباتهم الطّبيعيّة هو خوفهم من الجندي العثماني الجائع مرّتي الأسما، الذي يقبض رواتبه من خزينة السّلطان بفترات غير منتظمة ونادرة. هذا الجندي، سواء كان كروديّاً أو چركسيّاً أو عربيّاً من دمشق، فإنّه يستحقّ مقداراً أكبر من الرّاتب الذي يتلقّاه. قد تتمرّد الجيوش الأخرى ولكنّ الجيش التركي سيبقى واقفاً إلى جانب الخليفة⁽²⁾؛ ويمكن للجيوش الأخرى أن تنهار أمام المعاناة والحرمان والمرض الذي لا يعالج، لكن بالنّسبة لجيش السّلطان فإنّه سيبقى متقدّماً ما دام يستطيع الوقوف، ويقاوم طالما يملك السّلاح، ويتنصر طالما لديه قادة. وليس هناك منظر أكثر جمالاً وإثارة للشّفقة من فوج تركي أثناء السّير: فهو عبارة عن شبّان ملتحين يكتسبون نصف كسوة بلباس رديء وغالباً حفاة، محرومين ومرهقين لكنّهم لا يُقَهّرون. دعونا نحْيهم ونحن نشاهدهم يمرّون؛ في الأيام التي كانت فيها الحرب عبارة عن فن أكثر من علم، كان الجيش التركي هو القوّة التي اجتاحت العالم.

(1) تتكلّم المؤلّفة هنا بحسّ استعماري مقيت، وكأنه لا أمة في الكون إلا بلدها بريطانيا، وبكل وقاحة تقول: لا وجود لأمة العرب! لكن الغايات الخفيّة للإنكليز ستظهر قريباً في عام 1916 عندما جيّشوا قبائل شمال الجزيرة لقتال التّرك إبان الحرب العالميّة الأولى في الثورة العربيّة الكبرى 1916-1918، ثم ما لبثوا مع حلفائهم الفرنسيين أن دخلوا بلاد المشرق العربي محتلين بعد عامين فحسب.

(2) لكن الذي حصل كان خلاف ذلك، فبعد مجرّد ثلاثة أعوام من رحلة المؤلّفة نجحت حركة الشبّان الأتراك Les Jeunes Turcs (جون تورك، وليس تركيا الفتاة كما تسمّى بالغلط) بتأليب الجيش العثماني على السّلطان عبد الحميد، وأجبروه على إعلان الدّستور عام 1908، ثم بعد سنة من ذلك في عام 1909 خلعت جمعيّة الاتحاد والترقي السّلطان ونصّبت بدلاً منه السّلطان محمّد رشاد، الذي كان ضعيفاً، وفي عام 1923 انتهت أيام السّلطنة بإعلان الجمهوريّة التركيّة على يدي مصطفى كمال باشا، الملقب بأتاتورك.



قبة الخزنة

لكنّي تركت حاكم سوريا ينتظر طويلاً. تكلمنا بعدها بالفرنسيّة وهي لغة كان ملماً بها على نحو ضعيف، ومن وقت لآخر كان رجل سوري لطيف يساعده بالتركيّة في بعض عقبات وأصول اللّغة الأجنبيّة. كان السّوري مالك أراضٍ ماروني غني من لبنان وكان يتمتّع بسمعة جيّدة عند بيت الحاكم على الرّغم من أنّه كان قد أمضى مؤخّراً سنة في السّجن. وقد رافقني في زيارتي وتجوّلي هنا وهناك، حيث كان قد عُيّن من قبل الوالي ليكون دليلي السّياحي في دمشق؛ كان اسمه سليم بك، وكان الحديث بشكل رئيسي حول علم الآثار، ولقد أصررتُ، على نحو متعمّد، أن يكون كلامي حول اهتمامي بهذا الموضوع مقارنة بالسياسات في الجبل والصحراء، حيث تجبّنا أيّ إلماح جدي عنها.

كان الوالي هو الدّمثة بذاتها، وقد أهداني صوراً لمخطوطات معيّنة لا تقدّر بثمن لقبة الخزنة في الجامع الكبير، والتي أغلقت الآن إلى الأبد أمام عامة النّظار، ووعدني

بأن يعطيني بقيّة المجموعة. وفي نهاية الزيارة انحنى لي شخصياً وأخذ عنواني باللغة الإنكليزية وسجله بعناية في محفظة جيبه، ولن أحتاج إلى القول بأن ذلك كان آخر ما يمكن سماعه عن الموضوع. وفي الحال أعلن الوالي بأن زوجة الباشا وأطفاله كانوا بانتظاري، فتبعتني إلى الطابق الثاني إلى غرفة مشمسة بنوافذ مفتوحة على شرفة تستطيع منها أن ترى دمشق كلّها بحدائقها وهضابها في الخلف. لم يكن هناك إلا زوجة الباشا، وهي امرأة جميلة جرسية حادة الملامح، ولكن كان هناك زوجة أخرى (وتقول الشائعات بأنها كانت المفضلة) قد توفيت قبل سنة.

كان الأطفال جذابين، وقد قرؤوا أمامي أشعاراً باللغة الفرنسيّة، وكانت أعينهم تتحرك بسرعة لالتقاط أيّ تعبير استحسان أو متعة يمكن أن يصدر مني؛ وعزفوا بالإيقاع رقصات بوهيمية وهم جالسون منتصبين القامة على كرسي آلة العزف، وذيول ستراتهم السوداء متدلّية خلف ظهورهم المخملية. جلس الباشا عند النافذة وابتسم لهم، وقامت الزوجة الجرسية بتدخين بعض السجائر وكانت تنحني احتراماً لي كلّما التقت عيناها بعيني، وابتسم صبي عبد أسود كان يقف عند الباب ابتسامة عريضة من الأذن إلى الأذن عندما أتمّ سادته وسيّداته مهمّاتهم، الذين كانوا أيضاً زملاءه في المدرسة ورفاق لعبه. خرجتُ بانطباع مبهج من ابتسامة جميلة مميّزة وذكاء لمّاح، وعبرت عن سعادتني للباشا ونحن ننزل الدّرج.

قال تهذيب: «آه، لو كنت أستطيع أن أعلمهم اللغة الإنكليزية! ولكن ماذا ستفعلين؟ نحن لا نستطيع الحصول على امرأة إنكليزية تتوافق مع عاداتنا، وعندي فقط امرأة يونانية تلك التي رأيتها لتعلمهم اللغة الفرنسيّة».

في الحقيقة كنت قد لاحظت المرأة اليونانية، وهي امرأة من طبقة دنيا وصغيرة ولا يمكن عدم الانتباه إلى سلوكها مع الصحبة الجميلة في الأعلى، ولكنني لم أتوان عن الثناء على لغتها الفرنسيّة الممتازة التي تتكلّم بها - ليسامحني الله! هزّ الباشا رأسه.

قال: «لو كان بإمكانني الحصول على امرأة إنكليزية». لسوء الحظ لم يكن عندي من أقترحها للمهمّة، ولا يبدو أنّه يمكن أن يرحّب باقتراح.



تكية النقشبندية

قبل أن أغادر وصل شخصان بارزان لمقابلة الوالي . كان الأول رجلاً بملامح شبه زنجية، ولكن بمظهر واضح ينبئ عن عرقه ونظراته السريعة الحادة. لقد كان الأمير عبد الله باشا، ابن عبد القادر الجزائري الكبير، من أمة زنجية. أما الثاني فقد كان الشيخ حسن النقشبندي، الخليفة الرئيسي للطريقة، وكنت قد تكلمت تقريباً عن جماعة راشدة إسلامية مشهورة في دمشق، حيث تقع تكبته الرئيسية. (وتعدّ التكية الآن معهداً دينياً لإيواء الدراويش وغيرهم من الأشخاص الدينين الأتقياء، وهو مكان يشبه الدير، إلا أنه لا يفرض على أعضائه نذر بعدم الزواج، بل يمكن أن يكون لديهم عدد من الزوجات حسب اختيارهم وفق النصاب الشرعي مثلهم مثل من هم خارج التكية؛ وكان لدى الشيخ حسن نفسه أربع زوجات. كانت كلّ علامات الذكاء الكهنوتي الماكر تلمع من ملامح هذا الرجل البليل ولم أكن أعلم بأن مواهبه كانت لافتة للنظر بشكل خاص، لكن انعدام الضمير لا بد أن يضاف إلى أية عيوب

ونواقص، أو أنّ ابتسامته تعطي فكرة خاطئة عنه. لقد أكمل اللقاء مع هذين الشخصين الدّخول إلى مجتمع دمشق، فقد قدّم لي كلّ منهما دعوة حارة لزيارتها في منزلهما في التّكية أو في أيّ مكان أرغب، وقد قبلت الدّعوتين لكّتي ذهبت أولاً إلى الأمير عبد الله.



بوابة التّكية

أو على الأصحّ، فقد ذهبت أولاً إلى بيت أخيه الأكبر، الأمير علي باشا، بسبب أنّ الأمير عبد القادر كان يقيم في ذاك المنزل، وآوى هناك خلال الأيام السوداء من المذابح التي جرت في عام 1860 ألفاً من المسيحيين. وقد حيكت حول اسمه معانٍ عاطفيّة من الشّجاعة والوطنية، وتوجت بحكمة واحترام وعُمر حافل بالتّفوذ والقوّة المستندة إلى الثّروة، حيث تمتلك أسرة عبد القادر كلّ الحي الذي تقطن فيه. والبيت مثله مثل أيّ بيت من بيوت دمشق الكبيرة، لا يُرى منه أيّ شيء من الخارج.

دخلنا عبر باب صغير في شارع ضيّق متعرج عبر ممرّ مظلم، ينعطف عند زاويتين ووجدنا أنفسنا في فناء من الرّخام فيه بحرة في المنتصف وأشجار برتقال مزروعة حولها. كانت جميع الغرف الكبيرة مفتوحة على هذا الفناء، وكانت الأبواب تبدو واسعة بالنسبة

لي. قدّمت القهوة والحلوى بالقرب من غرفة الاستقبال، في حين أعجبت بزينة الجدران والمياه التي تندفق عالياً في الأحواض الرّخاميّة وتجري بعيداً في قنوات رخامية. في هذا المنزل وفي معظم البيوت الدّمشقيّة توجد عند كلّ عتبة نافذة بركة ماء مقرّرة، وعليه فإنّ الهواء الذي يهب إلى الغرفة سيحمل معه رطوبة منعشة.

كان الأمير علي خارج المنزل ولكن كان وكيله المعتمد major domo، الذي يبدو كصاحب تشريفات القصر ويتمتع بالسلوك العائلي الجدير بالاحترام والتّابع الشّرقي، يعرف تماماً كيف يتولّى القيام بمهمّة عرض كنوز سيّده، السيف المحلّي بالجواهر المقدّم للأمير العجوز (عبد القادر) من قبل نابوليون الثالث، بنادق عبد القادر، وزوج من السيوف الثّقيلة المرصّعة بالفضّة، أرسلت في السّنة الماضية كهديّة من قبل عبد العزيز⁽¹⁾ بن الرّشيد. وعلمت بأنّ هناك صداقة تقليديّة بين العائلة الجزائريّة وأسياد حائل. أرانا أيضاً صوراً لعبد القادر؛ الأمير وهو يقود فرسانه، والأمير في قصر فرساي وهو يهبط درجات القصر مع نابوليون، يشقّ طريقه وكأنّه الرّجل الذي ربح وليس الرّجل الذي خسر، الأمير الرّجل المسنّ في دمشق، ودوماً بالثّياب الجزائريّة البيضاء التي لا يتخلّى عنها أبداً، ودوماً بالمظهر الرّائع الوقور ذاته.

عبرت أخيراً فوق جسر صغير يقطع جدولاً صغيراً خلف الفناء الرّئيسي، إلى حديقة مليئة بالبنفسج، عبرنا من خلالها إلى إصطبلات مهوأة ومضاءة وجافّة مثلها مثل أفضل الإصطبلات الأوروبيّة التي يمكن أن توجد. وفي الكشك كان هناك فرسان عربيّان جميلان من مزارع خيول الرّوالة Ruwalla المشهورة وبغل أصيل يتمتّع تقريباً بالقيمة والأصالة ذاتها. وكان هناك رجل حزين المظهر رافقنا طوال جولتنا على الرّغم من أنّه لم يبدُ عليه أنّه ينتمي إلى المجموعة؛ كان وجهه كئيباً جدّاً بحيث لفت انتباهي وسألت سليم بك من يكون. أجاب بأنّه مسيحي من عائلة غنيّة، أضطهد كي يغيّر دينه، فطلب ملجأ عند الأمير علي. لم أسمع أكثر عن قصّته، لكنّه ثبت الصّورة التي في الذهن عن

(1) ذكرناه أعلاه، الأمير عبد العزيز بن متعب الرّشيد، سادس حكام جبل شمرّ في حائل من بعد عمّه محمّد بن عبد الله الرّشيد. حكم بين 1897-1906.

منزل عبد القادر كملجاً: باعتباره منزل نبلاء، محروساً بخدم جيّدي التّدريب ويوفّر أسباب الرّاحة في الحياة ويقدم الحماية للمحتاجين.

ذهبت صباح اليوم التّالي لزيارة الأمير عبد الله الذي يسكن في منزل مجاور لمنزل أخيه. وجدت هناك ابن أخ عبد الله، الأمير طاهر، وهو ابن أخ آخر له، ولقد قوبل قدومي بترحيب وارتياح حيث صادف وجود ضيف مميّز كنت أرغب برؤيته من دون شك. لقد كان الشّيخ عبد القادر الجزائري بكلّ تأكيد، وهو رجل معروف جداً بعلمه وشدّته وسياساته الثّوريّة. دخل بسرعة إلى الغرفة العلويّة المفروشة بالأرائك والبسط التي كنّا جالسين فيها، دخل مثل زوبعة واستقرّ قربي وتكلّم بصوت عالٍ حيث قرع في أذني وآذان الجالسين بالجوار عن ألمه في أنّه لم يُسمح له من قبل الوالي بأن يتصل بحريّة مع الأجانب الموهوبين مثل علماء الآثار الأميركيين أو حتّى معي أنا (همست بتواضع «لا سمح الله!»)، بالإضافة إلى الكثير من المظالم الأخرى.

وعندما انتهى الحديث عن هذا الموضوع بعض الشّيء قام بإرسال الأمير طاهر ليحضر بعض المطبوعات من تأليفه ثم أهداها لي. وهي تبحث في اللّغة العربيّة واللّغات الشّقيقة لها، مثل النّبطيّة Nabatean والصّفائيّة Safaitic والفينيقيّة Phoenician، والأحرف الأبجديّة التي قام بترتيبها بعناية فائقة وشكل جيّد بوضعها في قوائم مقارنة، على الرّغم من أنّه ليس لديه فكرة عن معنى أيّ منها ما عدا لغته العربيّة. كان الشّيخ طاهر مثلاً نموذجياً وغريباً للباحث الشرقي، ولكن من الأمثلة التي حصلت عليها من حديثه فأنا لست متأكّدة من المشاركات الوجدانيّة لهؤلاء الأشخاص الذين يحترمون السّلام والنظام وإن لم يكونوا مع الوالي.

وسرعان ما دخل رجل مشهور آخر هو مصطفى باشا البرازي، وهو فرد من إحدى العائلات الأربع التي تتولّى زعامة حماة، وانشغل الحضور كلّ بالحديث عن أمورهم الخاصّة، مثل السّياسات السّوريّة وغيرها من الأمور، بينما كنت أستمع إلى الحديث وأنظر عبر النافذة إلى حديقة الأمير والجدول في نهايتها، وأعجب لحسن حظّي في أنّي أقضي هذا الصّباح الدمشقي. أخيراً أخذني الأمير عبد الله وابن أخيه جانباً وناقشا

معي طويلاً على نحو جدّي موضوعاً كبيراً كنت قد طرحته معهم ولن أكشف عنه هنا. وعندما انتهت الزيارة ذهبت أنا وسليم ومصطفى وتناولنا الغداء في مطعم محليّ ممتاز في السوق اليوناني، جالسين جنباً إلى جنب مع بدوي من الصّحراء وتناولنا أفضل الأطعمة وأجود الحلويات الدمشقيّة بالقشطة مقابل ثمانية عشر پنساً تقاسمناها بيننا نحن الثلاثة، وتضمّنت أيضاً ثمن القهوة والبقيش.

أمضيتُ أيضاً صباحاً آخر ليس أقلّ متعة من هذا الصّباح، وذلك عندما ذهبت مع سليم المخلص لأقدّم احتراماتي لرجل مسنّ رائع، هو الخطاط الأكثر شهرة في المدينة كلّها، كان اسمه مصطفى السّباعي⁽¹⁾ el Asba'i. كان يسكن في منزل مزين بنمط رائع من زخرفة تعود إلى مئتي سنة حُفرت ضمن رخام ملوّن وكُسيت بالجصّ المذهب، صنّعت واجهتها وفقاً لنقوش عجميّة برّاقة ثمّ طُليت بألوان غنيّة ناعمة كان الغالب فيها اللون الذهبي والذهبي البني. أخذنا عبر غرف الاستقبال إلى غرفة صغيرة في الطابق الأعلى حيث اعتاد مصطفى أن يجلس ويكتب تلك النصوص التي تُعدّ صوراً عن الشرق المسلم. وقد علّقت بعض اللوحات حوله مع نماذج من لوحات فنانين قدماء مشهورين وأخرى لفنانين محدثين، وميّزت من بينهم صديقي محمّد علي بن بهاء الله العجمي، الذي هو في رأيي أمهر خطاط في أيّامنا، على الرّغم من أنّ الشّهرة والامتياز قد ذهبتا إلى شخص آخر عجمي أيضاً من الطائفة الدينيّة ذاتها واسمه «مشكين قلم»⁽²⁾ Mushkin Kalam الذي اعتبره أيضاً من بين أصدقائي.

جلسنا على الوسائد وشربنا القهوة، واستعرضنا جميع اللوحات الرّائعة في جميع التّواريخ والبلاد، كتب بعضها بالذهب وبعضها بالفضّة، وبعضها على قماش مقصّب وبعضها على رقّ parchment (بعض هذه الأوراق الأخيرة كانت نصوصاً بالخطّ

(1) مصطفى السّباعي قاضٍ وخطاط دمشقي شهير برع بخط التعليق، وكان له عادة غريبة أنه يكتب بظفره أحياناً بدلاً من أقلام القصب. كان من كبار خطاطي دمشق بالإضافة إلى الخطاط التركي يوسف رسا أفندي وممدوح الشّريف. وبعد هؤلاء نبغ تلميذهم المبدع الخطاط بدوي الدّيراني. رحمهم الله جميعاً.

(2) تسمية مشكين قلم لقب للخطاط المبدع ميرزا حسين الأصفهاني الذي كان ينتمي للطائفة البهائيّة.

الكوفي سُرقت من قبة الخزانة قبل أن تُغلق)، وعندما نهضنا كي نذهب أهداني مصطفى ثلاثة نماذج من عمله الفني الخاص فحملتها معي مبتهجة.

في فترة لاحقة عصر ذلك اليوم، ركبْتُ أنا وسليم إلى وادي بردى، ودُعينا من قبل أخ ثالث لعبد القادر هو الأمير عُمر:

“Amir Omar, prince d’Abd ul Kadir”

وفقاً لما هو مكتوب على بطاقة زيارته، المطبوعة بأحرف لاتينية. كان الأمير الذي يسكن الصّاحية من العائلة، وارتفع إلى مراتب اجتماعيّة عالية من نفوذ أكبر بزواجه من أخت عزّت باشا⁽¹⁾ الظلّ القوي خلف العرش في القسطنطينية. مع عبد الله هناك دوماً ألف خطة ومشروع تحت التنفيذ تستوجب بقاءه في المدينة، أما عمر فيهتمّ بالصّيد والقنص ويهتمّ بحديقته ويعيش حياة بسيطة. كانت بسيطة إلى درجة أنّنا وجدناه يلبس قُبعة منزليّة Smoking cap ومبدلاً (روب دى شامبر) وخفين من القماش مخصّصين للسّجاد ويتمشّى في ممرات الحديقة. أخذنا إلى منزله الذي كان، مثله مثل باقي المنازل التابعة لعائلته، مليئاً بالأزهار، وصعد بنا إلى مقصورة على السّطح حيث تبعدنا كلب صيده بجوّ ودّي من الصّدّاقة والرّفقة. هناك، ووسط أواني المكاحل الياقوتية وأزهار الخزامي، راقبنا الشّمس وهي تغرب فوق الهضاب الثلجيّة وتكلّمنا عن صيد الصّحراء والرياضة.

(1) المقصود به أحمد عزّت باشا العابد (1855-1924)، ينتمي إلى أسرة العابد الدمشقيّة المعروفة التي تعود أصولها إلى قبيلة الموالي، درس بدمشق وأصدر جريدة سمّاها (دمشق)، وتدرّج في مناصب الدّولة العثمانية حتى بلغ صيته السّلطان عبد الحميد خان الثاني فعينّه كاتباً خاصاً له، ثمّ أضحى صديقه وأمين سرّه الخاص والأثير. لازم السّلطان مدة قاربت ثلاثة عشر عاماً قام فيها بأعمال عدة، أبرزها إشرافه على إنشاء خط سكة حديد الحجاز (الذي كان يرى البعض أنها فكرته) وتنفيذ خط التلغراف بين إزمير وبنغازي، وبين دمشق والمدينة المنورة.



مشكين قلم

لا شيء يجعلني وسط هذه الصّحبة العالية كلها أنسى أصدقائي الأكثر تواضعاً: الأفغاني بخصلات شعره السوداء المتدلّية على وجنتيه والذي كان يحثيني كلّما التقينا (لأمير أفغانستان ممثّل في دمشق من أجل رعاية الأمور المتعلقة بالحج)؛ وبائع الحلوى عند باب الجامع الكبير، الذي ساعدني مرّة أو مرّتين على المرور عبر متهات الأسواق وكان يناديني كلّما مررت به قائلاً: «ألا تحتاجين سعادتك دليلاً سياحياً اليوم؟»؛ أو دراويش تكتية الشيخ حسن الذين دعوني لحضور صلاة الجمعة. وليس أقلّ من ذاك العجمي ذي اللّحية الحمراء الذي لديه دكان شاي في سوق الحبوب والذي هو عضو في الطائفة البهائية التي لي فيها عدّة أصدقاء. وبينما جلست أشرب أكواباً من شاي فارسي لذيذ على مائدته، قدّمتُ له التّحيّة بلغته وهمست: «لقد استُقبلت بحفاوة كبيرة من قبل العائلة المقدّسة في عكا». فأومأ برأسه وابتسم وأجاب: «جنابك معروفة عندنا»، وعندما نهضت لأذهب وسألته عن ثمن شايه ردّ قائلاً: «بالنسبة لك ليس هناك ما يستحقّ الدّفع أبداً». أقسم بأنّه لا يوجد شيء يدفع القلب مثل أن تجد نفسك مقبولا

داخل حلقة سرّية من الإحسان الشرقي - وأشياء قليلة مثل هذه نادرة جداً.



انسللت حوالي فترة بعد ظهر يوم مشرق من عدّة أشخاص كانوا دوماً بانتظاري ليأخذوني إلى هذا المكان أو ذاك واتخذت طريقي وحدي بين الأسواق، التي تُعدّ أكثر المناطق سحراً للتسكّع على وجه الأرض، إلى أن وصلتُ إلى أبواب الجامع الكبير. كان ذاك وقت صلاة العصر. تركتُ حذائي مع زنجي مقعد عند المدخل وتجوّلت في الرّواق المعمّد المسقوف الواسع الذي يمتدّ على طول الجانب الغربي كلّهُ من الجامع. كان الحريق⁽¹⁾ الذي حصل قبل عشر سنوات وأعمال الترميم التي تبعته سبباً في سلب الكثير من جماله، ولكنه لا يزال مركز اهتمام عالم الآثار، الذي يحترار بآثار الكنيسة والمعبّد وغيرها من الآثار التي لا يعلمها إلا الله والتي يمكن أن تكون مدفونة تحت جدرانه وبواباته.

كانت السّاحة نصف مغطّاة بظلّ العصر ونصفها تضربه الشّمس، وفي الضّوء الذهبي كانت مجموعات من صبية صغار يحملون بأيديهم قضباناً من الصّفصاف الأخضر يركضون جيئة وذهاباً في لعب من دون ضجيج، بينما كان الأنقياء يصلّون تحيّة المسجد قبل أن يدخلوا المسجد. تبعتهم إلى الدّاخل ورافبتهم وهم يصطفّون في صفوف طويلة تحت سقف الحرم والجناح من الشّرق إلى الغرب. وقف جميع أصناف الرّجال وطبقاتهم جنباً إلى جنب من الطّبيب المتعلّم الذي يرتدي معطفاً من الفرو ورداءً من الحرير إلى الجمّال الأشعث رثّ الملابس من الصّحراء، لأنّ الإسلام هو الدّين الأكثر جماهيرية في العالم والذي لا يعرف التّمييز بالنّسبة للمنصب أو المال. وعندما بلغ عدد المصلّين ثلاثمئة أو أربعمئة بدأ ترتيب الإمام. صاح⁽²⁾: «الله أكبر!» ونزل جماعة المصلّين بحركة واحدة على وجوههم، وبقوا

(1) أصاب الأموي في شهر أكتوبر من عام 1893 حريق هائل مدّمّر أتى على غالبيّة أركانه وأحاله ركاماً، ودمّر آثاره وفسيّفساه القديم، حتى غدا لا أكثر من مجموعة جدران قائمة. وتدعى أهل الشام لإعادة عمارته، وتمت أكثر أعمال الترميم على نفقة السّلطان عبد الحميد خان الثاني.

(2) كتبت المؤلّفة العبارة: «الله!» فقط، ومرة ذلك أنّ الإمام (ومن خلفه المردّد) يلفظ اسم الجلالة بصوت قوي وسنود لسمعته كل من في الجمع، ثم يتبع عبدة «أكبر» بصوت أخفض، فلم تسمعها الست خاتون كما يبدو.

كذلك لمدة دقيقة كاملة بخشوع صامت إلى أن صاح الإمام مرة أخرى. «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ
 الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ: الله أكبر!».
 وكما تردد صدى اسم الله عبر الأروقة المعمدة منذ ما يقارب ألفي عام، فقد خرّ المصلّون
 الذين كانوا خاشعين صامتين سجداً مرة أخرى، وللحظات كان الحرم ساكناً تماماً.



باعة الحلوى السكرية

ذهبت تلك الليلة إلى حفلة مسائية بدعوة من شكيب أرسلان، وهو درزي من عائلة
 معروفة جداً في لبنان إضافة إلى أنّه شاعر - ألم أهد نسخة من آخر قصيدة له؟ كانت الحفلة
 في الميدان، في بيت بعض تجّار الحبوب الذين هم وكلاء لدروز حوران في قضية بيع
 الحبوب ويعرفون الأوضاع السياسية في الجبل بشكل جيد. كان عدد الحضور يتراوح
 بين اثني عشر أو أربعة عشر رجلاً، أنا وشكيب وتجار الحبوب (الذين يرتدون ثياباً تدلّ
 على الثراء، عبارة عن ملابس حريرية زرقاء وعمائم صفراء مطرّزة)، وآخرون قليلون لا
 أعرفهم. كانت الغرفة لحسن الحظ فارغة إلّا من بسط وديوان وموقد من التّحاس، وكانت

هذه ملاحظة جديرة بالاهتمام لأنه حتى بيوت عبد القادر كان فيها مزهريات زجاجية زرقاء وحمراء اللون وحُصر مزركشة ذات أهداب تبرز مثل نتوءات عرضية بشعة في الكوآت الرخامية وعلى رفوف الخزائن المجصصة والمذهبة.

كان شكيب رجلاً مثقفاً وذا خبرة في الحياة؛ وسافر إلى أن وصل لندن. تحدّث بالفرنسية إلى أن أوقفه أحد مضيفينا قائلاً: «يا شكيب! أنت تعرف العربية، وكذلك السيّدة. إذا تحدّث بها كي حتّى نفهم عليك».

كانت وجهات نظره حول السياسات التركية جديرة بالاستماع.

قال: «يا أصدقائي! إنّ المساوي التي نعاني منها تعود للأمم الأجنبية التي ترفض السماح للإمبراطورية التركية بالتحرك في أيّ اتجاه. وعندما تقاتل فإنّهم يأخذون ثمار نصرها منها، كما فعلوا بعد الحرب مع اليونان. ما الفائدة التي نحصل عليها من قهرنا للثوار الألبان؟ والبلغار وحدهم سوف يكسبون المزايا وأتباع نبينا (قالها حرفياً، على الرّغم من أنّه كان درزياً) لن يستطيعوا أن يعيشوا تحت قبضة البلغار كما لم يستطيعوا أن يعيشوا تحت سلطان اليونان في كريت. انظروا إلى المسلمين في كريت يقطنون الآن في الصّالحية⁽¹⁾ كما تعلمون جيّداً، وتعاني كريت من هجرتهم».

كان هناك الكثير من الحقيقة في هذا الكلام، بحيث رغبت وأنا أستمع لو أنّ أعداء تركياً تمكّنوا من سماعه وتفكّروا ملياً بوجهة نظر رجل عاقل وحسن الاطلاع على أوضاع الإمبراطورية العثمانية.

كان يومي الأخير في دمشق يوم الجمعة. ودمشق في يوم جمعة لطيف عبارة عن منظر يستحقّ السّفر من بلاد بعيدة لرؤيته. فجميع السّكّان الذّكور يرتدون أفضل ما لديهم ويمشون في الشّوارع متباهين، بائعو الحلوى ودلالو الثّياب المستعملة ينادون على

(1) هذا كلام صحيح، فحيّ المهاجرين بغربي الصّالحية من سفح جبل قاسيون بُدئ بإنشائه عام 1900 ليؤوي المسلمين المهاجرين من جزيرة كريت عقب استرداد اليونان لها من السلطنة، وبهم ما برح يعرف إلى اليوم (المهاجرين). ومن أحيائه (المصطبة) التي شُيّدت في عام 1896 لاستقبال إمبراطور ألمانيا فلهمل الثاني إبان زيارته لدمشق.

بضائعهم، وتتصاعد من قدور دكاكين الطعام أبخرة أروع الأطعمة المغرية، وتتراقص الخيول الرائعة ذوات السروج المزركشة على طول الطريق عند نهر أبانا⁽¹⁾ Abana.



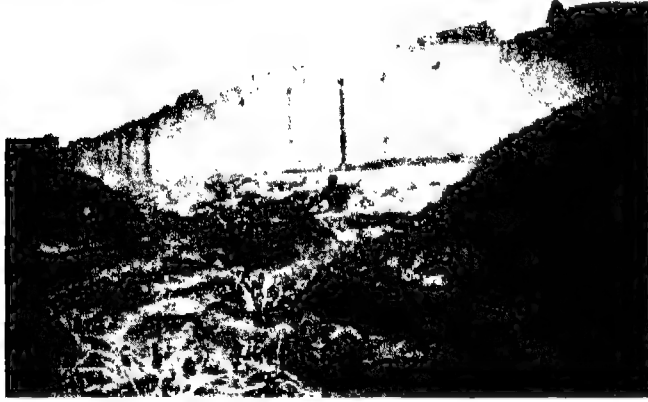
صحن الجامع الكبير

وفي وقت مبكر في فترة بعد الظهر جاءني زوّار متميزون. كان الأول الذي جاء لزيارتي هو محمّد باشا شيخ جيروود، وهي واحة في منتصف الطريق الذّاهب إلى تدّمّر. وهذا الجيرودي هو ثاني أعظم قاطع طرق⁽²⁾ في المنطقة كلّها، بينما قاطع الطريق الأول (ولا أحد ينازعه على اللقب) هو فيّاض آغا من بلدة القريتين، وهي واحة أخرى على طريق تدّمّر. وأنا أتخيّل بأنّ فيّاض رجل قاسٍ ومكّار، على الرّغم من

-
- (1) المقصود به نهر بَرْدَى طبعاً، لكن المؤلفة تستعمل العبارة الواردة في سفر المسوك الثاني حول «نهرى دمشق أبانا وفرّفر»، أي بَرْدَى والأعوج. وتسمية أبانا لا شك لديّ في أنها من اليونانية Bavyas (باناس) التي تعني نهر الحّمّام، وذلك لأن أحد فروع بَرْدَى (وهو باناس الذي حافظ على التسمية) يدخل إلى المدينة متوجّهاً إلى حمّامات معبد زيوس النوثني القديم (هذد سابقاً، ثم جويتر لاحقاً) الواقعة في جهته الجنوبية، وصار موضعها في عهد الحكم الرّوماني معبداً لحوريّات الماء. ولذلك أظنّ أنّ تسمية باناس غلبت على الاسم الكنعاني القديم: بَرْدَى (وهو ليس آرامياً كما يُظنّ).
- (2) تستخدم المؤلفة عبارة «قاطع طريق» دون أن تعي الفارق بين عُرف الغزو في البوادي العربيّة، ولهذا الغزو أصول وأخلاق ومعايير أدبيّة لا يمكن لأيّ شيخ السّماح بالإخلال بها. أما قطع الطرق فيقوم به الصّعاليك لا الفرسان. وليس من عادة القبائل القويّة غير غزو أندادها من القبائل، ولا تتعرّض البتّة للضعفاء وعابري السّيل.

أنّه كان مهذباً بما يكفي معي عندما مررت بطريقه.

وأما مكر الجيرودي فهو من صنف مختلف.. إنه رجل ضخّم قويّ أحول العينين، وكان فارساً استثنائياً وفقيراً في زمانه، وذلك لأنّ ما يجري في عروقه دماء عربيّة، وكان جدّه من شيوخ غنّزة، لكنّه طعن في السنّ ويعاني من التقرس وثقل الجسم وأصبح يرغب في السّلام، وهي رغبة يصعب تحقيقها، فانحداره من أسلاف محاربين، وموقع جيرود على أطراف البادية، أمران يجعلان منها الملجأ الطّبيعي لروح الصّحراء العصيّة على التّرويض. وهو مضطر لأن يكون على علاقة جيّدة مع عشيرته العربيّة ومع الحكومة، حيث أنّ كلاّ منهما يحاول الاستفادة من نفوذه مع الآخر، وهو يسعى بكل جهده للاستفادة من الطّرفين كليهما، وهو ينظر بعينه الحولاء باتّجاه متطلّبات القانون وعينه السّليمة مثبّته على مصالحته الخاصّة، إذا كنت قد فهمته جيّداً.



أرض الببادر في القريتين

ولطالما طلب القناصل الغاضبون عدّة مرّات من الوالي أن ينصفهم منه؛ لكنّ الوالي وعلى الرّغم من أنّه يشير عدّة مرّات إلى عدم موافقته على بعض أعمال الجيرودي المخالفة للقانون بشكل واضح وقضاء فترة في السّجن، لم يتخذ أبداً هذه الخطوة النّهائيّة قائلاً بأنّ الحكومة قد وجدت من قبل أنّ الجيرودي رجل مفيد، ولا شكّ أنّ الوالي هو أفضل حاكم. وبالنسبة له فإنّه يأسف جدّاً على محمّد باشا لأنّه ليس لديه

أبناء كي يرثوا ثروته الكبيرة جداً، ولقد أحاطت الجنادب ممثلة بقبيلة من أبناء إخوته وأخواته المترقيين، ليشكّلوا عبئاً فوق عبء سني عمره. وقد تزوّج حديثاً ابنة من عائلة الفَيّاض⁽¹⁾ وهي فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، لكنّها لم تنجب له أولاداً.

وثمة قصّة مشهورة عنه شائعة في دمشق، وهي قصّة لا يتحدّث بها الرّجال بحضوره. يقال إنّّه عند نشوب حرب الدّروز الأخيرة أراد الجيرودي أن يعبّر عن إخلاصه للسلطة، وحيث أنّه يعرف الجبل جيّداً فقد أرسل مع ثلاثين أو أربعين رجلاً ليستكشف الأمور ويقدم تقريراً عما رآه، وسار الجيش خلفه. واتفق أنّه عندما مرّ عبر قرية صغيرة قرب Ormam وجد أحد معارفه القدامى وهو شيخ القرية فرآه ودعاه إلى طعام. وعندما كان جالساً في المضافة ينتظر غداءه سمع الدّروز يتناقشون في الخارج فيما إذا كان من الأفضل اغتنام هذه الفرصة لقتله باعتباره ضابطاً في الجيش التركي؛ ولقد رغب جدّاً بالفرار من ذاك المكان، لكنّه لم يتمكّن من ذلك، حيث أنّ قواعد اللياقة الاجتماعيّة تلزمه بأن يبقى ويأكل طعام الغداء الذي كان يُعدّ له.

لذا، عندما حضر الطّعام تناوله بسرعة لأنّ المناقشة في الخارج كانت قد وصلت إلى مرحلة سبّبت له قلقاً شديداً جدّاً، وفور انتهائه من طعامه امتطى حصانه وسار بعيداً قبل أن يصل الدّروز إلى قرار. وما إن ذهب حتّى وجد نفسه فجأة بين نارين؛ إذ كان الجيش التركي قد وصل وبدأت المعركة الأولى في الحرب. فخاف هو ورجاله كثيراً وارتبكوا والتجّؤوا إلى بعض الصّخور بقدر ما استطاعوا وانسحبوا واحداً تلو الآخر إلى مكان بعيد إلى مؤخّرة الجيوش التركيّة. ولقد نظم الدّروز في هذه الحادثة أرجوزة مطلعها كما يلي⁽²⁾:

(1) ما برح آل الفَيّاض أغوات بلدة القريتين على سيف البادية وأعيانها (وأصولهم تعود إلى الجوف)، ولي منهم أصدقاء كثير، وما زالت قراباتهم ومصاهراتهم مع آل الجيرودي قائمة إلى اليوم. وكم أمضينا معاً في براري القريتين قبل عشرين عاماً من سنين جميلة في قنص الطير الحرّ والشواهين، بين الجبّة والقمقوم والحير والعُثُر، فعشنا بها ما عاشه أبناء الشام في صدر الإسلام من شوق إلى التعريب في البادية ونفور في أيام الخريف إليها. فسُقياً لتلك الأيام وواشوقا إليها ما أنضرها وما أحلاها.

(2) تورّد المؤلّفة مطلع الأرجوزة بالإنكليزيّة: Jerudi's golden mares are famed. لكنني ميّزتها على الفور لشهرتها، وكم سمعتها من مرّات عديدة على السنة رواة التراث الشعبي لدى بني معروف

صَفْرَةَ جِيرُودِي غَرَبَتْ قَوَطَرِيحَتْ رَكابُها
 يا مُحَمَّدَ خَبَّرْ دَوْلَتَكَ حَتّا وَلِينا طَوابِها
 ولكن هذا المقطع لا يُشَدُّ أمامه غالباً.

* * *



نَكِيَّةُ النَّقْشَبَنْدِيَّةِ

كان زائري الثاني هو الشيخ حَسَنُ النَّقْشَبَنْدِي، وهو رجل دمث بوجه كهنوتي ماکر، وقد وضع خطة للاستفادة حتّى من الذائق العشرة التي قضّاها في بهو التُّزَل، حيث انتبه لخاتم مبهرج في إصبع سليم بك وطلب منه أن يراه فأعجب به جداً لدرجة أنّه وضعه في جيبه قائلاً بأنّه لا بدّ أن يكون سليم ذاك يرغب بإعطائه هديّة إلى زوجته (الخانم) وهي أصغر زوجاته، والتي كان قد تزوّجها قبل سنة أو سنتين. أجاب سليم أنّ علينا في تلك الحالة أن نذهب حالاً إلى منزله في الصّالحيّة حيث يجب أن تقدّم الهدية، كانت عربتا الشيخ حَسَنُ

في السويداء وصلّحد وجرمانا. وتُعرف هذه الحادثة بوقعة خراب عرمان، جرت في عام 1896 واشتهرت بها فتاتان درزيّتان أجبجتا حماساً فرسان قومهما وهما سعدى ملاعب ودلّة حمزة، ونال رجال صلخد عقب الوقعة لقب «الرّغبة» لبسالتهم. وبالنسبة لعبارة «صَفْرَةَ جِيرُودِي» فتعني: فرسه البيضاء (وليس الشقراء كما فهمت بل، وتقول البدو: الصُّفَرُ مركوب الأمازة) أما عجز البيت الثاني «حتّا ولينا طوابها» فمعناه: نحن غنمنا مدافعها، فالطوب في التركيبة Top المدفع.

ومحمد باشا من الطراز الفيكטوري عند الباب، فركبنا نحن الأربعة في العربتين وذهبنا إلى الصالحية عبر الطرقات المتهجة بيوم العطلة المشرق. وأعلن سليم عند باب المنزل بأن عليّ أولاً أن آخذ إذن الوالي الذي يسكن في الجوار، وأن أستعير عربة الجيرودي حيث أننا من الممكن أن نذهب بأنبهة. ثم قال سليم لمحمد باشا:

«ألن تأتي معنا؟»، لكن الجواب جاء بأسلوب ساخر، حيث أنه كان يعلم جيداً بأن الجيرودي في مرحلة إبعاد وأنه قد خرج من السجن منذ فترة قريبة بعد أن أمضى عقوبة يستحقها.

هزّ الجيرودي رأسه واقترب منا ونحن جلوس في عربته وهمس:

«قولوا شيئاً ما لصالحي عند الباب».

ضحكنا ووعدناه أن نتكلم معه بشأنه، على الرغم من أنّ سليماً أفضى إليّ ونحن نتبعد بأنه عندما كان مُبعداً (وكان الموضوع بمجملة نتيجة كيد أعدائه) لم يتقدم رجل لتقديم مساعدة له، بينما وهو في وضع جيد الآن فالجميع يتوسلون وساطته؛ ولفّ نفسه بسترته السوداء وتصدر إلى الورا مستنداً إلى وسادة عربة الجيرودي في وضع من هو فخور بنفسه والمدرّك بأنه يستطيع أن ينجز ما يُطلب منه إلى أبعد مدى.

كان ناظم باشا واقفاً عند درج باب منزله يودّع القائد العام للجيش، وعندما رآنا نزل الدرجات دعانا للدخول بأقصى درجات الوُدّ. كانت الزيارة الثانية لبيته (وقد رآني فيما بين الزيارتين) أقلّ رسمية من الأولى. تحدّثنا عن الحرب اليابانية، وهو موضوع لا ينفكّ محاورى عن التحدّث فيه كثيراً أو قليلاً، وتجذّرت بسؤاله عن رأيه.

قال: «رسمياً، أنا محايد».

«ولكن بيننا كأصدقاء؟».

أجاب: «بالطبع أنا مع اليابان»، ثم أضاف: «أنتم الطرف الذي ربح من انتصارهم؟».

أجبت: «ولكن ألم تربح أنت أيضاً؟».

أجاب بحزن: «إننا لم نربح بعد، ولا شيئاً في مقدونيا».
وسألني بعدها كم استمتعت في زيارتي إلى دمشق، فأجاب سليم بسرعة:
«لقد أصيبت اليوم بخيبة أمل كبيرة».
بدا الوالي مهتماً.

تابع سليم: «نعم، فقد تأملت أن ترى زعيم قطاع الطرق، ولكنها وجدت فقط رجلاً
راغباً في السلام من سيادتكم».
قال ناظم: «من هو؟».

أجاب سليم: «محمد باشا الجيرودي»، ولقد نطقت الكلمة الطيبة بمهارة فائقة.



خارج أبواب دمشق

عندما عدنا إلى منزل الشيخ حسن ربطنا هذه المحادثة مع سببها وانزوى الجيرودي
بنفسه تعبيراً عن الاستياء، لكنه اعتبر نفسه قانعاً بما حصل. أخذني الشيخ حسن من ثم
لرؤية زوجته - زوجته الخامسة، لأنه كان قد طلق إحدى زوجاته الشرعيات كي يتزوجها.
كان يتمتع بتعقل حيث وضع كل واحدة منهم في بيت منفصل، ولم أسأل فيما إذا كان قد
استطاع تأمين السلام في بيوته. كانت هناك ثلاث نساء في الغرفة الداخلية، الزوجة وامرأة
أخرى ومن الواضح أنها لم تكن من أهل البيت، ذلك لأنها غطت وجهها بملاء الفراش
عندما دخل الشيخ حسن، والثالثة امرأة مسيحية تقوم بخدمة الضيوف الرجال، (وقد كان
هناك آخرون بالإضافة إلى الجيرودي وسليم) وتقوم بالمهمات في الأسواق، حيث أنها

تستطيع الذهاب بحريّة أكثر من أختها المسلمة.

كانت النّساء في الحريم غير مرّبات على نحو فظيع، إلا إذا كانت جماعة النّساء تتوقّع زيارتك فإنّهنّ يتهيّأن لها، وليس هناك شيء مهمل أكثر بؤساً من منظرهنّ. ولعلّ الفوضى في غرفهنّ اللاتي يعشن فيها يعود إلى حدّ ما ربّما إلى أنّه لا يوجد في الحقيقة خزائن ولا درّوج في الغرف، ويتمّ الاحتفاظ بجميع المقتنيات في صناديق كبيرة باللّونين الأخضر والذهبي، والتي يجب أن يحني الإنسان جسده كلّ عندما يحتاج إلى أخذ أيّ حاجة منهما، وليكن منديلاً على سبيل المثال ثمّ يبقى بعد ذلك غير مرّتب في كثير من الأحيان. كانت زوجة الشّيخ امرأة شابة جميلة، على أنّ شعرها تدلّى في خصلات حول وجهها ورقبتها، ويا للحسرة فقد ارتدت عباءة منزليّة وسخة على جسدها الذي أصبح حطاماً.

لكن المنظر من شرفة التّقشبندي لا يُنسى، فهي تطلّ على مدينة دمشق العظيمة والزّائفة، بحدائقها وقبابها ومآذنها، تمتدّ منتشرة في الأسفل، ومن خلفها تقع الصّحراء التي تمتدّ تقريباً حتّى بواباتها. وهنا لبّ المسألة كلّها.

هذا ما أعرفه عن دمشق؛ وأمّا فيما يتعلّق بكنائسها وقلاعها، فبإمكان الطبقة العليا أن تشاهد تلك الأشياء بنفسها.



السّقا

الفصل الثامن

كان الوالي قد سألني باهتمام عن وجهتي عندما سأغادر دمشق، وعندما أخبرته بأن بعلبك هي وجهتي أجاب بأن عليه بكل تأكيد إرسال مجموعة صغيرة من رجال مسلّحين لحماية رحّالة مشهورة. لذلك أجبته بسرعة كي أتجنّب مزيداً من التّقاش، بأن عليّ الذهاب بالقطار. لكن، وبما أنّه لم يكن لديّ في الحقيقة رغبة في اختيار وسائط التّقل الحديثة تلك، فقد كان عليّ أن أسافر باكراً إذا كنت سأسافر وحدي. غادرنا المدينة في صباح يوم مشمس ومشرق؛ كانت الطّرقات ممتلئة بعابري السّيل الفرحين، وقد قاومت خيولنا السير بعد راحة أسبوع. مررنا قرب منزل الأمير عُمر في وادي بردى، ورأينا الرّجل النّيل يستمتع بشمس الصّباح فوق سطح منزله. ناداني يدعوني للدّخول، لكنني أجبته بأنّ لديّ عملاً عاجلاً، ويجب أن أذهب.

أجاب: «بالسّلامة، أرجو من الله أن نقود خيلنا معاً ذات يوم».

بعد ميل أو ميلين أتينا إلى مفترق طرق وغيّرت مساري وانطلقت باتجاه جبال لبنان الشّرقية وهي الأفضل لتجنّب لفت أنظار جميع الشّخصيّات الرّسميّة التي شرفّنتني بدعوتها. صعدنا فوق وادي بردى الجميل المليء بأشجار المشمش (التي لم تزهّر بعد)، وعبرنا النّهر فوق سوق وادي بردى، ثمّ مضيقاً رائعاً ومن ثمّ تابعنا رحلتنا فوق سهل بين جبال مكسوّة بالثلج إلى الزبداني، وهي قرية مشهورة بتفّاحها. نصبنا مخيماً منعزلاً في مرج أخضر قرب نبع، وكانت جوانب حرمون التّليجيّة تسدّ المشهد نحو الجنوب والقرى المبعثرة على منحدرات التّلة إلى الشّمال، ولم يعر أحد في الزبداني اهتماماً لهاتين الخيمتين الصّغيرتين.

عبرنا في اليوم التالي جبال لبنان الشرقية وسط رياح مُعولة؛ ومع ذلك فقد كانت رحلة ممتعة وجميلة، لكنّها رحلة طويلة استغرقت ثماني ساعات وربع. كان هناك نقوش لآتينيّة حُفرت على مسافات متقطّعة في الصّخور على طول الوادي الذي ينحدر حتّى يحفوفة Yahfufa في يَنطا Janta - أعتقد أننا كنّا على الطريق الرّوماني من دمشق إلى بعلبك. سرنا الأميال الأخيرة الجرداء الطويلة تحت مطر غزير رافقنا حتّى وصلنا بعلبك مبّللين. كان الجوّ عاصفاً تقريباً بحيث لا يمكننا أن ننصب خيامنا، وكانت روحي أيضاً تشمئز من فكرة المبيت في فندق؛ ولحسن الحظّ فقد اقترح ميخائيل حيلة. قال إنّهُ يعرف امرأة مسيحيّة محترمة تعيش عند مدخل القرية ويمكن أن تؤوينا عندها دون شك. وقد حصل ما توقّعه، فلقد سُرّت المرأة المسيحيّة برؤيتنا. كان بيتها يتألّف من غرفة نظيفة فارغة جُهّزت بسرعة من أجل أثاث مخيمي، واستقر ميخائيل هو وأدوات طبخه في غرفة أخرى، وضربت الرّياح والأمطار بأسوأ ما عندها على مصاريع النّوافذ والأبواب، ولكن لم تسبّب لنا أيّ أذى.



سوق وادي بردى

كان اسم مضيفتي قرنفة Kurunfulch، وكانت زوجة ليوسف العويس الذي كان في هذا الوقت في أميركا باحثاً عن الثروة، وهي ترغب بأن تلحق به. أمضيت ساعة أو اثنتين معها ومع ابنتها وابنها وبعض الأقارب الذين جاؤوا بزيارة غير متوقعة من أجل بعض الأحاديث وسماع بعض الموسيقى جالين أعوادهم معهم. أخبروني بأنهم كانوا قلقين جداً بشأن مستقبلهم. ينتمي القسم الأكبر من سكان بعلبك وما حولها تقريباً إلى طائفة إسلامية متعصبة تسمى المتأولة Metawileh، وتتمتع بسمعة خاصة جداً بالتعصب والجهل. وعندما سمع هؤلاء الأشخاص عن الانتصارات اليابانية جاؤوا إلى جيرانهم المسيحيين وهزّوا قبضات أيديهم في وجوههم قائلين: «المسيحيون منهزمون هزيمة مرّة! انظروا الآن، فإننا سوف نطردكم قريباً ونستولي على أملاككم».

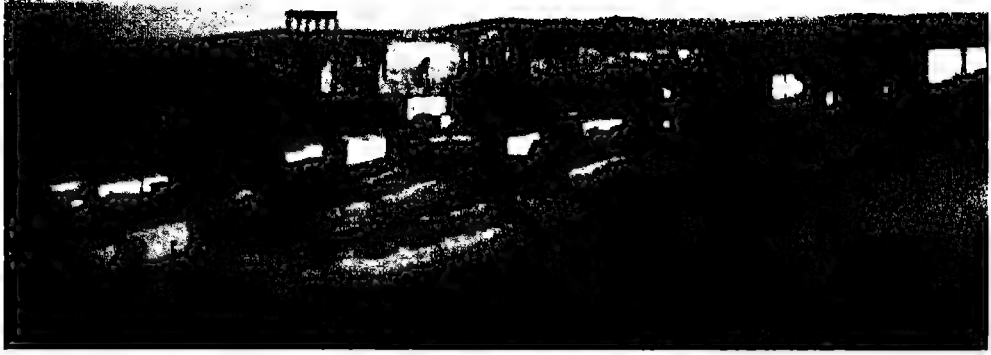
انضمّ ميخائيل إلى الحديث، وأوضح بأنّ الشيء نفسه حدث في القدس. قال: «أنا لا أعلم مع من الحقيقة»، فقد أرسل المسلمون هناك وفداً مفوضاً إلى المفتي قائلين: «لقد حان الوقت لطرد المسيحيين». ولكنّ المفتي أجاب: «إذا قمتم بإثارة اضطرابات فإنّ دول أوروبا سوف تتدخل، وذلك لأنّ القدس هي بؤبؤ عينهم». (هكذا أكد المفتي)، «وسوف يأخذون الأرض كلّها وسوف نكون في حالة أسوأ من قبل». حاولت طمأنة قرنفة بقولي إنّ من المستحيل أن يتعرّض المسيحيون للاضطهاد في سوريا، فهي البلد الذي أصبح معروفاً جداً ويتردد عليه الكثير من السياح الذين لن يقصّروا في إعلان ذلك على العالم. والحقيقة إنّ التدفق السنوي من السياح هو من أفضل الضمانات لدوام استتباب النظام. والآن فإنّ قرنفة امرأة لبنانية، وسألتها لماذا لم تعد إلى قريتها، حيث ستكون تحت حماية مباشرة من قبل القوى الأوروبية وتتجنّب الخطر. قالت:

«يا ست، هذا البيت باسم زوجي ولا أستطيع بيعه ما لم يعد، ولن أتركه خالياً، وعلاوة عن ذلك، فإنّ الحياة في لبنان ليست كالحياة في السهل، وكوني قد تعودت على أشياء أخرى فلا أستطيع تحمّل الحياة هناك. تجدين الأشخاص هناك ليس لديهم عمل سوى مراقبة جيرانهم، وإذا ارتدّيت تنورة جديدة فسوف يتهامس أهل القرية

حول ذلك ويسخرون منك قائلين «ألم تروا الست؟» انظري سوف أريك ماذا تشبه الحياة في لبنان. في بعلبك أنا أكل اللحم مرّة كل يوم، لكنهم يأكلونه مرّة في الشهر. وهم يأخذون بصلّة ويقطعونها ثلاث قطع مستخدمين واحدة كل مساء لإعطاء نكهة للبرغل، وأنا ألقى قبضة من البصل في الطبق كل مساء. الحياة صعبة في لبنان⁽¹⁾.

الحياة في لبنان مليئة بالحرمان على نحو شديد بحيث أنّ كل من يستطيع أن يجمع المال بالتعاون مع أهله من أجل رحيلهم يغادرون إلى الولايات المتحدة فوراً، وثانياً فمن المستحيل أن يجمع الإنسان المال الكافي لزراعة القمح أو التوت أو الكرمة. ولا يوجد أيّ تقدّم، باستخدام التعبير السوري. وإقليم لبنان عبارة عن زقاق ذي نهاية مسدودة *cul de sac*، دون ميناء على بحره ومن دون تجارة. وفي الحقيقة، فإنّك تمشين فيه خائفة من الموت، ولكن ما هي مزية حياة لا تقدّم أكثر من ثلث بصلّة على العشاء؟ وكالعادة، فلدى الباب العالي الكثير ليقدمه للقوى العظمى. فقد منحهم كلّ ما طلبوه، آه نعم، وبسرور، لكن التنازلات التي بدت أنّها تفتح الطريق للتقدّم قد أغلقت في الحقيقة البوابات إلى الأبد على أولئك الذين يفترض أن يستفيدوا منها.

(1) هذا كلام صحيح تماماً قد يستغربه القارئ اليوم، لكن جبل لبنان في مطلع القرن العشرين كان بالفعل بلداً فقيراً لا موارد به، فلا زراعة ولا صناعة ولا تجارة، وهذا ما دفع بالآلاف من أبنائه إلى الهجرة منذ مطلع القرن إلى الأميركيتين، ثم في أواسط القرن العشرين إلى الخليج وأفريقيا ثم كندا وأستراليا. وبيروي لي بعض المعتمّرين كيف أن بداية انتعاش جبل لبنان كانت في العشرينيات من القرن العشرين بفعل حركة السياحة والاصطياف، التي بلغت أوجها حتى قيام الحرب الأهلية اللبنانية (1975-1991)، ثم شهدت ركوداً إلى أن عادت في يومنا الحاضر إلى الكثير من رونقها السابق.



بعليك

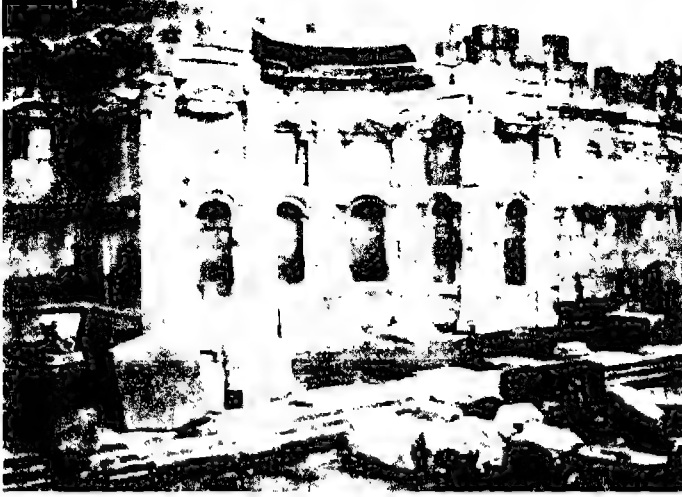
لم ينقطع المطر في اليوم التالي . استقبلت ضابط الشرطة الذي وجدني بعد طول بحث -وقد برهن على أنه رجل نبيل- وقمت بزيارة عائلة كبيرة من البرتغال كانت تنزل في الفندق المزعج قرب مأواي . كان مسيو لويز⁽¹⁾ دي سوما مار Monsieur Luiz de Sommar مع زوجته وبناته وأبناء إخوته قد جاؤوا من القدس إلى دمشق عن طريق جبل الدروز . ولقد سمعت عن وصولهم إلى السويداء عندما كنت في صلخد، وتعجبت كيف حصلوا على الإذن . كانت القصة غريبة وتضاف إلى رصيد مسيو دي سوما مار Monsieur de Sommar، بينما تظهر مقدار رغبة الحكومة وحرصها على إبقاء الجبل بعيداً عن أعين السباح الفضولية . كانت العائلة البرتغالية قد اجتمعت بالمستر مارك سايكس Mr. Mark Sykes في عمان، ونصحهم بأن يغيروا طريقهم بحيث يمرون عبر بلدة قنوات في جبل الدروز، قائلاً لهم بأنهم سوف لن يجدوا صعوبة في الحصول على إذن للقيام بذلك .

(1) هكذا لفظ الاسم في البرتغالية، وليس لويس كالاسپانيّة Luis .

ذهب مسيو دي سوماتر ببراءة في ذاك الاتجاه ولكن عندما وصل إلى السويداء، التي هي المركز الرئيسي للحكومة، أوقفه القائم مقام وصرّح له بلطف ولكن بحزم بأن عليه أن يعود من حيث أتى. فأجاب بالحزم ذاته بأنه لن يفعل، وأرسل برقيات إلى قنصله في دمشق ووزيره المفوض في القسطنطينية. وعلى التّوّبع ذلك تبادل مثير للرّسائل، وكانت النتيجة السّماح له بمتابعة السّفر إلى قنوات إذا قام بأخذ مئة شرطي معه كحرس. قال القائم مقام بأنّ المنطقة خطيرة جداً - تلك المنطقة، كما أعرفها جيّداً، التي تستطيع فيها امرأة السّير دون حراسة إلّا من طفل درزي، ويمكن أن تسير لوحدها، حتّى ولو كان خُرجها مليئاً بالذهب. ولكن مسيو دي سوماتر كان رجلاً يتمتّع بمحاكمة عقلية. أجاب بأنّه يرغب جداً بأن يأخذ معه مئة شرطي ولكن لن يدفع لهم قرشاً واحداً، وكان هذا الهجوم المعاكس سبباً في أن يغيّر القائم مقام نعمته وقلّل عدد الحراس إلى أن وصل إلى العشرين، الذين وصل السيد مسيو دي سوماتر بحمايتهم إلى قنوات بأمان. هنأتهم على عملهم الجريء، كما هنأت نفسي بحصولي على الإذن من فلاح العيسى وليس من والي سوريا.



على الرّغم من المطر لم يكن قضاء اليوم في بعلبك دون جدوى، فقد كان الألمان قد كشفوا منذ زيارتي السّابقة معبد الشّمس وكشفوا مذابح ضئيلة، وينابيع، وقطعاً من الرّخارف وأساسات كنائس، والتي كانت كلها موضع اهتمام عميق. وأكثر من ذلك، فقد كانت المجموعة الكبيرة من المعابد والأسوار المحيطة الواقعة بين سلسلتي جبال لبنان الغربيّة والشرقيّة تعطي انطباعاً ليس له شبيه إلا بمجموعة معبد الأكروبوليس Acropolis الأثيني في اليونان والذي ليس له نظير من دون ريب. إنّ التفاصيل في معبد بعلبك ليست جيّدة مثل معابد أثينا؛ فالجلال منقطع النّظير وحُصرت هذه العظمة بين إبداعات المهندسين التي لا تضاهى، فلا حتّى الموقع الرّائع على قمّة الهضبة المطلّة على البحر الأزرق وعلى خليج سالاميس Salamis يمكن أن ينافس.



البلاط الأكبر في بعلبك

لكن وبشكل عام فإن تأثير آثار بعلبك في النفس يقترب منها أكثر من أي مجموعة أخرى من الأبنية، وهي تزود النفس بمصادر لا تنتهي من التأمل بأولئك الذين شغلوا أنفسهم بضمّ العبقرية اليونانية والآسيوية التي أنتجتها وغطت أعمدة أبوابها وعتباتها وتيجان أعمدتها بأشكال زخرفية لا تنتهي في تنوعها كما هي جميلة في تنفيذها وإنجازها. وبالنسبة لعالم الآثار فهناك إما صافٍ لا مواد غريبة فيه أو غير صافٍ. وتهبط جميع أعمال الخيال البشري في مكانها المشار إليه في تاريخ الفن، مشيرة ومبيرة فهمه لها.

وهو سعيد على نحو مزدوج، وذلك عندما يكون الإنتاج جميلاً للعين فإنه يعود بالثناء؛ ولكن مهما تكن النتيجة، فمن المؤكد أنها ستمدّه بشيء جديد، ورابط غير متوقع بين فنٍّ وآخر، وتزوّده بدرجة أعلى في سلّم التاريخ. وهو بالتالي جدير بأن يرضى تماماً بما يرى، وفوق كلّ ذلك، فهو لا يقول: «واحسرتاه، واحسرتاه! يا لهؤلاء السوريين! كان ليتمكن ليفيدias أن يفعل كذا وكذا». وذلك لأنه سعيد بملاحظة محاولة على الطريق من المحاولات الفنية، ووجود نفس منعش نشيط يحرك الأوراق الشوكية وحلي العنب المزخرفة على تيجان الأعمدة والأفاريز.

كانت مغادرتنا من بعلبك مترافقة مع حادثة مؤسفة - فقد اكتشفت أن كلبى كُرت Kurt قد اختفى في الليل. وبخلاف معظم الكلاب السوروية الهجينة الشاردة، كان ذا مزاج ودود جداً، وكان أيضاً شرهاً ونهماً (ولا يختلف في هذه النقطة عن فصيلته نصف الجائعة) ولذلك فقد كان الأمر المزعج بأنه قد تم إغراؤه بعظمة وجُرَّ بعيداً، ثم حُبس حتى نذهب في طريقنا بعيداً عن القرية. انطلق حبيب في اتجاه واحد عبر القرية، وذهب ميخائيل في اتجاه آخر، بينما حاول ضابط الشرطة، الذي كان قد ظهر في المشهد المثير، أن يسكب بلسماً مسكناً على مشاعري المجروحة. وبعد بضع دقائق ظهر حبيب من جديد ومعه Kurt الذي كان يهزّ ذنبه خلفه وهو مربوط بسلسلة. أوضح حبيب وهو يلهث، أنه وجدته في بيت الشخص الذي فكر بسرقة، موثقاً بتلك السلسلة القويّة:

«وعندما سمع كُرت صوتي نبح، فدخلتُ إلى الفناء ورأيتَه. وطلب صاحب السلسلة أن أعطيه إياها، والله! لقد رفضت أن أعطيها له وطرحته أرضاً بدلاً من ذلك وضربته بها. الله يلعنه لأنّه حرامي! وهكذا تركته».

وهكذا كنت مطمئنة إلى أن أسجّل بأنّ المتأولة Metawileh طائفة لا يؤمن جانبها كما تقول عنهم الشائعات، ولكنّ مكائدهم يمكن أن تصبح غير ذات شأن تلقاء المسيحيين الحذرين.



أعمدة معبد الشّمس في بعلبك

نزلنا في الوادي الواسع والموحش جداً بين سلسلتي جبال لبنان الشرقيّة والغربيّة، وكان يمكن أن أسافر بالقطار إلى حمص وأتابع من ثمّ إلى حماة، لكنني فضّلت أن أعبر من جانب إلى جانب من الوادي حيث ذهب بي الخيال، وأزور هذه الأماكن ذات الأهميّة التي تستحقّ المشاهدة في المنطقة، ولا يتمّ ذلك إلّا على ظهر الجواد. إلى الشّمال من بعلبك كانت كلّ المناطق السّوريّة جديدة بالنّسبة إليّ؛ كما أنّها علامة بارزة أيضاً للدّلالة على أنّنا وصلنا حدود خريطة اكتشاف فلسطين. وكنت قد لجأت الآن

إلى خارطة كيبرت Kiepert الصغيرة لكن الممتازة، والتي سبق أن نقلتها من مجلد أوبنهايم Oppenheim الذي تركته في قرية ساله. وليس هناك خارطة مرضية أخرى، حتى خط يصل تقريباً إلى ثلاثين ميلاً جنوب حلب، حيث تبدأ خارطة آسيا الصغرى Kleinasien الكبيرة لدى كيبرت Kiepert بمقياس 1/400.000؛ وعندما تقوم هيئة مسح الأراضي الأميركية بإصدار كتابي الجغرافي فإني أأمل بأن يتم استكمال التقص.

وصلنا بعد أربع ساعات ونصف إلى اللّبة Lebeweh حيث تتفجّر إحدى الينابيع الرئيسيّة لنهر العاصي في عدّة ينابيع جميلة المنظر؛ وهنا أدركنا جنديان كانا قد أرسلنا للحاق بنا من قبل القائم مقام وسألاني سؤالاً مهذباً فيما إذا كنت أرغب بمرافقة. أعدت أحدهما واحتفظت بالآخر، خوفاً من إيذاء مشاعر القائم مقام؛ كان اسم الرجل درويش، وقد أثبت بأنه مفيد ودمث الأخلاق، شأنه في ذلك شأن جميع من كانوا في السلسلة الطويلة من الحراس الذين رافقونا إلى أن وضعت قدمي في القطار في قونية Konia. لقد أضاف بعضهم الكثير من المتعة للرحلة، قاصين عليّ الكثير من القصص عن تجاربهم ومغامراتهم ونحن نسير معاً ساعة إثر ساعة. ولقد استمتعوا بالشّطف في حياة الحامية العسكريّة التي كانت تمنحه لهم، واستمتعوا أيضاً بالأجر اليومي من المجديّة (تقريباً 4 سنتات) والذي كان موثقاً أكثر بكثير مما كان يدفعه السلطان. أعطيتهم بالإضافة إلى ذلك مكافأة صغيرة عندما أنهوا خدماتهم، وقد أكلوا وأطعموا خيولهم من المؤن والحبوب التي أتوقع أنّهم أخذوها من الفلاحين بالقوّة، وهي طريقة من الاغتصاب القانوني يعجز الرّخالة عن منعه.

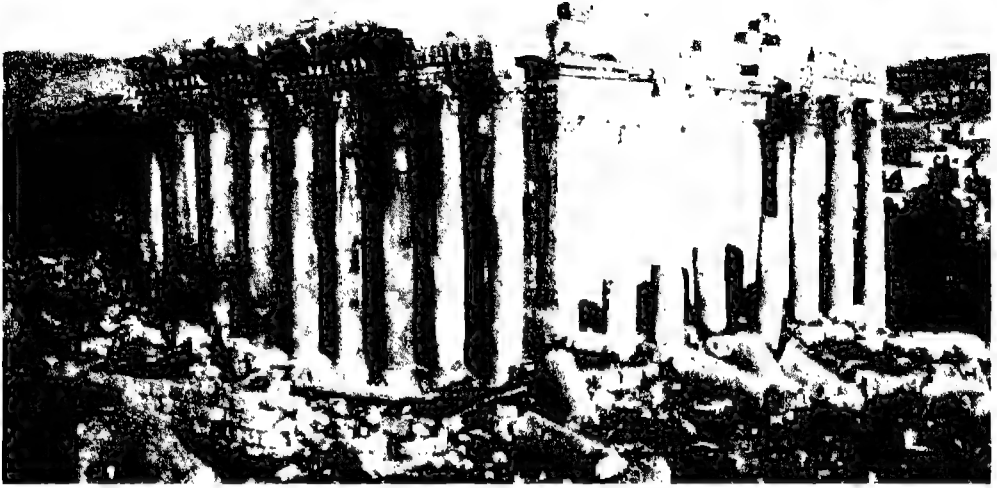
يوجد في اللّبة Lebeweh آثار لمعبد بُني على نمط آثار بعلبك. وتوجت منصّة مكوّنة من أربعة صفوف من الحجارة بحلي معماريّة بسيطة، وكلّ ما بقي منها مجرد وجه مفلطح. تعود القرية لرجل يدعى أسعد بك Asad beg وهو رجل متوالي Metawileh غني وهو أخ لذكّور من نوع خاص اسمه حيدر Haida، وهو شخص ذو حضور ومعروف في شمال سوريا. وأنا لم أذهب إلى دمشق دون أن أقابله ولم أقابله إلاّ وشعرت بالرّضا، ذلك لأنّه مطلع جداً على الأدب العربي وذكي على نحو متميز.

تعاقد مؤخراً على عمل في سكة حديد مكة، وهو كما أعلم التّموذج الوحيد في طائفته لرجل تلقى ثقافته جيّدة وارتقى إلى مركز جيّد.

نصبنا خيامنا عند رأس بعلبك حيث يوجد نبع ممتاز في ممرّ ضيق من التلال الشّرقية القاحلة التي تبعد ساعة ونصف عن اللّبوة Lebweh. انخفضت حدّة الصّقيع في فترة الصّباح، الحمد لله! لكنّ الطّقس لا يزال بارداً. وعندما نهضنا عند الفجر كان المطر المتجمّد يضرب الخيام وسرنا طوال النّهار في ريح عاصفة قاسية. كان ذلك في الثامن من مارس؛ حيث يمضي الرّبيع ببطء في شمال سوريا. أرسلت مخيمي في الطّريق المستقيم وسرت مع درويش إلى معلّم أثري يقف منتصباً على أرض مرتفعة في وسط وادي العاصي وهو يرى في ذاك الامتداد المنعزل في الأرض من مسافة يوم كامل في كلّ جانب. إنه عبارة عن برج طويل من حجارة كبيرة منحوتة تُوجّ بشكل هرمي وزين بأعمدة وإفريز خشن ونقش بنحت نافر منخفض يمثل صور صيد وتذكارات من الحروب. يطلق عليه السّوريّون قاموع الهرمل Kamu'a Hurmul، أي برج الهرمل على اسم القرية القريبة منه، وتوضّح آراء العلماء بأنّه إحياء ذكرى كبيرة لغزو روماني، ولكن لا يوجد هنا أيّ نقش يثبت قولهم سواء كانوا على حق أم على باطل. وهو يقع على بعد ساعتين إلى الغرب من رأس بعلبك.

شققنا طريقنا في الرّيح العاصفة وسرنا ساعة ونصف أخرى إلى سلسلة من هضاب صغيرة تحمي فتحات الهواء لقناة ماء تحت الأرض - ربما تطلق عليها كلمة قناة في الفارسيّة ولكنني أعتقد بأنّها تسمّى هكذا في العربيّة. وصلنا بعد ساعتين ونصف أخريين إلى القصير Kseir، ووصلت البغال متأخرة عنّا ربع ساعة، وخيّمنا بصعوبة عند المقبرة خارج البلدة القبيحة المبنية بالطّين. سكنت الرّيح بعد الغروب، وحلّ سلام ماديّ ومعنوي على المخيم. وحتىّ مزاج ميخائيل الجيد كان قد تأثر إلى حدّ ما بالعوامل الجويّة، لكن حبيباً جاء وهو يتسمّ كالعادة. وعلى الرّغم من تعكّر مزاجي تحت ثقل العاصفة فإنني سعيدة بأنّ أنذكّر بأنّي استطعت الاحتفاظ بهدوء الفلاسفة. لم يكن محمّد الدّرزي معنا، حيث تركناه خلفنا في دمشق. لقد كانت الصّعوبات

والأخطاء تنبثق باستمرار بينه وبين الآخرين، سواءً كان ذلك لأسباب تعود لأخطائه أو لتأمر الآخرين عليه، وكان من الأفضل التّضحية بأحد أفراد المجموعة وحماية اتزان القافلة. انتهى عقدي معه في دمشق؛ وافترقنا على أفضل الأحوال، وشُغل مكانه بأشخاص آخرين مستأجرين غير متميّزين واحد تلو الآخر حسب حاجتي.



معبد جوبيتر في بعلبك

كان وادي العاصي فيما مضى أرضاً لمخيّم العرب ولا يزال عدد قليل من شيوخ الحِصنة Hasench يتردّدون عليه في الفصول الجافة، وكذلك من غِنَزَة Anazeh، وخصوصاً فرع الرّولة Ruwalla من تلك القبيلة، ولكن القسم الكبير من البدو كان قد أُجبر على الخروج بسبب الرّعي، ويحمل قاموع الهرمل Kamu'a Hurmul سجلّهم في هيئة علامات قبيلة قديمة، وقد كان مما يلفت النّظر أكثر بأننا كنّا في المراكز الجنوبيّة الرّئيسيّة للحثّيين Hittites، أيّاً كانوا؛ والتّماذج المشهورة في آثارهم التي لا تزال غامضة لم تُحلّ بعد والتي وُجدت في حماة وهي موجودة الآن في المتحف في القسطنطينية، والتي أربكت جهود جميع العلماء.

يتكوّن السكّان الحاليّون في القُصير⁽¹⁾ Kseir جزئياً من مسيحيّين والقليل من أفراد طائفة تسمّى التّصيريّة. وهي طائفة لا يعتبرها المسلمون مسلمة تماماً، ومع ذلك فإنّهم مثلهم مثل أفراد كلّ الطوائف الأصغر يبذلون ما بوسعهم كي يُبعدوا الأمور التي تظهر اختلافاتهم الخارجيّة بينهم وبين العقيدة المسيطرة. وهم يحتفظون بمعتقدات دينهم سرّيّة قدر استطاعتهم، ولكن دُسو Dussaud قام بصعوبة بالدخول إلى وسطهم ووجد بأنّ لديهم الكثير من بقايا التّعالم الفينيقيّة⁽²⁾ Phoenician. وقد استمرّت هذه العقائد باقية في الجبل لم تُمسّ بسبب عزلة هذه الطائفة في معاقلها الجبليّة. وقد حافظ التّصيريّة على ممارسات العبادات السّامية Semitic القديمة، وشغلوا موضعاً مشرفاً في أعين حاملي الثقافة السّوريّة باعتبارهم ينحدرون مباشرة من أسلافهم الوثنيين، بينما بقي أكثرهم جاهلين بأصولهم القديمة. يتحدّث سكّان المنطقة أحاديث مغلوبة عن دينهم متّبعين العادة الثّابتة في همسات النّاس في القيل والقال في الأمور التي لم يتمكّنوا من فهمها، وقد قيل لي إنّ الإشارات المريّة من سلوكهم كما اتّضحت من خلال تصرّفات الطائفة جعلت كلّ شيء مرغوب. وعلى كلّ فقد قام دُسو Dussaud بإبعاد التّصورات الخاطئة التي تحيط بمعتقدهم، وبناءً على تجربتي في تصرّفاتهم مع الغرباء فقد قادني ذلك لتبني موقف حياديّ طيّب.

أمضيتُ خمسة أيّام في الجبال غرب حمص وأسبوعاً قرب أنطاكية، وهي المناطق التي يتواجدون فيها بشكل أساسي، ولم يكن لديّ أيّ سبب لأتدقّر منهم. لم يكن كُرت Kurt مسروراً جداً مع المجموعة التي وجد نفسه فيها في القُصير Kseir، واستمرّ ينبح طوال اللّيل؛ حتّى كدت أتمنّى إلى حدّ ما أن يعود إلى الفناء لدى المتأولة Metawileh.

(1) نكتب التسمية بحسب منطوقها اللفظي الشائع، لا القُصير كما في الفصحى. وهذا ما ندرج عليه في كتب سلسلتنا الحاضرة، في أسماء الأماكن والأعلام والقبائل.

(2) هذا صحيح، وفي لهجة العلويين بقايا واضحة من اللغة الكنعانيّة الفينيقيّة القديمة. وبالنسبة لبحث دُسو فقد نشر عن الموضوع كتاباً بعنوان:

Rene Dussaud: *l'Histoire et Religion des Nosairis*, Paris, 1900.

كان الطقس في اليوم التالي رائعاً جداً. وقمت بجولة طويلة أنا وميخائيل من أجل احتمال زيارة تل النبي مندو Tell Nebi Mendu، الذي هو في موقع قادش Kadesh على العاصي، العاصمة الجنوبية للحيثيين Hittites. ولا بد أن قادش كانت في أيامها بلدة جميلة. تقوم التلة التي بُنيت عليها فوق سهل واسع مزروع بالقمح؛ ويمتد إلى الجنوب مجرى نهر العاصي الفسيح بين سلسلتي جبال لبنان الشرقية والغربية، وإلى الغرب يقع جبل التصيرية الذي يحجبها عن البحر، وبين سلسلتي جبال لبنان وجبال التصيرية توجد أرض منخفضة منفرجة يمكن أن يسلكها التجار والبضائع التجارية إلى الساحل. وتقع شمالاً سهول سوريا الداخلية التي تمتد حتى الأفق؛ بينما تتجه سهوب الصحراء التدمرية المرئية نحو الشرق. وتُغسل سفوح التل بمياه نهر العاصي الفتى والشغوف (العاصي هو معنى اسمه العربي)، وتمتد إلى الأمام مباشرة بحيرة حمص بطول ستة أميال.

يتم الوصول إلى هضبة قادش Kadesh عن طريق مروج من العشب، وتدور بمرح بين أشجار الصفصاف طاحونة على منكب نهر مندفع. لا بد أن يكون هذا المكان قد سُكن على نحو مستمر تقريباً من أيام الحيثيين، حيث يروي التاريخ عن مدينة اللاذقية السلوقية على نهر العاصي Laodocia ad Orontem وتوجد بقايا آثار من بلدة مسيحية. ولقد بنى كل جيل فوق رماد هؤلاء الذين مضوا قبله، وأدى ذلك إلى ارتفاع الهضبة على نحو أعلى وأعلى، وأصبحت آثار من سكنوها أغنى وأغنى من دون شك. لكن لا يمكن التنقيب فيها بشكل شامل وذلك بسبب الأكواخ الطينية البائسة التي ورثت أمجاد مدينتي قادش Kadesh ولا وداكيا (اللاذقية) Laodocia، وبسبب المقبرة الصغيرة عند النهاية الشمالية للقرية التي، وفقاً لرأي المسلمين، يجب أن تبقى سليمة لا تُمس إلى أن ينفخ جبرائيل في الصور ليعث الزاقدن فيها. وقد لاحظت قطعاً من أعمدة ومن تيجان أعمدة خشنة جداً ملقاة هنا وهناك بين المنازل، وبينما كنت أقف فوق الهضبة كان اهتمامي منصباً بشكل رئيسي في تصوّر المعركة في قادش من قبل الملك الحيّ ضد الفرعون في زمنه، والتي سجّلت في سلسلة مهمة في اللغة الهيروغليفية في مصر.

بعد مسير ربع ساعة إلى الشمال من تلّ النبي مندو يوجد سدّ ترابي غريب يُفسّر من قبل العرب بأنّه سفينة نوح ومن قبل علماء الآثار بأنّه حصن آشوري، وعلى كل صاحب رواية حول أصله أن يدعم وجهة نظره الخاصّة. وهو عبارة عن مرتفع من الأرض، مربّع الجوانب وقد وجّهت جوانبه بدقّة حسب اتّجاه البوصلة، ويرتفع بما يقارب أربعين إلى خمسين قدماً فوق مستوى السّهل وهو محاط بخندق ما تزال زواياه حادة حتّى الآن. صعدنا إلى قمّته، فوجدناها عبارة عن مصطبة هائلة من تربة صلبة، تبلغ مساحتها حوالي ثمن ميل مربّع، وقد ارتفعت الجوانب الأربعة قليلاً كما لو كان هناك أبراج فوقها، كان كل من البرج والمرتاس والمنصّة قد غطّيت بشكل متشابه بقمح الرّبيع. وسواء كان الذي بناه بطريك أو آشوري، فلا بدّ أنّه وجد أنّ إنشاء أمر متعب إلى حدّ بعيد. ولكن إلى أن تمّ حفر بعض الخنادق عبره فإنّ الباعث الذي وجّه أعماله سيبقى غير محدّد.

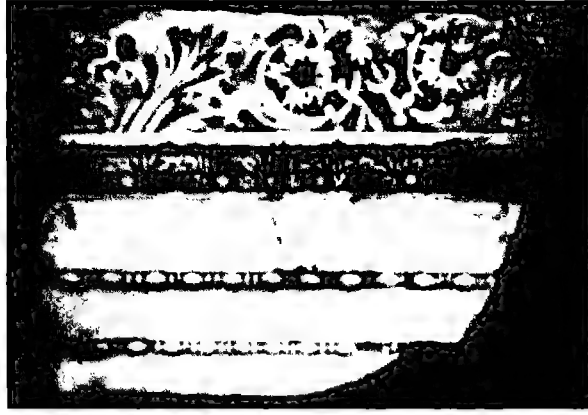


تيجان أعمدة في معبد جويتري بيبلك

سرنا إلى الأسفل نحو البحيرة وتناولنا الغداء قرب المياه المتموجة على شاطئ من المحار التّظيف. كانت هناك تلتان قريبتان من الشّطان، وتلّ آخر على بعد ميل أو اثنين من حمص، بينما كانت قلعة حمص نفسها قد بُنيت على تلة رابعة. كانت هذه التلال كلّها تتمتع بمظهر كأنّها اصطناعيّة، وربما كانت تحتوي آثاراً لمدن كانت شقيقة لقادش. ويجب أن يكون السّهل الخصيب شرق العاصي مستعداً دوماً لإعالة عدد كبير من السّكان، وربما كانوا في أيّام الحثّين أكثر عدداً مما هم عليه الآن. استمرّ ركوب ذلك اليوم من السّاعة التاسعة والنّصف إلى السّاعة الثّانية، مع ثلاثة أرباع السّاعة في تلّ النّبي مندو ونصف ساعة عند البحيرة.

دخلنا حمص عبر المقابر. تلك المقبرة التي لا بدّ أنّ طولها زاد عن ربع ميل من القبور ليست معلماً مميّزاً لحمص، لكنّها صورة دائمة للمدن الشّرقية، حيث تُحرس كلّ مدينة بكتائب من الأموات، وتتحرك الحياة في البلدة منها وإليها عبر فوج من شواهد القبور المعّمة. صادف أنّه كان يوم خميس عندما قدمنا إلى حمص، والخميس هو اليوم الأسبوعي لجميع الأرواح في العالم الإسلامي. كانت مجموعة من النّساء المحجبات يضعن الأزهار على القبور أو يجلسن على الرّوابي منشغلات بحديث مفعم بالحويّة - وتعدّ المقابر المكان الممتع للنّساء الشّرقيات كما تُعدّ ملعباً للأطفال، ولا تترافق مع الغم الذي يلفّ المكان ليترك أثره في بهجة الرّوار.

كان مخيميّ قد نُصب في ضواحي المدينة على امتداد من عشب أخضر أسفل آثار ثكنات عسكريّة بُنيت من قبل إبراهيم باشا وهدمت مباشرة بعد موته من قبل السّوريين، الذين كانوا راغبين في إزالة كلّ أثر من احتلاله البغيض. كان كلّ شيء مجهّزاً لي، الماء المغلي من أجل الشّاي، ورسول من القائم مقام بانتظاري ليؤكّد لي بأنّ كلّ ما أرغب به سوف يحظى باهتمام فوري، وعلى الرّغم من ذلك كلّ لم أحبّ مدينة حمص ولن أخيم فيها مرّة أخرى بمحض اختياري. جاء هذا القرار نتيجة لتصرّف السّكان، الذي سأقوم بوصفه الآن.



كسرة من مدماك علوي في بعلبك

كان تصرّف القائم مقام فوق التّقد أو الاعتراض. فقد قمت بزيارته بعد شرب الشاي، ووجدته تركيّاً مقبولاً عذب الحديث ويتحدّث القليل من العربيّة. كان هناك عدّة أشخاص حاضرين، المفتين المعمّمين وشيوخ وقورين - ودار حديث ممتع ونحن نشرب القهوة. وعندما نهضت لأذهب قدّم لي القائم مقام جنديّاً لحراستي أثناء تجوالي في المدينة، لكنّي رفضت قائلة بأنّه ليس لديّ ما أخاف منه، بالإضافة إلى أنّي أتكلّم العربيّة. ولقد كنت مخطئة: فمعرفة العربيّة لا تكفي في جعل الغريب متمكّناً في التعبير عن رأيه عند أهالي حمص. وقبل أن أدخل السّوق بقليل بدأت المضايقة. ولعلّي كنت كشخصيّة المهرج في الرّواية الهزليّة (Pied Piper of Hamelin) وذلك بسبب الطّريقة التي احتشد فيها الصّبية الصّغار وهم يسرون خلفي. تحمّلت فضولهم لبعض الوقت، ثمّ ناشدتهم الابتعاد، ثمّ التفت لطلب المساعدة من أصحاب المحالّات في الأسواق. كان ذلك مؤثراً لبعض الوقت، ولكن كنت غافلة جدّاً في دخولي لمسجد، حيث لم يتبعني الصّبية الصّغار فقط وإتّما جميع سكّان حمص الذّكور (أو هكذا بدا لخيالي المحموم) وتجمّعوا خلفي. لم يكونوا متزعجين، ولم يكن لديهم رغبة لإيقافي بل على العكس، فقد رغبوا بشدّة بأن أدخل لوقت طويل، حيث يمكن أن يكون لديهم فرصة أفضل لمراقبتي؛ لكنّه كان شيئاً فوق احتمالي، ولذلك هربت

راجعة إلى مخيمي، متبوعة بما يقارب مئتي زوج من العيون الفضولية، وأرسلت في الحال أستدعي شرطياً.

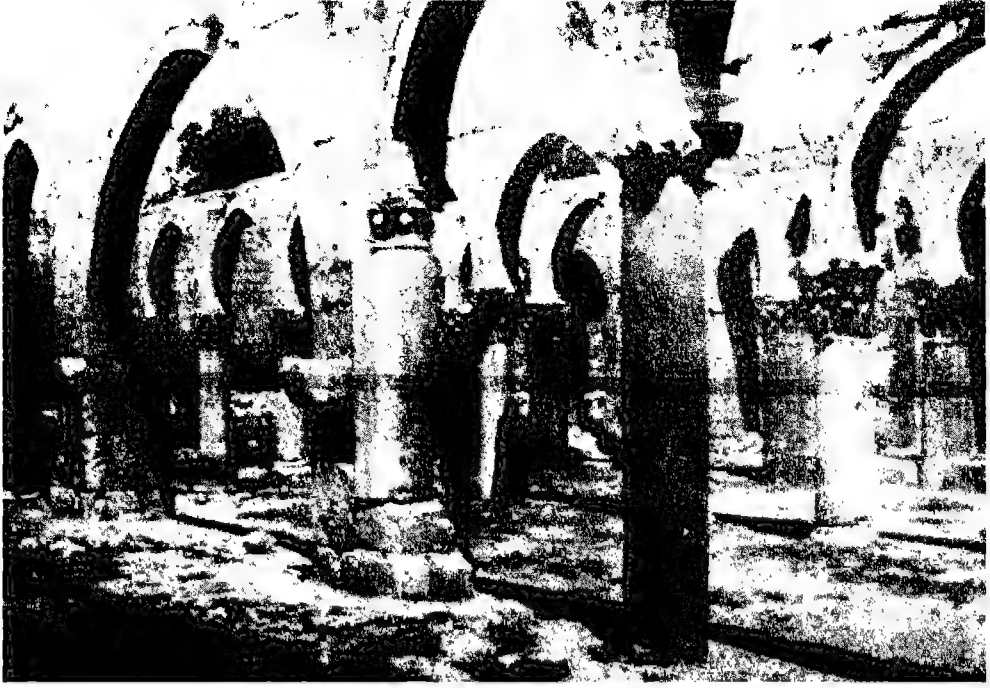
في الصّباح التّالي كنت أكثر عقلانيّة فأخذت معي الشرطي منذ البداية. تسلّقنا إلى قمّة تلّة القلعة لنأخذ فكرة عامّة عن المدينة. على الرّغم من أنّها لا تتمتع بجمال معماري خاص، فإنّها تحظى بشخصيّتها الخاصّة. وقد بُنيت من الحجارة المساميّة، وُبنيت البيوت الكبيرة محاطة بفناء ومزخرفة بنماذج بسيطة لكنّها متقنة من حجر الكلّس الأبيض الذي وُضع في صفوف بشكل متداخل في الجدران ذات الحجارة السّوداء، وأحياناً على نحو متعاقب من السّواد والبياض مثل واجهة مبنى كاتدرائيّة سينا Siena. ويعود الذّهن بالذاكرة أكثر إلى إيطاليا عندما يشاهد أسلوب بناء المآذن المكوّنة من أبراج مربّعة طويلة في كلّ أنحاء العالم مثل أبراج سان جيمينيانو San Gimignano فيما عدا تلك المبنية في حمص والتي تتوّج بقبة بيضاء جميلة جدّاً ومؤثّرة.

كان كل ما بقي من القلعة آثار عربيّة الأصل وكذلك الأسوار المحيطة بالمدينة فيما عدا جهة واحدة إلى الشّرق، حيث بدا وكأنّ العمل العربي قد بُني فوق قواعد أقدم. لم أر أيّ أثر لبناء يعود إلى ما قبل العهد الإسلامي سوى خربة من القرميد خارج بوّابة طرابلس والتي كانت رومانيّة بكلّ تأكيد، وهي الأثر الوحيد المتبقي لمدينة إيميسا Emesa الرّومانيّة. تقع هضبة القلعة أيضاً خارج المدينة، وعندما أنهيتُ استطلاعي العام دخلنا من البوّابة الغربيّة وذهبنا نبحث عن الأماكن التي تستحقّ المشاهدة. تحتاج هذه العملية إلى وقت، ذلك لأنّها تُقطع باستمرار بدعوات ملّحة من أجل الدّخول وشرب القهوة.

مررنا بجامع التّرکمان Turkman Jami'a، حيث كان هناك زوج من حجر منقوش بنقوش إغريقيّة استُخدما في بناء مئذنة وتابوت حجري، وقد نُحت عليهما رؤوس ثيران وأكاليل زهور، يُستخدم كحوض ماء. كان من رأي الشرطي أن أذهب وأقدم احتراماتي لأسقف كنيسة الرّوم الأرثوذكس، فذهبت إلى قصره ولكن وجدت أنّي

ذهبت مبكرة جداً لرؤية سيادته. وعلى أية حال فقد تمت استضافتي لتناول المربي وشرب الماء والقهوة، وأصغيت إلى تفجع أمين سر الأسقف على الانتصارات اليبانية. كانت كنيسة الروم الأرثوذكس تؤدي صلوات التوبة في كل وقت كانت تسلم فيه أخباراً عن خسارة الروس، وفي ذلك الوقت كانوا مشغولين بالتضرع للقدير بأن يصفح عن أعداء المسيحية. انتدب أمين السرّ خادماً كي يريني كنيسة مار إلياس الصغيرة، التي تحتوي على تابوت رخامي رائع مع صلبان لاتينية نُقشت على هيكله وصلبان إغريقية على الغطاء، وهو إضافة متأخرة كما أتصور لقبر تقليدي.

قابلت خارج الكنيسة شخصاً يدعى عبد الوهاب بك، كنت قد رأيته في السرايا عندما كنت مدعوة من قبل القائم مقام، وقد دعاني إلى بيته الذي هو نموذج رائع في الهندسة المعمارية المحلية لمدينة حمص، وقد زينت ساحة الحريم على نحو ساحر بنماذج محفورة في الحجر الكلسي والبازلي. عندما خرجت أوضح الشرطي الذي التقط نوع المشاهد التي كنت أرغب برؤيتها، بأن يأخذني إلى منزل حسن بك Hassan Bcg، الذي كان الأقدم في حمص. ذهبنا إلى هناك، وعندما كنا نمر عبر الطرقات الضيقة لكن النظيفة على نحو ملاحظ، لاحظت أنه كان يوجد في كل بيت تقريباً نول ينسج عليه النساجون الحرير المخطط الذي تشتهر به حمص، في حين كانت معظم الطرقات العامة تعرض الخيوط الحريرية. قال الشرطي إن العمال يأخذون أجرهم على القطعة، ويربحون من سبعة إلى اثني عشر قرشاً في اليوم (من شلن إلى شلنين)، وهي أجرة كبيرة في الشرق. أضاف: فالحياة رخيصة؛ حيث يستطيع رجل فقير أن يستأجر بيته، الذي هو عبارة عن غرفة واحدة، بمئة قرش في السنة، ويطعم عائلته بثلاثين أو أربعين قرشاً في الأسبوع أو حتى أقل إذا لم يكن عنده الكثير من الأولاد.



باسيليكا قسطنطين في بعلبك

كان حسن بك Hassan Beg Nā'i ذا شعر أحمر اللّون ولحية حمراء، بوجه ذي ملامح قاسية يشبه وجوه سكان الأراضي المنخفضة في اسكتلندا. لم يكن مسروراً أبداً لرؤيتي، ولكن بوجود الشرطي خرج متمهلاً من مضافة حيّه، حيث كان يشرب فنجان قهوة صباح يوم الجمعة مع أصدقائه، فأخذني عبر الشارع إلى جناح حريمه، وتركني مع النساء. اللاتي كنّ لطيفات بمقدار ما كان فظاً. وبالفعل فقد سُرن بوجود زائرة، حيث أنّ حسن بك كان سيّداً صارماً، ولم يكن يسمح لا لزوجته ولا لأمّه ولا لأيّ امرأة تابعة له أن تخرج أنفها خارج أبواب البيت، ولا حتّى أن تمشي عبر المقبرة أو تركب عربة وتذهب إلى المرج عند نهر العاصي في عصر يوم صيفي جميل.

كان قسم النساء بيتاً عربياً جميلاً جداً على طراز البيوت في دمشق. كانت هناك قباب مجصّصة فوق الغرف وفوق اللّوان (الذي هو قاعة جلوس في منتصف الفناء)، ولكن

الجصّ كان قد تكسّر قطعاً وتقوّضت الأرضيّات والدّرجات تحت الأقدام التي تدوسها. وُبني في أحد الجدران عمود رخامي ذو تاج مزخرف بأوراق الأَقْشَا، وكان هناك على أرض اللّيوان تاج عمود رخامي كبير، بسيط في طرازه لكنّه جيّد التّوعيّة. لقد تمّ تحويله إلى حوض ماء، وربّما أدّى دوره كجرن المعموديّة قبل أن يأخذ العرب إيميسا Emesa، وبعد ذلك بدأت الأبنية الرّومانيّة الأكثر قدماً تتساقط وتوضع موادها في استخدامات أخرى.



حجر في المقلع بيبلك

مررت وأنا عائدة إلى مخيّمي بمثدنة مربّعة جميلة، مبنية من صفوف متناوبة من حجارة بيضاء وسوداء اللّون. كان المسجد أو الكنيسة المسيحيّة التي ينتمي إليها البرج قد تهدّم؛ قال شرطيّ، بأنّه يُعدّ البرج الأقدم في المدينة. وبكل تأكيد كان المسجد عند مدخل السّوق كنيسة دون أيّ مزيّة معماريّة.

لم يكن هناك شيء آخر يمكن مشاهدته في حمص، وبما أنّ عصر ذلك اليوم كان جميلاً فقد نزلتُ إلى المرج عند نهر العاصي، المنتجع الأنيق لكلّ راغبي التّنزه في الرّبيع والصّيف. يترك مجرى نهر العاصي حمص على بعد ميل كامل إلى الجنوب الغربي، وإمداد الماء سيئ وغير كافٍ، حيث يأتي من قناة تبدأ من الطّرف الشّمالي للبحيرة. يُعدّ مرج العاصي نموذجاً جيّداً للمكان الجميل الذي يتمتّع فيه الشّرققيون سواء كانوا أتراكاً أو سوريّين أو عجماء، ويقضون فيه وقت فراغهم. يقول المثل العربي:

«ثلاثة تفرح القلب: الماء والخضرة والوجه الحسن». يجري نهر العاصي السريع بين مروج مرصعة بأزهار الربيع، حيث السيدات المسيحيات المهملات للحجاب في معظمهن وقد ترجلن من على ظهور بغالهن وجلسن تحت أشجار الصفصاف وتلمسن نسمة الربيع الأولى. تدير النهر ناعورة كبيرة، أي دولاب فارسي^(١)، تملأ الجو بدويها اللطيف. نصب قهوجي مجمرته عند حافة الطريق، وكان بائع حلوى يعرض بضائعه على جانب النهر، وعلى امتداد فسيح من المرج كان هناك عدد قليل من الشباب المرحين يعدون بخيولهم العربية ويركبون العربات. يمضي الشرق العطلة على طريقته البسيطة والمُرضية، متمتعاً بشمسهِ اللذيذة.



راس العين، بعلبك

(١) هذا الوصف غير علمي من المؤلفة، فنواير العاصي تعود صناعتها إلى سكان البلاد الأصليين الأراميين في القرون السابقة للمسيحية، وليست من صنع الرومان ولا الفرس ولا غيرهم.

خُصِّصَ ما تَبَقَّى من فترة بعد الظَّهر للأمور الاجتماعيَّة ولمحاولات مخفِّفة للنَّجاة من فضول سكَّان البلدة. لقد كان عصر يوم جمعة، وليس هناك طريقة لقضائه خطرت في بالهم أفضل من أن يجتمعوا بأعداد وصلت إلى عدَّة مئات حول خيامي ويراقبوا كلَّ حركة من أيِّ فرد من أفراد المخيم. كان الرِّجال سيئين بما يكفي، ولكنَّ النساء كنَّ أسوأ والأطفال كانوا الأسوأ من الجميع. لم يكن هناك أيُّ شيء يمكن أن يبعدهم، وكانت الإثارة قد وصلت أوجها عندما وصل عبد الحميد باشا الدُّروبي، وهو أغنى رجل في حمص ليدعوني، وكان معه القاضي محمَّد سعيد الخاني. لم أتمكَّن من أن أعير حديثهما الممتع والعاقل ما يستحقُّ من الاهتمام، وذلك بسبب الحشد المهتاج المحيط بنا، ولكن قمت بعد ساعة برد دعوتهما في بيت الباشا الجديد الجميل عند بَوَّابة المدينة، ورافقني إلى هناك ثلاثمئة شخص على الأقل. لا شك أنَّني تنفَّست الصَّعداء عندما أغلق الباب في وجه مرافقيَّ من العامَّة، وجلست في اللِّوان الرَّطب الهادئ، قال عبد الحميد: «أرجو من الله ألا يكون العامَّة قد أزعجوا سعادتك؛ وإذا حصل ذلك فسوف نستدعي فوجاً من الجنود».

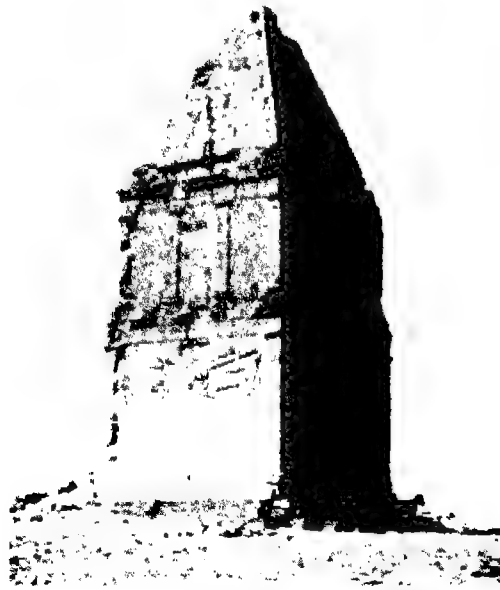


أرز لبنان

تمت رافضة عرضه من وسط قلبي، على الرغم من أنني سأكون سعيدة إذا رأيت هؤلاء الصبية الصغار يُرمون بوابل من نيران الأسلحة⁽¹⁾، وأضاف البابا متأملاً: «أعطى إمبراطور ألمانيا عندما كان في دمشق الأوامر ألا يُمنع أحد من المجيء والنظر إليه».

ومع هذا المثال المهيّب الذي ذكر أمامي رأيتُ بأن عليّ تحمّل ضريبة العظمة والغربة دون تدمير.

دار الحديث حول المعتقدات الدينيّة. وبدأت بالسؤال عن النصيريّة، ولكن القاضي زَمَ شفّتيه وأجاب:



قاموع الهرمل

(1) يا للنفس الشريرة السوداء، الأطفال يُرمون بوابل من نيران الأسلحة؟ ما هذا الحق؟ ولكن مع الأسف هذا ما رأيناه يجري عام 2012.

«إنهم ليسوا أتقياء، فبعضهم يدّعي عبادة علي وبعضهم يعبد الشمس، وهم يؤمنون بأنهم عندما يموتون فإنّ أرواحهم تذهب إلى رجل آخر أو حتّى إلى الحيوانات، كما هو الأمر في الأديان في الهند والصّين».

قلت: «لقد سمعت قصّة تتحدّث عن رجل كان يملك كرمه، ثم مات الرّجل وتركها لابنه. وبدأ الرّجل الشاب يعمل في الكرمه حتّى جاء وقت الحصاد وعندما كان العنب قد أينع دخل ذئب إلى الكرمه وكان كلّ مساء يأكل الثّمار. حاول الرّجل الشاب أن يصطاده عدّة مرّات، ولكنّه كان يعود كلّ مساء. وفي إحدى الليالي صرخ الذّئب بصوت عال: «هل يتوجّب عليّ ألا أكل من العنب وأنا الذي زرعت الكرمه؟» فصعق الشاب وقال: «من أنت؟» أجاب الذّئب: «أنا أبوك». أجاب الشاب: «إذا كنت حقّاً أبي، إذاً أخبرني أين خبأت المنجل، وذلك لأنّي لم أجده منذ فارقت روحك جسدي!» أخذه الذّئب من ثمّ إلى المكان الذي كان المنجل مخفياً فيه، وعندها صدّق وعلم بأنّه كان والده».



عطلة شرقيّة

رفض القاضي الشاهد.

قال: «هذا محض افتراء إلى حدّ بعيد دون شك».

سألته بعد ذلك فيما إذا كان لديه أيّ اطلاع على الطائفة البهائية، فأجاب:

«فيما يتعلّق بالبهائية وجميع الفرق التي تشبهها، فكما تعلمين جنابك أنّ النبي (عليه السلام!) قال إنّ هناك اثنتين وسبعين فرقة ضالّة وواحدة فقط هي الناجية. ويمكنني أن أخبرك بأنّ من هذه الفرق الاثنتين والسبعين يوجد في بلدنا منها خمسون».

أجبتّه بأنّ الأنبياء هم وحدهم القادرون على تمييز الحقّ من الباطل، ونحن في أوروبا حيث لا يوجد من يساعدنا، نجد ذلك مهمّة صعبة جدّاً.

قال القاضي: «في أوروبا، سمعت أنّ رجال العلم هم أنبياءكم».

علّقتُ قائلة: «وهم يجيئون بأنهم لا يعلمون شيئاً، لقد اكتشفتُ أعينهم التّجوم، ومع ذلك لا يمكنهم أن يخبرونا عن معنى كلمة اللّانهاية».

علّق القاضي: «إذا كنت تتحدّثين عن السّماء اللّامتناهية، فإنّنا نعلم أنّها تتكوّن من سبع سموات».

«وماذا بعد السّماء السّابعة؟».

قال: «ألا تعلمين جنابك أنّ العدد واحد هو بداية كلّ الأشياء؟ وعندما تخبريني ماذا يأتي قبل الرّقم واحد، سأخبرك ماذا يوجد بعد السّماء السّابعة».

ضحك الباشا وقال إذا كان القاضي قد أنهى مناقشته فإنّه يرغب في أن يسألني ما هي الفكرة السّائدة في أوروبا في مسألة قراءة الأفكار. قال: «قبل شهر سُرق خاتم ثمين من منزلي ولم أتمكّن من العثور على اللّص. وقد سمع بالقضيّة أحد الأفنديّة من أصدقائي فجاءني وقال: «أعرف رجلاً في لبنان خبيراً في هذه الأمور». فقلت: «اعمل معروفاً، وأحضره لي». جاء الرّجل وبحث في حمص إلى أن وجد امرأة قد وُهِبت مقدرة الاستبصار، وعمل مترجماً لأفكارها إلى أن تكلمت وقالت: «صفة اللّص كذا

وكذا، وقد أخذ الخاتم إلى بيته». بحثنا في البيت الذي حدّته ووجدنا الخاتم. هذه هي تجربتي لحادثة وقعت أمام عيني».

أجبت بأنّ قارئ الأفكار في لبنان قاموا باستغلال مواهبهم على أحسن وجه أكثر مما سمعته عن أيّ شخص في لندن، وقال البابا متأقلاً:

«ربّما يكون السّبب لأنّ المرأة التي في السّوق كان لديها شكوى ضدّ الرّجل الذي وجدنا في بيته الخاتم - الله وحده يعلم. تبارك لاسمه!».

وهكذا غادرنا منزل البابا.



شارع في حمص

عندما عدتُ إلى خيمتي وجدتُ بطاقة دعوة على طاولتي، تحمل الاسم والعنوان: «حنّا خبّاز، كاهن الكنيسة البروتستانتية في حمص». كُتِب تحت هذا النّقش الرّسالة التّالية: «يا سيّدة - مستعدّة أنا وزوجتي لتقديم أيّة خدمة تحتاجينها في خدمة المسيح والإنسانيّة. كما أنّنا نجد أنّه من الواجب علينا زيارتك إذا تطلّفت وقبلت زيارتنا. وأنا خادمك المطيع». أرسلتُ عبارة بأنّي أقبل زيارتهما بكلّ امتنان إذا جاء في الحال، وقد ظهر قبل غروب الشّمس، كانا شخصين لطيفين جدّاً، متلهّفين جدّاً لاستضافتي، الشّيء الذي لم يكن باستطاعتي الاستفادة منه. ولم يكن أسفي كبيراً على ذلك لأنّ

الپاشا والقاضي كانا صحبة طيبة بما يكفي لعصر ذلك اليوم، وعندما أنظر إلى الخلف إلى الزيارة الصاخبة لحمص، أجد أنّ الساعة التي أمضيتها مع هذين الشخصين المسلمين اللطيفين كريمي الأصل تقف مثل ذكرى لملاذ محمي في ریح عاصفة.

* * *

الفصل التاسع

غادرنا في اليوم التالي عند ساعة مبكرة، ولكن أهالي حمص نهضوا مبكرين كي يأتوا لرؤيتنا نغادر. لم يكن هناك حلّ يقدم لهم تسوية أكبر وأكثر من أن أستطيع المحافظة على هدوئي الظاهري. عبرنا بعد ربع ساعة خلف بوابة طرابلس، والمبنى الرّوماني الآجري، وخلف منظر صفّ الصّبية الصّغار الذي أصبح أبعد ما يكون؛ اجتاح جمال الصّباح الهادئ أحاسيسنا، والتفتُّ لأتعرّف على المرافقين الذين كان القائم مقام قد أمّديني بهم. كان عددهم أربعة، كان اثنان منهم أحراراً واثنان مقيّدين، كان الاثنان الأوّلان شرطيّين كرديّين؛ كلّ الأوّل بأن يدلّني على الطّريق إلى قلعة الحصن، ويقوم الثّاني بحراسة الاثنین الآخرين من المسافرين اللذين يرافقوننا، وهما سجينان كانا في قبضة القائم مقام قبل بضعة أيّام، وانتظر حتى استطاع إيجاد فرصة مناسبة، كالتي توفّرها رحلتي، لإرسالهما إلى القلعة في جبل النصيريّة، ومن ثمّ إلى السّجن الكبير في طرابلس. كانا بائسين هزيلين ومكسّوين بتياب قطيّة بالية وقد قيدا معاً. وبينما كانا يسيران مجتهدين بشجاعة عبر الغبار والوحل، تفوّهتُ بكلمة تعاطف، وردّا بكلمات يرجوان فيها أن يطيل الله عمري، ولكن بالنّسبة لهما فقد كانت إرادة سيّدتهما السلطان التي جعلتهما يسافران مقيّدين سيراً على الأقدام. قاطعنا أحد الأكراد موضحاً:

«إنّهما هاربان من جيش السلطان، الله يجازيها على أفعالهما! وأكثر من ذلك، فهما إسماعيليّان من السّلميّة، وهما يعبدان إلهاً غريباً يعيش في أرض الهند. ويقول بعضهم بأنّه امرأة، ولهذا السّبب هم يعبدونها. وهي ترسل كلّ سنة سفيراً إلى هذه

البلدة لجمع المال المستحقّ لها، وحتىّ أفقر الإسماعيليين يزودونها ببعض القروش. وبعد ذلك يصرّحان بأنّهما مسلمان: مَنْ يعلم ما هو معتقدهما؟ تكلم، يا خضر، وأخبرنا ما هو معتقدك؟».

أجاب السّجين المخاطب بعناد:

«نحن مسلمون»؛ ولكن كلمات الجندي كانت قد أعطتني معلومات حيث كنت قادرة على المتابعة من خلال ذلك عندما زحف السّجينان سيّئاً الحظّ وأصبحا بجانب حصاني وهمس أحدهما:

«يا ستّ، يا ستّ! هل سبق أن رحلتِ إلى أرض الهند؟».

قلت: «نعم».

«الله ينعم عليك! وهل سمعت هناك عن ملك عظيم يدعى الملك محمّد؟».

مرّة أخرى كنت على استعداد للردّ بالإيجاب، وأن أضيف حتّى بأنّي أنا نفسي أعرفه وتحدّثت معه، وذلك أنّ ملكهم محمّد لم يكن سوى زميلي الآغا خان، ويفاخر دين السّجينين بأنّه قديم جديرٌ بالاحترام، وأنشأه الشّخص الذي كان يطلق عليه اسم شيخ الجبل. ولقد كانوا الممثّلين المتواضعين للطّائفة المروّعة (وربما المؤذية) المعروفة بالحشيشيّة Assassins.

التقط خضر ركاب فرسي بيده الطليقة وقال بحماس:

«أليس ملكاً عظيماً؟».

لكنّي أجبت بحذر، يُعدّ الآغا خان ملكاً عظيماً في العالم الحديث، ولنقل بأنّه غني إلى أبعد حدّ، ويمكن أن يكون من الصّعب الشّرح تماماً لمريديه ما ذاك الرّجل مصقول السّلك والكريم الأصل في هذا العالم، الذي اجتمع به في حفلة عشاء في لندن، والذي كان قد أعطاني نادي مالبورو Club Marlborough كعنوان له. لو استطاعوا فهم هذه الأمور، فليست هي التي يمكن أن تصدمهم؛ فالآغا خان هو قانون بذاته، ولو اختار أن يطلق العنان

وينغمس في تجاوزات إلى درجة أكبر بكثير من حفلات عشاء فإن تصرفاته ستُقدّس من خلال الحقيقة المجرّدة بأنّها إرادته. ولقد اعتاد والده إرسال رسائل تعريف للملك جبرائيل من أجل أن يضمن لأتباعه مكاناً جيّداً في الجنّة؛ كان الابن بثقافته الإنكليزية وألفته مع الفكر الأوروبي قد أحجم عن ممارسة هذا الامتياز، على الرّغم من أنّه في نظر أتباعه لا يزال ممسكاً بمفاتيح الجنّة. وهم يظهرون إيمانهم به بطريقة مادّية عن طريق التبرّع في أجزاء مختلفة من آسيا وأفريقيا بمبالغ كبيرة تصل سنوياً إلى عشرات الآلاف.



قهوة على جانب الطريق

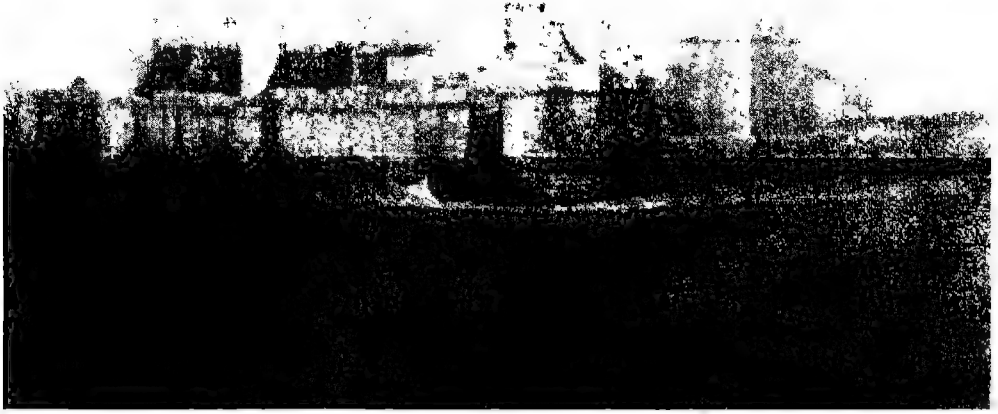
سرنا ما يقارب الساعة عبر البساتين، وقابلنا مجموعة من العرب شُعث المنظر يمشون الهوينى إلى حمص على حميرهم حاملين معهم حليماً وخشارة اللّبن إلى السوق، ووصلنا من ثم إلى السهل خلف العاصي، الذي هو موطن هؤلاء العرب. كان منظر السهل مألوفاً؛ فلم يكن متبائناً عن منطقة هضاب الدّروز، ومثل منطقة حوران فقد غطّته حجارة بركانية سوداء، وهو عبارة عن مقلع حجارة فسيح لمدينة حمص. يتم إحضار جميع الأحجار التي تُستخدم للبناء من المنطقة التي تقع وراء التهر وتُنقل على ظهر الحمير. وهي تكلف متلياً واحداً في المدينة (والمتليّ الآن عملة معدنية ذات قيمة متدنية جداً وليس لها مقابل في أوروبا)، ويمكن لشخص لديه مجموعة

جيدة من الحمير أن يكسب ما يقارب عشرة قروش في اليوم.

وفي فصل الربيع فإنّ العرب الذين يخيّمون في وعر حمص، وهو سهل حمص الحجري، هم عرق محقر وذلك بسبب الخدمات التي يقدّمونها للمدينة، ويجب أن تلاحظ أنّه لا يوجد بدوي يحترم نفسه يمكن أن يكسب عيشه عن طريق بيع خثارة اللّبن أو عن طريق أية وسائل أخرى سوى القتال؛ ولكن في الصّيف فإنّ القبائل الكبيرة مثل الحسنة Hasench تستقرّ هناك لبضعة أشهر، وبعد الحصاد تأتي كذلك بعض بطون غزّة 'Anazeh' بإبلها كي ترعى. تشبه هذه القبائل الكبيرة سمك السلمون في نهر يأتي من عرض البحر ويقدم لحماً أقلّ للمقلاة.

عندما عبرنا في شهر مارس كانت هناك كمّية جيّدة من الماء الراكد في السهل، وقد نمت الأزهار والأعشاب بين الأحجار؛ وعندما كنّا نتقدّم باتجاه الغرب فوق أرض ارتفعت تدريجياً باتجاه الهضاب، دخلنا منطقة كانت تشبه حديقة رائعة من الأزهار. رفعت مكاحل أزهار الزنبق الزرقاء الشّاحبة أجراسها العنقودية فوق كتل الأحجار المسامية، وتناثرت أزهار السّوسن، وشقائق النّعمان الحمراء وعشبة الصّقر الصّفراء والخربق الأرجواني الجميل في منطقة العشب - وتبعثرت جميع محاصيل الربيع السّوري في ذلك اليوم تحت أقدامنا السّعيدة.

تبعنا في السّاعات الخمس الأولى طريق العربات الذي يقود إلى طرابلس، مازين بالخان الذي يحدّد المرحلة الأخيرة قبل مدينة حمص، وخطّ الحدّ بين ولاية دمشق وبيروت؛ وانعطفنا من ثمّ نحو اليمين ودخلنا ممراً خاصّاً بالخيول يمتدّ على أرض متموّجة العشب مزروعة جزئياً وملتئة بالأزهار أكثر ممّا هو في العادة على حوافّ الطّريق. كانت شقائق النّعمان باللّون الأبيض والأرجواني، والسّوسن الأزرق متعنداً جانب الطّريق والزّعفران الأصفر على ضفاف التّهر. وكان العشب في عيون من كان قد عبر لتوّه جنوب سوريا أكثر روعة حتّى من الأزهار. كسيت أعلى القمم من جبل النصيرية بنبات أخضر بحيث لا يمكن لأيّ منحدر خصب في السّامرة Samaria أو برّية اليهودية Judæa أن يتفاخر أمامها.



قلعة الحصن

ارتفع الطريق ارتفاعاً قليلاً وهبطنا إلى قرية كردية، نصفها خيام عربية ونصفها سور طيني. ولا بد أن يكون سكانها قد أقاموا في سوريا منذ مدة طويلة، وذلك لأنهم كانوا قد نسوا لغتهم الأصلية ولا يتكلمون سوى العربية، ومثلهم مثل الشرطيين فهم يتكلمون على الرغم من ذلك بلهجة سريعة تميز الأكراد. وخلف القرية كان هناك سهل بعرض ثلاثة أميال تقريباً، هو سهل البقيعة Bkei'a، الذي يمتد إلى سفوح هضاب جبل النصيرية الشاهقة، ومن أعلى قمة الجبل تطل القلعة الصليبية العظيمة باتجاه المكان الذي كنا متجهين إليه. كانت الشمس تسطع على أبراجها، ولكن عاصفة سوداء كانت تزحف في الأعلى خلفها؛ استطعنا سماع الرعد يدمدم في الهضاب، وقد انطلق البرق المرتج عبر الغيوم خلف القلعة.

كان الطريق المباشر عبر البقيعة يستحيل عبوره على الفرسان، بسبب وجود المستنقعات الغائضة فيه، والتي كانت كما قال القرويون عميقة بما يكفي لتبتلع بغلاً مع حمولته؛ ولذلك

انعطفنا على مضض إلى اليمين، وتقدّمتنا شيئاً فشيئاً حول سفوح الهضاب. وقبل أن نذهب بعيداً قابلنا خياليين خرجوا للترحيب بنا من قبل قائم مقام قلعة الحصن، وعندما كانا يلتحقان بنا هبت العاصفة وغمرتنا بالمطر الغزير. وصلنا سفح الهضاب عند الساعة الخامسة وقد رُششنا بالوحل الذي عبرنا فيه وتبللنا بالمطر، وهنا تركتُ قافلتني لتتبع الطريق، وتسَلّقت مع أحد فرسان القائم مقام عبر مسلك منحدر ضيق خاصّ بالخيالة يقود مباشرة إلى قمة الهضبة. وهكذا وصلنا عند الغروب إلى بُرج معتم وسرنا عبر بوابة عربيّة رائعة إلى ممرّ مقنطر، مبني فوق درج ملتفّ. كان داخله مثل الليل تقريباً؛ وسمحت بعض فتحات الرّمي بدخول ضوء الغسق الرّمادي من الخارج، وزوّدت ضوء النهار بأبلغ اعتذار.

مررنا بين فترة وأخرى بمدخل تؤدّي إلى ظلمة كهفيّة. كانت الدّرجات الحجرية قليلة الارتفاع وعريضة لكن معظمها متكسّرة؛ وتعثّرت الجياد وقعقت عليها ونحن نصعد أعلى وأعلى، ننعطف زاوية تلو أخرى، وعبرنا تحت مدخل بعد مدخل إلى أن وصلنا أخيراً إلى الفناء المكشوف في وسط الحصن. شعرت وكأنّي كنت أركب مع أحد فرسان الملكة الجنيّة Fairy Queen ونصف متوقّعة أن أرى كتابات على الأقواس تقول: «كوني جسورة! كوني جسورة! ولكن غير متهورّة!»، لكن لم يكن هناك ساحر في قلب القلعة - لا شيء سوى حشد من القرويين يمدّون رقابهم إلى الأمام لرؤيتنا، والقائم مقام مبتسماً وهو يعلن بوّد أنّه لم يكن ليقبل بالتفكير في أن يدعني أنصب مخيماً في ليلة عاصفة ومبلّلة كتلك، وكان قد جهّز مأوى لي في البرج.

إنّ قائم مقام قلعة الحصن رجل متميّز بالأدب، اسمه عبد الحميد بك رفعة زاده، قدّم هو وعائلته من مصر، حيث لا يزال الكثير من أبناء عمومته موجودين هناك. وهو يسكن في أعلى برج في القلعة حيث كان قد جهّز غرفة ضيوف على نحو ملائم وقد زوّدت بالسجاد وديوان، وسرير له أربعة أعمدة وخزانة ثياب من خشب نفيس بباب مزود بمرآة تكسر زجاجها إلى قطع صغيرة أثناء نقلها على جمل من طرابلس حيث كان من المستحيل على المرأة أن يرى أصغر زاوية من وجهه من خلالها. كنت مبلّلة حتّى الأعماق، ولكن كان يجب مراعاة واجبات اللّباقة الاجتماعيّة الجيدة، وحتموا علينا الجلوس على الديوان

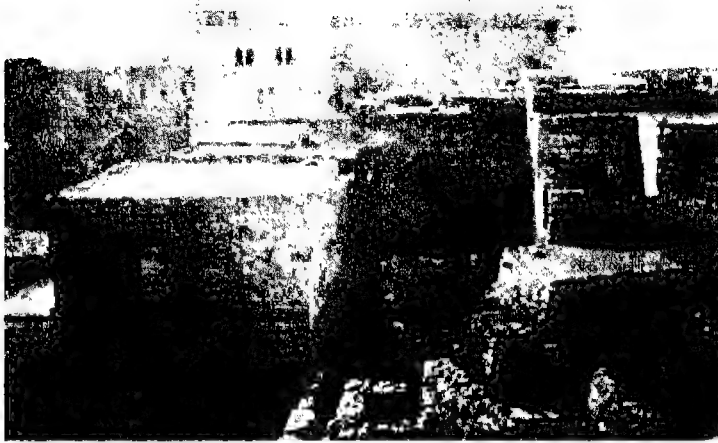
وتبادل عبارات مهذبة بينما كنت أشرب كؤوس شاي خفيف. كان مضيفي مشغول البال وراغباً بوضوح في المحادثة الجارية - وذلك لسبب جيد، كما استتجت فيما بعد - ولكن عند إجابتي على تحيته الأولى أطلق تنهيدة ارتياح وهتف:

«الحمد لله! جنابك تتكلمين العربية. فقد كنا خائفين بأننا لن نتمكن من التكلّم معك، ولقد دعوت مسبقاً سيّدة سورية تعرف الإنكليزية لتقضي المساء معنا من أجل الترجمة».

واصلنا حديثاً غير مترابط لمدة ساعة بينما كانت الرطوبة تنفذ أكثر وأكثر بشكل كامل عبر معطفي وتورتسي، ولم يكن ذاك إلا بعد وصول البغال بفترة طويلة والقيام بتنزيل حمولتها، حيث نهض القائم مقام واستأذن بالمغادرة قائلاً إنه سياتركني كي أستريح. وفي الحقيقة، فقد سرنا اليوم لمدة طويلة؛ وقد استغرق البغالة إحدى عشرة ساعة حتّى وصلوا إلى قلعة الحصن. وبالكاد كان لديّ وقت لأبدّل ثيابي المبلّلة قبل أن أسمع قرعاً متحفظاً على الباب الداخلي معلناً وجود مجموعة النساء.

فتحتُ الباب في الحال، وأذنت لخدمة عذراء وزوجة القائم مقام وسيّدة مهذبة أنيقة حيّتي بآنكليزية منمّقة جداً. كانت السيّدة الأخيرة تلك هي: الست فريدة، الزوجة المسيحيّة لمساح الأراضي الحكوميّة الذي هو مسيحي أيضاً. كانت قد تلقّت تعليمها في مدرسة تبشيرية في طرابلس، ولم يستمرّ جهلي وقتاً طويلاً من حقيقة أنها كانت كاتبة، وأنّ أعظم عمل لها كان ترجمة «آخر أيام بومباي» إلى العربية. كانت زوجة القائم مقام امرأة شابة بخدين مثل التّفاح، والتي يمكن أن تكون جميلة لولا أنها بدينة على نحو غير طبيعي. كانت زوجته الثانية؛ تزوّجها قبل شهر أو شهرين فقط، بسبب وفاة زوجته الأولى أم أطفاله. كانت خجولة جداً حيث مضى بعض الوقت قبل أن تغامر بفتح شفيتها وتكلّم بحضوري، ولكن أنقذت الست فريدة الوضع فتدققت بالكلام بلسان مهذار بالإنكليزية والعربية وتأکید بمرح عن طريق تصرّفها الصحيح لكونها مسيحيّة. كانت امرأة مرحة وذكيّة، ولقد استمتعتُ بصحبتها إلى حدّ بعيد أكثر من تمتّعي بصحبة مضيفتي. وعلى أية حال، فقد كانت الكلمة الأولى التي غامرت الخانم بالتلفظ بها هي كلمة ترحيب، حيث سألتني متى أفضل تناول العشاء. أجبته بحماس بأنني أفضله بأسرع ما يمكن، وعبرنا فناءً موحلاً ودخلنا غرفة مُدّت

فيها مائدة طعام سخية ووافرة. وهنا انضمت إلينا سيّدة جليّة قدّمت لي كـ «صديقة جاءت كي ترى جنابك (تفّرّس في جنابك)» وجلسنا جميعاً لتناول أفضل عشاء مع جمع يُعدّ على الأقل أفضل منكّه لهذا العشاء، الذي هو حساء سميك وأربعة أطباق ضخمة من اللحم والخضار، توجت بحلوى أرز (أرز بالحليب) في نهاية الطّعام.



قلعة الحصن. داخل القلعة

عندما انتهى العشاء عدنا إلى غرفتي، وأحضرنا كانوا مليئاً بالفحم ونراجيل للسيدات، وجلسنا لدرشة مسائيّة. رفضت السيّدة العجوز الجلوس على الديوان قائلة بأنّها معتادة جداً على الجلوس على الأرض، وجلست أقرب ما يكون إلى الكانون ومدّت يديها المعروفتين فوق النّار المتوهّجة. كانت ترتدي ثياباً سوداء، وغطّت رأسها بقطعة شاش بيضاء سميكّة لفتها بشكل جيّد على رأسها وجينها، ثمّ حول ذقنها ممّا أعطاهما شكل رئيسة دير عجوز في أخويّة دينيّة. خارج الغرفة البرجيّة كانت الرّيح تعصف والأمطار تضرب على النّافذة الوحيدة، ودار الحديث بشكل طبيعي عن الأعمال المرعبة وهذا النوع من القصص المتهامس بها حول الجريمة والموت التي لا بدّ أنّها روّعت الأشباح في تلك الغرفة المظلمة لعدّة قرون وقرون. أصابت القوائم مقام مأساة عائليّة رهيبه قبل عشرة أيّام:

فقد أطلق نار على ابنه بيد زميله في المدرسة في طرابلس في شجار صباهي - وبدت النسوة يفكرن بأنه ليس من غير الطبيعي أن يؤدي غضب صبي مفاجئ إلى نتيجة كذلك. تم استدعاء القائم مقام برقيّاً، وكان قد نزل الطريق الجبلّي الطويل والخوف يقبض قلبه أن يجد الولد ميتاً، وكان حزنه أكبر من أن يستطيع تحمّله. هذا ما قالته السّت فريدة.

هزّت العجوز الجليّة نفسها فوق الكانون وتمتمت:

«القتل هنا مثل شرب الحليب! يا الله! لا يوجد إلا أنت».

هبت عاصفة منعشة من ريح حول البرج، واستأنفت المرأة المسيحيّة القصّة.

قالت، وقد أومأت برأسها نحو المرأة التي قرب الكانون: «هذه الخانم تعلم أيضاً ما الذي يُبكي. فقد قتل ابنها في مثل هذا الوقت في الجبال من قبل لص ذبحه بسكينه، وقد وجدوا جثته ملقاة عارية قرب الطريق».

انحنّت الأم ثانية فوق الفحم، وأضاء الوهج وجهها المسنّ المتعب.

تأوّهت: «القتل مثل إراقة الماء! يا رحيم!».

كان الوقت متأخراً عندما تركتني النسوة. عرضت إحداهنّ أن تقضي الليلة في غرفتي، لكنني رفضت بلطف وحزم.

استيقظت في اليوم التالي على صوت الرّعد وحبّات البرّد تقرع على مصراع نافذتي. لم يكن هناك في هذه الحالة سوى قضاء أربع وعشرين ساعة أخرى تحت سقف القائم مقام مع الامتنان لوجود سقف نلجأ إليه اليوم. قمت باستكشاف القلعة من كلّ أطرافها بقناعة كبيرة للطفل الأبدى الذي يعيش في روح كلّ منّا ويشعر بالكثير من السّعادة في الأبراج المحصّنة والشرفات المفترجة للقلعة أكثر من أي تذكّار آخر من العصور القديمة. قلعة الحصن كبيرة جداً بحيث أن نصف سكّان القرية يسكنون في أقبية الحصن⁽¹⁾، بينما

(1) هذا صحيح، ولقد قام الفرنسيون إبان انتدابهم على سوريا (1920-1945) بإخلاء قلعة الحصن، وخصّوها بأعمال ترميم وافية ودراسة معماريّة وأثرية بديعة قام بها الآثاريّ الشهير پول ديشان Paul Deschamps وربما نقوم بترجمته للسلسلة يوماً ما. واسم القلعة بالفرنسية:

تحتلّ الحامية العسكريّة الأبراج العلويّة. ترتفع أسوار الحصن من خندق داخل صفّ التحصينات الأول، وهو الصفّ الذي عبرناه في الليلة الماضية عند الرّواق المقنطر. يقيم جرّار الحصن عند مدخل السور الداخلي؛ ويذبح كلّ صباح شاة على العتبة، ويخطو هؤلاء الذين يخرجون عبر بركة دم وكأنّ بعض الذّبائح البربريّة تقدّم يومياً عند المدخل.



نوافذ قاعة الطّعام

يحوي الحصن كنيسة صغيرة حوّلت الآن إلى مسجد، وقاعة طعام بنوافذ على الطّراز القوطي، وقد سُدّت الرّخفة الشّجريّة بأحجار لتحمي هؤلاء الذين يقيمون داخلها من البرد. ويشكّل البرج الذي أقيمت فيه جزءاً من خطوط الدّفاع الأعلى ويرتفع فوق ثلاثة طوابق من الأقبية. يقود ممرّ ضيق فيه إلى قمّة السور ويؤدّي إلى حجرة واسعة ورائعة، يوجد خلفها برج دائري يحتوي غرفة مستديرة مسقوفة بقبة رباعيّة، زُوّدت بنوافذ بارزة بحلي معماريّة وردية الشّكل وأخرى بارزة حول الأقواس. والحصن هو «قلعة الفرسان» kerak of the Knights لتاريخ الحروب الصليبيّة. كان يعود لفرسان المشفى (الإسبتاريّة) Hospitallers، وقد جعله المعلّم الأكبر للمنظمة

The Grand Master of the Order مقرّه. وقام السلطان المصري الملك الظاهر بأخذه منهم وجدّده، ووضع رَنكه الجدل فوق البوّابة الرئيسيّة.

وهو واحد من الحصون العديدة الأكثر مثاليّة التي تشهد على الاختلاط الغريب للحماسة النّبلية والتّعبص والطّموح والجريمة التي اجتمعت لتكوّن تاريخ الحملات الصّليبيّة - وهي صفحة لا تستطيع الأُمّة المسيحيّة التّظر إليها دون أن تشعر بالخجل أو أن تقرأها دون الشعور بالشّفقة العفويّة المنتزعة من شجاعة غير مُجدية. ذلك لأنّ الموت من أجل سبب لا قيمة له هو قمّة الهزيمة. وترتبط قلعة الحصن Kerak إلى حدّ بعيد بفنّ العمارة العسكريّة في جنوب فرنسا، لذلك فهو يحمل آثاراً من تأثيرات شرقيّة حيث أنّ نظامه العظيم غير معيّن، على الرّغم من أنّ فرسان الهيكل خضعوا له على نحو كامل أكثر من فرسان المشفى Hospitallers بكثير. ومثل القلاع العربيّة المعاصرة فإنّ الأسوار تزداد سماكتها كلّما اتّجهت نحو الأساسات لتشكّل منطقة محصّنة منحدرّة من مبنى متين يحميهم من هجوم نقّابي الخنادق، ولكن كانت الأبراج الدّائريّة بتوتّنها الكبير من خط السور فرنسيّة الملامح بشكل كلّّي. قيل إنّ الصّليبيين وجدوا قلعة على قمّة الهضبة وأخذوها من المسلمين، ولكني لم أجد أيّة آثار لعمل أقدم من أعمالهم. تُعدّ أجزاء من البناء الحالي متأخّرة عن أيّام الصّليبيين، وعلى سبيل المثال، هناك بناء ضخّم عند الخندق الدّاخلي نُقشت على جدرانها أشكال أسود لا تشبه الأسود السّليجوقيّة.

نزلت بعد الغداء أخوض في الهضبة الموحلة إلى القرية وعرّجت على بيت الست فريدة وزوجها. كان هناك زوج آخر من المسيحيين، كان الرّجل صاحب الصّندوق، السّذي أعتقد أنّه أمين الصّندوق. تحدث الرّجلان عن أحوال الفقراء في سوريا. قال مسّاح الأراضي: لا أحد يموت من الجوع، وتابع بالقيام بحساب الميزانيّة السنويّة للفلاح العادي. يمكن لأفقر الفلاحين أن يكسبوا من ألف (1000) إلى (1500) قرشاً في السّنة (ما يعادل سبعة إلى إحدى عشرة ليرة إنكليزيّة)، ولكنّه لا يحتاج للتّقود ما عدا ضريبة الرّأس ليشتري بديلاً عنه من أجل الخدمة العسكريّة. ويعدّ اللّحم رفاهيّة غير معروفة؛ ويكلّف برميل السّمن (وهو زبدة دسمة) ثمانية أو عشرة قروش على

الأكثر؛ وهو يساعد في جعل البرغل والحبوب الأخرى مستساغة المذاق، ويبقى عذّة أشهر.

وإذا قلّت الحبوب أو السّمن فعلى الفلاح الخروج إلى الجبال أو إلى المناطق المكشوفة (الخالية من الشّجر) التي ليس لها مالك، ويجمع الأوراق الصّالحة للأكل أو يستخرج الجذور. وهو يبني بيته بيديه، وليس هناك تجهيزات أو فرش في داخله، ولا تكلف الأرض التي يقف عليها أيّ شيء. وفيما يتعلّق بالملابس فماذا يحتاج؟ زوجاً من قمصان من الكتّان، وعباءة صوفيّة كلّ سنتين أو ثلاث سنوات، وشالاً قطنياً للرّأس. نادراً ما يُترك المريض والمسّن دون عناية؛ وذلك لأنّ عائلاتهم تعتني بهم في حال كان لديهم عائلات، وإذا لم يكن لديهم أقارب فيمكنهم دوماً كسب الرّزق عن طريق التّسوّل حيث أنّه في الشّرق لا أحد يرفض أن يعطي شيئاً ما في حال طلب منه ذلك، على الرّغم من أنّ الفقراء نادراً ما يعطون نقوداً.



قلعة الحصن، جدران السّور الدّاخلي

والقليل من الفلاحين يمتلكون أرضاً خاصة بهم؛ فهم يعملون مقابل أجر في ممتلكات الرجال الأغنياء. والدّنادشة Danadishch هم ملاك الأراضي الرئيسيون حول قلعة الحصن، وقد جاؤوا من طرابلس. حتى مدة قريبة لم تكن الحكومة تشغل القلعة؛ فهي تعود لعائلة من الزعبية Z'abieh، التي امتلكتها لمدة مئتي عام. ولا تزال تسكن في بعض الغرف على السور الخارجي. وهنا تدخل أمين الصندوق وقال إنه حتى السكان المسلمون يكرهون الحكومة العثمانية، ويفضلون في النهاية أن يُحكموا من قبل الأجانب، حتى ولو كانوا كفّاراً - مفضّلين الإنكليز، وذلك لأن الرّخاء الاقتصادي في مصر كان له انطباع عميق في أذهان السوريين.



في ذاك المساء أرسل لي القائم مقام رسالة يسألني فيها إذا كنت أرغب في تناول العشاء لوحدي أو أن أشرفه هو وزوجته بالذهاب عندهما، وطلبت منه أن يمنحني الخيار الأخير. وعلى الرّغم من رغبته في أن يكون مضيفاً جيّداً فقد كان حزينا واضح التّأثر وصامتا أثناء المراحل الأولى من تناول العشاء، إلى أن طرّقنا موضوعاً سحبه من ذكرى حزنه. وخرج الموت القوي لينقذنا بكلمات على شفاههم جبرت القلوب الكسيرة لأجيال الإنسانيّة. كان القائم مقام ملماً بشكل جيّد بالأدب العربيّ وكان يحفظ قصائد الشعراء الجاهليين عن ظهر قلب، وعندما وجد بأنّ لديّ معرفة ضئيلة بهم وحبّاً كبيراً لهم أخذ يورد بيتين إثر بيتين. لكن ذوقه الخاص كان مع الشعراء الأكثر حداثة؛ وواضح أنّ المتنبّي من القرن العاشر كان شاعره المفضّل. كانت بعض النار القديمة لا تزال تدخن من شعر المتنبّي وقد اشتعلت مرّة أخرى عند قراءة القائم مقام للقصيدة المشهورة التي يتحدّث فيها عن مُتّع الشّباب:

وفي الجسم نفسٌ لا تشيب بشيّه	ولو أنّ ما في الوجه منه حرابٌ
لها ظفرٌ إن كل ظفر أعده	ونابٌ إذا لم يبق في الفم نابٌ
يغير مني الدهرُ ما شاء غيرها	وأبلغ أفصى العمر وهي كعابٌ
تركنا لأطراف القنا كلّ لذةٍ	فليس لنا إلا بهنّ لعبابٌ

أعزُّ مكانٍ في الدِّنا سَرَجُ سابِحٍ وخيرُ جليسٍ في الأنام كتابُ
ختم القائم مقام كلامه قائلاً: «وسعادتك يجب أن تعطي دون ريب تلك الأبيات
اعتباراً كبيراً».

عندما عدنا إلى غرفة الضيوف سألني فيما إذا كان يستطيع أن يقرأ آخر قصيدة له، التي
نظمها بناء على طلب من طلاب الكلية الأميركية في بيروت⁽¹⁾ (المؤسسة الأكثر شهرة
من نوعها في سوريا) للاحتفال بذكرى سنوية كانوا على وشك إقامتها. قام أولاً بتقديم
رسالة الطلاب التي صيغت بعبارات منمقة ومن بعدها أوراقه من المخطوطة، وألقى
أشعاره بتوكيد لطيف لأسلوب إلقاء شرقي متوقفاً من وقت لآخر ليوضح المعنى التام
لاستعارة أو ليعطي توضيحاً لبعض الأبيات الصعبة. كان موضوعه عن تمجيد التعلّم،
لكنه أنهاها على نحو غير منطقي بمديح مقيت باعث على الغيثان للسلطان، وهي فقرة
كان فخوراً بها بشكل كبير. وبقدر قدرتي على الحكم فلم يكن شعراً عظيماً جداً،
ولكن ماذا في ذلك؟ فليس هناك عزاء في المحنة مثل الكتابة، وخلال أقل من ساعة
كان القائم مقام قد نسي مصيبته ودخل في مناطق لا يوجد فيها لا موت ولا نواح.
قدّمت له تعاطفاً ومديحاً بنقاط مناسبة وضحكت عندما وجدت نفسي أتكلّم الهراء
المعتاد نفسه في العربية والذي اعتدنا أن نفعل مثله غالباً في الإنكليزية. خلت نفسي
جالسة في قاعة استقبال في لندن بدلاً من وجودي بين الجدران العارية لبرج صليبي،
والعالم بعد ذلك كلّهُ، مصنوع من مادة واحدة في كلّ بقعة وكلّ مكان.

(1) كانت هذه الكلية تدعى آنذاك منذ تأسيسها في عام 1866: الكلية الإنجيلية البروتستانتية
Syrian Protestant College ثم تحوّل اسمها إلى: الجامعة الأميركية في بيروت American
University of Beirut وهي أعرق جامعة في بلاد الشام، ومكتبتها هي الأفضل والأوسع
وبخاصة فيما يخصّ المراجع التاريخية النفيسة، ولولا هذه المكتبة (وتعرف باسم: نعمة شديد
يافث) لما كان لي بالإمكان استكمال المصادر النادرة لهذه السلسلة، ومنها هذا الكتاب بالذات.



عرب من الفلاحين

كانت لا تزال تمطر في صباح اليوم التالي، فارتديت ملابسني وتناولت فطوري بنفس كسيرة، ثم كما لو قام أحدهم بتحريك عصا سحرية فانقضت الغيوم، وانطلقنا عند الساعة السابعة والنصف في إشراقة شمس رائعة. عند أسفل منحدر الهضبة حيث تقع القلعة هناك دير إغريقي في وسط أكمة من شجر زيتون. وعندما وصلت إليه ترجلت عن حصاني ودخلت لأحيي رئيس الدير ولا حظت متعجبة! فقد كان من معارفي القدماء وكنت قابلته في دير معلولا قبل خمس سنوات عندما كنت عائدة من تدمر. كان هناك ابتهاج عظيم في تلك الصدفة السعيدة، وتمّ التهام الكثير من المربي والماء والقهوة احتفالاً بذلك.

كان الدير قد أعيد بناؤه فيما عدا كنيسة صغيرة على شكل سرداب ويقولون إنّ عمرها 1200 سنة. دُعمت القبة بزوجين من الأعمدة الرخامية وكسرت عند رأس

العمود وتمت إعادتها داخل الجدار، وهو مخطط غريب أكثر منه جذاب. تأتي تيجان الأعمدة على شكل رؤوس زهر الزنبق من نمط بيزنطي. وتوجد عند حاجز المذبح قطعة من الخشب الحديث محفورة بشكل جيد كما توجد بعض قطع الحجر الفارسية الجميلة. وفي الجدار الغربي للدير شاهدت باباً ضيقاً جداً بين الدعامتين اللتين من الممكن بصعوبة الدخول عبرهما، قال الزهبان إنه من المستحيل لأي شخص فعل ذلك إلا إذا كان نقي القلب. ولم أخاطر بسمعتي لمحاولة تخطي الممر.

تابعنا سيرنا عبر وديان مشجرة ضحلة مليئة بالأزهار؛ كانت أشجار الفاكهة قد أزهرت وأورقت أشجار صريمة الجدي ووقفنا لتناول الغداء عند مقبرة صغيرة جداً تحت بعض أشجار البلوط المتبرعمة. امتدت أمامنا نقطة عvisية من مسيرة يومنا. استطعنا رؤية حصن قلعة صافيتا على التلة المقابلة، ولكن كان هناك نهر فائض بيننا، وكان الجسر قد جرف وأفادت الأخبار بأنه من المستحيل الخوض في النهر. عندما وصلنا ضفاف الأبرش Abrash رأينا النهر يندفع إلى أسفل مجراه العريض، مشكلاً تياراً متواصلاً من المياه المتدفقة والتي لا يمكن لبغل محمل العبور خلالها. سرنا ما يقارب الساعتين نحو أسفل النهر، وبالكاد كنا في الوقت المناسب عند الجسر الثاني، جسر الواد Jisr el Wad، الذي كان في المرحلة الأخيرة من التداعي، حيث كانت القنطرة الوسطى بالكاد متماسكة مع بعضها.

كانت التلال في الضفة المقابلة مغطاة بأشجار خفيضة وقد انتشر بينها السوسن الجميل (Stylosa) منتصباً رافعاً تويجاته الزرقاء، وأفعم المشهد بالحيوية بشكل أبعد بالسير المستمر لنصيرين بتياب بيضاء متجهين إلى الأسفل نحو الجسر. كان معي شرطي كردي اسمه عبد المجيد وكان يعرف الجبال وكل سكانها بشكل جيد. وعلى الرغم من أنه كان مسلماً فلم تكن لديه أية مشاعر سيئة ضد النصيرين، وكان يجدهم دائماً أناساً غير مؤذنين، وحياء كل واحد منهم بتحية ودية عندما مررنا. أخبرني بأن جماعة التياب البيضاء كانت ذاهبة إلى مأدبة جنازية لشيخ عظيم مشهور بتقواه بشكل كبير، وكان قد توفي قبل أسبوع. تُقام المأدبة في مناسبات كهذه بعد يومين من الجنازة،

وعندما يأكل الضيوف الطعام يقوم كل رجل وحسب إمكانيته بدفع مبلغ من المال لعائلة المتوفى يتراوح ما بين ليرة إلى خمس أو ست ليرات. أن تمتلك سمعة مقدسة في جبل التصيرية فذلك أمر جيّد مثله مثل التأمين على الحياة عندنا.

وبسبب دورتنا الطويلة لم نصل إلى صافيتنا إلا عند الساعة الرابعة. رفضت ضيافة قائد الشرطة، ونصبت خيامي على مرتفع من الأرض خارج القرية. كانت القلعة التي كنا قد رأيناها من بعيد هي كل ما قد تبقى من القلعة البيضاء التابعة لفرسان الهيكل. وهي تقع على قمة التلة مع القرية المتجمعة عند سفحها، ومن قممتها يمكن رؤية البحر المتوسط والأجزاء الشمالية للساحل الفينيقي. رأيت عملة فينيقية بين العملات القديمة التي قدّمت لي لشراؤها؛ والتّمثال البرونزي الصّغير لإله فينيقي - كانت صافيتا على الأرجح حصناً داخلياً لأمة التجار. كانت القلعة مفاجأة معمارية بارعة، لم تحتو على قاعة مقنطرة أو حجرة طعام كما يمكن أن يُتوقع، ولكن على كنيسة كبيرة تشغل قلب القلعة. كانت الصلاة قد أقيمت عندما دخلنا وكان الناس كلّهم في صلواتهم بتوهج أحمر من غروب الشّمس الدّاخل عبر الأبواب الغربيّة. ومعظم سكّان صافيتا مسيحيّون، ويتكلّم كثير منهم اللّغة الإنكليزيّة بلهجة أميركيّة قويّة اكتسبوها بينما كانوا يجمعون ثروتهم الصّغيرة في الولايات المتّحدة الأميركيّة. واكتسبوا بالإضافة إلى اللّهجة ألفة ورفع كلفة في الكلام لم تعجّبي وفقدوا بعض السلوكيّات الجيّدة التي نشؤوا عليها.

قام عبد المجيد ضابط الصّف الذّكي بمرافقتي في تجوالي عبر البلدة، منقذاً إياي من قبضات المسيحيين المتأمرّكين، بارماً شاربيه العسكريين الكبيرين في وجه الصّبيان الصّغار الذين فكّروا بالسير خلفنا، ولاحق انسحابهم باقتباسات لأظرف مفردات التّوبيخ التي حظيتُ شرف سماعها.

وفي وقت متأخّر من المساء أعلن عن وصول زائرَيْن وتبين في التّهاية أنّ أحدهما كان ضابطاً (قائد وحدة عسكريّة) والآخر موظّفاً أرسل من قبل القائم مقام في دريكيش للتّرحيب بي ودعوتي لقرية. ذهبنا نحن الثّلاثة معاً في الصّباح الباكر مع جنديّين يسيّران خلفنا، في طريق ملتفّ عبر التّلال، ووصلنا بعد ساعتين إلى وادٍ ملؤه

بساتين أشجار الزيتون، حيث تقع قرية دريكيش على المنحدرات فوقها. وجدنا عند المجموعة الأولى من أشجار الزيتون ثلاثة أشخاص مهمين يرتدون الفراك (سترة رجالية سوداء تبلغ الركبتين) وطرايش ينتظروننا لاستقبالنا؛ وعندما اقتربنا امتطوا جيادهم وساروا في الموكب، الذي ازداد عدده أكثر ونحن نصعد شارع القرية من قبل وجهاء آخرين على ظهور الجياد، إلى أن وصل مجمل عددهم إلى ثلاثين خيلاً. استقبلنا القائم مقام عند باب بيته مرتدياً الفراك ومبتسماً بالترسميات، وقادني إلى قاعة مقابلاته الرسمية حيث شربنا القهوة. وفي ذلك الوقت كانت المجموعة تتألف من ثلاثين شخصاً تقريباً من الأشخاص ذوي الشأن. وعندما انتهى الاستقبال الرسمي أخذني مضيفي إلى بيته الخاص وقدمني إلى زوجته، وهي امرأة دمشقية فاتنة، وتحدثنا حديثاً قصيراً، كوّنت من خلاله معرفة شخصية جيدة عنه.

يدين رضا بك العابد Riza Beg el 'Abid بوضعه الحالي إلى حقيقة أنه ابن عم عزت باشا، حيث لا يوجد أي رجل ينتمي إلى أسرة هذا الرجل المهم إلا وكان له منصب قائم مقام على الأقل. وربما كان رضا بك قد تسلق السلم الوظيفي دون مساعدة؛ فهو رجل يتمتع بصفات لطيفة على نحو استثنائي، معطاء بوفرة مع الذكاء الحاد الذي يتميز به السوربون. والعائلة التي ينتمي إليها هو وعزت من أصل عربي، ويدعي أفرادها بأنهم ينحدرون من قبيلة الموالي Muwali التبيلة، الذين كانوا أنساب هارون الرشيد، وعندما تقابل عزت باشا فمن الأفضل أن تهنته أيضاً لقاربتة بذلك الخليفة، على الرغم من أنه يعرف أنك تعرف بأن الموالي ينكرون ادعاءاته بازدراء ويعدونه من إحدى سلالات عبيدهم كما يدل على ذلك اسمه العبد (الرقيق)⁽¹⁾. وسواء كانوا عبيداً أو أحراراً فإن أفراد أسرة العابد قد ارتقوا على نحو بارع بحيث وضعوا أقدامهم فوق رقبة الأتراك، وسيبقون في ذاك الوضع الخطر إلى أن يسقط عزت من عليائه.

أبدى وجه رضا بك طابعاً جدياً عندما ألمح إلى صلته العالية، وأدرك بأن تلك القوة التي يتمتع بها من قبل عائلته كانت مسألة جدية، وكيف أنه سيكون سعيداً لو انسحب

(1) لم تفهم المؤلفة معنى اسم العابد وظننته العبد، والفارق للقارئ العربي واضح تماماً.

إلى منصب أقل شهرة من منصب القائم مقام! ومن يعرف فربما كان الپاشا يفضل أن يستبدل بمتع القسطنطينية منزلة أكثر تواضعاً وأكثر أماناً - وهو افتراض بإمكانني أن أو من بسهولة أن له أساساً جيداً، وإذا كانت الشائعات صحيحة فإن عزّت قد نال كلّ ما يتوقع الإنسان أن يحصل عليه على نحو معقول في السنوات التي كان يتمتع فيها بالعطف الملكي. أكّدتُ للقائم مقام بأنّ عليّ الإصرار على تقديم احتراماتي للپاشا عندما أصل إلى القسطنطينية، وهو مشروع نفّذته في النهاية بنجاح بحيث يمكنني الآن أن أعدّ نفسي في نفوذ عزت الخاصّ كواحدة ممّن يودّون أن يتمتعوا بدوام صداقته.

في هذا الوقت أصبح الغداء جاهزاً، وانسحبت الخانم وقدم ضيوف آخرون وكان عددهم أربعة، الضابط والقاضي واثنا آخران. كانت مائدة عامرة ووجبة غنية ممتعة. جرى الحديث بمرح حول المائدة، بتعزيز وتشجيع القائم مقام الذي عالج موضوعاً تلو الآخر بسلسلة مصقولة لرجل يعيش العالم. وعندما تكلم كان لديّ سبب لأدرك مرّة أخرى كم هي لطيفة ورقيقة اللهجة العربية السّورية الحديثة عندما تُستخدم من قبل رجل مثقف. كان كلام القاضي مقيّداً بالمكانة المرموقة التي يحوزها كمعلم، والتي ألزمته أن يقيّد نفسه بلغة القرآن.

وقبل أن أغادر، أوضح القائم مقام بأنّي مازلت ضيفته لتلك الليلة. قال إنّهُ علِم أنّني كنت أرغب أن أخيم عند آثار معبد حصن سليمان⁽¹⁾ Husn es Suleiman، وكان قد أرسل قافلتني إلى هناك تحت حراسة ضابط، وأرسل أيضاً خدماً ومؤناً مع أحد أبناء عمّه

(1) حصن سليمان موقع أثري في سوريا على بعد 14 كم من مصيف دريكيش، وهو الاسم العربي للحصن والمعبد واسمه القديم باثيوسي، وعنده أقام سكان جزيرة أرواد (أرادوس) الذين كانوا يسيطرون على جزء كبير من الساحل السوري، أقاموا معبدا لعشتروت وبعل، والحصن عبارة عن سور بحجارة ضخمة ويتوسط المكان هيكل للمعبد الأثري. أنشأه الآراميون عندما استوطنوا هذه المناطق الجبلية الحصينة هرباً من هجمات الآشوريين، وتم تكريسه في البداية لعبادة الإله بيتو خيخي. ثم جدده السلوقيون هيكلاً هليناً قديماً لزبوس، وجده الرومان لعبادة جوبيتر، قبل أن تبنى فيه كنيسة في العهد البيزنطي. أما اسمه الحالي فيعود للسكان المحليين الذين أثارت حجارته الضخمة اعتقادهم أن جرّ النبي سليمان هم من بنوا هذا المعبد وقاموا بنقل الأحجار الضخمة التي تزن أكثر من 70 طناً.

ليسهر على راحتي ومتعتي. كان عليّ أن آخذ الضّابط معي، وراغب⁽¹⁾ أفندي الحلو Rāib Effendi el Helu، وهو شخص آخر من حفلة الغداء، وتمنّى أن أكون راضية. شكرته كثيراً على لطفه، وصرّحت بأنّي تأكّدت من أصله العربي من خلال ضيافته الكريمة.

ارتفع طريقنا إلى قمة تلال النصيرية وتابع على طول القمم، وهو طريق صخري جميل. كانت الهضاب منحدرّة إلى حدّ بعيد، وعارية من كلّ شيء إلا من أعشاب وأزهار، ما عدا أماكن متفرّقة هنا وهناك على القمم الأكثر علوّاً، كانت هناك مجموعة من أشجار بلوط كبيرة مع مزار نصيري بقبة بيضاء تلمع وسط أغصانها الجرداء. ليس لدى النصيريين مسجد ولا كنيسة، لكنّهم يبنون على قمة كلّ جبل مزاراً يشير إلى وجود قبر. وعلى الرّغم من أنّ هؤلاء الأموات المتوجّين عالياً قد غادروا عالم الأحياء فإنّهم لم يتوقّفوا عن أداء أعمالهم الجيدة، حيث أنّهم يُعدّون حُماة الأشجار التي تحيط بأجسادهم، وتبقى هذه الأشجار من بين نوعها وحدها سليمة لا تمسّ.

يقع حصن سليمان Husn es Suleiman عند رأس وادٍ عالٍ في الجبال. ويتفجّر من تحت أسواره نبع صافٍ ويتدفّق حول منبسط من الأرض طبيعي من مرج أخضر عليه نصبنا خيامنا. ترتفع الهضاب على نحو مدرّج خلف المعبد، وينحدر الوادي بشدّة تحته، وتتمتع الآلهة التي كُرّست لها بعزلة الجمال الخرب لمزارها. كُسيّت الأسوار حول مبنى الحرم (Temenos) باللبّاب، وأزهار البنفسج في الشقوق. تقود أربعة مداخل إلى السّاحة، حيث تقع بقايا المعبد في منتصفها، وعلى مساحة قصيرة إلى الجنوب من المصلّى توجد أساسات مذبح، وعليها أحرف يونانية جميلة مخصّصة لثروي كيف قام قائد مئة روماني يدعى ديتشيموس Decimus من فيلق فلافيوس Flavian (?) Legion هو وابناه وابنته بإنشاء مذبح من النّحاس لإله معبد بايتوكايتشه Baitocaicé ووضع على منصّة بناء في عام 444. والتاريخ وفق التّقويم السلوقي Seleucid ويوافق عام 132 للميلاد. ومما يؤسف له أنّ ديتشيموس Decimus لم ير ضرورة ذكر اسم الإله الذي بقي غير محدّد في كلّ النقوش. والمدخل الشّمالي عبارة عن باب ثلاثي يقع مقابل باحة ثانية مستطيلة مسوّرة، وهي

(1) كذا قرأنا الاسم، وكتابتها له بشكل Ra'ib تبقى مبهمّة.

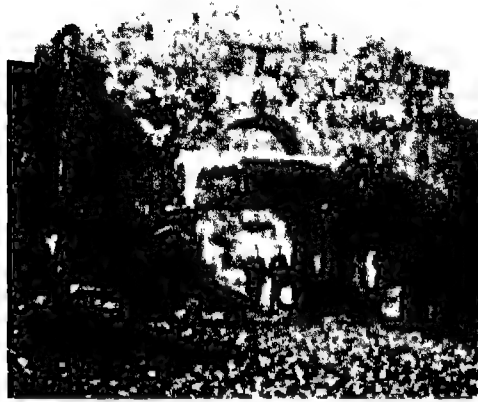
تحتوي معبدًا صغيراً في الأجزاء المقابلة في الزاوية الجنوبية الشرقية، والجزء الثاني نصف الدائري من الحرم في الجدار الشمالي. وربما حمت هذه في النهاية تمثال الإله غير المعروف، وذلك بسبب وجود درجات تصعد إليه وإلى أساسات الأعمدة في كل جانب. وفي بعلبك كرس المسيحيون الموضع لبناء كنيسة تقع في الساحة الثانية عند الزوايا القائمة من الحرم الشمالي. والحجارة التي بُنيت بها الأسوار الخارجية للساحتين كبيرة جداً، فقد يبلغ طول بعض الحجارة أحياناً من ستة إلى ثمانية أقدام.

والتزيينات أكثر بساطة من تلك الموجودة في بعلبك، لكن بعض التفاصيل المحددة تذكر على نحو صريح بالأخيرة والتي أغرتني بأن أؤمن أنه من الممكن أن يكون المهندس المعماري ذاته هو الذي قام بالعمل في المكانين، وأنه هو الذي نحت الجانب الأسفل من الحلي المعمارية للبايتوكايتش Baitocaicē وهي التُسور والملائكة التي استخدمها لتزيين عتبة معبد جوبيتر Temple of Jupiter. يقول الفلاحون إنه توجد أقبية عميقة تحت كل من المعبد والساحة. ويجب أن يكون الموقع يستحق الاستكشاف الدقيق بشكل كبير، على الرغم من أي معلومات إضافية، لن تزيد من جمال المزار العظيم في التلال.



الهيكل في حصن سليمان

لم يقصّر القائم مقام في وعده. فقد أقيمت مذابح للخراف والدجاج وقدمت لنا، وبعد أن أكلنا أنا وأصدقائي جاء دور الجنود والبغالين كل في دوره. وتوهجت نيران المعسكر على نحو متآلق في هواء الجبل الصافي الجاد، كانت السماء حيّة بالنجوم، وتدفق الجدول مقررًا فوق الحجارة؛ وكان كل ما عدا ذلك صامتاً لأنّ كلبتي كُرت Kurt قد ضاع. لقد شرد في مكان ما بين التلال وذهب ولن يعود. فُجعتُ لفقده، لكنني نمت بسلام أكثر من أي وقت مضى.



البوابة الشمالية في حصن سليمان

في اليوم التالي، سار معنا جميع أصدقائي والجنود إلى الحدّ من منطقة دريكيش وهناك تركونا بعد أن أخرجوا نصيرياً بالإكراه من بيته في عين الشمس 'Ain esh Shems وأمروه بمساعدة الضابط الذي رافقنا لإيجاد أفضل طريق صخري إلى مصياف⁽¹⁾ Masyād. وبعد أن ذهبوا استدعيت ميخائيل وسألته عن رأيه في يومنا الممتع، فأعطى مرادفات عربيّة للازدراء في وجهه وقال:

«لابدّ أن جنابك تظنّين بأننا كنّا ضيوف القائم مقام. سأخبرك ضيفة من كنت. لا بدّ أنّك شاهدت أولئك الفلاحين النصيريّة البؤساء الذين باعوك القطع الأثريّة في الخبرة

(1) تصوّر المس بل على كتابة اسم مصياف بالذال، وهو مجردّ تصحيف.

هذا الصّباح؟ لقد كانوا هم مضيفوك. فكلّ ما قدّم لك أخذ منهم دون مقابل. وهم الذين جمعوا الحطب من أجل إشعال النّار، والدّجاجات كانت لهم، وكذلك البيض والحملان كانت من قطعانهم، وعندما رفضت أخذت المزيد قائلة: «لقد اكتفيت»، قام الجنود بالاستيلاء على خروف آخر وحملوه معهم. والمبلغ الوحيد الذي استلمه الفلاحون كان المتاليك التي أعطيتهم إيّاها مقابل نقودهم القديمة. «ولكن إذا سمعت منّي»، تابع ميخائيل على نحو غير منطقي، «عليك أن تسافري عبر أراضي الأناضول دون أن تأخذي ربع مجيدي من محفظتك. وعليك أن تذهبي من قائم مقام إلى آخر، وعليهم أن يستضيفوك في كلّ مكان - هذا النوع من الضيافة لا يتطلّع إلى دفع النّقد، فهم يرغبون من سعادتك أن تقولي كلمة طيّبة بحقهم عندما تذهبين إلى القسطنطينية. وسوف تنامين في بيوتهم وتأكلين على موائدهم، كما حصل عندما سافرت مع ساكس⁽¹⁾ Sacks....».



بوابة المدينة في مصيف

ولكن إذا كان عليّ أن أروي كلّ ما جرى عندما سافر ميخائيل مع مارك سايكس Mark Sykes فلن أذهب أبداً إلى مصيف Masyād.

كان اليوم يوماً جديراً بالذكر بشكل كبير وذلك بسبب صعوبة الطّرقات الاستثنائية

(i) يعني به مارك سايكس.

وبسبب جمال الأزهار. وقد نمت على قمم التلة أزهار بخور مريم الألبية باللون الزعفراني والأصفر والأبيض والأرجواني، وكانت كل المنحدرات مغطاة بأزهار الربيع؛ ونمت في المناطق الأكثر انخفاضاً أزهار السوسن والترجس وأزهار السحلبية باللون الأسود والأخضر، والسحلب الأرجواني، وشقائق النعمان الأزرق متعدد البتلات في أيكة من الآس. عندما وصلنا سفوح المنحدرات الأكثر ارتفاعاً أرسلت التصيري سيئ الحظ إلى بيته مع منحة بسيطة، وكانت مقداراً كبيراً أكثر مما توقع بالنسبة لمغامرة كان قد بدأها بأمر من الجندية. وصلنا مصيف في الساعة الثالثة وخيمنا عند سفح القلعة.

كانت مصيف Masyād مخيية للأمل. فقد كان هناك في الواقع قلعة كبيرة، ولكن حسب تقديري، فهي من عمل العرب وكذلك كانت الأسوار حول البلدة. يمر طريق روماني من حماة عبر مصيف، ولا بد أن يكون هناك آثار رومانية باقية في البلدة، لكنني لم أر شيئاً. ولقد سمعت بقلعة في أبوقبيس Abu Kbesh على قمة التلال ولكنها، كما قيل، تشبه قلعة مصيف، لكنّها أصغر فحسب، ولم أصدع إليها. ولقلعة مصيف سور خارجي وحصن داخلي يتم الوصول إليه عبر ممر مقنطر مثل ذاك الذي في قلعة الحصن. والحصن القديم مهذّم تقريباً، واستُبدل بقاعات وغرف مبنية على نحو تعوزه المتانة من قبل الإسماعيليين قبل بضع مئات من السنين عندما احتلوا المكان، هكذا أخبرني رجل مسنّ يدعى الأمير مصطفى ملحم الذي ينتمي إلى الطائفة وعمل كدليل لي. قال أيضاً إنّ عائلته كانت قد سكنت القلعة لمدة سبعمئة أو ثمانمئة عام، ولكن من المحتمل أنّه كان يكذب على الرغم من أن الإسماعيليين في الحقيقة كانوا قد قطنوها منذ هذه المدة. وقد بُنيت في البوابات الخارجية بعض تيجان أعمدة وأعمدة لا بد أن تكون قد أخذت من الأبنية البيزنطية. وتوجد بعض النقوش العربية القديمة داخل البوابة الثانية والتي تسجل أسماء بناء ذاك القسم من التحصينات، لكنّها كانت مهشمة.



تاج عمود في مصيف

أخبرت فيما بعد بأنه عليّ أن أزور مكاناً يدعى دير الصليب Deir es Sleb، حيث يوجد هناك كنيسة قديمة وقلعة صغيرة. وهو غير محدد في الخارطة، ولم أسمع أي شيء عنه إلى أن أصبح خلفي بمسافة بعيدة. شاهدتُ قطعاً من الرصيف، الطريق الروماني، عندما سافرت في اليوم التالي إلى حماة. وعند الجسر الذي يقع فوق نهر السارود⁽¹⁾ Sarut، الذي يبعد أربع ساعات ونصف عن مصيف، توجد رابية ملفتة للنظر مقابل القمة ذاتها بجدار خشن مبني من حجارة كبيرة. وجد ميخائيل عملة نقدية رومانية في أحاديدها عند سفح التلة. ومن النهر كان أمامنا ساعتان ونصف من سفر ممل حيث كنا أصبحنا أكثر إشراقاً بوجود تركي مسنّ جذاب، وهو موظف تلغراف انضم إلينا عند الجسر وأخبرني قصته ونحن نسير.

«أفندم، موطن أسرتي قرب صوفيا Sofia. أفندم، أنت تعرفين المكان؟ ما شاء الله إنها أرض رائعة! وحيث كنت أسكن كانت الأرض مغطاة بالأشجار، وأشجار الفاكهة

(1) السارود مصطلح آرامي شائع في أرياف سوريا والعراق، ومعناه: مجرى مائي موسمي تجري فيه المياه في الشتاء من الينابيع أو مباشرة من المطر، ويجف في الصيف.

وأشجار الصنوبر في الجبال وحدائق من الورد في السهل . أفندم، الكثير منّا جاء إلى هنا بعد الحرب مع المسكوف Muscovite بسبب أننا لم نقبل أن نقيم تحت أية يد إلا يد السلطان، وعاد الكثير منّا مرة أخرى بعد أن جاؤوا. أفندم؟ ما هو السبب؟ فهم لا يمكن لهم أن يعيشوا في بلاد ليس فيها أشجار؛ بالله، هم لم يستطيعوا تحملها».

عند هذا الحدّ من الحديث وصلنا حماة.



تاج عمود في مصيف

* * *

الفصل العاشر

أنت لا ترى حماة إلا عندما تصبح عندها تماماً - وليس هناك عبارة أخرى يمكن أن تصف الوضع للقادم الجديد. فالعاصي يتدفق في تلك النقطة بقاع عميق وتمتد المدينة كلّها مختبئة بين ضفافه. تمتد أمامك حقول الحبوب في السهل الرئيسي دون انقطاع إلى أن تصل إلى تشابك مقابر حقيقي - عندما وصلنا كان عيد الموتى الأسبوعي قد عاد مرة أخرى، وكانت المقابر محتشدة بالأحياء كما هي محتشدة بالأموات. انقطع السهل فجأة تحت أقدامنا، ووقفنا على حافة جرف والمدينة كلّها ممتدة أمامنا، يسير العاصي مع عجالات (نواعير) فارسيّة⁽¹⁾ ضخمة، وتوجد خلفه التلة المخروطيّة التي تقع عليها قلعة حماة وإيفانيا Epiphancia ومن يعلم ماذا يوجد بالإضافة إلى ذلك، حيث يعتبر الموقع أحد أقدم المواقع في العالم.

(1) تصرّ المؤلفة على تسمية النواعير بالعجلات الفارسيّة، بينما هي ابتكار آرامي صرف يعود إلى ما قبل الميلاد، والآراميون هم السكّان الأصليون لسوريا. وأقدم صورة للناعورة نجدها في لوحة من الفسيفساء يعود تاريخها للقرن الرابع قبل الميلاد، وقد تم العثور عليها في مدينة أفاميا الأثرية بالقرب من حماة، وهي موجودة اليوم في حديقة المتحف الوطني بدمشق.



ناعورة في حماة

برز جنديان من الأرض ووقفوا قربي ليوجهاني إلى أرض للتخييم، ولكني كنت متعبة ونزقة، وهي حالة ذهنية تحدث أحياناً في الترحال، وبدت المواضع الجافة بين البيوت حيث أخذانا كريمة بشكل واضح. وأخيراً أعلن التركي الرائع، الذي لم يكن قد تركنا بعد، بأنه يعرف مكاناً جميلاً يمكن أن يسرني؛ قادني على طول حافة الجرف إلى النهاية الشمالية القصوى من المدينة، وهنا أرانا مرجاً معشياً كان موقعاً جميلاً كما نرغب. يخرج العاصي من المدينة الواقعة تحتنا وسط بساتين من أشجار مشمش مزهرة، وتمتد أشعة الغروب الذهبية خلف المآذن، وترتفع ناعورة ضخمة عالياً بأغنية جميلة للنهر.

تعدّ حماة النهاية الحالية للخط الحديدي الفرنسي⁽¹⁾، وهو مركز المتصرف. أمدني الخط الحديدي بدليل ومرافق في شخص رئيس المحطة السوري، وهو رجل ضئيل الجسم جاهل ومغرور كان قد تعلّم في مدرسة تبشيرية واحتقر التحدث بالعربية عندما يستطيع أن يتأتى بالفرنسية. أعلن أنّ اسمه هو السيد كبس Kbes وأنّ هوايته علم الآثار، ولأنّه يمكن

(1) كتبت المؤلف: سوف تبقى الحد النهائي لمدة شهر أو شهرين فقط ثم سيمد الخط حتى يصل إلى حلب.

أن يثبت نفسه ليكون الأفضل في مجال الفكر الحديث، فقد نسب كل قطعة أثرية في حماة إلى الحثيين Hittites، سواء كانت رأس عمود بيزنطي أو مخرمة تزيينية عربية.

اصطدمت مع المتصرف فوراً بسبب إصراره على أن يزودني بثمانية جنود ليقوموا بحراسة مخيمي في الليل، وهي قوة منافية للعقل، آخذة بعين الاعتبار بأنني كنت أكتفي بحارسين في كل المناطق الريفية. لذا يمكن أن تكون كثرة الحراس أمراً مزعجاً بشكل لا يحتمل، وذلك لأنهم سوف لن ينقطعوا عن الكلام طوال الليل ولن يعرف المخيم الهدوء، فقد صرفت ستة منهم على الرغم من احتجاجهم بأنه يتوجب عليهم إطاعة الأوامر العليا. وقد وفقوا بين أوامر المتصرف وبين رغبتني وذلك بقضاء الليلة في مسجد مهدم على بعد ربع ميل، حيث استطاعوا الاستمتاع باستراحة ممتازة متحليين من المسؤولية.



القبة في مسجد حماة

أما بالنسبة للجمال الطبيعي فلا يمكن لأي مدينة في سوريا أن تتفوق على حماة. حيث يُعدّ النهر العريض بنواعير مائه عنصر جمال متواصل، وتُعدّ أبراج المساجد المخططة بالأبيض والأسود مظهرًا رائعًا من العمارة الهندسية، والطرق الضيقة

المقبة إلى حد ما مصائد لإمساك تأثيرات الشمس والظل منقطعة النظير، والأسواق التي لم تشوه بعد بالأسقف الحديدية كما فعل بشكل كبير في دمشق وحمص مما شوه خصوصية تلك الأسواق.

كان الجامع الكبير في مركز المدينة كنيسة بيزنطية. وكان يسهل تلمس آثار أبواب ونوافذ البناء القديم في جدران المسجد؛ ومن المرجح أن القسم الأسفل من المئذنة الغربية كان قاعدة برج قديم؛ والساحة مليئة بأعمدة بيزنطية وتيجان أعمدة، ودُعمت القبة الصغيرة الجميلة بثمانية أعمدة كورنثية، والتي لاحظت على واحدة منها المؤثر البيزنطي في زخرفة أوراق الأقتنا المفتحة. عندما كانت هذه النباتات أضعف من أن تبقى الأوراق في قالب عمودي، فقد قام النحاتون بمدّها برفق حول رأس العمود، وكأنّ الأوراق قد التوت بفعل الريح، وكان التأثير جميلاً بشكل رائع وغريب.

تسلّقت أنا وكيس Kbes تلة القلعة ووجدنا أن مساحة القمة كبيرة، ولكن كانت حجارة التحصينات المقطوعة كلّها قد نقلت واستخدمت في بناء البلدة في الأسفل. وانطباعي هو أن عزلة التلة لا يُعدّ أمراً طبيعياً، لكنّه جرى بالحفر عبر الأرض الرأسية والتي تتأ نحو الخارج في الوادي، وبذلك تفصل جزءاً منها عن سلسلة التلال الأساسية. وإذا كان هذا ما حصل فعلاً فلا بدّ أنّه عمل عظيم من أعمال العصور القديمة، ذلك لأنّ الخندق عريض وعميق.

كانت الفائدة الرئيسية في ذلك اليوم في حماة قد تمت من قبل السكّان. تتمتع أربع عائلات مسلمة قوية فقط بمكانة ارسقراطية في البلدة وهي: عظم زاده 'Azam Zadeh'، طيفور Teifur، الكيلاني Killani، البرازي Barazi، وقد قابلت أحد أفراد العائلة الأخيرة في دمشق. ربّما يصل مجموع الدّخل السنوي لكل عائلة إلى ما يقارب ستّة آلاف ليرة ذهبية (جنيهاً)، وهذا يأتي كلّ من الأرض والقرى، حيث توجد حركة تجارية صغيرة في حماة. وقبل أن تكون الحكومة العثمانية قد وطّدت سلطتها كما هي الآن، كانت هذه العائلات الأربع هي سادة حماة والمناطق المحيطة؛ ولا تزال تحتفظ بشأن معتبر في إدارة البلدة، ويترك لهم موظفو السلطان تقريباً التصرّف وفق طريقتهم الخاصة، والتي هي ملتوية غالباً.

هناك قصّة شريرة قديمة تروى كثيراً عن آل عظم زاده 'Azam Zadeh'، ولا أحد ينكرها من قبل العائلة على حدّ علمي. كان هنا فيما مضى رجل من آل العظم انتهى مثل الملك آحاب Ahab كرم جاره لكنّ مالكه رفض بيعه له⁽¹⁾، وعليه قام الرجل العظيم بوضع مكيدة. لقد أمر بقتل أحد عبيده وقطّعه إلى قطع صغيرة ودفنه على نحو غير عميق جدّاً في زاوية من المُلْكِيّة المشتهاة، وبعد انتظار مدّة مناسبة قام بإرسال رسالة إلى مالك الأرض قائلاً: «لقد دعوتني كثيراً لشرب القهوة معك في بستانك؛ وسوف آتي. كن جاهزاً». سرّ الرجل بتلك الملاطفة وجّهز مأدبة. جاء اليوم الموعود ومعه السيّد من آل العظم. كانت المائدة قد مُدّت تحت تعريشة، ولكن عندما رآها الضيف أعلن أنّ المكان المختار لا يناسبه، وذهب مباشرة إلى المكان الدقيق حيث كان عبده قد دُفِن. احتجّ المضيف قائلاً بأنّها كانت زاوية وضيفة قريبة من أكوام النّفاية، لكن ابن العظم ردّ بأنّه كان مرتاحاً، ثمّ بدأ بتناول الطّعام. فجأة رفع الضيف رأسه وقال: «أشم رائحة كريهة»، قال المضيف: «يا سيّدي إنّها من أكوام النّفاية». «لا»، قال الآخر: «هناك رائحة أخرى»؛ ثمّ استدعى خدمه وأمرهم بحفر الأرض التي يجلسون عليها. ظهر جسد العبد المقسّم إلى أرباع وتمّ التعرّف إليه، ووجّه الاتّهام بالقتل إلى صاحب البستان واعتُقل وأخذت ممتلكاته من قبل السيّد العظم على سبيل التّعويض.

(1) القصة معروفة في التوراة، سفر الملوك الأول، 22-21: كان للملك آحاب بن عمري ملك السامرة، جازراً اسمه نابوت البزريعي وله كرم بجوار قصر الملك، فأراد آحاب أن يضّمّه إلى قصره ويجعله بستاناً، وطلب شراءه من نابوت بثمان غال من الفضة. فأبى الرجل، فعمدت زوجة الملك إيزابل الصّيدونية (وهي من عبدة البعل) إلى حيلة أنّها أرسلت إلى شيوخ بلدة نابوت وطلبت منهم أن يتهموه بالتجديف إلى الله والملك وجرّمه عقاباً له مع أبنائه، ففعل الشيوخ ذلك وحاكموه بتهمة التجديف ثم حملوه إلى خارج البلدة وجرّموه وأبنائه. فأخبرت إيزابل الملك فقام إلى الحقل واستولى عليه، لأن العادة كانت أن يستولي الملك على ميراث الأموات الذين لا ورثة لهم. فغضب الله على آحاب وإيزابل، وأمر النبي إيليا أن يذهب إلى آحاب وهو في الحقل ويقول له: «في المكان الذي لحسّ فيه الكلاب دم نابوت، تلحس الكلاب دمك أنت أيضاً».



نكية الكيلانية في حماة

قال كيبس Kbes: ولم تتوقف هذه الطرق المنافية للعدالة حتى الآن. فمنذ مدة قريبة جداً سُرقت كمية من البصل من دكان يخصّ عبد القادر العظم في الحي الذي يقع تحت مخيمي مباشرة. فجاء خدام عبد القادر إلى بيت شيخ الحارة وطلبوا منه ممتلكات سيدهم، وطالما أنه لا يعرف أي شيء حول القضية ولم يستطع أن يدلّ من يمكن أن يكون السارق، فقد قاموا باعتقاله هو وابنه، وجرحوا الابن برصاصة في يده، ثم سحبوا الاثنين إلى ضقة النهر، وقاموا بتعريتهما ثم ضربوهما حتى شارفا على الموت، ثم تركوهما ليعودا إلى البيت بشقّ الأنفس. انتشرت الحادثة في جميع أرجاء حماة، ولكنّ الحكومة لم تأخذ أيّ خطوة لمعاقبة عبد القادر.

ذهبتُ إلى منزل خالد بك العظم الذي يُعدّ أجمل بيت في المدينة، وهو بجمال بيت العظم المشهور في دمشق. أدخلني خالد إلى الغرف التي كانت كل بوصة فيها

مغطاة بتزيينات متنوّعة بنماذج فارسيّة بجصّ فضي وأشغال خشبيّة وفسيفساء. فتحت هذه الغرف على ساحة محاطة برواق مقنطر من أفضل الأعمال العربيّة، مع نافورة في الوسط وأحواض من الحوذان المزهر والتّرجس في الزّوايا. ولنساء بيت العظم سمعة في المدينة، ربما أكثر من سمعة جمال القصر الذي يضمّهن؛ إذ يقال إنهنّ أجمل النساء في حماة كلّها.

زرت عائلة الكيلاني أيضاً في منزلهم السّاحر عند نهر العاصي، والتّكية الكيلانيّة. وهي تحتوي على ضريح، دُفن فيه ثلاثة من أجدادهم، وغرف تطلّ على النّهر تصخب بدمدمة دولاب فارسي⁽¹⁾ (ناعورة). وذهبت من هناك لزيارة المتصرّف، الذي كان رجلاً مسنّاً محنّي الظهر ولا يتكلّم سوى اللّغة التّركيّة. وارتحت إلى حدّ بعيد عندما وجدت أنّه لا يحمل أيّ حقد تجاه تصرّفني العنيد في قضيّة الحرس.

وفي طريقنا إلى الغداء قابلنا أفغانياً هزّماً مرتدياً ثياباً بيضاء. كان اسمه درويش أفندي Dervish Effendi. أوقف ناظر المحطّة ليسأل عنيّ من أكون، وعندما علّم بأنّي إنكليزيّة اقترب متي بابتسامة عريضة وحيّاني وقال بالفارسيّة: «الإنكليز والأفغان أصدقاء حميمون». وقد كان في الحقيقة يعرف مثلما يعرف الشعب الإنكليزي - وربما يعرف أكثر - عن تبادل الزّيارات والمجاملات بين كابول Kabul وكالكوّتا Calcutta؛ والمغزى من هذه الحادثة العرضيّة (التي تطوّرت إلى زيارة طويلة ومتعبة ولكن ودّيّة من درويش أفندي) هو التّقرير الذي يبيّن أنّ ما يحصل في أبعد بقعة من آسيا يُعرف تقريباً فوراً في أبعد نقطة في الجهة الأخرى، ولا أبالغ إذا قلت أنّه إذا عبر فوج إنكليزي على الحدود الأفغانيّة فإنّ السّائح الإنكليزي سوف يتعرّض للسّخرية في شوارع دمشق.

والإسلام هو الرّباط الذي يوحد الأجزاء الغربيّة مع الأجزاء الوسطى من القارّة، كما لو أنّه التّيّار الكهربائي الذي تُنقل بواسطته العواطف على نحو فعّال، وتزداد فعاليته في

(1) ذكرنا أعلاه أن النّاعورة ليست عجلة فارسيّة، بينما هي ابتكار آرامي صرف يعود إلى ما قبل الميلاد، والآراميون هم السّكان الأصليون لسوريا.

الحقيقة بسبب أنه لا توجد مشاعر قومية محلية يمكن أن توازيه. فعندما يقول تركي أو فارسي «بلادي» فإنه لا يفكر بالطريقة نفسها التي يفكر بها إنكليزي أو فرنسي؛ لأنّ وطنيته مقتصرة على البلدة التي هو مواطنها، أو على الأغلب على المقاطعة التي تقع فيها بلدته، وإذا سألته إلى أيّ قومية ينتمي سيردّ قائلاً: «أنا شخص من أصفهان»، أو «أنا من قونية»، كما هي الحال عندما سيجيب السوري بأنّه مواطن من دمشق أو حلب - ولقد أشرت سابقاً بأنّ سوريا هي مصطلح جغرافي فحسب لا يربط أهلها أي شعور وطني سوري في صدورهم.

وبالتالي فمن يستمع إلى حديث الناس في الأسواق، وأصحاب المحلات الذين تربط تجارتهم بشكل أساسي بالظروف المحلية في مناطق بعيدة جداً عن بلادهم، أو يستمع إلى البغاليين الذين يحملون أكثر بكثير من طاقة دوابهم من البضائع من مدينة إلى مدينة، وتبدو قارة آسيا كلّها مرتبطة معاً بسلاسل دقيقة من القرابة، وكلّ عمل بسيط من السياسات الخارجية لأوروبا، من الصين إلى حيث ترغب، ستكون له أهميّة كبيرة أو قليلة على نحو دقيق في ميزان الرّأي العام. وليس من مهمّة المتجولين أو سامعي الشائعات أن يستخلصوا النتائج. وليس بإمكاننا سوى كتابة التقرير لأيّ شخص يهتم أن يستمع لما يقوله هؤلاء الذين يجلسون حول نيران مخيمنا، أو من يسرون معنا عبر الصحاري والجبال، حيث أنّ كلماتهم تشبه القش الذي يطفو على فيض السياسات الآسيوية، مظهرًا مسرى التّيار. وتعرّف عليهم الخبرة الشّخصيّة من خلال البضائع التي يتاجرون بها والمفردات المستعملة في فن إدارة شؤون الدّولة. وهم معتادون على الحرب والتّفاوض والوساطة وفي الرّعاية الطويلة والانتقام المخفي بعناية. وسواء كانوا يناقشون نتائج العداوة الدّمويّة أو نتائج الحسد الدّولي فإنّ تقديراتهم تكون صائبة غالباً وظنونهم قريبة من النّقطة المطروحة على بساط البحث.

بالنسبة للحظة الرّاهنة، وحسب المدى الذي وصلت إليه خبرتي، فإنّ اسم الإنكليز يحمل ثقلاً أكثر ممّا كان عليه في أيّ وقت مضى. وقد لاحظت اختلافاً واضحاً بين الموقف العامّ متاوين الذي لاحظته بألم قبل خمس سنوات، من خلال أسوأ اللحظات

من حرب البوير Boer. ولم يكن اختلاف المشاعر نحونا، حسب ما استطعت أن أحكم من خلال الأحاديث التي سمعتها، بسبب انتصارنا في جنوب أفريقيا، بقدر ما يعود لإدارة اللورد كرومر Lord Cromer الرائعة في مصر، وسياسة اللورد كرزون Lord Curzon في الخليج العربي، والتّحالف مع اليابانيين المنتصرين.



تاج عمود في مسجد حماة



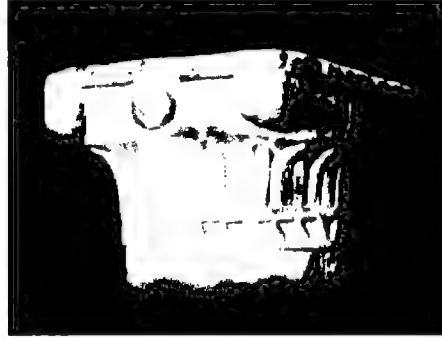
عندما تخلصت أخيراً من الأفغاني وجلست وحدي على حافة المرعى الذي يفصل خيمتي عن المدينة الواقعة في الأسفل على بُعد مئات الأقدام، تقدّم شخص مهمّ بعربته ليقدم احتراماته. كان هذا الشخص هو المفتي محمّد أفندي. وكان قد أحضر معه رجلاً ذكياً من بصرى الحرير Bosra el Harir في حوران وكان قد سافر إلى قبرص ولديه الكثير ليقوله (منها أشياء جيّدة قليلة) حول إدارتنا هناك. كان المفتي رجلاً من نمط قاضي حمص والشيخ نقشبندي نفسه: العيان الحادّتان والذكاء الآسيوي الحادّ الذي تميّزه ملامح مشوهة إلى حدّ ما بدهاء يعادل المكر. أجلس نفسه على أفضل كرسي في المخيم، وأبدى ملاحظة بنوع من الرضا:

«سألت: هل تستطيعان أن تتكلّما العربيّة؟ وعندما أجابا بنعم أمرت فوراً بتجهيز عربتي وقدمت».

كان كلامه عن اليَمَن، حيث كان قد أُرسِل قبل بضع سنوات ليعيد السّلام بعد الثّورة العربيّة الأخيرة. تحدّث عن رحلة الثلاثة أيّام من السّاحل في الصّحراء الحارّة المتّقدّة، وعن الجبال الدّاخليّة المغطّاة بالأشجار حيث تهطل الأمطار هناك دوماً صيفاً وشتاءً، وعن عناقيد العنب الضّخمة المعلّقة في الكروم، وعن التّنوع اللّانهائي للفواكه في البساتين، وعن المدن الكبيرة مثل دمشق المحاطة بتحصينات طينية ضخمة تعود لألف سنة. قال إنّ العرب كانوا سكّان مدن وليسوا بدواً، وقد كرهوا الحكومة العثمانيّة كما هي مكروهة في عدّة أماكن. وعندما خرجت جنود السّلطان ضدهم كانوا معتادين على الفرار إلى الجبال، حيث يستطيعون تحمّل المكوث فيها عدداً غير محدّد من السّنين حسب رأي المفتي؛ ولكنّه كان على خطأ، فقد كانت شهور قليلة كافية ليحرز جنود السّلطان النّصر، وقد تميّزوا بالجسارة والقدرة على تحمّل المسير في الصّحراء. والثّورة التي أخفقت مثلها مثل ثورات عديدة غيرها، بسبب أنّ القبائل العربيّة تكره بعضها بشكل مرير أكثر من كرهها للعثمانيين. ولكن، بعد إخمد الثّورات في تركيا، عادت واندلعت الثّورة مرّة أخرى. أخبرني المفتي أيضاً بأنّهم يجدون في أيّ مكان يحفرونه في حماة أساسات قديمة، حتّى تحت مستوى النّهر.

تبع المفتي صديقي موظّف البرق التركي الذي ابتهج برؤيتي مخيّمه بشكل جيّد، ثمّ تبعه المتصرّف مواصلاً قلقه وتقدّم مترنحاً في مركبته عبر حبال خيمتي. أعارني المتصرّف عربته الشّيكتوريّة حيث يمكنني زيارة أجزاء المدينة التي تقع على الضّفاف الشّرقية لنهر العاصي، وركبت العربة أنا وكبيس مع اثنين من المرافقين كانا لا يرتديان على نحو استثنائي أسماًلاً بالية. يُدعى الحيّ الشّرقى بالحاضر Hādir، وهو الحيّ البدويّ بشكل أساسي؛ وتقنّعت المدينة العربيّة هنا بالكلام الصّحراوي القوي، والأسواق تعجّ بالعرب الذين جاؤوا لبيع القهوة والتّبغ والعباءات المخطّطة. يوجد مسجد متهدّم صغير يقال إنّهُ سلجوقي يسمّى مسجد الحيات Hayyāl، بسبب أعمدة نوافذه الملتوية. وتوجد عند النّهاية الشّمالية للفناء غرفة تحوي تابوتاً من الرّخام لأبي الفداء أمير حماة، العالم الجغرافي المشهور، الذي توفي في عام 1331 م؛ وقبره منحوت بنقوش جميلة تسجّل التّاريخ وفق التّقويم الهجري.

أقمْتُ دعوة عشاء في تلك الليلة لناظر المحطة، والطبيب السوري سلّوم⁽¹⁾، والكاهن اليوناني. تجاذبنا الحديث حتى وقت متأخر من الليل، وكان حديثاً أنيساً ممتعاً. كان سلّوم قد تلقى تعليمه في الكلية الأميركية في بيروت، التي منها يأتي جميع ممارسي مهنة الطب كباراً وصغاراً، الذين ينتشرون في جميع أنحاء سوريا. لقد كان مسيحيّاً، ولو أنّه من طائفة مختلفة عن طائفة الكاهن، ويمثّل كبيس Kbes أيضاً طائفة دينيّة أخرى⁽²⁾. قال الكاهن: إجمالاً هناك شعور بسيط معادٍ للمسيحيّة في حماة، وكان هناك أيضاً احترام قليل لثيابه؛ حيث أنّه في ذلك اليوم عندما كان يمشي عبر شوارع البلدة قامت بعض النساء بإلقاء الحصى عليه من سطح منزل، مع بعض الكلمات الجارحة.



تاج عمود في حماة

- (1) هو توفيق بن ناصيف بن نعمة بن سليمان سلّوم. كان طبيباً معروفاً، ولد في حماة 1872 وكان أبوه قد حلّ بها قادماً من حمص (أو محرّده) قبل مدة قصيرة. درس الطب في الكلية الإنجيليّة في بيروت SPC ونال شهادتها، أسره البريطانيون في الحرب العالميّة الأولى بفلسطين، ثم أطلق سراحه ليعمل طبيباً هناك. وبعد ذلك عد إلى النوض عدم 1919 وعُيّن طبيباً في حماة وأسس مستشفى صغيراً نما مع الزمن. وبعد ذلك أصبح رئيس أطباء حماة، ونال عدداً كبيراً من الأوسمة. وتوفي عام 1956. كما كان الرّجل شاعراً وله ديوان صغير طبع في عصرنا. ومعنى ذلك أنّ لقاء المس بل به في حماة كان إبان شبابه وله من العمر 33 عاماً.
- (2) ينتمي توفيق سلّوم إلى الطائفة الأرثوذكسيّة. بينما الكاهن اليوناني يمثّل طائفة الرّوم الأرثوذكس، والمفترض أنّها ذات الطائفة التي ينتمي إليها سلّوم، إلا إنّ كانت تشير إلى طائفة السريان الأرثوذكس. أمّا كبيس فيبدو من كلامها أنّه كان من الكاثوليك.

وناقش كبيس Kbes المنافع المكتسبة من سكة الحديد (وهي مؤسسة سيئة الإدارة على نحو ملفت للنظر كما أتخيل) وقال إن حماة من دون شك قد انتفعت منها. ارتفعت الأسعار في السنتين الأخيرتين، ومن ناحية أخرى فإن اللحم الذي لم يجد سوقاً له يُرسل الآن إلى دمشق وبيروت، وهو نفسه عندما جاء أولاً كان قادراً على شراء خروف بفرنك واحد وهو الآن مضطر لدفع عشر فرنكات.

زودني متصرف حماة بأفضل ضابط حصلت عليه في كل رحلاتي، وهو الحاج محمود Hajj Mahmud، مواطن من حماة. إنه رجل طويل القامة عريض المنكبين، كان في حرس السلطان الخاص في القسطنطينية، وقام بأداء الحج ثلاث مرّات، مرّة كحاج ومرّتين كجندي مرافقة. ركب برفقتي عشرة أيام، وأخبرني خلالها من القصص ما يملأ مجلداً كاملاً، يصوغها بكلام جميل مثير للصور الذهنية حيث كان أستاذاً في ذلك. كان قد سافر مع عالم آثار ألماني، وتعلّم الميول الغربية للأوروبيين في قضية الآثار والنقوش.

قلتُ له عند قلعة المضيق Kal'at el Mudik: «إذا كنت تريد أن تنظر إلى حجر برسم حصان مع راحبه نُقش عليه، بنور الله! أستطيع أن أريك إياه!» تعجّب كثيراً بسبب ذلك، وكافأني بمبلغ من المال. «بالله وبمحمد نبيّ الله! أنت أيضاً يا ستّ، عليك أن تحدّقي فيها».

والآن فإنّ مأثرة محمود هذه كانت لافتة للنظر أكثر مما يمكن أن يظهر عند النظرة الأولى، لأنّ إحدى الصّعوبات الكبيرة في البحث عن القطع الأثرية القديمة تكمن في أنّ الأشخاص في الأماكن البعيدة لا يميّزون النقش عندما يرونه. ولن تدهش إذا علمت بأنهم سيخفقون في الكلام عن الفرق بين النقش وبين الصّدوع الطّبيعيّة وبين تأثير الطّقس على الأحجار؛ ولكنك تفاجأ عندما تسأل فيما إذا كان يوجد أحجار عليها صور رجال وحيوانات، وسيجيب محدّثك قائلاً: «والله! لا نعلم كيف تكون صورة رجل». وفضلاً عن ذلك، فإنّك إذا أريته كسرة من نقش بأشكال منحوتة بدقّة عليها،

وكما هو الغالب فلن تكون لديه أية فكرة عما يمثله النقش.

ولكن كان رفيق محمود الرَّحالة الأكثر ذكراً على لسانه يابانياً وكان قد أُرسِل من قبل حكومته، كما علمت فيما بعد، ليدرس ويكتب تقريراً عن طرق البناء المستخدمة في الأجزاء الشرقيّة من الإمبراطوريّة الرومانيّة - وكيف وجد الباحثون اليابانيون وقت فراغ ليشغلوا أنفسهم أثناء احتدام الحرب. ولقد استثير فضول محمود بوضوح بالرجل الضيّل، الذي كان بنو وطنه ينتزعون التّصر من الرّوس الفزعين.

«كان يركب طوال النّهار، ويكتب في كتبه طوال اللّيل. ولم يكن يأكل شيئاً إلّا قطعة من خبز ويشرب شايّاً، وعندما كانت تعترضه قضيّة رفض كان يقول: نو، نو، Noh! Noh!»
لأنّه لم يكن يتكلّم لا العربيّة ولا التّركيّة) وهذه كلمة فرنسيّة»، هكذا ختم محمود كلامه.
لاحظت بأنّها لم تكن كلمة فرنسيّة وإنّما إنكليزيّة، وقد أعطت محموداً مادّة للتّفكير، وذلك لأنّه أضاف حالاً:

«لم نكن قد سمعنا باسمهم قبل الحرب، ولكن ولوجه الحقيقة! كان الإنكليز يعرفونهم».



يشكّل نهر العاصي نصف دائرة بين حماة وقلعة شيزر (سيجر) Kal'at es Seijar، وسرنا عبر وتر القوس، راكبين عبر السّهل المحروث الممّحل ذاته الذي عبرته في طريقي من مصياف Masyād. كانت القرى المبنية بالطّين والأكوخ التي تشبه خلايا النّحل منثورة فوقه؛ ولقد قابلنا مثل هذا الطّراز من القرى المقيّبة على السّهل طوال الطّريق إلى حلب، وهي لا تشبه أيّاً من القرى الأخرى فيما عدا تلك التي تظهر في الصور الإيضاحيّة لكتب الرّحلات في أفريقيا الوسطى. عندما يزداد غنى الشّخص يضيف خليّة أخرى ثمّ أخرى لبيته، إلى أن يصبح لديه ربّما درّينة أو أكثر من الخلايا تتوضع حول الفناء، وتكون بعضها لسكناه هو وعائلته، وبعضها لماشيته، وتشكّل واحدة منها مطبخه، وواحدة مخزناً لقمحه.

رأينا على مسافة قرية تدعى مُحَرْدَه Al Herdeh، وقال محمود إنّها كانت قرية

مسيحية ينتمي أهلها كلهم للكنيسة اليونانية. عاش السّكان معاً بسعادة وازدهروا إلى أن أصابتهم بليّة تتمثّل باكتشاف مبشّر لهم، فوزّع الكّراسات الدّينية وحوّل ما يقارب ستين شخصاً إلى الكنيسة الإنكليزية، ومنذ ذلك الحين لم تمرّ لحظة راحة دون شجار في محزّده.

وبينما كنّا نسير أخبرني محمود قصصاً عن الإسماعيلية والتّصيرية. قال عن المذكورين أولاً بأنّ صورة الآغا خان موجودة في كلّ بيت، وقال: لكنهم يعبدون امرأة. وكل مولودة أنثى تولد في السّابع والعشرين من رجب تُعزل وتُحفظ لتكون تجسيداً للالوهيّة، وتدعى الرّوضة Rozah. وهي لا تعمل، ولا يُقصّ شعرها ولا أظافرهما أبداً، وتشارك عائلتها في التّقدير الممنوح لها، ويرغب كلّ رجل في القرية بحمل قطعة من ثيابها أو شعرة من جسدها مطوية في عمامته، ولا يُسمح لها بالزّواج. قلت: «ولكن ماذا لو رغبت في الزّواج؟».

أجاب محمود: «سيكون مستحيلاً، لن يتزوّجها أحد، وهل يستطيع أحد أن يتزوّج الإله؟».

معروف أن لدى الطّائفة كتباً مقدّسة، ولكنها لم تقع في أيدي دارسين غربيين. وقد رأى محمود وقرأ إحداها - وهي كلّها في مديح الرّوضة Rozah، حيث تصف كلّ جزء من أجزاء جسدها بالمديح. قال إنّ الإسماعيلية يقرؤون القرآن أيضاً. وروى قضايا أخرى غريبة، مثل مرويّات هيرودوتوس Herodotus، ولا أجد من المناسب أن أعيدها. يبدو أنّ العقيدة تنبعث من تقاليد غامضة من عبادة عشتار Astarte، أو من تلك العقيدة الأقدم والأكثر عالميّة من الجميع، ألا وهي تبجيل الإلهة الأم the Mother Goddess؛ ولكنّ الاتّهامات بقلّة الاحتشام التي حيكت ضدها والتي جمعتها كانت لا أساس لها⁽¹⁾.

(1) كتبت المؤلّفة: إنّ صيغة الجمع الإسماعيلي في اللّغة العاميّة هي سَمْعولي، ولا أعلم فيما إذا كانت هذه بالصيغة الأدبيّة، ولكنها الصّيغة التي كنت أسمعها دوماً.

أما عن التصيرية فقد كان لدى محمود الكثير ليقوله، لأنه كان على اطلاع جيد بالهضاب التي يعيشون فيها، حيث كان موظفاً لعدة سنوات في جمع ضريبة الرأس بين أبناء الطائفة. وقال إنهم لا يقرؤون القرآن ولا يعرفون اسم الله. وقد روى قصة غريبة سوف أرويها لأنها تستحق:

«يا ست، حدثت القصة في الشتاء عندما كنت أجمع الضريبة. والآن في شهر ديسمبر يقوم التصيرية بعمل وليمة كبيرة وهو ما يحدث في وقت عيد المسيحيين نفسه (عيد الميلاد)، وفي اليوم السابق للعيد، عندما كنت أركب مع اثنين آخرين في الهضاب، هطلت هناك كمية كبيرة من الثلج مما أعاقنا عن المسير لمسافة أبعد، فالتمسنا مأوى عند أول قرية في بيت شيخ القرية، لأن هناك دائماً شيخ في القرية، يا ست، وشيخ ديني، وينقسم السكّان إلى مطلعين (عارفين)، وغير مطلعين. ولكن النساء لا يعرفن أي شيء عن أسرار الدين، بالله! لأن المرأة لا تستطيع أن تحتفظ بسر. استقبلنا الشيخ بحسن ضيافة وآوانا عنده، ولكن عندما استيقظت في الصباح التالي لم يكن هناك أي رجل في البيت، لا أحد إلا النساء. فصحت: «بالله وبمحمد نبي الله! ما هذه الضيافة؟ ألا يوجد أي رجل ليصنع القهوة إلا النساء؟». فأجابت النساء: «لا نعلم ماذا يفعل الرجال، لأنهم ذهبوا إلى بيت شيخ الدين، ولا يُسمح لنا بالدخول».

نهضت من ثم وذهبت بهدوء إلى البيت ونظرت عبر التافذة، والله! كان المطلعون (العارفون) جالسين في الغرفة، وكان شيخ الدين يجلس في وسطها، وأمامه وعاء مملوء بالخمير وإبريق فارغ. وكان الشيخ يلقي أسئلة على الإبريق بصوت منخفض، وبنور الحق سمعت الإبريق يجيب بصوت وقال: «Bl.. bl». ودون أي شك، يا ست، كان هذا سحراً. وعندما نظرت، رفع أحدهم رأسه ورآني. وخرجوا من البيت وقبضوا عليّ وأرادوا أن يضربوني، لكنني صرخت: «يا شيخ، أنا دخيلك!» عندها تقدّم شيخ الدين ورفع يده، فتركني في الحال كلّ من كان ممسكاً بي. وانكبّ على قدمي وقبّل يديّ وهذب معطفي وقال: «يا حجّي! إذا لم تخبر أيّ أحد بما رأيت سوف أعطيك عشر مجديّات!» وبحقّ نبيّ الله (عليه السلام!) لم أخبر أحداً بذلك حتّى هذا اليوم يا ستي».



قلعة شير

بعد مسيرة أربع ساعات أتينا إلى قلعة شير (سيجر) Kal'at Seijar. وهي تقع على هضبة حادة القمة طويلة مشقوقة في الوسط بنفق صناعي ومنحدرة بجروف عالية حتى نهر العاصي، الذي يجري هنا في مجرى ضيق بين جدران من الصخر. كانت القلعة التي تتوج الهضبة بين التفق والنهر تشكّل مظهرًا رائعًا جدًا من الأسفل. وهناك قرية صغيرة من أكواخ مزدحمة (على شكل خلية النحل) عند أسفل الهضبة. ولا بد أن تكون بلدة لاريسا Larissa السلوقية تقع على المنحدرات العشبية نحو الشمال، ويقدر ذلك من عدد الأحجار المنحوتة المتفرقة هناك.

نصبّت مخيمي عند الحدّ الأبعد للجسر في أيكّة من أشجار المشمش، مكسوة بالثلج مع الأزهار وطين النحل. كان العشب مرصعاً بكثافة بشقائق التعمان والحوذان قرمزي اللون. كانت القلعة ملك الشيخ أحمد السيجري Ahmed Seijari وهي في حوزة عائلته من ثلاثمئة سنة. ويسكن هو وأبناؤه في عدد من البيوت الصغيرة الحديثة، المبنيّة بحجارة قديمة في الوسط من الحصون. وهو يمتلك مساحة كبيرة من الأرض وحوالي ثلث القرية، وقُسم الباقي بنحو غير متساوٍ بين عائلة الكيلاني من حماة والعرب السّماطية⁽¹⁾

(1) السّماطية فرقة من لواحق عشيرة الموالي مستقرة في قرى الطّار بناحية محرّدة. وفي القرى المتاخمة للطّار في ناحية قلعة المضيق بقضاء المعرة، وتعدّ نحو 300 بيت وتتألف من الفرق

Smatiyyeh وهي القبيلة نصف البدوية التي تسكن في البيوت خلال الشتاء.

كان معي رسالة تعريفية للشيخ أحمد من مصطفى البرازي، وعلى الرغم من أنّ رأي محمود كان أنّي لن أجده في القلعة بسبب وجود مشكلة من زمن طويل بين آل السيجري والسماطية، فقد تسلّقنا إلى البوابة وشاهدنا على طول الطريق بقايا من فنطرة تشبه مدخل قلعة الحصن، وهكذا على كتل من خراب إلى أن وصلنا إلى القرية الحديثة حيث يسكن شيوخ آل السيجري. سألت أين بيت أحمد، فأرشدت إلى باب خشبي كبير محكم الإغلاق. طرقتُ الباب وانتظرت، وطرقت محمود أيضاً على نحو أعلى وانتظرنا ثانية. وأخيراً فتحت امرأة جميلة جداً مصراعاً في الجدار العلوي، وسألت ماذا نريد. قلت معي رسالة من مصطفى إلى أحمد وأريد أن أراه. أجابت:

«ليس هنا».

قلت: «أريد أن أسلم على ابنه».

ردّت قائلة: «لا يمكنك رؤيته، إنه في السجن في حماة متهم بالقتل».

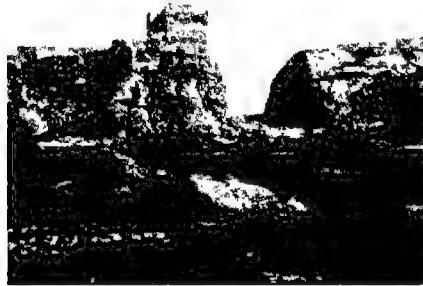
وهكذا أغلقتُ المصراع، تاركة إياي أتساءل كيف يمكن للسلوكيات الجيدة أن تساعدني في التصرف في تلك الظروف الدقيقة. وفي تلك اللحظة جاءت فتاة إلى الباب وفتحت ترأسه اليدوي. أعطيتها الرسالة وبطاقتي المكتوب عليها بالعربية، متممة ببعض كلمات من أسفي وذهبت. حاول محمود الآن أن يفسر الموضوع. فلقد كان إحدى الحكايات التي تسمعها في الشرق، من دون بداية ولا نهاية، ومن دون أيّ إشارة تبين أيّاً من أبطال الحكاية على حق، ولكن الاحتمال الملازم للقصة يبين بأن الجميع على خطأ.

كان السماطية Smatiyyeh قد سرقوا بعضاً من ماشية السيجري، وكان أبناء أحمد قد نزلوا إلى القرية وقتلوا اثنين من العرب - وفي القلعة يقال إنّ العرب كانوا قد هاجمواهم

الآتية: أبو حيات، الحليبات، الخوابرة، والهوارين. وقد انشقت هذه الفرق واستقلت منذ بضع سنوات.

وقتلوهم دفاعاً عن النَّفس - وانتهزت الحكومة، التي هي دوماً حذرة من الاستقلال النَّسبي لحكم المشايخ، الفرصة لضرب آل السَّيجري سواء كانوا على خطأ أم لا؛ أرسل الجنود من حماة، وحُكِم على أحد أبناء أحمد بالموت، ووُضع اثنان آخران في السَّجن، وأخذت جميع الماشية. وأمر بقية أفراد آل السَّيجري بعدم التَّحرُّك من القلعة، وفي الحقيقة فإنَّهم لن يستطيعوا القيام بذلك، وذلك لأنَّ السَّماطية Smatiyyeh كانوا عند بوَّاباتها مستعدِّين ومتلَهِّفين لقتلهم فيما إذا تجاوزوا الأسوار. هذا ولقد استغاثوا بحماة من أجل الحماية، وتمركزت حماية مكوَّنة من عشرة جنود عند النَّهر، إمَّا لحماية حياة الشَّيوخ أو لإبقائهم مسجونين على نحو أدقَّ فقد كان من الصَّعب تمييز ذلك.

أرَّخت هذه الأحداث قبل سنتين، ومن ذلك الوقت لا يزال آل السَّيجري سُجناء في حماة وفي قلعتهم، وليس بمقدورهم الإشراف على حراثة أراضيهم التي كانت تتحوَّل بالنتيجة إلى خراب ودمار. وأكثر من ذلك، يبدو أنَّه لا يوجد هناك أمل في تحسُّن الموقف. ثم وصل في وقت متأخَّر من بعد الظَّهر رسولٌ يقول إنَّ عبد القادر شقيق أحمد سيكون مسروراً باستقبالي وسيأتي بنفسه للتَّرحيب بي إذا استطاع مغادرة القلعة.



قلعة شيزر، الفجج المنحوت في الجبل

صعدت إلى القلعة من دون محمود وسمعت القصَّة كلَّها مرَّة أخرى من وجهة نظر الشَّيوخ، الذين لم يساعدوني للوصول إلى قرار نهائي، وذلك لأنَّها كانت في كثير من نقاطها الأساسيّة قصَّة مختلفة تماماً عن التي سمعتها من محمود. والنقطة الوحيدة

التي لا تقبل الجدل (وقد لا تكون ذات صلة أساسية ظاهرياً بالموضوع) هي أن نساء آل السيجري كنّ جميلات على نحو رائع. فقد ارتدين ثياباً بدويةً بلون أزرق غامق، ولكنّ الثياب الزرقاء التي تتدلّى من رؤوسهنّ كانت قد ثبتت فيها بإحكام حلي ذهبية ثقيلة مثل دبائيس الزينة من كنز مستينا Mycenaen، واحدة خلف كل صدغ. وعلى الرغم من حسن ضيافتهن فقد اضطرت لقطع الزيارة بسرعة بسبب عدد البراغيث التي تشارك الأسرة بيتها. نزلت اثنتان من النساء الشابات معي عبر خرائب القلعة، ولكن عندما وصلنا إلى البوابة الخارجية الكبيرة وقفنا ونظرتا إليّ وهما واقفتان على العتبة.

قالت إحدهنّ: «الله! ستذهبن الآن لتسافرين عبر العالم كله، ونحن لم نذهب إلى حماة أبداً!».

رأيتهما عند البوابة عندما التفت مرة أخرى لألواح لهما بالوداع. كانتا طويلتين ومعتدلتني القامة، وممتلئتي الجسم برشاقة وعدوبة، وترتديان أثواباً زرقاء ضيقة، وأحيطت حواجهما بالذهب، وعيونهما تتبع الطريق التي ربّما لن تسلكانه. وذلك لأنّه مهما سيحصل للشيوخ، فلا شيء أكثر تأكيداً من أن النساء الجميلات مثل هاتين المرأتين سوف يبقين سجينات من قبل أسيادهنّ في قلعة سيجر (شيزر).



سرنا في اليوم التالي في سهول محروثة إلى قلعة المضيق Kal'at el Mudik، وهي مرحلة قصيرة أقلّ من أربع ساعات. على الرغم من وجود العديد من آثار البلدات المخربة - أذكر واحدة منها بوضوح عند قرية صغيرة تدعى شيخ حديد Sheikh Hadid، حيث كان هناك تل يبدو كما لو كان صرحاً إغريقياً (Acropolis) - ولم تكن الرحلة لتبدو ممتعة لولا قصص محمود. جرى حديثه حول صفات العديد من السلالات التي تشكّل الإمبراطورية التركية، والتي كان على معرفة جيّدة بالعديد منها،

وعندما أتى على ذكر الجراكسة بدا أنه يشاطرني في تحاملي عليهم⁽¹⁾.

قال: «يا ست، إنهم لا يعلمون كيف يردّون المعروف. فالأب يبيع أبناءه، ويمكن للأبناء أن يقتلوا آباهم إذا كان لديه ذهبٌ في حزامه. وحدث ذات مرّة عندما كنت أركب من طرابلس إلى حمص، وقرب الخان - أنت تعرفين المكان - أن قابلت چركسيّاً يمشي وحده. قلت: «السلام عليك! لماذا تمشي؟» لأنّ الجراكسة لا يسافرون سيراً على الأقدام أبداً. قال: «لقد سُرق حصاني منّي، وأنا أسير خائفاً على هذه الطريق». قلت: «تعال معي، وسوف تذهب بأمان إلى حمص». ولكنّي جعلته يسير أمام حصاني لأنّه كان مسلّحاً بسيف، ومن يعلم ماذا يمكن لچركسي أن يفعل إذا لم تكن تستطيع مراقبته؟ ومررنا بعد قليل برجل عجوز يعمل في الحقول، وركض الجركسي إليه وتكلّم معه، وشهر سيفه كما لو كان يريد أن يقتله، فصحت به: «ماذا فعل ذلك الرّجل المسنّ لك؟» فأجاب: «بالله! أنا جائع، وطلبتُ منه طعاماً، وقال بأنه ليس لديه طعام! ولذلك سأقتله». ثمّ قلت: «دعه في حاله. أنا سوف أعطيك طعاماً». وأعطيته نصف ما كنت أملك من خبز وحلوى وبرتقال.

وهكذا تابعنا سفرنا إلى أن أتينا إلى جدول وكنتُ عطشاناً، فنزلت عن فرسي ممسكاً بلجامها ووقفت لأشرب ورفعت بصري فجأة ورأيت الجركسي ورجله في ركاب فرسي في الجانب الآخر، فقد قرّر أن يعتلي الفرس ويهرب بها. والله! كنتُ مثل أمّه وأبيه، ولذا ضربته بسيفي فسقط على الأرض. ثمّ قيّدته وسرّته به حتّى حمص وسلّمته للحكومة. هذا هو أسلوب تصرّف الجراكسة، عليهم من الله ما يستحقون!».

سألته عن الطريق إلى مكّة وعن المشقّات التي يتحمّلها الحجاج في الطريق.

قال: «بوجه الله! إنهم يعانون، يمشون عشرة أيام من معان Ma'an إلى مدائن

(1) علينا أن ننبّه هنا إلى أنّه لا يجوز التعميم بحال من الأحوال، وخاصة عدم سحب الحالات الفردية على فرقة أو طائفة كاملة من الناس، وعدّها قاعدة مطلقة. وفي أيامنا لدينا من الجركس والداغستان والشاشان بسوريا عدد غير قليل من الأصدقاء، وفيهم من الطيبة والصدق والأمانة ما يُذكر لهم بكل خير.

صالح Meda'in Saleh، وعشرة أيام من هناك إلى المدينة، وعشرة من المدينة إلى مكة، وآخر عشرة أيام هي الأسوأ، وذلك لأن شريف مكة والقبائل العربية يتآمرون معاً، ويقوم العرب بسرقة الحجاج ويتشاركون الغنيمة مع الشريف. ولا يشبه السير سير الأشراف عندما يسافرون، لأنه يكون في بعض الأحيان خمس عشرة ساعة بين الماء والماء، وفي بعض الأحيان عشرين ساعة، وتستغرق الرحلة الأخيرة في السير إلى مكة ثلاثين ساعة. والآن تدفع الحكومة للقبائل أموالاً كي يدعوا الحجاج بسلام، وعندما يعلمون أن الحج قد اقترب فإنهم يتجمعون على التلال قرب الطريق وينادون على أمير الحج: «أعطنا مستحقنا يا عبد الرحمن باشا!»⁽¹⁾، فيعطي كل رجل وفقاً لما يستحقه، فيعطي أحدهم مالاً، والآخر غليوناً وتبغاً، والثالث منديلاً، والرابع عباءة.

ومع ذلك فليس الحجاج هم فقط الذين يعانون الكثير، ولكن أولئك الذين يحمون التحصينات التي تحرس صهاريج المياه على طول الطريق، حيث أن كل تحصينة أشبه بسجن. وحدث ذات مرة أن أرسلت مع الحرس العسكري، ومرض حصاني ولم يعد يستطيع أن يتحرك، فتركوني عند أحد التحصينات بين مدائن صالح Meda'in Saleh والمدينة حتى يعودوا. أقمت ستة أسابيع أو أكثر مع حارس التحصينة، ولم نشاهد أي أحد، وأكلنا ونمنا في الشمس، وأكلنا مرة أخرى، ونمنا، ذلك لأننا لم نستطع الركوب خارج الحصن خوفاً من الحويطات Howeitat وبني عطية Beni 'Atiyyeh الذين كانوا في حالة حرب فيما بينهم. كان الرجل بقيم هناك من عشر سنوات ولم يخرج أبداً مسافة ربع ساعة عن تلك البقعة، وذلك لأنه يراقب المؤن التي تطعم الحجاج عندما يمرّون.

قال محمود بإيماءة شاملة بيده من الأرض إلى السماء: «وبني الله! فإنه لم يشاهد خلال عشر سنوات شيئاً سوى الأرض والله! والآن لديه ابن صغير، والولد أصم وأبكم، ولكن عينيه تريان أبعد من عيني أي رجل، وكان يراقب طوال النهار من قمة

(1) المقصود به عبد الرحمن باشا اليوسف، محافظ الحج الشامي بين 1892-1918 من بعد جدّه لأمه سعيد باشا شمدين.

البرج. وفي أحد الأيام جاء راکضاً إلى أبيه وأشار بيديه، وعلم الأب بأنّه رأى مجموعة من الغزاة من بعيد، فأسرعنا إلى داخل الحصن وأغلّقنا الأبواب. اقترب الخيّالة، وكانوا خمسمئة رجل من بني عطية وقاموا بسقاية خيولهم وطلبوا طعاماً، فألقينا إليهم خبزاً وذلك لأننا لم نجرؤ على فتح الأبواب. وبينما كانوا يأكلون جاء عبر السهل غزاة من الحويطات، وبدؤوا يتقاتلون معاً عند سور القلعة، واستمرّوا في القتال حتّى صلاة المغرب، ورحل من بقوا على قيد الحياة بعيداً، تاركين موتاهم الذين وصل عددهم إلى الثلاثين. وبقينا طوال الليل داخل الأبواب المغلقة، ونزلنا عند الفجر ودفنا الموتى.

تابع: «ولكن من الأفضل أن تعيش في حصن على طريق الحجّ من أن تخدم كجندي في اليمن، لأنّ الجنود هناك يخدمون دون أجر ولا ينالون من الطّعام كفاتهم، والشمس تحرق مثل النار. في اليمن إذا وقف إنسان في الظلّ وشاهد محفظة ذهب ملقاة في الشمس، والله! سوف لن يذهب لالتقاطها، وذلك لأنّ الحرارة مثل نار جهنّم. يا ستّ، هل صحيح أنّ الجنود في مصر يأخذون أجرهم أسبوعياً وشهرياً؟».

أجبت أنّي أعتقد بأنّ الحال ينبغي أن تكون كذلك مثلما هي العادة في الجيش الإنكليزي.

قال محمود: «بالنسبة لنا فإنّ أجرنا يُدفع لنا بعد نصف سنة، وغالباً يصل التّأخير إلى اثني عشر شهراً ولكننا نستلم أجر ستّة أشهر فقط. والله! لم أقبض في حياتي أكثر من أجر ثمانية أشهر لسنة كاملة»، وأضاف «كنت ذات مرّة في الإسكندرية - ما شاء الله المدينة الجميلة! منازل كبيرة مثلها مثل قصور الملوك، وكلّ الطّرق فيها أطراف مرصوفة يسير عليها الناس. رأيت هناك سائق سيّارة أجرة قاضى سيّدة من أجل أجرته، وقام القاضي بالحكم له. وبالحقيقة! إنّ أساليب القضاة مختلفة عنّا»، انتبه محمود مفكراً؛ ومن ثمّ وبانتقال مفاجئ صرخ: «انظري، يا ستّ! هناك أبو سعد».

نظرت، ورأيت «أبو سعد» يمشي في الحقل المحروث، ومعطفه الأبيض نظيف كما لو أنّه لم يأت توّاً من رحلة بطول إحدى رحلات محمود، وكان عطفاه الأسودان مشيتين بدقّة على جنبيه، وأسرعت لأرحب بأبي الحظّ الجيّد، وذلك لأنّه في سوريا

الأولى يُعَدُّ اللَّقْلُقُ الأوَّل بمثابة السَّنُونُو الأوَّل عندنا. وعلى آية حال فإنّه لا يستطيع
أبداً أن يصنع صيفاً أكثر من السَّنُونُو، وركبنا ذلك اليوم إلى قلعة المضيق Kal'at el
Mudik في مطر غزير.



تاج عمود في حماة

تقع قلعة المضيق Kal'at el Mudik في موقع أفاميا Apamea السلوقية. وقد
أوجدها سلوقس نيكاتور Seleucus Nicator، باني المدن العظيم الذي كان له الكثير
من المدن المكرّسة على اسم بناته: سلوقيا في پيريا Pieria، سلوقيا في كاليكادنوس
Calycadnus، وسلوقيا في بابل Babylonia، وغيرها الكثير. وعلى الرغم من أنّها
دُمّرت تماماً بفعل الزلازل، فما يزال هناك ما يكفي من الآثار لبيهرن على عظمتها
القديمة، الدائرة الواسعة لأسوارها، وعدد معابدها وعظمة شوارعها المعمّدة.
وبإمكانك أن تتبع شوارعها الرئيسيّة من بوابة إلى بوابة عن طريق الكتل الكبيرة المكوّمة
من صفّ الأعمدة، وتميّز القواعد الحجرية للتماثيل عند نقاط تقاطع الطرقات. يوجد
هنا وهناك مدخل كبير مفتوح على باحة، وقد سُوي القصر الذي كانت مدخلا له
بالأرض، أو ترى نقش فارسٍ مسلّح يزّين حجرة جنازيّة سُجّلت عليها الوقائع الحيّة
بنموذجه الأصلي.

تابع المسيحيّون القصّة من حيث تركها الملوك السلوقيّون، وتوجد آثار لكنيسة

عظيمة مع فناء حوله أعمدة ملقاة على حافة الشارع الرئيسي. وفيما كنت أغرق في أمطار الربيع الناعمة عبر العشب العميق والأزهار وأجمات البردق، إلى خيبة أمل اليوم الرمادي الذي جلس بعيون نصف مغمضة على أكوام الحجارة، بدا تاريخ البلدة وهندستها مثلاً للاندماج الرائع بين اليونان وآسيا الذي حدث نتيجة احتلال الإسكندر لتلك البلاد. كان هنا ملك إغريقي عاصمته تقع على نهر دجلة، يقيم مدينة على العاصي ويطلق عليها اسم زوجته الفارسية - أي بتائين شيدوا صفوف الأعمدة التي زينت هذه المدينة وتلك البلدات الإغريقية الطراز في سوريا بنماذج تقليدية استُخدمت بروح من السخاء الشرقي؟ وأي مواطنين هم الذين مشوا بينها، مادّين أيديهم لأثينا Athens وبابل Babylon؟

إن الجزء الوحيد المسكون في قلعة المضيق Kal'at el Mudik هو القلعة ذاتها التي تقع على جانب القلعة السلوقية على هضبة تطلّ على وادي العاصي وجبال النصيرية. وهي صنعة عربية في الدرجة الأولى، على الرغم من أنّ عدّة أيادٍ ساهمت في بنائها، فالتقوش العربية واليونانية منقوشة على نحو فوضوي في الجدران. وإلى الجنوب من القلعة يوجد جزء صغير من بناء تقليدي لم أر له أي تفسير. وهو يبدو كما لو أنّه جزء من خشبة مسرح، بسبب أنّ الأرض المرتفعة التي خلفه تنحدر بعيداً على شكل قاعة استماع. وسيكون حفر بسيط جداً كافياً لإظهار فيما إذا كانت آثار المقاعد تمتدّ تحت الضفة العشبية.

يوجد في الوادي مسجد متهدّم وخان جميل نصف متهدّم أيضاً. قدّم لي شيخ القلعة قهوة، وأخبرني رواية أخرى عن قصّة آل السيجري، متناقضة مع الروايتين الأوليين، حيث هُتأت نفسي على كوني عقدت العزم منذ البداية ألا أحاول إبداء أية مساعدة لحلّ تلك المشكلة شديدة التعقيد. ومن قمة القلعة يبدو وادي العاصي مغموراً كله بالماء؛ قال الشيخ إنّهُ كان المستنقع الكبير للعاصي الذي يجفّ في الصيف عندما تبقى قرى الجزيرة (كما شاهدت الآن) في أماكنها كأجزاء من السهل. نعم، فلقد كانت بكلّ تأكيد غير صحيّة على نحو كبير، وكان السكّان في الصيف والشتاء يعانون من الحمى، ويموت معظم السكّان

وهم شباب - عجباً، إنا لله وإنا إليه راجعون! وفي الشتاء والربيع يتبع هؤلاء الناس قصيرو الأعمار نداء صيادي الأسماك، ولكن عندما يجفّ المستنقع فإنهم يتحولون إلى مزارعين وفق نموذجهم الخاص، فهم يقطعون القصب ويذرون الدّرة فوقه ويضرمونها بالنار، وترتفع الدّرة فوق الرماد وتنمو - مثل طريقة الفينيقيين في الزّراعة.



في أفاميا Apamea قارب الكعك الذي كنت قد اشتريته في دمشق على الانتهاء - وهي تبدو مسألة جدّية في الوقت الذي تكون فيه قائمة الطّعام أقرب لأن تكون ممّلة. كانت وجبة الغداء هي الأقلّ استساغة بين كلّ وجباتنا: بيضٌ مسلوق جافّ وقطع من لحم بارد لم يعد يثير الشّهية بعد خزنه لمدّة شهر أو اثنين. علّمت ميخائيل تدريجيّاً أن يُنوّع وجبتنا بكلّ الموارد التي يقدّمها البلد، من زيتون وحليب غنم وفستق مملّح ومرّبي المشمش ونصف دزينة من الأكالات اللذيذة الأخرى بما في ذلك الكعك الدمشقي. وبناءً على ما اعتاده الخادم المحلي في إطعام السّائحين السّردين ولحم البقر المجفّف فإنّه يعتقد أنّ ذلك أقلّ من منزلة الأوروبي في أن يأكل طعاماً مثل هذا، عليك أن تذهب معه وتعلّمه ماذا يشتري، أو يمكن أن تمرّ عبر البلد الأغنى وتموت من الجوع وأنت تأكل لحم الضّأن.



الفصل الحادي عشر

تنطبع رحلة اليوم التالي في ذهني بحادثة يمكنني بصعوبة أن أقدرها بتغيير اسمها إلى مغامرة - ودعوني أدعها بلية. لقد كانت شيئاً مملاً أثناء حدوثها وكأنها مغامرة حقيقية (ولا أحد يعرف مثل من كان وسط أحداثها الكثيرة كم كانت مملة)، ولم تترك وراءها تلك الذكرى المتبلة لخطر محتمل والتي تفعم الذكريات جانب الموقد بالحيوية والنشاط.

تركنا قلعة المضيق Kal'at el Mudik عند الساعة الثامنة وسط أمطار منهمرة، واتجهنا شمالاً إلى جبل الزاوية، وهو عبارة عن مجموعة تلال تمتد بين وادي العاصي وسهل حلب الواسع. تضم هذه السلسلة عدداً من البلدات الأثرية التي يعود تاريخها في الدرجة الأولى إلى ما بين القرنين الخامس والسادس، ولقد سُكنت من جديد بشكل جزئي من قبل الفلاحين السوريين، ووصفها بالتفصيل كل من دي فوغيه de Vogüé وبتلر Butler.

توقف المطر عندما كنا نصعد امتداداً منخفضاً للتلال حيث كانت كل الأراضي ذات التربة الحمراء قيد الحراثة وتقع القرى في أجسام زيتون. كانت المنطقة مشهورة بجمال ظاهري واسع خاص بها، والذي زاد من شهرتها وجود البلدات المتهمة التي تنتشر بكثافة في أرجائها. في البداية كانت الآثار أقل بكثير من ركام الحجارة المنقوشة، ولكن في كُفْرَنْبِل Kefr Anbil كانت هناك بعض المنازل الجيدة وكنيسة وبرج ومقبرة كبيرة جداً تحتوي قبوراً صخرية منقوشة. هنا تغير المنظر، فقد تقلصت

الأرض المحروثة إلى بقع صغيرة، واختفت التربة الحمراء وحل محلها امتدادات قاحلة من الصخر، تنشق منها خرب رمادية أشبه بجلايد صخرية ضخمة متعددة. لا بد أنه كان هناك مساحات محروثة أكثر عندما كانت المنطقة تعيل عدداً كبيراً من السكّان ممثلين بالبلدات الأثرية، ولكن أمطار عدة فصول شتاء هدّمت المصاطب الصّناعيّة وجرفت التربة نحو الوديان، ولم يكن بإمكان السكّان السابقين أن ينتجوا منها ما يكفي لإعالتهم.

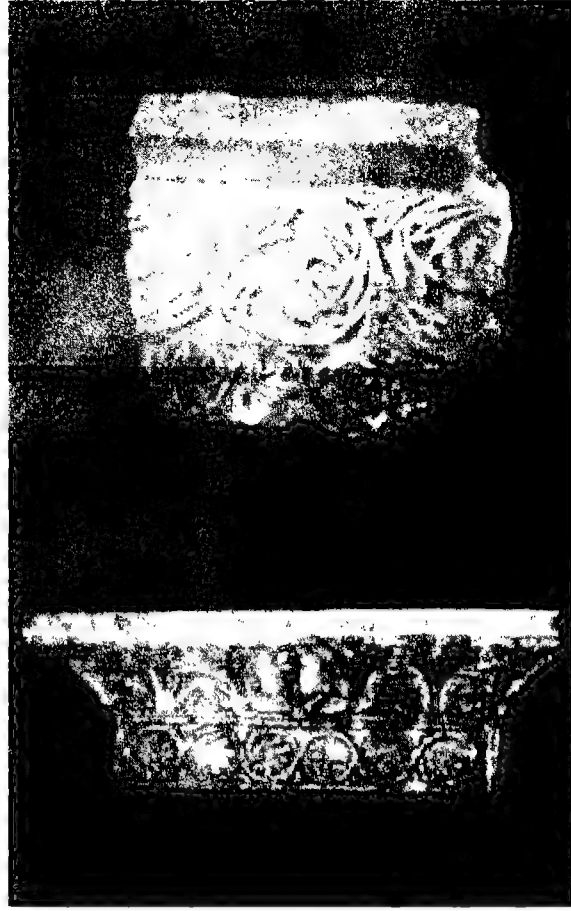
وإلى الشّمال الشرقي من كِفْرَنْبِل Kefr Anbil، وعبر متاهة من الصّخور، ظهرت أسوار قرية جميلة هي خربة حاس Khirbet Hass، التي كنت متلهفة لرؤيتها بشكل خاصّ. أرسلت البغالين مباشرةً إلى البارة El Barah، مكان توقّفنا تلك الليلة، واستأجرت قروياً كدليل في ذاك القفر الحجري، وانطلقت مع ميخائيل ومحمود. تعرّج الطريق في الدّاخل والخارج بين الصّخور وتناثرت حزم ضيقة من العشب بوفرة مع الأحجار؛ وسطعت شمس بعد الظّهر حامية فوقنا، وترجّلت وخلعت معطفي وربطته، كما ظننت، بقوة إلى سرج فرسي، وتابعت مسيري إلى الأمام وسط الأعشاب والزّهور.



بيت في البارة

كانت هذه بداية البليّة. كانت خربة حاس Khirbet Hass قد هُجرت تماماً ما عدا خيمتين سوداوين. كانت شوارع السّوق خالية، وجدران المحلّات قد سقطت فيها، وهجر المصلّون الكنيسة منذ زمن طويل، وكانت المنازل الفخمة صامته كصمت القبور، والحدائق المسيّجة مهملة، ولم يأت أحد ليشرب الماء من الأحواض العميقة. جعلني سحرها وغموضها أتأخّر حتّى شارفت الشّمس على الغروب وهبّت ريح باردة لتذكّرني بمعطفي، ولكن عجباً! عندما عدت إلى الجياد لم يكن المعطف على السّرج. لا تنمو المعاطف الصّوفيّة الخشنة على كلّ الشّجيرات في شمال سوريا، وكان من الواضح أنّ جهداً يجب أن يبذل لاستعادة معطفي، عاد محمود تقريباً إلى كِفْرَنْبِل، وعاد بعد ساعة ونصف صفر اليدين. في ذلك الوقت كان الظّلام قد حل؛ وعلاوةً على ذلك كانت عاصفة تهبّ من جهة الشّرق، وكان أماننا ساعة من الرّكوب والسّير عبر منطقة شديدة الوعورة. بدأت في الحال أنا وميخائيل ومحمود بتلمّس طريقنا على طول طريق مخفي تقريباً، وزيادةً في سوء الحظّ، هبّت فوق رؤوسنا عاصفة فور حلول الغسق، وأصبح اللّيل حالكاً جدّاً، ومع المطر الذي كان يضرب وجوهنا فقدنا ذلك الأثر للطريق. وفي هذه اللّحظة كانت أذنا ميخائيل قد تخيلتا سماع نباح كلاب، وأدركنا رؤوس خيولنا باتّجاه المكان الذي توقّعنا أن التّباح آتٍ منه.

كانت هذه المرحلة الثّانية من المصيبة، وعلى الأقلّ عليّ أن أتذكّر بأنّ ميخائيل كان دوماً أسوأ دليل، حتّى عندما كان يعرف اتّجاه المكان الذي يتّجه إليه. اكتشفنا، بسبب ضوء القمر الهزيل الذي سطع فوقنا، أنّ طريقنا لن يوصلنا إلى أيّ مكان، وعندما تأكّدنا من ذلك توقّفنا وأطلقنا طلقتي مسدس ظانّين بأنّه إذا كانت القرية قريبة فإنّ البغاليين سيسمعونها وسيردّون بإشارة ما. على أيّة حال، لم يأت أحد وعدنا طريقنا إلى النّقطة التي أعمى فيها المطر أبصارنا، لنضلّ مرّة أخرى بذاك التّباح الوهمي ونبدأ مرّة أخرى بمطاردة كلبنا الهائج. وفي هذا الوقت كنّا نسير أبعد في نفس الاتّجاه في الحقول، والله يعلم أين كنّا سنصل في الثّاية لو لم أثبتن بوضوح عن طريق ضوء القمر الضّبابي بأنّنا كنّا نسير على العكس إلى الجنوب في حين أنّ البارة El Barah تقع في الشّمال.



حلية زخرفية في البارة، وساكفة في خربة حاس

عند ذلك انعطفنا متناقلين في طريقنا، وبعد أن سرنا قليلاً في طريق العودة ترجلنا وجلسنا على جدار متهدّم لنتناقش استحسان الإقامة الليلية في قبر فارغ وأن نأكل القليل من الخبز والجبن من خُرج محمود. تقدّمت الجياد الجائعة تشتمّنا؛ وأطعمتُ فرسي نصف نصيبي من الخبز، لأنّه بعد كلّ شيء كان قد تحمّل أكثر من نصف التصيب من الجهد. أمدّنا الطّعام بالنشاط؛ وتابعنا سيرنا وفي طرفة عين وجدنا أنفسنا عند مفترق الطّريق الأصلي للمكان. ومن هنا أخذنا طريقاً ثالثاً، وخلال خمس دقائق وصلنا إلى

قرية البارة El Barah التي كنا ندور حولها لمدة ثلاث ساعات. كان البغالون نائمون نوماً عميقاً في الخيام؛ أيقظناهم بعنف إلى حدّ ما وسألناهم فيما إذا كانوا قد سمعوا إشارتنا أم لا. أجابوا بابتهاج: «آه نعم ولكننا قرّرنا بأنّه كان لصّاً يستغلّ اللّيلة العاصفة ليقتل أحداً ما»، ولم يعيروا الموضوع إلاّ اهتماماً بسيطاً.

هذه هي قصّة المغامرة سيّئة الحظ كاملة؛ وأنا أشعر بالخجل لروايتها. وعلى أيّة حال فقد علّمتني ألاّ أشكّ بصحّة حوادث مشابهة في حياة رّحّالين آخرين ولديّ الآن كلّ سبب وجيه للتّصديق بصحّتها تماماً.



على الرّغم من أنّ البارة يمكن أن تكون لا تطاق في اللّيل فهي في النّهار الأكثر روعة والأكثر جمالاً. إذ أنّها تشبه مدينة الحلم التي يبينها الأطفال لأنفسهم ليسكنوها بين موعد الرّقاد وموعد النّوم، وبينون قصراً بعد قصر تحت طرق الخيال المتألّقة، ولا توجد كلمات يمكن أن تعبّر عن سحرها ولا عن سحر الرّبيع السّوري. تمشي أجيال من الموتى معك أسفل الشّوارع، وتراهم يتنقلون عبر شرفات منازلهم، ويحدّقون عبر نوافذ مكّلة بالياسمين الأبيض، يتجولون في حدائق مسيّجة لا تزال مزروعة بالزّيّتون والكرمة وفُرشت أرضها بالسّوسن، والصّفير وشقائق النّعمان. وبعد ذلك، ربّما تبحث عبثاً عن تسلسل أحداث لهم؛ فهم لم يلعبوا أيّ دور في التّاريخ، لكنّهم كانوا راغبين في العيش بسلام وأنّ ينوا لأنفسهم بيوتاً عظيمة ليسكنوا فيها وقبوراً جميلة ليرقدوا فيها بعد أن يموتوا. والذي يثبت أنّهم تحوّلوا إلى المسيحيّة هو وجود المئات من الكنائس المهذّمة والصّليب المحفور على أبواب ونوافذ مساكنهم، وهي كافية لتظهر بأنّهم كانوا فنانين بتزيّيناتهم؛ فقد أغنوا بها بيوتهم الواسعة وبيوتهم الصّيفيّة وإصطبلاتهم وأفنية منازلهم. وقد اخذوا عن اليونان نظام الزراعة، ومن الفنّ حسب حاجتهم، ومزجوا مع ذلك روح الجمال الشّرقى الذي لا يتنفّس دون أن يؤثّر بالخيال الغربى؛ وعاشوا براحة وأمان مثل القليل من معاصريهم الذين استطاعوا التّعرّف عليهم، وجرفهم المدّ الإسلامى عن وجه الأرض.



قبر في سرجيلا

أمضيت يومين في البارة El Barah وقمت بزيارة خمس أو ست قرى قريبة منها، وقام شيخ البارة وابنه بمهمة الأدلاء لي. كان الشيخ رجلاً مسناً مفعماً بالحبوية يسمى يونس، عمل دليلاً لكل علماء الآثار المميزين في وقته، وتذكرهم وتكلم عنهم بالاسم - أو بالحري بأسماء من تركيبة بعيدة كل البعد عن الأسماء الأصلية. واستنبطت وسيلة لإثبات أنهم دى فوغيه de Vogüé ووادينغتون Waddington وعالم آخر كان اسمه غير مفهوم أبداً، وربما قصد به زاخاو⁽¹⁾ Sachau.

وفي سرجيلا Serjilla، وهي بلدة تتمتع بجو معتدل وقاسٍ من الاحترام والتي يصعب مضاهاتها، على الرغم من أنها من غير أسقف ومهجورة تماماً، قدمني إلى قصره وقبره المجاور الذي تمتيت أن أعيش وأموت بجواره، وعندما غادرت ركب معي إلى أن وصلنا إلى دير سنبل Deir Sanbil ليدلني على طريقي. كان قلقاً جداً

(1) المقصود المستشرق الألماني الشهير كارل إدوارد زاخاو Karl Eduard Sachau (1845-1930م)، شغل منصب أستاذ اللغات الشرقية في جامعة فيينا عام 1869 ثم في جامعة برلين عام 1876 وعُين في عام 1887 فيها مديراً للمعهد اللغات الشرقية. قام برحلات متكررة في الشرق الأوسط ونشر عنها كتاباً بالألمانية بعنوان: "Reise in Syrien und Mesopotamien" "رحلة في سوريا والعراق" نُشر عام 1883. تميّز بعمله على اللغة الآرامية ولهجاتها السريانية، وتولى فهرسة المخطوطات السريانية بجامعة برلين. يسميه مثقفونا: سخاو، وهذا غلط.

في ذلك اليوم بسبب اضطراب حصل في قرية قريبة في الجوار، فقد هوجم رجل من قبل شخصين من القرية المجاورة رغبوا في سرقة. لحسن الحظ أتى رجل من قريته لمساعدته ونجحا معاً في ردّ الهجوم، لكنّ الصديق فقد حياته في الصّراع، وقام أقرباؤه بالهجوم على قرية اللصوص وأخذوا كلّ القطعان. كان رأي محمود أنّه لم يكن من المستحسن أن يطبقوا القانون بأيديهم.

قال: «والله! عليهم أن يعرضوا الموضوع على الحكومة».

ولكن يونس أجاب بمنطق مُفحم:

«وما الفائدة في الذهاب إلى الحكومة؟ فقد أرادوا أخذ حقوقهم».

سألت يونس في سياق الحديث إذا كان قد ذهب إلى حلب من قبل أم لا.

قال: «والله! وجلستُ أيضاً في الأسواق وراقبت القناصل وهم يمشون، كلّ واحد معه رجل أمامه يرتدي معطفاً ثمنه مئتا قرش، ومعهم السيدات وقد وضعن ما يشبه الزهور فوق رؤوسهنّ». (أتصوّر أنّها القبعة الأوروبية الأنيقة). أوضح: «أنا أذهب دوماً إلى حلب عندما يكون أبنائي في السّجن هناك، وأحياناً يكون السّجان شفوفاً وتكفي نقود قليلة للسّماح لهم بالخروج».



الشيخ يونس

دخلت تدريجياً في حديث قد يكون أرضية جيّدة بسؤاله كم ابناً لديه.
«ثمانية، الحمد لله! فقد أنجبْتُ كلَّ واحدة من زوجاتي أربعة أولاد وابتنتين».
قلت: «الحمد لله!».

قال يونس: «أطال الله عمرِك!» وأضاف: «لقد كلّفتني زوجتي الثانية مبلغاً كبيراً من المال».

قلت: «نعم؟».

«أنعم الله عليك يا ستّ! لقد أخذتها من زوجها، والله (الحمد والشكر له!) كان عليّ دفع ألفي قرش للزوج وثلاثة آلاف للقاضي».
لقد كان هذا كثيراً جدّاً على شعور الحج محمود حول الآداب واللياقة.



بيت في سرجيلا

قال: «أخذتها من زوجها؟ والله! إن هذا تصرّف نصيري أو إسماعيلي. هل يأخذ مسلم زوجة رجل آخر؟ هذا حرام».

أوضح يونس: «لقد كان عدوّي، بالله وبنيّ الله، لقد كانت هناك عداوة بيننا حتّى الموت».

سأل محمود: «هل كان لديها أطفال؟».

أجاب الشيخ موافقاً شاعراً بالضعة قليلاً أمام افتراض محمود: «إي والله! ولكنني دفعت ألفي قرش للزوج وثلاثة آلاف....».

صرخ محمود وهو لا يزال مستاءً: «بوجه الله! لقد كان عمل كفّار». وهنا وضعتُ نهاية لنقاشٍ أبعد لاستحقاقات القضية بالسؤال فيما إذا كانت المرأة راضية بترك زوجها.

قال يونس: «من دون شكّ، فقد كانت رغبته». لذلك من الممكن أن نستنتج أنّه لا يمكن للأخلاق أن تلعب دوراً كبيراً في هذا المجال، على الرّغم من أنّه عوّض عن الخسارة بمبلغ كبير لكلّ من الزوج والقاضي. قادنا هذا الحدث إلى نقاش المبلغ المعتاد دفعه للزّوجة.



قبر يوزس

قال يونس بجوّ من التّباهي الاجتماعي: «في مثل هذه الحالة وكما فعلنا، فإنّ الفتاة لن تأخذ أقلّ من أربعة آلاف قرش، ولكن بالنسبة لرجل فقير لا يملك مالاً فمن الممكن أن يدفع للأب بقرة أو عدّة أغنام، وسوف يكون راضياً».

بعد أن غادرنا ركبنا وسرت حول رويحة Ruweiha على أمل أن أرى الكنيسة المشهورة التي يقع قربها قبر بيزوس Bizzos المقبَّب. هذه الكنيسة هي الأكثر جمالاً في جبل الزاوية، بمجازاتها الرائعة المؤدية إلى صحن الكنيسة ومداخلها المنقوشة، وبأقواسها القائمة على ركائز وممراتها المقنطرة العريضة في صحنها - وكم كانت ثقة البناء وسيطرته على مواد بنائه التي شجَّعته أن ينشئ تلك الأقواس العظيمة من ركيزة إلى ركيزة والتي اختبرت في الحقيقة بأنَّ واحدة منها لا تزال تقف حتى هذا اليوم.

لا يزال قبر بيزوس الصَّغير كاملاً تقريباً كما كان عندما بُني أول مرة. يوجد عند المدخل نقش مكتوب باليونانية:

«بيزوس Bizzos ابن باردوس Pardos لقد عشتُ جيّداً، ومِتَّ جيّداً وأستريح بشكل جيّد الآن. صلّوا من أجلي».

إنَّ الملامح الأكثر غرابة في فنِّ العمارة كلّ في شمال سوريا هي الحوافز التّقليديّة نصف المتذكّرة التي وجدت طريقها في الحلي المعماريّة والتي هي غالباً قوطية في حرّيتها، والسطوح المعمّدة التّقليديّة التي تزيّن نافذة أو عتبة كنيسة. كان مخطّط الرّخرفة السّورية في المقام الأوّل عبارة عن صفٍّ من دوائر أو أكاليل ممثلة بنباتات ملتفة أو بمونوغرام (حروف متشابكة) مسيحي؛ ولكن مع تطوّر مهارة النّحاتين، فقد وصلوا دوائرهم معاً بمئات من الأشكال الرّائعة والغريبة من نبات الأقمّنا الشوكي والتّخيل والغار، صانعين نماذج فيّاضة حول كنيسة أو قبر متنوّعة تنوّع الخيال الذي أبدعها. فالعشب تحت أقدامهم، والأوراق على الأغصان فوق رؤوسهم، ألهمتهم بوفرة من تصميم زخرفي أكثر مما دفعهم الفنّان وليّم موريس William Morris بعد ألف ومئتي سنة.

هناك كنيسة أخرى في رويحة Ruweiha أقلّ كمالاً من كنيسة بيزوس ⁽¹⁾ Bizzos،

(1) تعرف باسم كرك بيزة وهي مدينة أثرية سورية، من المدن التي يُطلق عليها المدن البائدة وهي مجموعة من المدن والمواقع الأثرية سمّاها علماء الآثار المدن المنسية، وكرك بيزة سكّنت في نهايات القرن الثالث والقرن الرابع الميلادي وهي اليوم منطقة أثرية مهجورة، تقع

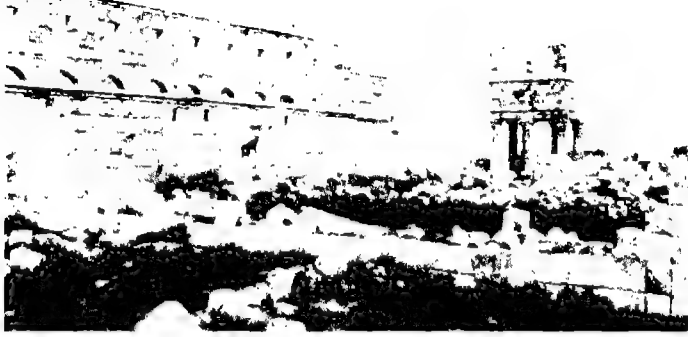
لكنها ليست أكثر روعة في التصميم. وهي متميزة ببناء أثري يقع قريباً من الحائط الجنوبي، فُسر على أنه برج ناقوس، أو قبر، أو منبر وعظ، أو لم يوجد له تفسير على الإطلاق. وهو يتكوّن من طابقين، يحتوي الطابق الأول على ستّة أعمدة تدعم رصيفاً، ويرتفع من الجدار السفلي أربع ركائز في الزوايا لحمل القبة أو الظلّة. والشبه لبعض القبور في شمال إيطاليا، كما هو على سبيل المثال مع نصب رولاندينو Rolandino في بولونيا Bologna، ملفت للنظر بشكل كبير بحيث أن المشاهد يحدّد بشكل عفوي هدفاً مشابهاً لهذا البناء الرائع في رويحة.

خيّمنا تلك الليلة في الدّانا Dana، وهي قرية تفتخر بقبر هرمي الشكل مع رواق مؤلّف من أربعة أعمدة كورنثيّة، متقنة في إنجازها وفي انسجامها المتوازن كأَيّ شيء يمكن أن تحلم برؤيته. وفي طريقنا من رويحة Ruweiha مررنا بقصر يمكن أن أخذه كنموذج لهندسة العمارة المحليّة في القرن السادس. وهو يقف منعزلاً، منفصل ميلاً أو ميلين بمنطقة متموّجة بعيداً عن أيّ قرية، بشرفات مفتوحة متّجهة نحو الغرب ورواق جميل مبهج نحو الشّمال، ويمكن لرواق كهذا أن يزيّن أيّ منزل ريفي إنكليزي في هذه الأيّام. يمكنك أن تتخيّل مالك القصر في القرن السادس جالساً على مقعد حجري فيه ويرتقب أصدقاءه - وهو لا يخشى وجود أيّ أعداء، وإلّا لم يكن لبني بيته بعيداً خارج القرية ويحرسه بسياج حديقة فقط.

وعند قصر البنات، كما يسمّيه السّوريّون، تأثّرت كما لم أتأثّر في أيّ مكان آخر

في ناحية حارم، محافظة إدلب، سوريا. ويبدو أن اسمها مشتق من كلمتين سريانيّتين: كرك (أي حصن) واسم أحد الأسرتين اللتين كانتا تقطنان المنطقة: كريكوس وبيزوس. يتم الوصول إلى الموقع بالاتجاه شمالاً من منطقة كنيسة قلب لوزة مسافة 500 متر تقريباً. أهم آثارها الكنيسة التي تقع في شمال القرية وبالقرب من الفيلا الأولى التي ترقى إلى القرن الثالث فتبدو وكأنها تكمل للفيلا المذكورة وترقى إلى الثلث الأول من القرن الرابع وهي بذلك بعد كنيسة دورا أوروبوس على الفرات التي تعتبر من أقدم الكنائس في العالم ولا تزال بحالة سليمة ما عدا السقف، ولا شك أن هندسة هذه الكنيسة كانت النواة الأولى لهندسة الكنائس الكبرى في هذه المنطقة في القرن الخامس وما بعده، وتعتبر كنيستها من الكنائس الأولى المبنية في سوريا إبّان القرن الثالث.

بمستوى النظام الاجتماعي العالي الذي وصل إليه جبل الزاوية في ذلك الحين، فقد كان الأمان والغنى متوفرين هناك على نحو واضح، وكذلك أوقات الفراغ اللازمة من أجل رعاية الفنون؛ وبينما كنت أبتعد شعرت متعجبة فيما إذا كانت المدينة هي بالفعل كما نظرت في أوروبا، قوة لا تقاوم جارفة نحو الأمام وتحمل على قممها أولئك الجديرين بالانفعال من تقدمها؛ أو فيما إذا كانت تشبه حركة المد والجزر ترتفع وتنخفض في شاطئ.



كنيسة وقبر في رويحة



في وقت متأخر من الليل جاء أحد أبناء الشيخ يونس ليسألنا إذا كان والده لا يزال معنا. على ما يبدو أنه عندما غادرنا ذلك المسن المغامر لم يعد إلى حضن عائلته القلقة، ولدي شك بأن رغبته الودودة بأن يضعنا على طريقنا لم تكن إلا جزءاً من مؤامرة مدبّرة بعناية بوسائل كان يأمل بواسطتها أن يكون قادراً على أن يكون له يد في تلك الاضطرابات المحليّة التي كانت تشغله في فترة الصباح. وعلى أية حال فقد انطلق حالاً بمجرد أن أصبحنا خارج مرمى النظر، ويفترض أن يكون قد أسرع لينضم إلى الشجار. لم أسمع أبداً ماذا حصل له، ولكنني على استعداد لأراهن بأنه أيّاً كان شخص القتل في قرية المغارة فلن يكون الشيخ يونس.

في الواقع تمتد ثلاثة أيام مملة بيننا وبين حلب. وكان من الممكن أن نقوم بالرحلة في يومين، لكنني فررت أن أتخى قليلاً نحو الشرق من أجل أن أتجنب طريق العربات،

الذي كان معروفاً بشكل جيّد، ومن أجل أن أجتاز منطقة كانت غير معروفة على الأقلّ، على الرّغم من أنّها ربّما لن تكون أكثر متعة، وبعد خمس ساعات ركوب من الدّانا Dana عبر مرتفعات متموّجة مفتوحة وصلنا إلى تاروتين Tarutin. مررنا بالعديد من المواقع الأثرية، والتي استوطنت مرّة أخرى من قبل العرب نصف المستقرّين من قبائل الموالي Muwali، على الرّغم من أنّ الأبنية القديمة كانت مهذّمة بشكل كامل. وعلى طول كلّ الحواف الغربيّة من الصّحراء كان البدو قد بدؤوا بحراثة الأرض، لذلك فقد اضطروا إلى توطيد أنفسهم في بعض النّقاط الثابتة قرب محاصيلهم.

قال شيخ تاروتين Tarutin: «أصبحنا فلاحين»، وفي بعض العصور المقبلة، عندما يقوم كلّ العالم بالحرّاة والحصاد وقتها لن يبقى هناك بدو في جزيرة العرب. في المراحل الأوّليّة يتابع هؤلاء المزارعون الجدد العيش في خيام، لكن الخيام ثابتة، وتتراكم الأوساخ المرافقة لهم، والقرية غير سارة لأيّ من العقلاء. ولم تنس بعض العائلات في تاروتين Tarutin سلوكيّاتهم الصّحراويّة بعد، وقد وجدناهم أشخاصاً مقبولين، على الرّغم من الملاحظة الصّحيّة التي وردت أعلاه عن قريتهم المكوّنة من بيوت الشّعر.

لم يكن قد مضى على وجودي في المخيم ساعة عندما حصل احتياج بين رجالي، وجاء ميخائيل إلى خيمتي وهو يصرخ: «الأمير كان! الأمير كان!» لم يكن غزواً، ولكن بعثة برينستون Princeton الأثرية، التي سافرت في دمشق عبر طرق أخرى غير طرقنا، والتي كانت تعمل الآن في جبل الزاوية؛ واعتبرها مخيمي مصادفة سعيدة، حيث أنّ كلّ واحد منّا وجد معارف بين السّادة أو بين البغّالين، وكان لدينا الوقت للكلام، مثلما يتكلّم الأشخاص الذين يلتقون مصادفة في طريق خالٍ.

وفضلاً عن ذلك، فقد زوّدني اليوم الذي أمضيته في تاروتين Tarutin بدرس ذي موضوع رائع في علم الآثار. فعندما كشف أعضاء الحملة الآثار، وحلّوا شفرات النّقوش، خرجت بلدة القرن الخامس كلّها من رمادها ووقفت أمامنا: كنائس، منازل، حصون، مقابر منحوتة في الصّخر بأسماء وتواريخ وفاة قاطنيها محفورة على الباب.



قصر البنات

في اليوم التالي كان أمامنا مسيرة عشر ساعات. ذهبنا شمالاً، ومررنا بقرية طينينة صغيرة تدعى حلبان Helban، وأخرى تدعى مغارة مرزة Mughāra Merzeh، حيث كانت هناك بقايا من كنيسة وقبور منحوتة في الصخر من طراز بسيط جداً. (ولا واحد من هذه الأماكن مذكور في خارطة كيبرت Kiepert). والتفطنا من ثم نحو الشرق ووصلنا التلول Tulul، حيث أتينا فوق امتداد ضخم من مياه فائضة، تمتد جنوباً لمسافة اثني عشرة ميلاً على الأقل من المَطخ Matkh، وهو المستنقع الذي ينبع منه⁽¹⁾ نهر قويق Kuwek.

(1) هذا خطأ طبعا، فنهر قويق (واسمه القديم باليونانية خاليس) ينبع من هضبة عنتاب في جنوبي تركيا ويرفده نهر آق پینار Ak-Pınar (التبع الأبيض) القادم من كلس، ويمرّ قويق في حلب ثم يصبّ في المطخ جنوبي المدينة. لكنه انقطع نهائياً عام 1950 بسبب إقامة سدّ عليه في تركيا. أمّا اسم قويق فتركي الأصل: قَوَاق Kavak أي شجر الحور.

عند التلول Tulul كانت بعض النساء العربيات يندبن على قبر حديث . وهنّ يكيّن لمدّة ثلاثة أيام بعد دفن الميت عند جانب القبر؛ قال محمود في مكّة والمدينة فقط ليس هناك ندبٌ على الأشخاص الذين ماتوا. هناك عندما تغادر الرّوح الجسد تصرخ النساء ثلاث صرخات ليعلّمن النّاس أنّ الرّوح قد خرجت؛ ولكن بعد هذه الأصوات لا يوجد نواح، وذلك لأنّه يحرم أن تسقط تلك الدّموع فوق رأس الميت. فالله أعطى وهو أخذ.

ومن ثمّ ذهبنا جنوباً على طول الحاقّة من الأرض المرتفعة إلى تلّة صغيرة تدعى تلّ سلمى Tell Salma، حيث التففنا شرقاً مرّة أخرى ودرنا حول مسيل الماء وركبنا على طول حافّته إلى قرية كبيرة تدعى مويمات Moyemāt نصفها خيام ونصفها أكواخ فقيرة الشّكل مبنية من الطّين. لا توجد مادّة أخرى للبناء سوى الطّين؛ ومن اللّحظة التي غادرنا فيها الأرض الصّخرية التي تقع فيها تاروتين Tarutin لم نشاهد أبداً ولا حجرة واحدة - لا حجرة ولا شجرة، وإنّما حقل قمح متواصل لا ينتهي، مع بواكير أزهار الخزامى قرمزية اللّون التي ظهرت براعمها بين القمح الفتى.



قبر في الدّانا

لقد كان مسيراً ثقيلاً، على الرغم من أنه كان مريحاً لأقدام الخيول. ولو كان هناك مقدار أكثر بقليل من التربة فوق تلال سوريا ومقدار أكثر بقليل من الحجارة فوق السهل فإن السفر سيصبح أسهل في تلك المنطقة؛ ولكن الله الذي لا إله غيره أمر على نحو مختلف. ركبنا من مويمات Moyemat نحو الشمال الشرقي إلى أن أتينا إلى قرية تدعى هوبر⁽¹⁾ Hober، عند قاع قمة جبل الحص Hass، وحاولنا أن نخيم هنا، لكن لم نستطع الحصول على الشوفان ولا على شعير ولا حتى على حفنة من تبن مقطّع؛ ولهذا ذهبنا إلى كفر عبيد Kefr 'Abīd الموجودة على الخارطة، ونصبنا خيامنا عند الساعة السادسة. من المحتمل أن القرى التي لم تكن معروفة لكبيرت Kiepert قرى مبنية حديثاً، وفي الواقع لا يزال الكثير منها نصف مخيمات. وهي متعددة جداً؛ فقد عدت قرب هوبر Hober خمس قرى في مدى ميل أو ميلين. احتفظ العرب الذين يسكنون فيها بعاداتهم البدوية في الثأر، فلكل قرية حلفاؤها وأعداؤها في الدّم، وتعتبر علاقاتها السياسيّة ضعيفة مثلها مثل علاقاتهم في الصحراء.

تحتوي يومياتي على الملاحظة التالية في نهاية اليوم: «العناقيّة ذات الأزهار الزرقاء، السوسن الأبيض من النوع الذي كان أزرق في البارّة، الحوذان الأصفر والأحمر، اللّقالق والقبرّات». كانت هذه كلّها هي التي كسرت رتابة الشير الطويل.

وعلى بعد نصف ساعة إلى الشمال من كفر عبيد Kefr 'Abīd توجد قرية صغيرة فقيرة الشكل تحتوي على لوحة سيفسائيّة كاملة تماماً من نماذج هندسيّة. ويمكن العثور على الأجزاء الأخرى من الفسيفساء مبعثرة عبر القرية، بعضها في المنازل، وبعضها في الأفنية، وتحتاج المنطقة كلّها إلى استكشاف دقيق إذ يقوم المستوطنون الجدد بقلب الأرض وقد يهدمون ما يمكن أن يعثروا عليه.

وصلنا حلب في منتصف التّهار، وقدمنا إليها سائرين بجانب مصرف مياه مفتوح. وسواءً كان ذلك بسبب الرائحة الكريهة أو بسبب السماء الثقيلة والرياح المحمّلة

(1) تقع هوبر إلى الشمال الشرقي من سبخة المطخ، ومن القرى القريبة منها: بريدة، بويضة صغيرة، تل دادين، دلامة، عطشانة.

بالغبار لا أعلم فإن الانطباع الأول عن حلب كان مخيباً للأمل. إن الاسم بصيغته الأوروپية الساحرة «آليپو» Aleppo ينبغي أن يخصّ مدينة أكثر جاذبية، وحلب الساحرة هي ليست كذلك بكل تأكيد، ذلك لأنّها تقع في مكان قاحل لا شجر فيه، وعالم من دون ملامح، عند بداية منبسّطات ما بين التهرين العظيمة. يشبه موقع البلدة فنجاناً في صحن، تقع المنازل في الصحن وتقف القلعة على الفنجان المقلوب، وتُرى مآذنها على بعد عدّة ساعات بينما لا يظهر أي أثر للمدينة حتّى الميل الأخير من الطريق.

بقيتُ فيها يومين، كانت تمطر خلالهما على نحو مستمرّ تقريباً، ولذلك فإنّي لا أعرف حلب - إنها مدينة شرقيّة لا تسمح لك بدخول دائرة خصوصيّاتها ما لم تمكث أشهراً داخل أسوارها، ولن تحصل على ذلك أيضاً ما لم تعاني - لكنّي لم أتركها قبل أن أدرك على نحو ضعيف بأنّ هناك ثمة أشياء يجب أن تُعرف.



قربة على شكل خلايا النحل

إنها لمدينة عربيّة رائعة؛ وعندما تسير في شوارعها الضيّقة فإنّك تمرّ بمآذن ومدخل تنتمي لأجمل مرحلة من الهندسة العربيّة؛ وبعض المساجد والحمامات والخانات (وخاصّة نصف المتهدّمة منها والمغلقة) كلّها من الطراز نفسه، وتُعدّ القلعة أفضل مثال على صنعة العرب في القرن الثّاني عشر في سوريا كلّها، مع الأبواب الحديدية من نفس الحقبة - وقد أرخت - وقطع جميلة من التّرينات. ولا بدّ أنّه لا يزال هناك نشاط محليّ يتطابق مع تلك العلامات من العظمة الماضية. ولكن البلدة عانت من

أيام سيئة، فلقد حوصرت بجشع الامتيازات الأوروبية للباحثين عن الفرص، وهي تعاني جداً، أكثر من معظم البلدات السورية من السيطرة الخائقة للدولة العثمانية. وهي تموت ببطء بسبب حاجتها إلى منفذ على البحر، ولن تقوم لسكة الحديد الألمانية ولا الفرنسية بسد حاجتها. وحتى الآن فالشركتان منهُمكتان بنشاط في معارضة إحداث Birijik - ولقد أُخبرت بأن البطاقات إلى بيره جيک قد طُبعت عندما مُدّت السكك أولاً في رياق. ومن ثم جاءت ألمانيا، بمشروعها العظيم لسكة حديد بغداد. وقد حصلت على امتياز لخط فرعي من كلس Killiz إلى حلب، وعملت ما استطاعت لتمنع الشركة الفرنسية من التّقدّم إلى ما بعد حماة، بدعوة أنّ خط الحديد الفرنسي سيقُلل من قيمة الامتياز الألماني - وحسب معلوماتي، التي قد تكون متخيّلة، فهي ليست من أرشيف الإمبراطورية ولكن من مصادر محلّية في حلب نفسها.

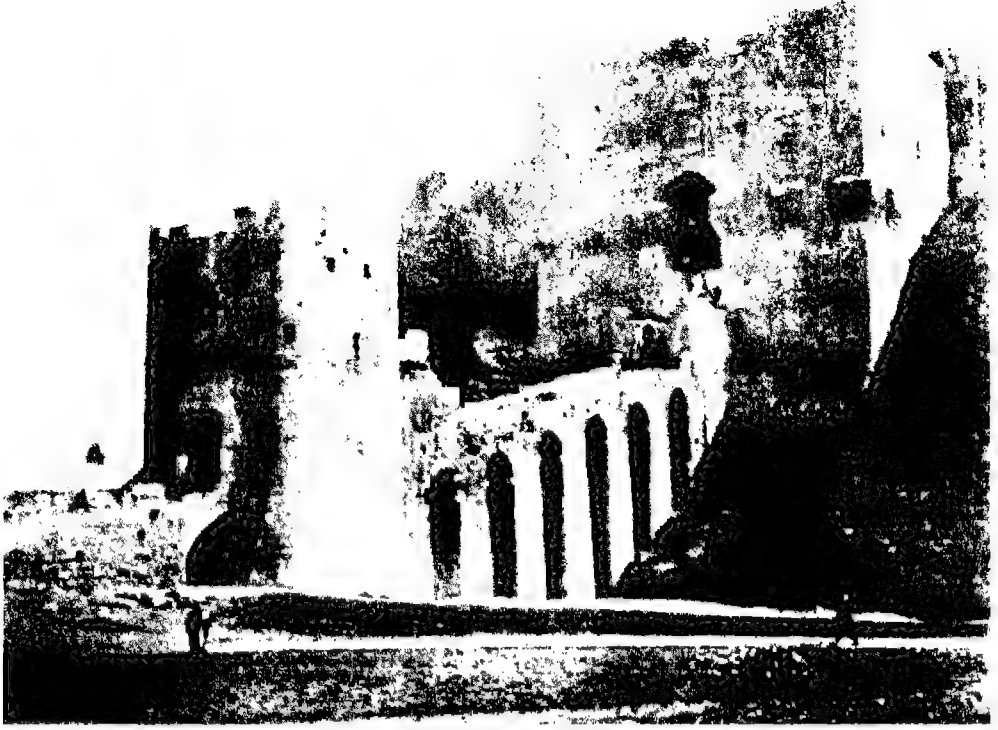
بعد أن غادرتُ سوريا تابع الفرنسيون عملهم المتوقّف على خط رياق - حماة Rayak - Hamah على الرّغم من أنّه سيُمثّد إلى الأمام، ولكن حسب اعتقادي ليس إلى بيره جيک Birijik ولكن إلى حلب فقط على أبعد مدى⁽¹⁾، ولن يكون له فائدة في البلدة، فتجّار حلب لا يرغبون بإرسال بضائعهم في رحلة تستغرق ثلاثة أيّام إلى بيروت؛ إنهم يريدون مرفأ قريباً لهم، يمكنهم من حيازة جميع المنافع من التّجارة، ويجب أن يكون المرفأ الإسكندرون Alexandretta.

وفي حال اكتمل خطّ حديد بغداد فإنّه لن يحقق لهم الحصول على أيّة فائدة. وبالنسبة للخطّ الفرعي الموجود سابقاً (وقد بُني من قبل رأسماليين إنكليز وفرنسيين، لكنّه أصبح الآن تحت سيطرة الألمان) فإنّ سكة الحديد ستصلّ إلى البحر في مرسينا Mersina (مَرسين) ولكن مرسين تبعد عن حلب كما تبعد بيروت عنها. وهذا خط يجب أن يمتد مباشرة من حلب إلى الإسكندرون وهو شيء يعتبر وقوعه بعيد الاحتمال إلى أبعد حد، طالما أنّ السلطان يخاف أكثر من أيّ شيء من ربط طرق

(1) كتبت المؤلفة: والخط الآن مكتمل حتى حلب.

القوافل الداخليّة بالسّاحل، مخافة أن تجد الجيوش الأجنبيّة، وبشكل خاص البريطانيّة ذلك فرصة سهلة على نحو خطر في أن تقوم بإنزال العسكر من سفنها الحربيّة وتسير إلى البلد.

يجب على حَلَب أن تبقى، كما كانت في الأوقات الماضية، المركز الموزّع الكبير لبضائع الدّاخل، ولكنّ حركة النّقل اختنقت بسبب التّكرار المميت لمصادرة الحكومة لجِمال الأمتعة. وفي السّنة الماضية، حين كانت الحرب اليمنيّة قائمة ازدادت الشّكوى حيث تولّت الدّولة نقل الجنود من ثكناتها في الدّاخل إلى السّاحل من أجل ركوب سفن النّقل البحريّة والذهاب عبر البحر الأحمر. ولأكثر من شهر كانت التّجارة راكدة والبضائع محزومة ومتراكمة فوق بعضها عند السّاحل انتظاراً للنّقل، وإذا استمرّت الحالة فترة أخرى فسيتوقف نقل البضائع نهائياً - لأنّ مالكي الجِمال القادمين من الشّرق لن يجرؤوا على دخول منطقة الخطر لحيواناتهم. سمعت هنا، كما سمعت في المدن التركيّة الأخرى، صرخة الإفلاس الرّسمي. لم يكن لدى الحكومة رؤوس أموال تباشر بواسطتها أغلب الأعمال الضّروريّة، فلقد كانت الخزائن فارغة تماماً.



قلعة حلب

على الرغم من أن مكوثي كان قصيراً فإني لم أخرج من دون تعارفات شخصيّة، كان من بينهم الوالي، الشخصيّة الأكثر أهميّة. إن كاظم پاشا Kiazim Pasha رجل ذو طابع مختلف تماماً عن والي دمشق. فقد كان الأخير رجلاً دولة طبعاً لمواصفاته في حين لم يكن كاظم سوى رجل مهذار *farceur*.

استقبلني في قسم الحريم عنده، وشررت عندما رأيت زوجته، التي كانت من أجمل النساء التي يمكن أن تراها، فهي طويلة جليلة برأس صغير أسود الشعر ينسدل على كتفين رائعين وأنف مستقيم صغير وذقن بارزة وحاجبين مقوسين فوق عينيّن تشبهان بركتين سوداوين - لم أستطع أن أمنع نفسي من التحديق في وجهها عندما جلست معنا. كانت هي وزوجها چركسيين، الحقيقة التي جعلتني محترسة قبل أن يفتح الوالي

شفتيه. تكلم كلاهما بالفرنسية، وكانت تتكلمها بشكل جيّد جداً. استقبلني بأسلوب فظّ وكانت ملاحظته الأولى هي:

«Je suis le jeune pasha qui a fait la paix entre les églises».

«أنا البابا الشاب الذي أنهى الخلافات بين الكنائس».

كنت أعلم ما يكفي عن تاريخه لأدرك بأنّه كان متصرّف القدس في وقت عندما كانت المنافسات بين الطوائف المسيحيّة قد انتهت بعدد من القتلى أكثر من المعتاد، ثمّ تمّ التوصل بصعوبة كبيرة إلى تسوية، ولم أسمع إن كان قد حصل هذا عن طريق براعته أو بسبب ضرورات الحالة.

قال البابا: «كم تتوقّعين عمري؟».

أجبت بلباقة بأنّي أعطيه خمساً وثلاثين سنة.

قال بانتصار: «ست وثلاثون! ولكن القناصل كانوا يصغون إليّ. يا إلهي! Mon Dieu! لقد كان ذاك مركزاً أفضل من هذا، على الرّغم من أنّي الآن والٍ. هناليس لديّ مناسبة لأجتمع بالقناصل، ويحتاج رجل مثلي إلى مجتمع من الأوروبيين المثقفين».

(ادّعاء لا يُصدّق: موظّف شرقي يعلن بأنّه يفضّل رفقة الأوروبيين).

قال: «أنا محبّ لإنكلترا بشكل كبير».

عبّرت عن إقرار بلادي بالجميل بعبارات مناسبة.

وأضاف بسرعة: «ولكن ماذا تفعلون في اليمن؟».

قلت: «سعادتك، نحن الإنكليز شعب مجاور للبحر، ولا يوجد سوى مكانين نهتمّ بهما في كلّ الجزيرة العربيّة».

استكمل: «أعرف، مكّة والمدينة».

قلت: «لا، عدّان الكويت».

أجاب غاضباً: «وقد احتللتكم كليهما» - نعم، أنا مضطّرة للاعتراف بأن نبرات صوته لم تكن تلك المولعة بالإنكليز.

بدأتواً بإخباري أنّه الوحيد بين الباشوات الذي حاز على الضّروريات الحديثة. فقد عني ببناء طريق سكة حديد جديد إلى إسكندرون Alexandretta - ليس لأنّها ستكون مستخدمة جدّاً، كما أظن، بل لأنّه لا يوجد جمال للسّير عليها - كالطريق التي كان قد بناها من السّامرة Samaria إلى القدس. كان ذلك طريقاً لا يوجد مثله في تركيا - ألا أعرفه أنا؟ كنت قد سافرت عليه مؤخّراً، واغتنمت الفرصة لامتداح منشئه؛ لكنّي لم أجد أنّ من الضّرورة ذكر أنّه معطل عند أسفل التّلة الوحيدة والهامة ولم يُرمم مرّة أخرى حتّى وصلت قمّة جبال برّيّة اليهوديّة Judacan.

هذا كلّ ما يجب أن يقال عن أساليب كاظم باشا Kiazim Pasha.

وعلى نحو أكثر لطفاً بكثير كان التّعرف بمطران الرّوم الكاثوليك، وهو رجل دمشقي تعلّم في باريس وكان لبعض الوقت راعي أبرشيّة لطائفة الرّوم الكاثوليك في المدينة، على الرّغم من أنّه لا يزال شابّاً نسبياً. كنت قد أعطيته رسالة للتعريف بي فاستقبلني بدماثة كبيرة في بيته. جلسنا في غرفة مليئة بالكتب، والنوافذ مفتوحة على فناء قصره الهادئ، وتكلّمنا عن المسارات التي يجول فيها الفكر في أوروبا؛ ولكنّي سرّرت بأنّه مع كلّ ما تعلّمه ومع إقامته الطويلة في الغرب، فإنّ رئيس الأساقفة هذا لا يزال شرقياً في قلبه.

قال: «لقد فرحت عندما أمرت أن أعود من باريس إلى بلدي. ففي فرنسا يوجد الكثير من العلم، ولكن القليل من الإيمان؛ بينما في سوريا، على الرّغم من وجود الكثير من الجهل، فإنّ الدّين يستند إلى أساس متين من الإيمان».

والخلاصة التي يمكن أن تؤخذ من هذا التصريح ليست إطراءً للكنيسة، لكنّي أحجم عن التعليق.

ظهر في فترة بعد الظّهر ليردّ دعوتي - ويجب أن يراعي الجميع هذه القاعدة الاجتماعيّة من الوالي فنزلاً - واضعاً صليبه الذهبي وحاملاً عصاه الأسقفية في يده. تدلّى من قبعته

الطويلة التي ليس لها حوافّ خمارٌ أسود حتى ظهره، وكان ثوبه الأسود ذا حواف أرجوانية، سار خلفه قسيس متّضعاً. ووجد عندي زائراً آخر يجلس معي في ردهة التّزل، وهو نقولا حمصي Nicola Homsy، صاحب بنك غني من طائفته. ينتمي حمصي إلى عائلة مسيحية مهمّة تقيم في حلب، ولمصرفه فروع في مرسيليا Marseilles ولندن. كان بينه وبين المطران ثقة متبادلة جميلة وتعاون في معظم الأعمال مع أفضل الطبقات المثقفة في سوريا. وهما يعانيان من قبضات الأتراك - الكاهن، بسبب معارضة رسميّة عمياء لا معنى لها تقابل المسيحي في كلّ منعطف؛ والمصرفي بحسب اهتماماته يصرخ عالياً من أجل التّقدّم، والتّقدّم هو الذي لا يريد الأتراك أن يفهموه أبداً.

لذلك سألتهما ماذا يتوقّعان عن مستقبل البلد، فنظر كلّ واحد منهما إلى الآخر، وأجاب المطران:

«لا أعرف، لقد فكّرت عميقاً بالموضوع، ويمكنني أن أرى أنّه ليس هناك مستقبل لسوريا، في أيّ طريق التفتُّ».

كان هذا هو الجواب المعقول الوحيد الذي سمعته عن أي جزء من القضية التركيّة. رُتب الوضع في حلب من قبل السلطان ليكون مناسباً بشكل خاصّ للباشاوات غير المرغوب بهم في القسطنطينية. والبلدة مليئة جداً بالمبعدين حتّى أنّ الزائر العابر إلى أبعد حد يمكنه أن يكون معرفة شخصيّة بعدد قليل منهم. كان واحد منهم ينزل في فندقي، وهو شخص متشائم لطيف السّمة، والذي لا يمكن لأحد أن يتوقّع شيئاً عن تعاطفه الثّوري. ربّما لأنّه لم يكن في الحقيقة مع الثّوريين، وإنّما يعود سبب نفهه إلى زلّة لسان ليس غير، نُقلت وبولغ فيها من قبل عدو أو جاسوس.

وقد اعتدْتُ أن أرى الكثير من هؤلاء المنفيين مبشرين هنا وهناك في آسيا الصّغرى، ولم يستطع أيّ واحد من الذين قابلتهم أن يخبرني ما هو السّبب الذي جعلهم يعانون من عقوبة التّفي. ومن دون ريب، فلا بدّ أن يكون لدى البعض ما يريب، والبعض كان مدرّكاً تاماً وعلى نحو كامل لإساءته، ولكن غالبيتهم كانوا جاهلين على نحو بريء. والآن فإنّ

هذا الأمر يلقي حملاً أكبر على موضوع الشعور الوطني التركي أكثر مما قد يبدو للوهلة الأولى؛ والحقيقة هي أنّ هؤلاء الباشاوات المبعدين هم رطّيون على نحو نادر جداً ويدفعون ثمن إخلاصهم لهدف وطني، ولكن في الواقع هم رجال أبعدهم التغيّر غير المحظوظ للحوادث عن النظام الموجود. وإذا كان هناك أيّ فرصة يمكن أن تعيدهم إلى الامتياز فستجدهم متلهّفين على نحو عصبي، حتّى في المنفى، في أن يحجموا عن أيّ فعل يمكن أن يفضي إلى زيادة الرّيبة الرّسميّة؛ ويكون هذا فقط عندما يقرّرون بأنّه لا أمل لهم طالما أنّ السلطان الحالي على قيد الحياة، ذلك لأنّهم يتمنّون أن يقيموا صداقة على نحو حرّ مع الأوروبيين أو أن يتحدّثوا بانفتاح عن مظالمهم.

وحسب رؤيتي فليس هناك كتلة منظّمة لرأي تحرّري في تركيا، ولكن مجرد استياءات فردية أسست على محنة شخصيّة. ويبدو أنّه من المستبعد عند عودة المنفيّين إلى القسطنطينية بعد موت السلطان أن يقدّموا أيّة خطّة لإصلاح أو أن يظهروا أيّ رغبة لتغيير النظام الذي يعيشون في ظلّه من خلال ثورة المصالح الطّبيعية عندما يجدون أنفسهم فيه مرّة أخرى أشخاصاً معتبرين.

هناك شكل آخر من النّفي يمكن أن يقابله الإنسان في تركيا، وهو العقوبة المحترمة بتوظيف في منطقة بعيدة. وأظنّ أنّ ناظم پاشا Nazim Pasha نفسه ينتمي إلى تلك الفئة، وكذلك صديقي محمّد علي پاشا الحلبي. فالأخير يُعدّ رجلاً مقبولاً في الثلاثين من عمره تقريباً، وهو متزوّج من امرأة إنكليزيّة. لقد رافقني إلى منزل الوالي، وحصل على إذن لي بزيارة القلعة، وأوجد العديد من الطّرق لي يجعل نفسه مفيداً. كانت زوجته سيّدة صغيرة لطيفة من بريكستون Brixton؛ كان قد قابلها في القسطنطينية وهناك تزوّجها، الأمر الذي ربّما وحسب علمي كان السّبب إلى حدّ ما في سقوط حظوته، وذلك لأنّ الأمة الإنكليزيّة جماعة غير مرغوب بها في قصر يلدز Yıldız Kiosk.

ومحمّد علي پاشا رجل نبيل بكلّ معنى الكلمة، ويبدو أنّه يحاول أن يجعل زوجته سعيدة؛ لكن يجب أن يكون مفهوماً بشكل واضح بأنّي لم أستطع كقاعدة عامّة أن أزكي الباشاوات الأتراك كأزواج للنّساء من بريكستون Brixton. وعلى الرّغم من أنّها تلعب

التنس في نادي التنس، وذهبت إلى مجموعات الخياطة للجالية الأوروبية، فقد أُكرهت على أن تطبق إلى حدٍّ ما عادات النساء المسلمات. فهي لم تخرج إلى الطرقات أبداً دون أن تكون محجّبة؛ قالت: «لأنّ الناس سيقولون إنّ زوجة البابا تسير سافرة».



وصلنا القلعة في الساعة الوحيدة التي أشرقت فيها الشمس خلال وجودي في حلب، وأخذنا في جولة من قبل ضباط لطفاء، بتياب رسميّة فاخرة وسيوف ومهاميز مقلّعة، وكانوا قلقين بشكل واضح بأنّه يجب ألا تفوتني زيارة المسجد الصغير وسط القلعة، المشيّد على البقعة ذاتها التي حلب فيها إبراهيم بقرته. وقالوا إنّ الاسم الفعليّ لحلب يعود إلى حادثة تاريخيّة، ولا يمكن أن يكون هناك شكّ بأنّ صيغتها العربيّة Haleb (حلب) تتألّف من أحرف الجذر نفسه الذي يشكّل صيغة الفعل حَلَب⁽¹⁾.

وعلى الرّغم من الدّلالة العميقة للمسجد، فقد كنت مستمتعة جدّاً بالمنظر في قمة المئذنة. حيث يقبع سهل بين النهرين، ممتدّاً أمامنا، منبسّطاً كالمنصّة - ويمكن رؤية نهر الفرات من ذاك البرج في نهار صاّح، وفي الحقيقة من الممكن أن تشاهد بغداد لولا الطّريق المتعب الذي تحنيه الأرض الكروية، حيث لا يوجد أيّ حاجز أمام العين في كلّ هذا السّهل العظيم.

وإلى الأسفل منّا، كانت أسطح الأسواق والخانات، مع مناظر علويّة هنا وهناك للأفنية الرّخاميّة مع ذروة جميلة لمئذنة. كانت الأشجار والمياه مفقودة في المنظر، ويُعدّ الماء المشكلة الأساسيّة في حلب نفسها. فالتّهر الرّاكد الذي ينبع من المطّخ⁽²⁾

(1) قد يظن بعض الباحثين هذه التسمية مضحكة أو بعيدة عن الصّواب، لكن الواقع أن اسم حلب (ومثلها حلبا في شمال لبنان، وخبون شمالي دمشق) يستمد من المفردة الكنعانيّة (حلب) حليب التي تعني: الأبيض. ومثلها (لبان) اللبن التي تشير إلى الأبيض أيضاً، ومنها في الكنعانيّة: لبانون، البياض، أي اسم جبال لبنان. ولكن بالطبع لم يؤخذ اسم مدينة حلب من الفعل (حَلَب) بل من الاسم الذي يعني البياض.

(2) ذكرنا أعلاه أن هذا خطأ، فهر قويق ينبع من هضبة عنتاب في جنوبي تركية ويمرّ في حلب ثم يصبّ في سبخة المطّخ جنوبي المدينة.

Matkh يجفّ في الصّيف، والآبار مالحة طوال السّنة حوله. ويجب أن يُجلب ماء شرب جيّد من مسافة بعيدة، ويكلّف مصروف البيت الواحد من الماء قرشاً واحداً في اليوم على الأقلّ وهو إضافة بليغة على تكاليف الحياة. لكن المناخ جيّد، بارد قارس في الشّتاء ولا تدوم حرارة الصّيف العالية أكثر من شهر أو شهرين في الصّيف. هذه هي حلب المدينة العظيمة باسمها الرّتّان وآثار ماضيها الباهر.



حَمَل الماء



الفصل الثاني عشر

كانت كل لحظة فراغ خلال إقامتي لمدة يومين في حلب مشغولة بتغيير البغالين. بدا ذلك أمراً مهماً ولو أنه إجراء يؤسف له. في أنطاكية Antioch كان يتوجب علينا الوصول إلى حدود السّكان الذين يتكلّمون العربيّة. فحبيب وأبوه لا يعرفان أيّة كلمة تركيّة، وكان ميخائيل يعرف بعض الأسماء الأساسيّة مثل: بيض، حليب، قرش، بينما كنتُ بالكاد أكثر براعة.

خشيت من الاقتحام بسرعة مع مجموعتي الصّغيرة في أراض من المفترض أن نكون غير قادرين فيها على فعل أكثر من إظهار حاجتنا الأكثر إلحاحاً أو أن نسأل عن الطّريق. كانت جدارة البغالين الملحوظة في شمال سوريا فيها الكثير من التبجح بالنّسبة لي - فإنّ اسم البغال هو في الحقيقة اسم مغلوّط، لأنّ حيوان التّحميل في الحقيقة في هذه المناطق هو فرس ضعيف هريم يرثى له، يُطلق عليه في العربيّة اسم كديش Kadish، وأشكّ في أن نكون شاهداً بغلاً من إسكندرون Alexandretta إلى قونية Konia، والواقع أنّنا لم نر في الحقيقة أبداً قافلة من البغال.

وفوق ذلك فقد سمعت أنّه من غير المفيد أن أسأل عن وسيلة للسفر المريح، دون إزعاج أو حمل للمسؤوليّة، وعلى نحو موصول وبسرعة حتّى أتعرف على خدمي، وكان ذلك عندما أصل قونية Konia حيث يتوجب عليّ أن أكون قادرة على صرف قافلتني إذا أحببت، وكما أحب، وسيجد الرّجال من حلب طريق عودتهم بحمولة أخرى. وهكذا ودّعت رجالي البيروتيين - بسلام.

كان النظام الذي سارت عليه الرحلة من الآن فصاعداً نظاماً مجهداً. وكان المستغلّ رجلاً مسناً أورد تيساً، اسمه فارس ويتشارك مع أخيه إحدى أكبر مجموعات حيوانات التحميل في حلب. وبسبب فقدانه لأسنانه فإنه يتكلّم العربيّة والتركيّة على نحو مبهم؛ أمدني بأربعة من جياذ التحميل وركب هو على خامس، من أجل راحته وعلى نفقته، على الرّغم من أنّه حاول عبثاً أن يجعلني أدفع أجر ركوبه عندما وصلنا إلى قونية Konia؛ واستأجر غلامين بأجر الكفاف، ليقوما بكلّ أعمال التخيم والسير، وأطعمهما طعاماً قليلاً.

سار هذان التّيسان على أقدامهما (وقد زوّدهم اللّبنانيون المستقلّون بالحمير)، وكان جزء من اتّفاقهما مع فارس أنّ عليه أن يعطيتهما أحذية، لكنّه رفض أن يفعل ذلك حتّى تدخّلت وهدّدت بأنّي سأحسم من أجرته ثمن الأحذية وأشتري لهما حذاءين بنفسني. واضطرت أيضاً بأن أنظر في موضوع المؤن وأتأكد من أنّ لدى الغلامين على الأقلّ طعام كافٍ يمتكّنهما من العمل على نحو جيّد؛ ولكن على الرّغم من كلّ جهودي فقد كان الغلامان المستأجران يفرّان عند كلّ مرحلة، وعانيت إزعاجاً متواصلاً من التّأخيرات النّاجمة عن صعوبة إيجاد آخرين، وأكثر من ذلك، من ضرورة تعليم كلّ زوج جديد تفاصيل عملهما - أين المكان المناسب لتثبيت الخيمة، وكيف يجب توزيع الأحمال، ومئات من الأمور الأخرى الصّغيرة لكن المهمّة.

كان عليّ أيضاً أن أحث فارس، الذي كان قد زوّد بعدد أكبر من الأعذار للتهرب من العمل أكثر من أيّ رجل في حلب، وذلك بالقيام ببعض المشاركة في واجبه، وأن يشرف ليلاً ونهاراً على إطعام خيولي، وإلاّ فإنّها ستهرب من الجوع شأنها شأن الغلامين المستأجّرين. أخيراً وعندما وصلنا إلى قونية Konia، وجدت أنّ فارس كان قد ردّ عبديه الأخيرين إلى الشّارع، ورفض بشكل قاطع إعادتهما إلى بلدهما أضنة Adana، قائلاً إنّّه عندما غاب عن ناظري استطاع أن يحصل على رجال أرخص منهما؛ وحيث أنّني لن أتخلّى عن الغلامين اللذين قاما بفعل ما أمكنهما لخدمتي، بالرّغم مما كانا يبذلانه من جهدهما الغبي، فقد كنت مضطرة لمساعدتهما في العودة إلى بلدهما.

وعليّ أن أقول لألخص الدليل بأن هؤلاء الذين يزكون البغاليين من حلب ونظامهم
البغيض لن يستطيعوا أبداً الإرشاد إلى مخيم منظم ومرتب بشكل جيّد، حيث يسير
العمل بانتظام مثل ساعة بيغ بن Big Ben، ويكون الرّجال طلقى الوجوه وماهري
الأيدي، ولا يمكنهم أيضاً الحصول على خبرة في عمل حقيقي مثل الرحلة، لأنّ هذا
غير ممكن إلا مع خدم يظهرون شجاعة في الصّعوبات، ومغامرةً ودهاءً.

أسلّم بأنّ خبرتي صغيرة، وأؤكد بثقة أنّها لن تكون أكبر، لأنّني سأجلب بغاليين من
بغداد مفضّلة ذلك على التّعاقّد مع فارس وأمثاله مرّة أخرى.

كان ذلك تماماً عندما تضاعفت مصاعب الرحلة لأنّ فعالية ميخائيل ضعفت. فقد
أمضى يومين وهو يشرب نخب صحتة رفاقه الرّاحلين الذين كان له معهم علاقات
ممتازة، كما يجب أن يكون أعضاء مخيم جيّد، وكان هذا اليومان كافيين لتحطيم
تأثيرات شهرين من الرّزّانة. ومن ذلك الوقت وحتى الآن فقد تواجّدت زجاجة العرق
بشكل كبير في حقائب خُرجه، ومع أنّه من الممكن البحث عن الزجاجة والعثور عليها
في حقائب خُرجه وكسرها بحجر، فليس هناك أيّ مقدار من الاحتراس يمكن أن يبقى
ميخائيل بعيداً عن الخمّارة عندما نصل إلى أيّ بلدة.

تعلّم المحنة دروساً عدّة؛ عدتُ بتفكيري إلى الخلف بمشاعر مختلطة إلى الأسابيع
الأربعة العسيرة ما بين رحيلنا من حلب والوقت الذي أرسلت لي فيه العناية الإلهيّة
رجلاً آخر أفضل ولقد قسّيت قلبي لأصرف ميخائيل من الخدمة، لكنّي لم أندم على
التعليم الذي فُرض عليّ.

وصل الحاج محمود في حلب إلى نهاية مهمّته، ووّدعته على كُره وداعاً حارّاً جدّاً.
زوّدني الوالي بضابط كان اسمه الحاج نجيب، وهو كردي بهيّة غير جذّابة، لكنه أثبت
وعن اطلاع أنّه رجل مفيد وميال للمساعدة، خبير بالمنطقة التي سافرنا عبرها سوياً،
وبالنّاس الذين يقطنونها. كنّا قد تأخّرنا بالانطلاق، بسبب سُكر ميخائيل من شرب
العرق والبغاليين الذين تعوزهم البراعة في التّحميل.

كان النهار صاحياً (كان يوم الثلاثين من مارس)، ولأول مرّة كانت الشمس حارّة على نحو بغيز. وعندما انطلقنا في السّاعة العاشرة كانت متوهّجة بقوة فوقنا، وعلى طول مسيرة يوم كامل لم يكن هناك أيّ مساحة قليلة من ظلّ على طول الطّريق القاحل. اتبعنا لمسافة ميل أو أكثر طريق الإسكندرون Alexandretta العام، مارّين بمقهى حوله قليل من الأشجار، وسرعان ما انحرّفنا بعده بعيداً نحو اليسار ودخلنا طريقاً قادنا إلى هضاب صخرية جرداء، وبسرعة أصبحت صخرية مثلها. وكان طريقنا نحو الشرق مع انحراف قليل نحو الشّمال.

توقّفنا عند السّاعة الثّانية عشرة والنّصف من أجل تناول الغداء، وانتظرنا وصول الأمتعة ساعة كاملة، واستعرضتُ خلال هذا الوقت الضّائع سرعة المسير النسبيّة لخدمنا الجدد والقدامى والحرارة المحرقة للشمس التي لم تكن ملحوظة جدّاً عندما كنّا نسير. مررنا بعد مسير نصف ساعة بكوخ ياقّت عدس Yakit'Ades، حيث اقترح نجيب أن نخيّم. لكنني قرّرت بأنّ الوقت ما يزال باكراً جدّاً، وبعد أن أعطينا فارس أوامر صارمة فيما يتعلّق بالطّريق الذي عليه أن يتّبعه والنّقطة المحدّدة التي يجب أن نخيّم فيها، حشنا سيرنا أنا والضّابط، ولم تمضِ إلّا فترة وجيزة حتّى أصبحنا غائبين عن نظر البقيّة.

ركبنا على طول قعر وادٍ أجرد ملتوٍ، مارّين بعدّة أماكن كانت ملحوظة على الخارطة على الرّغم من أنّها لم تكن أكثر من الكومات الأصغر من الخرب، وانعطفنا عند السّاعة الرّابعة صاعدين المنحدر الشّمالي للوادي ووصلنا قرية صغيرة لم تكن معروفة لكبيرت Kiepert، وأخبرني نجيب أنّ اسمها كباشين Kbeshin. وجدنا هنا، بين بعض الجدران القديمة والعديد من أكوام النفاية الحديثة، معسكراً كرديّاً، وهو أحد المخيمات الربيعيّة التي يسكن فيها أنصاف البدو مع قطعانهم في فصل العشب النّضر. كانت جدران الخيام، إذا أمكن أن نسمّيها خياماً، مبنية بشكل فظّ من حجر يصل إلى ارتفاع خمسة أقدام تقريباً، ولكن كانت الأسطح من نسيج شعر الماعز، ارتفعت في الوسط بواسطة سوارى الخيمة.

احتشد حولنا الرعاة الأكراد وتحدّثوا مع نجيب بلغتهم الخاصّة، والتي بدت مألوفة على نحو غامض بسبب شبهها باللّغة الفارسيّة. تكلّموا أيضاً بالعربيّة، برطانة غريبة مليئة بكلمات تركيّة. جلسنا لبعض الوقت على كومة من سَقَط المَتاع ننتظر حيوانات الأمتعة إلى أن اقتنعت، على الرّغم من تأكيد نجيب، أنّه لا بد أن يكون قد حصل توقّف مفاجئ وربّما علينا أن ننتظر إلى الأبد عبثاً. وفي هذه اللّحظة أعلن شيخ الأكراد بأنّه حان وقت العشاء، ودعانا للمشاركة في الطّعام. إن إحدى إيجابيّات الحياة في الهواء الطّلق بالنّسبة للقليل من الطّعام هو أنّه لا توجد لحظة من النّهار تكون غير راغب أو مستعدّ لتناول الطّعام، وهكذا سررنا بهذا الاقتراح.

ليس للكرد اسم جيّد في حوليات الرّحلات. ويمكن للتّقرير أن يصفه بأنّه عبوس ومشاكس، ولكن بالنّسبة لي فقد وجدته معطاءً ولديه معظم الصّفات للتّعامل الاجتماعي المقبول.



قلعة سمعان

أدخِلنا إلى أكبر البيوت؛ كان مضيئاً وبارداً باعتدال، مهوًى ونظيفاً، وأعطته تركيّته المميّزة مزايا البيت والخيمة. كان الطّعام مكوّناً من خبز طازج وخُثارة لبن حامضة ومن پيلاف pillaf (أرز ولحم وتوابل) ممتاز، وقد استُبدل فيه القمح المجروش

بالأرز. مُدَّ الطعام فوق حصيرة، وجلسنا حوله على بُسط بينما قامت النساء بخدمتنا. كانت السّاعة قد أصبحت السّادسة في الوقت الذي انتهينا فيه من تناول الطّعام ولكن لم تظهر القافلة. كان نجيب مرتبكاً جدّاً، وتعاطف مضيفونا بشدّة مع حالتنا، في حين أعلنوا بأنّهم يرغبون جدّاً بإيوائنا تلك اللّيلة.

انتهى تردّدنا بعد قليل بقدوم صبي صغير جاء راكضاً ومعه أخبار بأنّ قافلة شوهدت تعبر قرية فافرتين Fafertin على الجانب المقابل من الوادي، وستتجه بعدها إلى قلعة سمعان هدفنا النهائي. لم يكن هناك وقت لنضيقه، فقد غابت الشّمس وكان لديّ ذكرى قوية حول تجوالنا في اللّيل قرب البارة El Barah في منطقة ليست متباعدة عن تلك التي تمتدّ أمامنا، ولكن قبل أن نبدأ أخذت نجيب جانباً وسألته فيما إذا كان عليّ أن أدفع نقوداً مقابل ضيافتي. أجاب أنّه لا يمكن ولا بأيّ حال أن أفكر بذلك، فالأكراد لا يتوقعون أن يأخذوا ثمناً من ضيوفهم. جعلني ذلك كلّهُ أستدعي الأطفال وأوزع قليلاً من المتأليّك بينهم، عبارة رخيصة من السّخاء، وهو شيء لن يثير ضيق المشاعر الأكثر حساسيّة.

انطلقنا يقودنا نجيب وسرنا بسرعة على طول الطّريق الحجري الذي وجدت الصّعوبة الكبرى في مجاراته. كنت أعرف أنّ كنيسة القديس سمعان العمودي St. Simon Stylites العظيمة تقع على هضبة ويجب أن تُرى من بُعد، على الرّغم من أنّ عمود القديس المشهور، الذي بُنيت حوله الكنيسة، كان قد سقط منذ قرون.

بعد ساعة من الرّكوب المتعثّر أشار نجيب بصمت إلى التّلال المعتمّة، واستطعت بصعوبة أن أميّز كتلة من شيء كان يبدو مثل قلعة تعترض خطّ الدّروة. أسرّعنا وسرنا نصف ساعة أخرى ووصلنا الأسوار عند السّاعة السابعة والنصف في ظلام دامس. وبينما كنّا نسير عبر الكنيسة الضّخمة سمعنا ما يريحنا وهو صوت رنين أجراس القافلة الذي أكّد لنا وصول الخيام - وسمعنا أيضاً أصوات صراخ وتوبيخات ميخائيل الذي تحت تأثير جرعات العرّق كان هائجاً مثل حيوان وحشي رافضاً أن يعطي البغالين الجدد أيّة فرصة ولو صغيرة للتعامل مع خيمتي الإنكليزيّة. وبما أنّني كنت الشّخص

الوحيد سليم العقل الذي يعرف كيف توضع السّواري معاً بشكل مناسب، إذ يتمّ دقّ الأوتاد في الأرض ثم يُمدّ الأثاث، فقد كنت مضطرة إلى القيام بالقسم الأكبر من العمل بنفسي على ضوء شمعتين، وعندما انتهى ذلك كان عليّ البحث عن صندوق أدوات المائدة من أجل الخبز والسمن من أجل البغالين، وأصدرت أمراً لطباخي المتمرّد بأنّ عليه أن يحضر وجبة العشاء المعتادة من الأرز وقد استقبل هذا الطلب بأصوات عويل ساخرة امتزجت بلعنات على الجميع كلّهم بلا استثناء. تعتبر مناقشة رجل سكران أمراً صعباً، ولكن بأيّ مشاعر استطعت الاحتفاظ بالصمت متمنية لو أنّ الملاك الذي يسجّل أفعالنا يغفل عن تدوين ذلك.



تتمّة صورة قلعة سمعان

أخيراً، وعندما أصبح كلّ شيء جاهزاً، تجوّلتُ بعيداً في الليلة الربيعية الجميلة، عبر الكنيسة الفخمة والهادئة أسفل الأسوار حيث كنا نقيم، وسرعان ما وجدت نفسي في فناء مستدير مكشوف، يمكن الوصول إليه من جهات الكنيسة الأربع التي هي مثل اتّجاهات البوصلة. كان الفناء محاطاً بصف أعمدة منقطع النظير حيث أنّ الكثير من الأقواس لا تزال قائمة، وارتفع في الأيام السّالفة في وسطها العمود الذي عاش عليه القديس سمعان St. Simon ومات.

تسلّقتُ بعجلة أكوام الخرائب حتّى أتيت إلى القاعدة الصّخرية المشقوقة لذلك العمود بالذّات، وهي عبارة عن كتلة عريضة من حجر متصدّع مع انخفاض في الوسط، بحيث يشبه إناءً صغيراً مملوءاً بماء مطر نقي، غسلتُ يديّ ووجهي فيه. لم يكن هناك قمر؛ ووقفت الأعمدة والأقواس في فخامة وهميّة متهدّمة، وامتدّ الهواء ناعماً مثل بركة هادئة تقاطرت من الزّوج مغناطة ومرهقة، وتركته عارياً أمام السّماء والرّبيع. جلستُ وفكرت كيف تلاعب قدّر مخادع بقديس متجهم. كان قد أعطى الليلة واحدة عرش أحلامه المريرة لشخص كانت أحلامه ورديّة بقناعة عميقة بأنّه سيكون أوّل المُدائنين. وبأمل كبير ألقيتُ نظرة على نجم كبير كان قد ارتفع فوق خطّ الرّواق المقنطر المتهدّم، واتّفقنا معاً بأنّ الشّفر بين الأرض والسّماء أفضل من الجلوس فوق عمود طوال أيام عمرك.

كان أعضاء مسح الأراضي الأميركيون قد رسموا بالتفصيل وتحزّروا بتمكّن الجبال الشّماليّة حتّى قلعة سمعان، ولكن لا هم ولا أحد غيرهم من الرّحّالين قاموا بنشر تقرير عن المنطقة كثيرة التّلال إلى الشّمال الشرقيّ من ضريح القديس⁽¹⁾. أنا التي مشيت عبر تلك المنطقة، وزرت تقريباً كلّ القرى المتهدّمة، ووجدت بأنّها كانت معروفة عموماً للسّكّان في جبل سمعان، وأنا التي سوف أتحدّث عنها بهذا العنوان.

إنّ أبنية جبال سمعان Simon، مع جبل باريشا Jebel Barisha، إلى الجنوب الغربي، وجبل العلا Jebel el 'Ala الذي لا يزال على مسافة أبعد نحو الغرب، تنتمي كلّها إلى نظام معماري مشابه للذي في جبل الزّاوية، والذي كنّا قد مررنا به في طريقنا إلى حلب. وسيكون من الممكن إيجاد اختلافات في الأسلوب بين المجموعة الشّماليّة والجنوبيّة؛ وبإمكان السيّد بتلر Butler بخبرته الواسعة بالمنطقتين القيام بذلك، لكن بالنسبة للمراقب المتعجّل فإن الاختلافات تبدو أنّها تعتمد بشكل أساسي على الظروف الطّبيعيّة وعلى الحقيقة بأنّ المنطقة الشّماليّة تقع بشكل مباشر تحت

(1) كتبت المؤلّفة: علمت بعد كتابة هذا الفصل بأنّ السيّد بتلر Butler وفريقه قد وسّعوا استكشافاتهم إلى الشّمال من قلعة سمعان بعد رحيلي، وأنا أنشوّق إلى وصف تام للمنطقة في منشوراتهم المستقبلية.

تأثير أنطاكية Antioch، المدينة التي كانت إحدى منابع الأساسيّة للإلهام الفنّي (وليس لسوريا فقط) في القرون الأولى من الحقبة المسيحيّة.



قلعة سمعان، الباب الغربي

تعتبر المستوطنات في جبل سمعان أصغر والبيوت الشّخصيّة أقلّ سعة، ومن الممكن أن يكمن السّبب في أنّ الجبال الشّماليّة كانت أكثر وعورة وغير قادرة على إعالة سكّان بهذا الغنى والعدد الكبير؛ ويبدو أنّ الاستقرار بدأ في وقت أبكر ووصل إلى ذروة الازدهار في وقت متأخّر قليلاً، لكنهم لم يعانون من دور الانحدار الواضح في الجنوب خلال القرن السّالف للاجتياح العربي⁽¹⁾. وتُظهر أروع كنائس القرن السّادس في الشّمال ترفاً منمّقاّ تقريباً من زخرفة لا تضاهي في الكنائس الجنوبيّة

(1) كتبت المؤلّفة: أوّد أنّ أقترح بأنّ الانحدار الذي حدث فيها يعود في جزء منه إلى النضارب لمرتفعة المرهقة التي فرضها الإمبراطور جستنيان Justinian على المقاطعات الشرقية من إمبراطوريته خلال جهوده لاسترداد المنطقة الغربيّة. إن قراء كتاب ديل Diehl العظيم عن جستنيان سوف يتذكرون كيف انهيار النظام السياسي، والاجتماعي لمساكناته تحت ضغط حروبه في يضايا وشمال أفريقيا، وكانت الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية هي الأغنى وقد عانت أكثر من سواها.

المتأخرة، ويعود تاريخها جميعاً إلى قرن أبكر، ما عدا كنيسة بيزوس Bizzos في رويحة Ruweiha. ومن الممتع ملاحظة أنَّ كنيسة رويحة، على الرَّغم من أنَّها متأخرة قليلاً عن قلعة سمعان، فإنَّها تتمتع بزخرفة أبسط بكثير، ويمكن أن يضاف إلى هذه الملاحظة أنَّه حتَّى المنازل الصَّغيرة في الشَّمال وبشكل نادر لا تُظهر تنوعاً أكبر ولا وفرة في الزَّخرفة أكثر من تلك المعتادة في الجنوب^(١).



قلعة سمعان، الفناء الدائري

وعندما يقرأ الرَّحالة النَّقوش الكتابيَّة على الكنيسة والمساكن يجد أنَّ التَّواريخ تُقيّد على الدَّوام في الشَّمال حسب تقويم أنطاكية، فعندها يمكن أن يكون معذوراً لظنّه بأنَّها كانت اليد العظيمة لأنطاكية التي لمست هنا العتبة وتاج العمود، والحلي المعماريَّة والطَّوق الحجري المنقوش. لم تكن كنيسة القديس سمعان St. Simon قد شُيّدت من قِبَل جهد محلي فقط ولكن كتقدير للكهنة المشهور في كلِّ العالم المسيحي، ومن المحتمل أنَّها لم تُنفَّذ من قِبَل عمَّال محليين ولكن من قِبَل بنائين ونحاتين من أنطاكية؛ وإذا كان هذا صحيحاً فمن الصَّعب ألا نعزو الكنيسة الجميلة

(١) كتبت المؤلِّفة: تمت ملاحظة ذلك من قِبَل السيد Butler في كتابه «فنِّ العمارة وفنون أخرى».

في قلب لوزة Kalb Lozeh إلى القوى المبدعة نفسها، واثنى عشر مثلاً أصغر، مثل الكنيسة الشرقيّة في باقرا⁽¹⁾ Bakirha التي يجب أن تخضع للمؤثرات نفسها.

أمضيت الصباح أتفحص كنيسة القديس سمعان St. Simon والقرية عند سفح التلة، التي تحوي بعض البنى الباسيليكية basilicas الرائعة وأنقاض منزل كبير لاستضافة الحجاج.

ظهر هنا عند وقت الغذاء كردي جذاب جداً وذكي وقد اخترته فوراً ليكون دليلي خلال الأيام القليلة القادمة. كانت المنطقة التي اقترحت زيارتها مهملة على الخارطة، وهي حجرية وخالية من الطرقات. كان اسم صديقي الجديد موسى، وعندما كنا راكبين معاً في فترة ما بعد الظهر أسرّ في أذني الخاصة بأنه كان على المذهب اليزيدي Yezidi الذي يدعو المسلمون أتباعه بعباد الشيطان، على الرغم من أنني أميل إلى أنهم أشخاص غير مؤذين وذوو نيّة حسنة. ويعدّ الجزء الأعلى من بلاد ما بين النهرين وطنهم، ومن هناك هاجرت عائلة موسى أولاً.

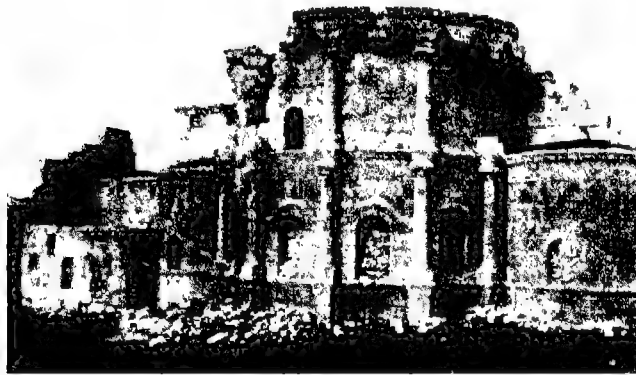


قلعة سمعان، الفناء الدائري (تتمّة الصورة)

(1) باقرا مدينة أثرية بائدة على السفح الشمالي لجبل باريشا بمنطقة حارم، تقع قرب رأس الحصن، عمرت بالمدينة من القرن الأول الميلادي إلى السادس. تتألف من مساكن ومعاصر وأقبية وكنيستين ومعبد وثني، بعضها منقور في الصخر، وبعضها الأحدث من تصميم المهندسين مرقيانوس كيريس. وتضم بعض الكتابات السريانية واليونانية.

تكلّمنا حول المعتقدات ونحن نسير، وبشكل تدريجي، حيث كان تعارفنا الشخصي لا يزال حديثاً، واعترف موسى بأنّ اليزيديين Yezidis يعبدون الشّمس. قلتُ: «إنّها كيان مناسب جداً للعبادة»، وفكرت من أجل إسعاده فتابعت بذكر أنّ الإسماعيليين Ismailis يعبدون كلاً من الشّمس والقمر، لكنّه بالكاد تمكّن من إخفاء اشمئزازه من التفكير بوثنية كهذه. قادني هذا في نفسي إلى التفكير فيما إذا كان العالم قد أصبح أكثر حكمة من تلك الأيام عندما جلس القديس سمعان St. Simon على عموده، ولم تكن النتيجة التي وصلتُ إليها أكثر جاذبيّة.

قطع المطر جولتنا بين القرى عند سفح جبل الشيخ بركات Jebel Sheik Barakat، القمّة العالية إلى الجنوب الشرقي من قلعة سمعان، فانطلقنا نحو البيت، لكن الغيوم انقشعت مرّة أخرى باقتراب المساء، ورأيت، وأنا أراقب من الباب الغربي الرائع، الهضاب تحوّل لون التّحاس الأحمر والأسوار الرّماديّة إلى اللون الذهبي.

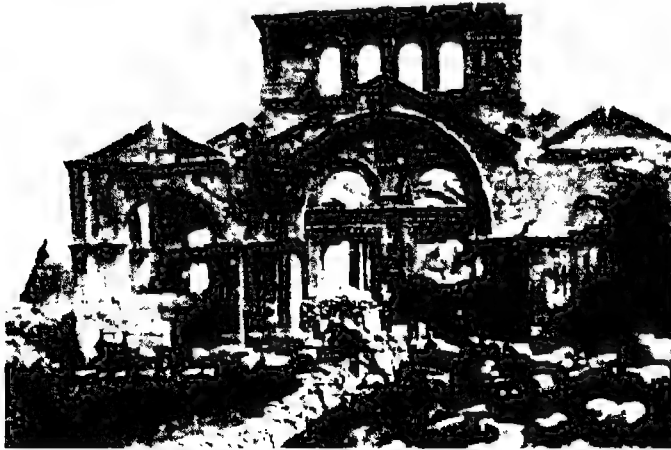


قلعة سمعان، الواجهة البارزة

أمدّني ميخائيل الحزين والتّادم بعشاء فاخر، على الرّغم من أنّه كان عليّ أن أصرفه فيما لو استطاع القديس سمعان أن يزوّدني بطبخ آخر. في الواقع كنت ميّالة قليلاً إلى أن أعيده إلى حلب ليرسلوا لي رجلاً آخر، لكنّ الشكّ فيما إذا كان عليّ ضمان خادم جيّد عن طريق

وكيل، إضافة إلى الرأفة بعدم الإيلاء، قادتني إلى نوع من التراخي حاولت أن أبرره بأمل أن ندم ميخائيل سيكون طبيعة دائمة. وهكذا قضينا شهراً على بركان بهيجانات عرضية كانت تنفجر في النهاية. يكفينا الكلام عن تلك المواضيع المؤلمة.

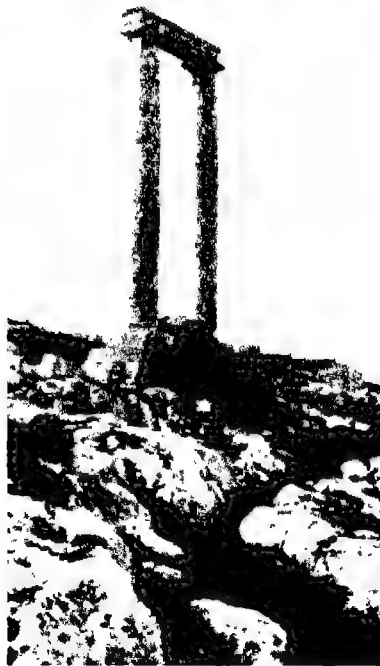
انطلقت في اليوم التالي مع موسى لاستكشاف القرى في جبل سمعان نحو الشرق والشمال الشرقي من كنيسة القديس سمعان St. Simon. سرنا نحو الشرق تقريباً لأقل من ساعة تقريباً حتى برجكه Burjkeh، التي تتمتع بكل ملامح تلك القرى الواقعة في أقصى الشمال. كانت تحوي البرج الطويل المربع، الذي هو عالمي تقريباً. كانت أعمال الحجارة ضخمة، ولم تكن الكتل موضوعة في صفوف منتظمة غالباً، أو إذا حصل هذا فإن الصفوف كانت تُظهر اختلافاً كبيراً بالعمق. كان للكنيسة جزء ناتئ مربع، بُني خلف جدران الصحن، وغطت حلي معمارية متكررة كل نافذة، مارة على طول مستوى عتبة النافذة من نافذة إلى أخرى، وانتهت خلف النافذة الأخيرة بشكل لولبي، كما لو كانت جزءاً من وشاح جبل على شكل فساتين فوق الفتحات مع فائض تجمّع في الأعلى. تميّز هذه الحلي المعمارية زخرفة القرن السادس في شمالي سوريا. كانت منازل برجكه Burjkeh عبارة عن أكواخ مربعة بسيطة جداً، بُنيت بحجارة مضلّعة.



قلعة سمعان، الباب الغربي

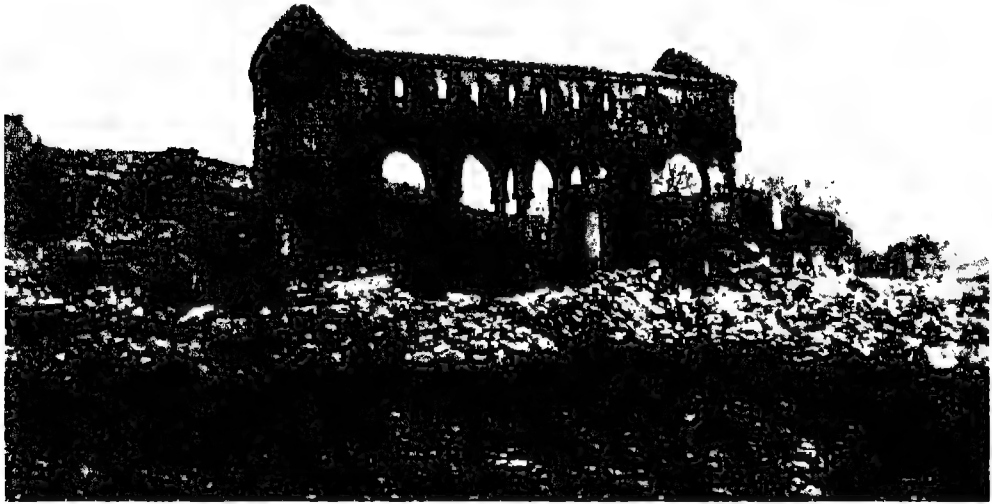
اكتشف موسى قبراً جديداً مفتوحاً قرب الكنيسة. لاقيتُ بعض الصّعوبة في الزحف للأسفل إلى داخله، وقد كوفئتُ عندما وجدت على إحدى الفجوات الجدارية loculi التاريخ 292 من تقويم أنطاكية، الذي يوافق سنة 243 للميلاد. وأسفل التاريخ كانت هناك ثلاثة أسطر من نقش يوناني، مشوه جداً.

تابعنا مسيرنا راكبين لمدة نصف ساعة إلى سرقانيا Surkanya وهي قرية مهجورة، واقعة على نحو ساحر عند رأس وادٍ صخري قليل العمق وكان فيه أيضاً بضع شجرات. كانت المنازل كبيرة في بنيتها على نحو استثنائي، مع شرفات بحجارة ضخمة تشكّل مدخلاً مسقوفاً فوق الباب. أرّخ أحد هذه المنازل، وكانت السنة 406 للميلاد. كانت الكنيسة مشابهة بشكل دقيق تقريباً لتلك التي في برجكه Burjkeh.



نُصب جنازي في قاطورا

مشينا ثلاثة أرباع ساعة أخرى نحو الشمال ووصلنا فافرتين Fafertin حيث بدأت تمطر. اتخذنا ملجأً تحت نتوء من مبنى. كان كل ما تبقى من كنيسة هي الأكبر بين كل ما شاهدناه حتى الآن ولكنها بسيطة في صنعتها⁽¹⁾. تقطن القرية بعض العائلات من الأكراد اليزيديين. ركبنا في المطر المنهمر لمدة ساعة نحو الشمال الشرقي إلى خراب شمس Khirab esh Shems لكننا لم نستطع فعل شيء هناك بسبب الطقس، وهكذا تابعنا شمالاً إلى كالوته Kalotch إلى برج القاذ Burj el Kas حيث وجدت خيامي منصوبة على مرج رطب. كان موسى مكروباً جداً بسبب المطر الغزير، وقال إن ذلك الربيع الماطر قد سبب كارثة لحقوله، فهو يجرف التربة من الأرض العالية إلى الوديان. ولا تزال عملية التعرية مستمرة وهي التي تقلل بشكل كبير من الخصوبة في شمال سوريا.



خراب شمس

(1) كتبت المؤلفة: يعلن بتلر Butler في تقريره بأن هذه الكنيسة مؤرخة بـ 372 للميلاد والذي يعطيها امتيازاً في كونها الكنيسة الأقدم تاريخياً في سوريا، إن لم تكن الكنيسة الأقدم تاريخياً في العالم.

كان في برج القاظ Burj el Kas برج مربع على قمة التلة وبعض المنازل القديمة التي كانت قد رُممت وسُكنت من جديد من قبل الأكراد. رأيت على إحدى القباب التاريخ 406 للميلاد، وعلى عتبة أخرى نقشاً يصعب حلّ شيفرته. كانت نهاية هذه الحجرة مخفية بزاوية بيت أعيد بناؤه، لكن وبإمعان النظر فيه استطعت أن أثبت وجود نقش صغير عند النقطة الأبعد. ذكر مالك المنزل بأنّ النقش يمثل دون أي شك السيدة مريم Lady Mary. يمكن لهذا أن يمثل إضافة غريبة للمجموعة الضئيلة للنحت في شمال سوريا، بالإضافة إلى أنّه ابتكار لاهوتي، وعبرت عن أسفي بأنّي لم أستطع رؤيته بشكل أفضل. وعليه فقد جلب صديقي معولاً وكشط زاوية بيته، وأثبت شكل العذراء أنّه نسر روماني.



خراب شمس، نحت في قبر

عدت أنا ونجيب وموسى إلى القرى التي مررت بها في المطر في اليوم السالف، وتركنا نجيب مع الخيول في كالوته Kaloteh ومشينا نحن إلى خراب شمس Khirab esh Shems حيث كان الطريق صخرياً جداً إلى درجة أنني تمنيت أن أوفرّ على حيواناتي رحلة ثانية فوقه. تضمّ خراب شمس كنيسة جميلة، بطول إحدى وعشرين خطوة من الباب الغربي إلى وتر الواجهة البارزة، وكانت الجدران الخارجية نحو

الشمال والجنوب قد تداعت، تاركة خمسة أقواس فقط على كل جانب من الصحن مع منورٌ جُهِّزَ بعشر نوافذ صغيرة رأسيّة مستديرة، قطعة رائعة تشبه شرفة منفصلة.

وإلى مسافة أبعد فوق التلّة وقفت كنيسة ضخمة، خالية من الأجنحة، لها واجهة بارزة بُنيت خارجاً وسُقِفت بنصف قبة من بلاط مربع، تشبه بيت المعمودية في القرن الخامس في دير قيتا Dar Kita⁽¹⁾. وجدنا في جانب التلّة عدداً من القبور المنحوتة في الصخر، ولقد سرّني أنّي اكتشفت في واحد منها بعض النقوش الغريبة. وعلى التجويف الصغير إلى يسار الباب كان هناك أشكال أربعة أشخاص منحوتة بخشونة، وقد رُفعت أذرعهم بوضعية الصلاة، وعلى الجدار الصخري في زاوية مظلمة كان هناك شخص منفرد يرتدي قميصاً وقبعة مستدقة الرأس، يحمل شيئاً غريباً، يشبه سلّة، في يده اليمنى.



تاج عمود في الكنيسة العليا بكالوته

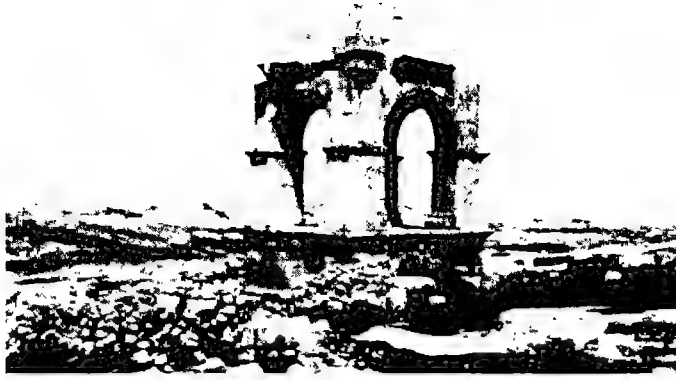
(1) كتبت المؤلفة: بتلر Butler: فنّ العمارة وفنون أخرى، ص 139.

وبعدتنا إلى كالوته Kaloteh قمنا بزيارة كنيسة منعزلة على أرض مرتفعة قليلاً إلى الغرب من القرية، وعلى الحائط عند الباب الجنوبي كان هناك نقش طويل باليونانية. كان صحن الكنيسة قد فُصل عن الأجنحة بأربعة أعمدة على كل جانب (إذا حكمنا من خلال الكسر) فقد كان بعضها ذا أخاديد وبعضها الآخر أملس.

وينتهي الرواق المقنطر مقابل زاوية الواجهة البارزة بأعمدة محززة معشقة تحمل تيجان أعمدة كورنثية جميلة. كانت الواجهة البارزة prothesis والقلاية الملحقة diaconicum موجودة كلها داخل الجدار الخارجي للكنيسة. ويظهر الباب الغربي قوساً مجسماً قائماً على ركائز فوق عتبة باب عليا مكسورة، زُخرفت بنسق من المسننات. وإلى الجنوب من الكنيسة كان هناك بيت معمودية منفصل، بساحة داخلية تعادل تسعة أقدام مربعة، ولا تزال الجدران تحمل الصّف الأول من القنطرة الحجرية. ولا بدّ أن الكنيسة قد سُفقت بالآجر، ذلك لأنّي رأيت عدداً من الكسر مرمية في الصحن. أحاط جدار ضخّم منيع بكلّ من الكنيسة ومبنى المعمودية. ضمت القرية في الأسفل كنيستين، يبلغ قياس الغربية 38 × 68 قدماً، والأخرى 48 قدماً × 70 قدماً. وتشير الحلّي المعماريّة حول الأبواب في الكنيستين كليهما بأنّه لا يمكن أن يعودا إلى وقت أبكر من القرن السادس. وكان هناك أيضاً بعض المنازل بشرفات حجرية.

على بُعد ساعة ونصف شمال غرب كالوته Kaloteh تقع براد⁽¹⁾ Barād، القرية الأكبر والأجمل بين القرى في جبل سمعان. وقد سُكنت من جديد إلى حدّ بالأكّراد. وجدتُ مخيّمي قد نُصب في منطقة مكشوفة مقابل نصب جنائزي جميل جداً يتألّف من ظلّة حُمِلت بأربع دعائم استندت إلى منصّة مرتفعة. وقف قربها تابوت حجري صخري ضخّم وعدد من قبور أخرى، منحوتة جزئياً ومبنية جزئياً.

(1) تقع قرية براد على جبل ليلون شرقي باسوطه على مسافة 8 كلم منها، وفيها معبد وضريح ودكاكين قديمة، وفي وسطها كنيسة القديس بوليانوس التي تعود إلى عام 399-402 م، وهو الذي أشرف على بنائها، ويُعتقد أن مار مارون (347-410 م) مؤسس الطائفة المارونية مدفون فيها.



براد، قبر ذو ظلة

وعاينتُ كنيسةين في مركز البلدة. وفي إحداهما كان الصّحن الذي يبلغ طوله 68.6 قدماً قد فُصل عن الأجنحة بأربعة أعمدة ضخمة بعمق 6 أقدام من الشرق إلى الغرب، مع فرجة بين الأعمدة بعرض 18 قدماً. كان عرض الصّحن 23 قدماً، والواجهة البارزة بعمق 12 قدماً، وتُعدّ الفرجة الواسعة بين الأعمدة برهاناً على تاريخ متأخر نسبياً، القرن السادس أو نحو ذلك.

كانت الكنيسة الثانية لا تزال أكبر: 118.6×73.6 قدماً، ولكنها متهذمة بالكامل ما عدا الجدار الغربيّ وجزء من الواجهة البارزة. وإلى الشمال منها كانت هناك كنيسة صغيرة بواجهة سليمة على نحو تام؛ يقع إلى القرب منها تابوت حجري ممّا يفترض أنّ الكنيسة الصغيرة ربّما تكون ضريحاً. وتحتوي النهاية الشرقيّة للبلدة مجمّع أبنية لمبنى مصلّع، تضمّ سياجاً مربعاً بحُجرة مربعة في وسطه، تركز إلى قنطرة ربّما كانت قبراً. وفي أقصى الغرب في البلد يقوم برج جميل مع بعض البيوت الكبيرة والمضافة بشكل جيّد إلى جانبه، وتقع كنيسة صغيرة بينه وبين القسم الرئيسي في البلدة.

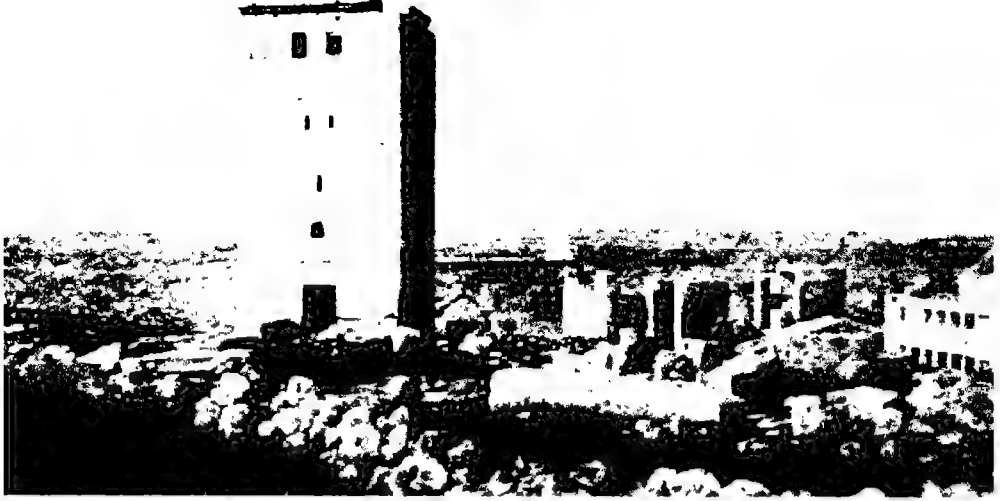
وقرب مخيمي كان هناك بناء غريب بواجهتين غير نظاميتين وضعتا على الجدار الشرقي. وأظنّ أنّه يعود إلى ما قبل المسيحيّة. وقفت الجدران حتّى بدء القنطرة التي

كانت سليمة تماماً. وعندما قمت أنا وموسى بقياس ورسم هذا البناء كنّا مراقبين من قبل شخصين يرتديان ثوبين أبيضين طويلين، ويضعان على رأسيهما عمامتين، وقد أظهر الاهتمام الشديد بتحركاتنا. قال موسى إنهما كانا موظفي حكومة، أرسلنا إلى جبل سمعان لعمل إحصاء رسمي للسكان بقصد جباية ضريبة الرأس.

كان اليوم التالي من أكثر الأيام سوءاً، على ما أذكر. فقد امتدت حزمة من غيمة كثيفة في عرض السماء مباشرة فوق جبل سمعان، تاركة إيانا في ظل رمادي بارد، بينما رأينا الجبال والسهول في جهة الشمال والجنوب تستحم بأشعة الشمس. سرنا شمالاً لما يقارب الساعة إلى كفار Kefār، وهي قرية كبيرة قرب الحافة الأخيرة لجبل سمعان. وخلف وادي عفرين Afrīn، الذي يربط الهضاب مع الشمال الغربي، ارتفعت الدعامات العظيمة الأولى لكاور داغ Giour Dāgh. لاحظ موسى أنه لم يكن هناك في الوادي وفي الهضاب الأبعد أي قرى أثرية أخرى؛ فهي تنتهي على نحو مفاجئ عند حدود جبل سمعان، ويبدو أن الحضارة السورية لم تخترق مناطق أبعد إلى الشمال، ومن المتعذر معرفة السبب.

كان في كفار Kefār ثلاث كنائس متهدمة جداً، لكنها تظهر آثار زخرفة معالجة على نحو رائع، وبعض المنازل الجيدة، وقبر مظلل يشبه ذاك الذي رأيناه في براد Barād. وكان هناك تجمع سكاني كبير من الأكراد.

عدنا إلى براد وسرنا من ثمّ بجهة جنوب شرق إلى كفر نابو Kefr Nebu، لما يقارب ساعة ونصف بعيداً تحت مطر وريح صرصر. كان هناك نقش سرياني Syriac على عتبة باب، وشواهد قبر أو اثنتين مكتوبة بالخط الكوفي، ومنزل فخم جداً مرقم جزئياً، ولكنني كنت أعاني من البرد الشديد بحيث لم أعطها من الاهتمام ما تستحقّه. وصل البرد حتى العظم وثبط همّتي بشكل كبير بمحاولات أخذ وقت للاستكشاف في ريح عالية، سرت مباشرة إلى خيامي في باصوفان Basufān، التي تبعد مسيرة ساعة عن كفر نابو Kefr Nebu تاركة موقع خربتين غير مكتشفتين نحو الجنوب.



براد، بُرج إلى جهة الغرب من البلدة

يقع منزل موسى في باصوفان؛ قابلنا والده في حقول الذرة عندما وصلنا القرية
فصاح موسى ملقياً التحية المناسبة لمن يعمل في الحقل: «الله يعطيك العافية!».

أجاب: «ويعافيك!» رافعاً عينيه الكليلتين إلينا.

أوضح موسى ونحن نتابع سيرنا: «إنّه مسنّ، وقد حلّت عليه مصيبة، لكنّه كان فيما
مضى أجمل رجل في جبل سمعان والرامي الأفضل».

قلت: «ما الخطب!».

أجاب: «كان أخي قد ذُبح بعداوة دم قبل بضعة أشهر، ولم نعرف من الذي قتله،
ولكن ربّما كان أحد أفراد عائلة عروسه، ذلك لأنّه أخذها دون موافقتهم».

سألت: «وماذا حدث للعروس؟».

قال: «عادت إلى عائلتها، ولكنّها بكت بمرارة».



موسى وعائلته

تُستخدم باصوفان Basufān كمنتجع صيفي *Sommerfrische* من قِبل بعض يهود ومسيحيي حلب، الذين يأتون ويسكنون في بيوت الأكراد خلال الأشهر الحارة، يقيم مالكو هذه البيوت أثناء ذاك الموسم في الخيام. وتوجد بعض الأشجار الكبيرة إلى الجنوب من القرية تظلّل مقبرة كبيرة، التي تُشغل في المقام الأول بالأموات المسلمين، الذين يُجلبون إلى هذا المكان من عدّة أميال في الجوار.

ويفتخر الوادي في الأسفل بنبعة شهيرة، وهي نبعة لا تجفّ أبداً حتى في السنوات غير المطيرة، عندما تستنفد كلّ ينابيعها الشّقيقة.

اعتاد الأكراد على زراعة التبغ على المنحدرات المجاورة، وكانت نوعيّة الأوراق قيّمة جداً، ولذلك كان المحصول يجد بيعاً سريعاً، حتى أُسست شركة التبغ Régie الحكوميّة ودفعت للأكراد أسعاراً هزيلة حيث أصبحوا غير قادرين على جني الأرباح. وحيث أنّه لم يكن هناك سوق آخر، فقد توقفت صناعته تماماً، وأهملت زراعة الحقول باستثناء القليل من الدّرة: «والآن، نحن كلّنا فقراء»، هذا ما قاله موسى في الختام.

لم يكن قد مضى على وجودي في المخيم ساعة حتّى انقطع المطر وأشرقت الشمس، معيدة لنا معها نشاطنا. كانت هناك كنيسة كبيرة في باصوفان Basufān،

حوّلت في حقة ما إلى قلعة بإضافة ثلاثة أبراج. كان الذي بقي من البناء الأصلي عملاً ممتازاً. وكانت الأعمدة المشغولة عند الواجهة البارزة قد زُينت بزخرفات محزّزة حلزونية - وهي أول ما أراه من هذا النموذج - وكانت تيجان الأعمدة الكورنثية منحوتة على نحو عميق ودقيق.

أراني موسى نقشاً سريانياً Syriac في الجدار الجنوبي، نسخته بمجهود كبير ونجاح قليل: وقد أخذ الأشرار كلّ النقوش السريانية Syriac، أو أنّهم منحوها جميع الرّحالين بفتنة أفضل! وعندما حصل هذا كان لا يزال هناك ساعتان من ضوء ما بعد الظّهر، وعقدت العزم على أن أمشي فوق التلال إلى برج حيدر Burj Heida وكفر لاب Kafra Lab اللتين أغفلت زيارتهما في الصّباح بسبب المطر والبرد.

رافقني موسى وأخذ معه «شريكه» - هكذا قدّمه لي، ولكن لا أعلم في أيّ مشروع شاركه. وكان برج حيدر⁽¹⁾ Burj Heida جديراً بالزيارة. إنه يحتوي على برج مرتع وثلاث كنائس، واحدة منها مصانة إلى أبعد حد، مع بناء جميل أضيف إليها، وربّما كان مسكناً لرجال الدّين. لكن الحملة كانت جديرة بالذّكر على نحو رئيسي بسبب المحادثة التي جرت مع مرافقيّ.

كنت قد عقدت مع موسى صداقة قويّة، خلال الأيام الثلاثة التي أمضيناها معاً، بُنيت من طرفي على عرفان بالجميل للخدمات التي كان قد قدّمها لي، واقرنت بتقدير حارّ للابتسامة المشرقة التي رافقت ذلك. كنّا قد وصلنا إلى نقطة حميمة حيث فكّرت أنّه من الممكن إلى حدّ ما أن أتوقّع منه أن يفيدني بمعلومات حول تعاليم اليزيديين Yezīdis، وذلك لأنّه، مهما كانت العادة في أوروبا، من غير اللائق في آسيا أن تسأل رجلاً بماذا يؤمن ما لم يكن ينظر إليك باعتبارك شخصاً حميماً. ولا يُعدّ ذلك ملائماً؛ فهو يوقظ ريبة دون أن يحقق إجابة مرضية.

(1) تُعتبر قرية «برج حيدر» من القرى الأثرية الهامة في جبل «ليلون» - منطقة «عفرين»، سُميت نسبة إلى أحد المالكين الذي سكنها منذ قرنين من الزمن وكان اسمه «حيدر»، أما بالنسبة إلى اسمها القديم فإنّ المصادر التاريخية تذكرها باسم «كفر كيرا» التي تعني (قرية الشهم).

بدأت على نحو ضعيف عندما جلسنا عند المدخل في الكنيسة الصغيرة في كفرلاب Kefr Lab بالسؤال فيما إذا كان لليزيديين مسجد أو كنيسة.

أجاب موسى: «لا، فنحن نتعبد تحت السماء المكشوفة. ونعبد الشمس كل يوم عند الفجر».

قلت: «وهل لديكم إمام يؤمّ الصلاة؟».

قال: «في أيام الأعياد الديّنية يؤمّ الشيخ الصلاة، ولكن في الأيام الأخرى فكل شخص يتعبد لوحده. ونحن نعتبر بعض الأيام أيام سعد وبعضها أيام نحس. وأيام الأربعاء والجمعة والأحد هي أيام الحظ لدينا. إلّا أنّ الخميس يوم نحس».

قلت: «لَمْ هذا؟».

قال موسى: «لا أعرف، هكذا هو».

سألت: «هل أنتم أصدقاء مع المسلمين أم أنهم أعداؤكم؟».

أجاب: «هنا في المنطقة حول حلب، حيث أننا قلة، فهم لا يخافون منا، ونحن نعيش معهم بسلام؛ ولكن يأتينا في كل عام من الموصل شيخ عالم يقوم بجمع الجزية منا، ويذهل لرؤيتنا نعيش مثل الإخوة مع المسلمين وذلك لأنّه في الموصل حيث اليزيديون Yezīdis كثرة، هناك عداء مرير. في الموصل لا يخدم أفرادنا في الجيش، لكن هنا فإننا مثل الآخرين - وأنا نفسي كنت جندياً».

قلت: «هل لديكم كتب مقدّسة؟».

قال: «دون شكّ، سأخبرك ماذا تعلّمنا كتبنا. عندما تقترب نهاية العالم سيظهر هادود مادود Hadūmadūd على الأرض. وقبل مجيء أوانه فإنّ سلالة الإنسان ستتضاءل قامتها وبالتالي ستكون أصغر من ورقة العشب - لكن هادود مادود عملاق جبّار. وفي غضون سبعة أيام أو سبعة أشهر أو سبع سنين سيشرّب كلّ البحار وكلّ الأنهار، وستصبح الأرض جافة قاحلة».

قال الشريك الذي كان يتابع شرح موسى باهتمام: «ثم تنبثق من خلال التراب دودة عظيمة، وتلتهم هادود مادود».

تابع موسى: «وعندما تلتهمه، سيكون هناك فيضان يستمر سبعة أيام أو سبعة أشهر أو سبع سنين».

قاطع الشريك موافقاً: «وستغتسل الأرض وتصبح طاهرة».

قال موسى: «ثم يأتي المهدي، وسيستدعي الطوائف الأربع: اليزيديين Yezīdis، والمسيحيين، والمسلمين، واليهود وسيعين نبي كل طائفة ليجمع أتباعه معاً. وسيجمع إيزيد⁽¹⁾ Yezīd كل اليزيديين، وعيسى كل المسيحيين، ومحمد كل المسلمين وموسى كل اليهود. ولكن هؤلاء الذين تحوّلوا من دين إلى دين خلال حياتهم، فإنهم سيُمْتَحَنون بالنار، لتعرف ما هي العقيدة التي يقرّونها في قلوبهم. وهكذا سيعرف كل نبي أتباعه. وهذه هي نهاية العالم».

قلت: «وهل تعتبر أنّ أصحاب هذه الديانات كلّهم متساوون؟».

أجاب موسى (بدبلوماسيّة ربّما): «نعتقد بأنّ المسيحيين واليهود متساوون لنا».

سألت: «والمسلمون؟».

قال موسى: «... ..».

هذه هي معتقدات دين موسى، ولن أتجرأ على قول ما تشير إليه، ولكن هادود مادود Hadūdmadūd على الأرجح هو يأجوج ومأجوج Gogmagog إذا كان ذلك يلقي أيّ ضوء على القضية.



كانت الشمس تغرب عندما نهضنا من على درج الكنيسة وبدأنا نتسلّق بجهد باتجاه المنزل فوق خرب كفرلاب Kcfr Lab. كانت هناك بعض الأراضي الوعرة خلف

(1) هكذا يلفظون اسمه، وليس يزيد، ويسمّون أنفسهم الإيزيديّة، وهم طائفة من الزرادشتية.

القرية، ولاحظتُ فجوات كبيرة أسفل الصّخور عند قَمّة التّلة. توقّف شريك موسى أمامها وقال:

«في مثل هذه الأماكن نحن نبحث عن كنز».

قلت: «وهل وجدته؟».

أجاب: «لم أجد مطلقاً أيّ كنز، ولكن هناك الكثير من القصص. يقولون، إنّ ذات مرّة كان هناك راع صغير أضاع عززته وبحث عنها فوق التّلال، وأخيراً وجدها في كهف مليء بالتّقود الذهبية. وبناء عليه أغلق مدخل الكهف وأسرع إلى البيت ليجلب حماراً يمكنه أن يحمل الذهب عليه، وفي سرعته ترك المعزة في الكهف. ولكن عندما عاد إلى هناك وبعد بحث طويل، لم يكن هناك كهف ولا معزة ولا ذهب».

قال موسى: «في وقت آخر، كان هناك صبي نائم بين الخرائب في كفرلاب Kefr Lab وحلم بأنّه قد اكتشف كنزاً عظيماً في الأرض وأنّه حفر من أجله بواسطة يديه، وعندما استيقظ كانت يده مغطّاتين بغبار الذهب (التّبر)، لكنّه لم يتذكّر المكان الذي حفر فيه».

وعلى أيّة حال لا تقدّم أيّ من هذه القصص معلومات مقنعة لتبرّر إرسال بعثة استكشاف للبحث عن الكنوز في جبل سمعان.

وعندما وصلنا باصوفان Basufan سأل موسى إذا كان يمكن لأخته وردة أن تتشرّف بتقديم احتراماتها إليّ. أضاف: «وهل من الممكن أن تقنعها بأن تتزوّج؟».

قلت: «أن تتزوّج؟ ومن عليها أن تتزوّج؟».

قال موسى بهدوء: «أيّ شخص، فقد أعلنت بأنّ الزواج مكروه بالنسبة لها، وهكذا ستبقى في بيت والدنا، ولا نستطيع أن نغيّر رأيها. وعلاوة على ذلك فهي شابةٌ عذراءٌ جميلة».



فتاة كردية في باصوفان

بدت جميلة جداً، وقد وقفت عند باب خيمتي وهي تلبس ثوباً جميلاً تلبسه النساء الكرديات عادة، مع وعاء من القايماق⁽¹⁾ Kaimak في يديها، عبارة عن هدية استرضائية لي؛ وأعترف أنني لم أصرّ على قضية الزواج، معتقدة بأنها استطاعت أن تدير شؤونها الخاصة على نحو أفضل. وفي الصباح التالي أحضرت لي خبزاً طازجاً للإفطار، وتوسّلت إلي أن أزور بيت والدها قبل أن أغادر. وهذا ما قمت به، ووجدت العائلة كلها، الأبناء وزوجات الأبناء والأحفاد قد تجمّعوا للترحيب بي؛ وعلى الرغم من أنني كنت قد أفطرت قبل قليل فقد أصرّ الوالد المسنّ على وضع الخبز وأوعية الكريمة أمامي: «هذا رباط حسن الوفاة الذي يمكن أن يكون بيننا».

كانوا كلّهم أناساً رائعين وحسني التربية بوجوه جميلة مشرقة بالابتسامة وقد كانت ابتسامة موسى أكثرها جاذبية. ومن أجلهم، ومن الآن وصاعداً سوف أحمل في وجداني مكانة كبيرة للعرق الكردي.

(1) عبارة تركية تعني: قشدة الحليب. وما زالت بقية منها في العامية اندمشقية: قيسع، وفي نجد: قيسر.

الفصل الثالث عشر

انطلقنا من باصوفان Basufan عند الساعة الثامنة من صباح الرابع من أبريل، وسرنا جنوباً، عبر طرق حجريّة على نحو لا يصدّق، تاركين قلعة سمعان إلى الغرب ممّا وملتقيين حول الجوانب الشرقيّة لجبل الشيخ بركات Jebel Sheikh Barakāt. أعلن موسى بأنّ عليه أن يرافقنا في الجزء الأوّل من طريقنا حتّى دارة عزّة⁽¹⁾ Deiret 'Azzeh، وهي قرية مسلمة كبيرة تتكوّن من ثلاثمئة أو أربعمئة منزل. وهنا تركنا، ونزلنا إلى سهل سَرمدا Sermeda الخصب، والتفطنا حول المنحدرات من جبل حلقة Jebel Halakah.

وصلنا عند منتصف النهار إلى قرية الدّانا Dana الكبيرة، وتناولنا غداءنا قرب المعبد المشهور من القرن الثالث الذي تحدّث عنه دى فوغيه de Vogüé في كتابه، وبالنسبة لي فإنّه الأجل من بين التّصّيب الأصغر في شمال سوريا ويستحقّ ببساطته الواضحة أن يقف إلى جانب نُصب قائد الكورس ليسيكراتيس Lysicrates في أثينا. لم يكن هناك شيء آخر يبقينا في الدّانا Dana، وجعلنا حيوانات المتاع لتأتي، وكنت قد أرسلتها مع ميخائيل ودليل محليّ، وقد اتّفقت معهم أن نلتقي بهم أنا ونجيب عند خرب داحس⁽²⁾ Dehes. وبعد تشاور بسيط تردّد نجيب والدليل المحليّ

(1) قد تكتب أحياناً: دارتعزّة. وكثيراً ما يرد اسمها في الأحداث الدّامية في حرب 2012.

(2) توجد موقعها اليوم قرية باريشا في جبل باريشا، على بعد 11 كم جنوب شرق حارم. وتسميتها تعني بيت الرأس ويفسر ذلك موقعها في أعلى الجبل. وقد أقيمت القرية على أنقاض آثار تعود

حول المنطقة المعروفة لديّ من روايات الرّحّالين فقط، لكنّهم لم يقرّروا ذلك إلى أن وصلنا واكتشفت بأننا كنّا في ماحس Mehes بدلاً من داحس Dches. وعلى أيّة حال، فقد كان الأمر سواء، طالما أنّنا ووجدنا المكان الذي سيكون أرض تخييم ملائمة.

ومن الدّانا Dana أخذني نجيب شمالاً على طول الطّريق الرّوماني قرب قوس نصر روماني، اسمه باب الهوى، وهو واقع على نحو رائع عند مدخل وادٍ صخري. ركبنا على طول هذا الوادي لمسافة ميل أو ميلين، مارّين بكنيسة خربة، ومخترقين التّلال نحو الغرب من خلال ممرّ ضيق أدّى بنا إلى نجد عريض قريب من قرية كسيية⁽¹⁾ Kscjba المهجورة.

تابعنا سيرنا إلى قرية بابسقا Bābiska، عبر منطقة موشاة بالأزهار ومجموعات من المنازل المتهدّمة والكنائس؛ ووثب القلب عند هذا المنظر من الجمال المبهّر. كان من الصّعب على قمم هذه التّلال تحديد أين تقع باقرحا Bākirha، المدينة التي رغبتُ بزيارتها، لكنّنا وجدنا قرب بابسقا Bābiska زوجاً من خيام الرّعاة، وسألنا أحد السّكّان عن الطّريق. كان الرّاعي رجلاً صعب المراس؛ وقال إنّهُ لم يكن هناك طريق إلى باقرحا Bākirha، وأصبح الوقت متأخراً جدّاً لمشروع كهذا، وعلاوةً على ذلك فقد كان هو نفسه منطلقاً باتجاه آخر ومعه سلّة من البيض ولا يمكنه مساعدتنا. على أيّة حال أنا لم أقطع أميلاً كثيرة لكي أهزم في النّهاية، فقمنا بتخويفه تارةً وإقناعه تارةً أخرى إلى أن أغريناه بأن يدلّنا على الطريق المؤدّي إلى سفح التلة الذي تقع عليه باقرحا. لقد سار معنا لمدة ما يقارب الساعة، وأشار إلى قمة جبل باريشا Bārisha وقال: «ها هي باقرحا»، ثم غادرنا فجأة وعاد إلى سلّة البيض.

في أعلى سنفح الجبل رأينا الآثار تسنح في شمس الظهيرة، وعمدنا لم نعثر على ممر دفعنا خيولنا في طريق مستقيم بين الصخور وكتل النباتات ذات الأشواك. لكن

إلى القرن الأول الميلادي، أهمها خربة داحس، وإلى شرقها يقع ضريح محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب.

(1) كتبت المؤلفة: قامت البعثة الأمريكية بزيارة البلدات القديمة في جبل باريشا ووصفتها.

هناك حدوداً للتحمل حتى بالنسبة إلى الخيول السورية، وقد كادت خيولنا تصل إليها بعد إمضاء يوم طويل من التسلق الشاق فوق الأحجار. كان علينا أيضاً أن نصل إلى المخيم، والله وحده يعلم كم يبعد، لكنني لم أستطع مغادرة الجدران الملتمة التي أصبحت في غاية القرب منا على التلة، وطلبت من نجيب الممانع بأن ينتظر في الأسفل مع الخيول بينما أصعد لوحدي.



قبر في الدانا

كاد النهار أن ينقضي، فتعجّلت بالتسلّق؛ لكنّ هذا الاستعجال وما تخلّله من تعثّر فوق الصخور شديدة الانحدار المنظمرة إلى منتصفها بالأزهار والحارة بسبب الشمس الشاقولية، كان ذكرى لن تُمحى بسهولة. وبعد انقضاء نصف ساعة وقفت في مدخل البلدة، تحت آثار باسيليكا basilica غنية بالتنوع الجمالي للترينيات والتصاميم. كانت الشوارع المتهذّمة المقفرة تقع وراءها على طول سفح الجبل، وكذلك البيوت ذات الشرفات المنحوتة وعتبات الأبواب المنخفضة، بالإضافة إلى الأسواق ذات الأعمدة وأشعة الشمس الذهبية التي تغمر كل شيء.

تابعتُ زيارتي لمعلم آخر هو طريق عريض ملتو يصعد فوق البلدة إلى أن يصل إلى حدود المنحدرات المليئة بالأزهار، ولا يوجد سوى تلة صخرية صغيرة تقع وسط الأرض المنبسطة حيث ينتهي الممر وقمة السلسلة الجبلية. كان الجبل متصدّعاً في هذا الاتجاه، كاشفاً عن ممرات ضيقة شديدة الانحدار تطوّق جروف السهل الخصب المشمس، وفي أعلى هذه الممرّات وعلى حافة ضيقة من الأرض يوجد معبد صغير رائع. جلستُ قرب البوابة التي عبّر العباد من خلالها يوماً ما إلى ساحة المعبد. وتقع أسفل مكان جلوسي المنحدرات الشماليّة لجبل باريشا Jebel Bārisha، ووديان جميلة فسيحة والطبقات المكسوة بالثلج لجبل جاور داغ Giour Dāgh المحتجة بسديم دافئ.



باب الهوى

كان كل من المعبد والبلدة وجانب التلة مهجورة فيما عدا راع صغير كان يجلس في البعيد على رعن صخري يعزف بمزمارة لحناً برّياً عذباً لقطعانه المتفرقة. كان لحن القصبة هو صوت العزلة بالذات؛ صاخباً وواضحاً وخالياً من العاطفة وقد ارتفع إلى بوابة المعبد، وقد حمل على موجات عميقة من هواء الجبل الذي عطر بالأزهار ولون بأشعة الشمس الغاربة. جاء الرجال وذهبوا، واصطخبت الحياة على جوانب التلال وتراجعت مرة أخرى تاركة الآلهة القديمة لتستأنف سيطرتها فوق الصخر والشوك المزهر، بسلام ووحدة وجمال.

هكذا وعلى بوابة الحرم قدمت تمجيدي وشكري ثم مضيت في طريقي وأنا مبتهجة.

استقبل نجيب عودتي بتعابير ارتياح.

قال: «والله! لم أدخن ولا سيجارة واحدة منذ أن غبت جنابك عن ناظري، وكنت خلال هذه الساعة أقول: أرجو الله ألا تقابل لصاً بين الصخور».

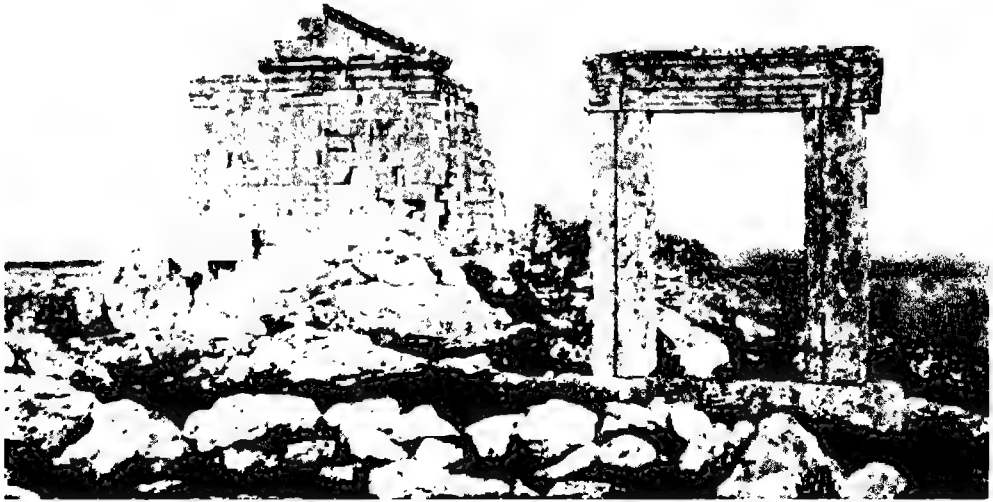
بعد ذلك مباشرة، وللتعويض عن فرصة ضائعة، أشعل سيجارة حيث أن قلقه لم يمنعه من لفها أثناء غيابي، وعلى الرغم من أنني لم أكن لأجزم بأنها كانت الوحيدة في الواقع، فقد كان الشعور مُرضياً. فكرت في ذلك الوقت (ولكن مسيرة اليوم التالي أثبتت أنني كنت مخطئة) بأننا ركبنا نازلين إلى سهل سَرمدا Sermeda عبر الطريق الأكثر وعورة في العالم. وعندما وصلنا إلى سفح التلة انعطفنا صاعدين وادياً نحو الجنوب، وهو شريط ضيق من أرض محروثة يتلوّى بين سلاسل صخرية. لقد اتسع في الحال، ومررنا بقرية كبيرة حديثة، حيث تلقينا أخباراً سارة بأن مخيمنا قد شوهد أمامنا؛ وشققنا طريقنا بجهد في الساعة السادسة والرّبع إلى ماحس Mehes أو داحس Dehes، أيّاً كان اسمها، شاعرين بأنّ خيولنا سوف تموت إذا طُلب منها أن تمشي ميلاً آخر.

كانت ماحس Mehes مخيماً ساحراً، ولكن لم أكن أستطيع غالباً أن أنصب خيامي

بعيداً عن كلّ المساكن. تاق البغالون إلى اللبن الخاثر الحامضة وغير ذلك من وسائل الترف المتمدّنة، وبالفعل فقد افتقدت اللبن الخاثر أيضاً، لكن سحر المخيم المنعزل واساني إلى حدّ بعيد. كان الليل ساكناً وصافياً، وأوينا إلى صحن كنيسة صخري، ونمنا نوماً مباركاً بعد ركوبنا الطويل.

كانت هناك خربة أخرى قرّرتُ زيارتها قبل أن أترك التلال. كانت كنيسة قلب لوزة Kalb Lozeh التي بدت من الأوصاف بأنّها (كما هي بالفعل) البناء الأجمل بعد قلعة سمعان في شمال سوريا كلّه.

أرسلتُ حيوانات المتاع لتلفّ عبر الوديان، بأوامر دقيقة ولكن عديمة الجدوى إلى فارس بأنّ عليه ألا يضيّع الوقت سدى، وانطلقنا مع ميخائيل ونجيب لنجتاز على ظهر الحصان سلسلتين جبليتين: جبل باريشا Jebel Barisha وجبل العلا Jebel el 'Ala. من الأفضل تسلّق الصّخور على الأقدام؛ ولكن إذا كان أحد ما يريد أن يعرف القدرة الكاملة للقوى الرياضية لحصان، فإنّ عليه أن يمتطيه فوق جبل العلا إلى قلب لوزة.



بوابة المعبد في باقر حا

كنت أظن نفسي متمكنة جداً على نحو مقبول في الموضوع، لكنني وجدت بأن البعثة قد وسّعت خبرتي على نحو غير قليل. سرنا على خطّ مستقيم فوق تلة حجرية على نحو لا يطاق إلى الغرب من ماحس Mehes، هكذا حتّى وصلنا إلى قمة جبل باريشا Jebel Barisha. كانت الأرض هنا مقطعة جداً بالصخور، ولكن كان بينها أيكات زيتون صغيرة وياردات مزروعة بالكرمة، وحقول ذرة صغيرة مبعثرة. كان كلّ طنف وتجويف عبارة عن حديقة من أزهار برّية؛ نشرت أزهار سوسن زرقاء طويلة براعمها الهزيلة أسفل أجسام من الغار زكية الرائحة، وعُطّر الجوّ برائحة الغار الأرجواني.

كان يسكن هذه الجبّة فلاح فظّ مكفهر الوجه، هو الأقلّ لطفاً والأكثر سكوتاً بين الرّجال. وبعد مساومة غير ناجحة بشكل كبير (فالسعر الذي وضعه لأيّ خدمة يمكن أن تُقدّم لنا كان مستحيلاً، ولكنّا كنّا في قبضتيه وقد أجبرنا على الاستسلام له)، وافق على أن يقودنا إلى قلب لوزة Kalb Lozeh وسلك بنا حالاً أسفل جبل باريشا عبر طريق شديد الانحدار شقّ بين الصّخر القوي. كان منحدرًا جداً وضيقاً حيث أنّه عندما قابلنا مجموعة من النساء قادمات من المنحدرات المنخفضة يحملن حزماً من أغصان مقطوعة - أغصان مقطوعة! كان نبات غار مزهر - وجدنا صعوبة كبيرة في التنحي جانباً ليمررن. وعند أسفل هذا المنحدر الخطر جداً كان هناك وادٍ عميق فيه بحيرة في إحدى نهاياته، وارتفع أمامنا جبل العلاء Jebel el 'Ala، ووفق أفضل تقدير لي فهو عبارة عن جدار من صخر، يستحيل تماماً على الخيول أن تتسلّقه.

أشار الفلاح قليل الكلام الذي وجّهنا - وأنا سعيدة بأنّي لا أتذكر اسمه - بأنّ طريقنا يقع فوقه، ويبدو أنّ نجيباً سيذعن لذلك، تبعته بقلب محطّم. كان شيئاً يفوق الوصف. قفزنا وتعثّرنا فوق أسطح الصّخر وقفزت حيواناتنا وتعثّرت في إثْرنا، وهي تزحف على طول الحافة من الجروف الضيّقة، حيث لو سقطت فلا بدّ أنّها ستكسر كلّ عظمة من عظامها. رعتنا العناية الإلهية فوصلنا سليمين إلى منطقة جميلة بجمال تلك التي كنّا قد تركناها على قمة جبل باريشا. رجع دليلنا عند مدخل أيكة زيتون، وفي غضون دقائق قليلة وصلنا قلب لوزة.

لا أعرف فيما إذا كان هناك الكثير من المستوطنات حول الكنيسة الكبيرة؛ ولكن توجد الآن بقايا قليلة من المنازل، وهي تقف وحيدة تقريباً. تقف بشكل منقطع النظير تقريباً بين التُّصَب الأثرية للفنِّ السُّوري. إنّ المجاز الصّاعد المؤدّي إلى صحن الكنيسة، والفسحات الواسعة بين أعمدة الصّحن، والواجهة البارزة المزخرفة بأعمدة معشّقة، وجمال الزخرفة الذي لا يُضارع ودقّة التّناسب المصانة في كلّ جزء، هي الملامح التي تذهل المشاهد أولاً؛ ولكن عندما يمعن النّظر سيدرك بأنّ هذه ليست هي الكلمة الأخيرة في تاريخ فنّ العمارة السُّوري، التي تُقال عند نهاية عدّة قرون من السّعي، لكنّها أيضاً البداية لفصل جديد في فنّ العمارة في العالم. كان الجمال البسيط والمرهف للرومانسك Romanesque قد وُلد في شمال سوريا. وقد يكون من الفضول أن نقدر التّطوّرات التي كان يمكن أن تصل إليها عبقرية هؤلاء المهندسين المعماريين لو لم تُكبح بالاجتياح العربي. وبالتأكيد فلا بدّ أنّنا أمام مدرسة مستقلة لبنائين عظيمين، تأثروا بقوة ربما يُعرف تقليدي وأيضاً بشكل كبير جداً بالشرق، ولكن نلاحظ في كلّ مكان شخصيّة واضحة جسورة، وأيضاً خياليّة ومرهفة. وثمة سلوان صغير في الفكرة التي تعتبر أنّ قوّة الإبداع التي هي واضحة في قلب لوزة لم تجد الوقت أبداً لتتمّز في مرحلة التّدهور.

كنت قد سمعت أو قرأت أنّه وُجد في الجبال قرب قلب لوزة Kalb Lozeh بعض القرى الدرزيّة، التي قطنها مهاجرون من لبنان، ولكن طالما أنّي لم ألتق بهم فقد نسيت وجودهم تقريباً. وقفت قرب الكنيسة نصف دزينة من الأكواخ التي خرج قاطنوها ليروني وأنا أصوّر. وعلى نحو غير مقصود تقريباً استوقفت بنظرة معروفة جداً من العيون المسوّدة بالكحل، ومزايا سلوك محدّد يصعب تفصيله ولكنه ذاك الذي يتحدّ ليشكل انطباعاً من سهولة وألفة ودودة وربما مع لمسة من رعاية فيها.

وعندما انضمت النساء إلى الحشد القليل لفتت نظري سلاسل الفضة والحلي المعدنيّة التي كنّ يرتدينها، فتذكّرت على نحو غامض أنّي لاحظتها في مكان آخر. وعندما قاربنا على الرّحيل، تقدّم منّا رجل مُسنّ بعض الشيء وعرض أن يسير معنا

نمّدة ساعة، قائلاً إنّ الطريق في الأسفل المؤدّي إلى حارم يصعب العثور عليه، ولم
نكن قد مشينا خمسين ياردة معاً قبل أن أفهم معنى إدراكي اللاواعي.

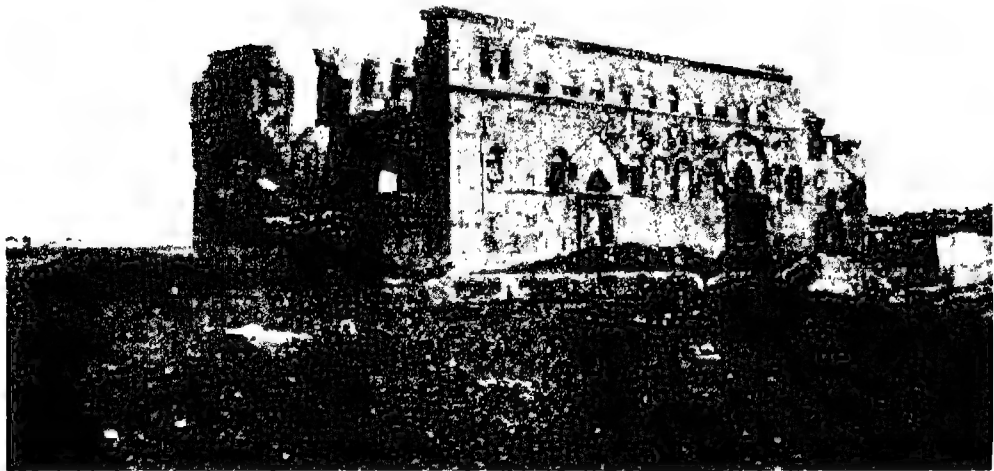
قلت: «ما شاء الله! أنتم دروز».

نظر الرّجل حوله بقلق نحو نجيب وميخائيل اللذين كانا يسيران قريبين في أعقابنا،
أحنى رأسه وتابع سيره دون كلام.

قلت: «عليك ألا تخاف، فالجندي والخادم متحفّظان».

عندها سكن قلبه وقال:

«يوجد القليل منّا في الجبال، ونحن نخاف المسلمين ونخفي عنهم أننا دروز، وإلاّ
فإنّهم سوف يطردوننا من المنطقة. فنحن لسنا أكثر من مئتي بيت في المجموع».



كنيسة قلب لوزة

قلت: «كنت آمل أن أجدكم، ذلك لأنني أعرف المشايخ في حوران، وقد أروني الكثير من اللطف. لذلك فأنا أربح بأن أحبي كل الدروز في أي مكان يمكن أن أقابلهم فيه».

قال: «الله! هل تعرفين الطرشان؟».

قلت: «والله!».

«شيلي وأخوه يحيى؟».

«أنا أعرف يحيى، ولكن شيلي مات».

صرخ: «مات! يا رحيم! مات شيلي!».

وبذلك انتزع مني كل أخبار الجبل، واستمع باهتمام منتش إلى القصص التي لم أفكر أنني سأجد أذناً مصغية لها بعيداً جداً عن ضلّخد، وفجأة توقفت أسئلته وانحرف بعيداً عن الطريق باتجاه كرم عنب كان فيه رجل شاب يقلّم الكروم.



الواجهة البارزة في قلب لوزة

صرخ: «آه يا ولدي! لقد مات شبلي الأطرش! أعرنني حذاءك، لأنّ حذائي ممزّق وقد أسير مع السّت إلى حارم».

دنا الشاب وهو يرمي بخفيه الجلديين الأحمرين.

قال: «إنا لله! لقد شاهدت شبلي قبل سنة فقط». وأعيدت الأخبار له بالتفصيل.

تابعنا رحلتنا على طول القمم الجبلية الحجرية، مندفعين عبر أزهار الغار الأرجوانية التي نمت بوفرة رائعة، وكنا نتحدّث ونحن نسير كما لو كنّا صديقين قديمين تفرّقنا من زمن طويل. عندما أتينا إلى حافة جبل العلاء Jebel 'Ala رأينا حارم أسفل منا، وألححت بأنّ على رفيقي أن يوفّر على نفسه مشقّة السير لمسافة أبعد. وافق على العودة بعد معارضة شديدة، ووقف يغدق عليّ ببركاته لمُدّة خمس دقائق قبل أن يقول لي وداعاً، ثمّ عاد إلينا مرّة أخرى لكي يتأكّد ربّما بأننا أدركنا الطريق.

قال: «وعندما تأتين في المرّة القادمة من جبل العلاء Jebel el 'Ala عليك أن تحضري مخيمك إلى قلب لوزة Kalb Lozeh وتبقي لمُدّة شهر على الأقلّ، وسنعطيك كلّ ما تحتاجينه ونريك كلّ الآثار. والآن نرجو الله أن تذهبي بأمن وسلام! وأن تعودتي بصحّة وسلامة في السّنة القادمة».

قلت: «أرجو الله أن يمدّ في عمرك ويسلمك!».

وهكذا افترقنا وقد تدفّأ قلبي بعاطفة لشعبه ليس من الصّعب أن تضطرم من جديد. يمكن أن يكونوا قساة في المعركة - فالدليل ضدّهم ساحق؛ ويؤكّد البعض بأنّهم غدارون، والبعض يجدهم طماعين، لكنّي عندما أقابل درزيّاً فإنّي لن أتردّد في أن أحييه كصديق، ولا يتوجّب عليّ أن أنغيّر حتى أثبت لقناعتي أنّها في غير محلّها.

* * *

تقع قلعة حارم على رابية عند مدخل أحد الممرّات الضيّقة القليلة التي تشكّل مدخلاً لجبل العلاء Jebel el 'Ala. يمتدّ خلفها سهل العاصي الكبير الذي كان منطقة تنتج الحنطة بوفرة في العصور الماضية لمدينة أنطاكية Antioch. كان قسم كبير من

الجزء الشمالي للسهل تحت الماء، وامتدت البركة السبخية التي يطلق عليها السورتون البحرة El Bahra بسبب الأمطار الأخيرة حتى حدّها الأقصى. انعطفنا جنوباً من حارم وركبنا على طول السفح في منحدرات جبل العلا إلى سلقين، وهو مسير جدير بالذكر بسبب الجمال المفرط للأرض التي مررنا بها. فلم أزل من قبل مثل هذا الخصب الغزير في سوريا كلّها. تقاسمت أيكات الزيتون واللوز الأرض الخصبة مع الشعير والشوفان؛ أجمات متشابكة من الجولق والوزال (الرّتم)، والغار والعُليق حَفَّت الطّريق، وكانت كلّ بقعة مشمسة زرقاء اللون بزهر القز حثة الرّقاء *iris stylosa*.

تمتد سلقين نفسها في وادٍ مشجّر وسط عدد لا يُحصى من أشجار الزيتون التي امتدت تقريباً حتى العاصي ولعدة أميال بعيداً. ترجلنا عن خيولنا قبل أن نصل إلى البلدة في بقعة مكشوفة بين بساتين الزيتون. كانت الساعة الخامسة ولكن لم يكن فارس قد وصل بعد، ونظّمنا أمرنا على نحو مريح تحت الأشجار لانتظاره. سبّب مجيئنا بعض الإثارة بين السكّان الذين كانوا يجلسون على العشب ويستمتعون بهدوء المكان؛ وبعد قليل جاء رجل، كان من الواضح أنّه شخص معتبر، جاء مسرعاً نحونا ويرفقه خادم ودعاني كي آتي وأستريح في بيته. كان رجلاً مهيباً، على الرّغم من أنّه بالكاد قد وصل منتصف العمر، وكان محتياها لطيفاً؛ قبلت دعوته ظناً مني أنّه من الممكن أن أرى أيضاً ما لدى سلقين لتقدّمه. يجب أن تتمسك دوماً بالمناسبات التي توسّع دائرة معارفك الشخصية وخاصة في الأماكن الأجنبية.



حارم

وجدت حالاً بأنّي قد وقعت في يديّ أغني سَكّان البلدة. محمّد علي آغا وهو ابن رستم آغا، الجركسي الأصل الذي كان خادماً في عائلة كاخيا زاده Kakhya Zadch الكبيرة من هَمَدان Hamadan - وهذا هو اسمهم العربي، ويسمّهم الفرس: كَتُخدا زاده Kat Khuda Zadch. هاجرت عائلة كاخيا زاده إلى حلب منذ قرنين؛ بمثل هذه الصّفقات المألوفة عند الجراكسة، وأصبحوا أغنياء إلى أبعد حد وهم الآن من أقوى الأُسَر في حلب⁽¹⁾. شارك خَدَمهم في نجاحهم، وادّخر رستم آغا، كونه رجلاً حريصاً، ما يكفي من المال ليشتري أرضاً في سَلقين قرب ضيعة سيّده الكبير في وادي العاصي. وسانده الحظ جدّاً حيث طلب يد إحدى بنات الكاخيا لابنه.

لم أعلم كلّ هذه التفاصيل في الحال، وقد دهشت عندما جلست عند حريم محمّد علي حيث أدركت الاختلاف في الطّريقة التي تصرّف بها مع زوجته، متسائلة لماذا تعامل هذه السيّدة الصّغيرة حادّة الملامح، برّاقة العينين والتي لم تنجب له أبناء، بمثل هذا الاحترام من قبل زوجها، ذلك لأنّي لم أكن أعرف بعد بأنّها كانت أخت رشيد آغا كاخيا زاده Reshid Agha Kakhya Zadch. لدى محمّد علي طفلة واحدة، في السّادسة من العمر، وعلى الرّغم من أنّها من جنس غير مفيد، فقد كان من الواضح أنّها قرّة عين والدها. تكلم معي طويلاً عن تعليمها وإمكاناتها بينما كنت أكل أفضل أنواع الزّيتون ومربّى الكرز الذي وضعته خادماته أمامي. كانت الخانم كريمة جدّاً حيث أنّها حضّرت القهوة بيديها، وعُتبرت عن إعجابها بالقبّعة المصنوعة من اللّباد البالية المرميّة بجانب علي الأريكة، التي غطّيت إلى حدّ ما بوشاحها الفضّي والأرجواني.

قالت: «أوه، القبّعة الأوروبيّة الجميلة! لماذا تضعين منديلاً فوقها بينما هي جميلة جدّاً؟».

عندها جرّدتها من الوشاح الحريري والحبل المصنوع من وبر الجمل، ووضعتها بكلّ قذارتها المجرّدة فوق صفائر ابتها السّوداء، وأعلنت بأنّها كانت أفضل غطاء رأس جَدّاب في العالم.

(1) ما تزال العائلة معروفة في حلب باسم: آل الكيخيا، وهم من سرّاة حلب وأعيانها.

عند السّاعة السّادسة وردت أخبار بأنّ دواب أمتعتي قد وصلت، ولكن قبل أن يُسمح لي بالعودة إلى خيامي كان عليّ أن أزور رستم آغا. كان مستلقياً على أريكة مُلئت بأغطية حريرية ملتفة في غرفة علوية تطلّ على الجدول المتدفق وشجرتين كبيرتين من السّرو تضيفان الكثير لروعة جمال سلقين. تقف هاتان الشّجرتان كحارسين أسودين طويلين أمام بوّابة المنزل، الذي يُعدّ البيت الأوّل والأكبر في طريق القرية الملتوي.

كان رستم آغا مُسنّاً جداً ومريضاً جداً. برز وجهه كوجه جثة فوق بطانيات الحرير الحافلة بزهرة الزّيبع الشّاحب. بدا وكأنّه سُرّ بزيارتي على الرّغم من أنّه عندما فتح شفّتيه ليرحب بي اجتاحت نوبة سعال شديدة حتّى كادت روحه تخرج من جسده. وما إن استرد عافيته حتّى سأل عن الأنباء الأخيرة بشأن روسيا واليابان. تعجّبُ منه، وقد بدا أنّه قريب جداً من نهايته، كيف كان لديه الصّبر ليسأل عن أيّ شيء يتعلّق بنا، ولكن سواءً علينا إذا استطعنا رؤية المذخر المتكّي يعرج بمنجمله بين شجرتي السّرو عند الباب.

عندما جلست لتناول الطعام في خيمتي ترنّح خادمان من خَدم محمّد علي داخل معسكري يحملان جرّة كبيرة من زيتون ينمو في بساتين سلقين محفوظ بزيت الخالص. وجلبا أيضاً طلباً من سيّدهما فيما إذا كان يستطيع أن يأتي ويمضي معي ساعة، فأرسلت بالتّالي رسالة ممتنة بأنّ هذا سيشرّفني. ظهر بعد قليل، مع شخص أو شخصين في حاشية كي يحملوا نرجيلته، وجلس موطناً نفسه لمحادثة مريحة مع مرافقة قرقرة ماء التّرجيلة، وهو صوت مهدّئ ولطيف يساعد في المحادثة.



سَلَقِين

أخبرني بأنَّ سَلْقِينَ كانت واحدة من الكثير من المدن السِّلوقِيَّة، وقد أُسَّسها سلوُفُس الأول Seleucus I ذاته كمنتجع صيفي لسكَّان أنطاكية. قال إنّ البقعة التي خيَّمت عليها والمقبرة التي خلفها شكَّلت موقع البلدة السِّلوقِيَّة، «وإذا حفرنا قبراً في أيِّ مكان منها فإنَّنا نخرج أحجاراً منقوشة وأحياناً مكتوبة». ويبدو أنَّه ليس من غير الطَّبيعي أن تكون سفوح التَّلال الخصبة قد تمَّ اختيارها من قبل سكَّان أنطاكية من أجل بيوتهم الرِّيفِيَّة، لكنِّي لا أجد دليلاً آخر لدعم هذه الرِّواية. قال أيضاً إنّ نسيبه رشيد آغا، كان يقيم عنده، وقد عبَّر عن أمله بأنَّ أزوره في اليوم التَّالي قبل أن أغادر.

وإذا كان رشيد آغا كاخيا زاده القطب الرِّئيسي في المنطقة فهو أيضاً العتَل الرِّئيسي. فقد وجدته في الصُّباح الباكر جالساً تحت أشجار السَّرو قرب الجدول المزد وبوجه أكثر شراً في أجمل جلسة وقد أضيء بشمس ساطعة في وضع يصعب تصوُّره، كان رجلاً طويل القامة بسلوك متغطرس؛ وتخفي جبهته عالماً من الأفكار الشَّريرة، وقد نظرت عيناه شزراً على نحو رهيب، ودمدمت شفثاه المكتنزتان الشَّهوانيتان عندما نطقنا عن المفاخر التَّافهة والأوامر القاسية التي شكَّلت قوام حديثه. كان قد لُف بثوب حريري باهت اللُّون، وجلس يدخن نرجيلة قد حلِّيَ فيها بالجواهر. وضع إلى جانبه باقة من أزهار الرِّبيع، التي جعل يحملها ويشمُّها عندما كان يتحدَّث، وأخيراً قدَّم أفضل زهرة لي. هذه إحدى امتيازات الرِّحالة المستهتر حيث أنَّه لا يستطيع تجنُّب زيارة مجموعة من الأوغاد، ولَمَّا وجدت أنَّ صديقي محمَّد علي كان على وشك أن يرافق رشيد آغا إلى بيت الأخير في العلاني⁽¹⁾ Alani وهي تقع على طريقي فقد وافقت على اقتراحهم بأنَّ علينا أن ننطلق سوِّية.

كانت الدواب قد أُخْرِجت، وركبنا تحت شجرتي اللُّوز وخبينا بعيداً عبر أجسام الرِّيتون باتجاه وادي العاصي. ركب رشيد آغا فرساً عربيَّة رائعة؛ لمع جلدها الأسود بسبب التَّنظيف الذي كانت قد تلَقَّته. كانت ملجمة برفق، وكان عذارها عبارة عن

(1) العلاني قرية صغيرة تقع إلى الغرب من سلقين بمسافة 7 كلم، وهي ليست أثرية بل تعود إلى مطلع العهد العثماني، أسَّسها بعض الإقطاعيين.

سلسلة من الفضّة، ورُصّع لجامها بزخارف من الفضّة، وكانت كلّ حركة من حركاتها مسرّة للنّاظر. ناشد صاحبها على نحو متكرّر محمّد علي، الذي عدا إلى جنبه على بغل جميل، ناشده الإعجاب بفرسه، وعندما كان الأخير يجيب بتدليل بكلمات الثناء المطلوبة، كانت كلماته تؤخذ وتعزّز من قبل رجل مُسنّ بدين ركب معنا على فرس هزيل. كان مضحكاً ومدهناً ويعمل في خدمة الكاخيا زاده Kakhya zadch وإذا كان محيّا قد تكلم بدقة، فهو أيضاً قواد إلى حدّ كبير لرذائله ويتستّر على جرائمه - وقد ألفت نفسي بين تلك المجموعة الغريبة في ذاك الصّباح من أبريل. هرول الحاج نجيب بسرور خلفنا، ولكن ميخائيل الذي كان حسّه بالآداب قوياً، استطاع بالكاد أن يكتم استنكاره، وعندما يخاطبه المهرّج أو رشيد آغا كان يجيب بكلمة واحدة، على الرّغم من أنّه قد تحدّث من دون رسميّات مع محمّد علي، الذي اعتبره، وبحقّ، من طينة أخرى. ركبنا لمدّة ساعة على أرض رطبة ناعمة، وكان رشيد يشير إلى جمال ممتلكاته ونحن نسير.

قال: «كل بساتين الزيتون هذه هي ملكي، بالله وبنبّي الله! ليس هناك مثل هذا الرّيتون في الدّنيا. كلّ سنة آتي من حلب وأرى حصاد الرّيتون بعينيّ مخافة أن يقوم الخدم الأوغاد الذين يعملون عندي بخداعي، لعنة الله عليهم! ولهذا فقد بنيت لنفسي بيتاً في العلاني Alani - يعلم الله، فعلى الإنسان أن يهتّي لنفسه راحة وحياة لاثقة. ولكن يجب أن تشاهديه لأنّ عليك أن تأكلي معي؛ فمائدتي تُمدّ لكلّ القادمين. وحول البيت قمت بزراعة حقول من أشجار التّوت؛ عشرة آلاف شجرة فتية قمت بغرسها في السّنوات الخمس الأخيرة. وسوف أنشئ مصنّعاً لأعمال الحرير بأرقام كبيرة، إن شاء الله! يا يوسف! أرها صناديق البيض التي جاءت من فرنسا».



مسافرون

أخرج المهرّج من صدره صندوقاً صغيراً من كرتون ممهور بعلامة تجارية لشركة فرنسيّة؛ ولكن قبل أن أتمكّن من إظهار احترامي لصناعة الآغا كان انتباهه قد انصرف قبل بعض الفلاحين الذين كانوا يقلّمون أشجار الزيتون على نحو لم يعجبه، فاستحث فرسه نحو الأشجار وصبّ وابلأ من الشتائم واللّعنات على الرّجال التعيسين، ثم عاد إلى جانبي واستأنف قصّة شجاعته.

كان البيت كبيراً وجديداً، وقد أثث في كلّ مكان بالمخمل والمرايا ذوات الأطر الذهبيّة. لا شيء يمكن أن يُرضي الآغا أكثر مما أقوم به من رؤية وإبداء الإعجاب في كلّ زاوية، وأعطاني المهرّج دليلاً في الثناء والتّهاني. استنتجت منه بأنّي قد دُعيت بشكل رئيسيّ كي أمجّد مزايا المواقد الحديديّة التي كانت بارزة في كلّ الغرف - ولا شك أنّها أضيفت من أجل الرّاحة إن لم يكن من أجل منظر رائع للبناء. وعندما انتهينا جلسنا على أريكة نتنظر حتى يجهز الغداء. شغل الآغا الوقت وهو يروي لي بسخط شديد جدّاً عن صراعاته ضدّ فساد واستبداد الحكومة التي عاش في ظلّها، لكنّه أغفل أن يذكر بأنّ ما عانى منه على أيدي هؤلاء الذين هم أعلى منه قد مرّره وعلى نحو زائد لهؤلاء الذين هم أدنى منه.

دمدم: «بالله! لقد رأيت كيف أعمل بين أشجار الزيتون وكيف أزرع أشجار التوت وكيف جلبتُ بيوض دود الحرير من مكان بعيد، حيث من الممكن أن أنشئ تجارة جديدة في العلاني. وهل الوالي مقرّ بالجميل؟ لا والتّبي! فهو يرسل رجاله ويقولون: توقف! حتّى نرى مقدار الضّريبة التي يمكن أن نأخذها منك! وعندما نصبت طاحونة عند النّهر لطحن قمحي، قالوا: توقّف! إنّه عمل غير قانوني. ثمّ استدعوني في منتصف الحصاد، وركبت سريعاً إلى حلب، وجعلوني أنتظر يوماً بعد يوم وأسبوعاً إثر أسبوع ومنعوني من أن أغادر المدينة.

وصرخ الآغا «والله!»، ضارباً بقبضته على طاولة صغيرة مرصّعة «لقد أربكتهم! ذهبت إلى القاضي وقلت: ممّن صدر القرار؟ قال: من الوالي، فذهبت إلى الوالي وقلت: «من أصدر القرار؟» فأجاب: «لا أعرف، ربّما القاضي، وأمرتهم أن يكتبوه، لكنهم لم يجرؤوا، وهكذا تركوني أمضي».

وفي وسط هذه الحكايات أعلن عن وصول ثلاثة زوّار. أخذوا مقعداً محترماً على الأريكة المقابلة، وأنفقوا وقتهم بالتّحيّات والتّملّقات. استقبلهم الآغا كما يستقبل الإمبراطور رعاياه، واستغلّ أحدهم الفرصة حالاً قائلاً لي بهمس مسموع من الجميع: «أنت ترين أيّ نوع من الرجال هو الآغا؟ إنّه مثل ملك في هذه المنطقة». ومن أجل ذلك أصبح الآغا أكثر زهواً على نحو ملكي.

جلسنا أخيراً إلى مائدة مليئة بأشهى المأكولات السّوريّة اللّذيذة، وقليلة هي المطابخ التي تستطيع أن تنافس السّوريين في أفضل ما لديها. تكلم الآغا وأكل بنفس الشّهية، مقدّماً طبقاً إثر آخر لضيوفه. وعندما كانت الوليمة في أوجها قدّم خادم وقال إنّ هناك فلاحاً يرغب أن يتكلّم معه.

قال الآغا بلا مبالاة: «دعه يدخل!» ظهر فلاح رث الثّياب عند المدخل وحدّق بعينين نصف حزينتين، نصف خائفتين من الجماعة ومن الوفرة في الوجبات اللّذيذة. بدأ كلامه: «السّلام عليك يا آغا!».

ولكن ما إن شاهد الآغا المتوسِّل حتى نهض على قدميه في نوبة غضب شديد.
احمرَّ وجهه وجحظت عيناه الحقودتان من رأسه وضرب الطاولة بقبضته المطبقة
عندما صرخ:

«انصرف! لعنة الله عليك وعلى نسلك، ويخرب بيت أبيك! انصرف، أقول لك،
وأحضر المال، أو سوف أرسلك إلى السجن مع زوجتك وعائلتك، وسوف تعاني من
الجوع هناك حتّى تموت».

قال الرّجل بكرامة وقفت في وجه غضب الآغا: «يا آغا! قليلاً من الوقت. امنحني
قليلاً من الوقت».

صرخ الآغا: «ولا يوم! ولا ساعة! انقلع! وعليك أن تحضر لي التّقود هذه الليلة».
اختفى الفلاح من المدخل دون أيّ كلمة أخرى، وجلس الآغا وتابع حديثه المنقطع
وطعامه المعترض؛ وتابع الضيوف الآخرون طعامهم كما لو أنّ شيئاً لم يحدث، لكنّي
شعرت بشيء من الخجل بسبب وجودي على يمين رشيد، ولم أشعر بالأسف بأن
أطلب الإذن بالترحيل.

أرسلنا الآغا إلى الأسفل إلى العاصي وأركبنا بقاربه من أجل عبور النّهر. وعندما
وصلنا إلى الجانب الآخر أخذ ميخائيل بتباهٍ قطعة من الخبز من كيسه وبدأ يأكلها.
قلت: «ألم تأكل في العلاني؟».

أجاب ميخائيل بعنف: «أنا لا أكل مع شخص كهذا».
ونجيب الذي لم يكن ليتردّد بالاستمتاع بالتّرف النادر لطعام وافر، أو مأ برأسه
وقال: «الآغا رجل شرير، عسى الله أن يجازيه على أعماله، إنّه يعتصر من الفقراء آخر
متليك لديهم، ويصادر أراضيهم، ويخرجهم من بيوتهم إلى الجوع والحرمان».

قال ميخائيل بتجهم: «وأسوأ من ذلك».

قال نجيب: «والله! كلّ رجل لديه زوجة جميلة أو ابنة جميلة يبقى في خوف منه،

لأنه لن يرتاح حتى تصبح المرأة بين يديه. بالله وبمحمد نبي الله! وقد قتل أكثر من رجل لكَي يضم زوجته إلى حريمه، وليس هناك رجل مكروه أكثر منه». قلت: «ألا يمنعه القانون؟».

قال نجيب: «ومن عليه أن يمنعه؟ إنه غني - الله يخرّب بيته!».



أنطاكية

قلت ونحن نتلمّس طريقنا عبر الحقول الموحلة: «يا ميخائيل! لقد سافرت كثيراً في بلادك ورأيت وتعرّفت على الكثير من الأشخاص، ونادراً ما التقيت برجل فقير إلّا ووجدت أنّي أستطيع أن أختاره كصديق ولم أتعرف إلى غني دون أن يلازمي شعور الرّغبة بتجنّبه. والآن كيف هذا؟ هل الثروة تغيّر القلب إلى حدّ بعيد في سوريا؟ ولهذا، انظر في بلادي ليس الأقوياء أفضل، ولكن ولا كلّهم أوغاد. وسأسألك أنت ودروز قلب لوزة Kalb Lozeh وموسى الكردي فيما إذا كنتم ستصبحون أشراراً لو أصبحتم أغنياء مثل رشيد آغا؟».

قال ميخائيل: «يا ستّ، القلب هو نفسه، ولكن في بلادك الحكومة عادلة وقوية

ويتوجب على كل إنكليزي أن يطيعها حتى الغني؛ في حين بالنسبة لنا لا توجد عدالة، ولكن الرجل الكبير يأكل الصغير، والرجل الصغير يأكل الأصغر، والحكومة تأكل الكل بالطريقة نفسها. وكلنا نعاني من بعضنا وندعو الله أن يساعدنا، طالما أننا لا نستطيع أن نعين أنفسنا. ولكن على الأقل فأنا لم آكل خبز رشيد آغا». هكذا لخص ميخائيل كلامه على نحو مختصر مفيد.

وعند هذه النقطة نكسُ أنا ونجيب رأسينا.



تَمَّة صورة أنطاكية

ثم تبع ذلك خمس ساعات من أسوأ مراحل السفر، ويمكن أن يكون ذلك عقوبة لي ولنجيب لجلوسنا على مائدة الشرير، ولكن، مثل أغلب عقوبات العناية الإلهية، فإنها تقع على نحو نزيه على العادل والظالم، فبالنسبة لميخائيل فقد تحمّل مثل ما تحمّلنا. فكل الذي عانينا منه في اليوم السالف من الصّخور عانينا منه الآن عند الطرف المقابل من الوحل. كان العذاب أقسى بألف مرّة. فقد عبرنا لمدة خمس ساعات تلاماً من التراب والتي لم يكن عليها حجر واحد، وإتّما وحل لرج في المنحدرات التي تناوبت بمستنقعات عميقة حيث غاصت خيولنا حتى أحزمة سروجها، وعندما خرجنا

أخيراً من هذا المستنقع في وادي العاصي كان الناس والدوابّ منهكين تماماً.

ارتفعت الآن الأرض المرتفعة التي تركناها إلى حوافّ صخرية وقمم، كان الوادي العريض يمتدّ عن يميننا، ممثلاً إلى نصفه بالماء الفائض، وقامت خلفه سلسلة جبال رائعة. لم يكن قد مضى وقت طويل حتّى شاهدنا الأبراج والأسوار البيزنطية تتوّج السلاسل الجبلية عن يسارنا، وتعثّرت خيولنا بين حواجز من شجر الغار المزهر على طول الرّصيف المتهدم للطريق الرّوماني الذي يقود إلى أنطاكية Antioch. كان الطريق قد امتلأ أيضاً برافد من نهر العاصي الذي تدفق بجذل على الرّصيف. ولقد كان ذلك مع بعض الإثارة حيث حدّقتُ بمدينة أنطاكية، التي كانت لعدّة قرون مهد الفنون وموقعاً من أكثر مواقع الحضارات الرائعة التي عرفها العالم.



على ضفاف العاصي في أنطاكية

تشبه أنطاكية الحديثة المهرج الذي يلبس ثياباً واسعة جداً على ساقيه الهزيلتين؛ وتمتدّ جدران القلعة صاعدة على الصخرة والتّلة، تحيط بمنطقة حيث تقع البلدة منكشّة بعيدة عنها. لكنها لا تزال من أجمل الأماكن، بهضبتها العظيمة المسنّنة التي تقع خلفها، متوّجة بالأسوار، وتمتدّ أسطحها الحمراء المتعقّدة في الأسفل حتّى وادي العاصي العريض الخصب. وقد قلبت الزلازل وفيضانات النهر المتغيّرة وطمرت

بالطمي قصور الإغريق والمدينة الرومانية، وعرفت وأنا أقف عند غروب الشمس على
منحدر المقبرة النصيرية المغطاة بالأعشاب تحت جبل سيلبيوس Mount Silpius أين
كان مخيمي قد نُصب، ورأيتُ الأسقف الحمراء تحت هلال القمر، وأدركتُ بأنّ ذاك
الجمال إنّما هو ميراث أنطاكية الذي لا يقبل التحوّل.



الفصل الرابع عشر

لم يخزّب التعرّف الأكثر على أنطاكية Antioch انطباعات المساء الأوّل. فكلّما تجولتُ عبر الطّرق المرسوفة الضيّقة كلّما ظهرت أكثر بهجة. ما عدا الطّريق الرئيسي العام، الذي هو السّوق، فقد كان خالياً تقريباً؛ وكانت خطواتي على الطّريق المرسوف بالحصى تخترق سنين من الصّمت. ولقد أعطت الجملونات الرّقيقة المغطّاة بالأجر الأحمر سحراً وسمتاً مميّزاً جدّاً للمدينة كلّها، وبرزت الشّرفات المزوّدة بمصاريع إلى الخارج من بيت إلى بيت. ولا يوجد أيّ أثر يُذكر للماضي. زَيْن تابوتان جميلان من الحجر بالشرائط وأكاليل الزّهر مع تزيينات لأسود من طراز آسيوي مألوف، كما أتصوّر، تلتهم ثيراناً، وهما موضوعان في السّرايا Seraya، وتابوت آخر مشابه لهما، ولكن أقلّ تعقيداً عند حافة طريق دَفنة Daphne. رأيتُ أيضاً جزءاً من سطح تقليدي معتمد في فناء منزل تركي، ومنحدر جدار في الشّارع الرئيسي يمكن بلا ريب أنّه يعود لتاريخ أبكر من المدّ الإسلامي - وقد شابته صفوفها من القرميد المتناوبة مع الحجارة تلك الموجودة في الأكروبوليس Acropolis.

أمّا أنطاكية التي سيّدها سلوؤُس نيكاتور فإنّها مدينة الخيال فقط. وقد اختفت الجزيرة التي بنيت فوقها تلك المدينة بسبب التّغير في قاع النّهر، لكنّ الأماكن التقليديّة موجودة فوق المدينة الحديثة. ولا بدّ أنّ ضفاف العاصي قد أنشئت عليها دارات فخمة؛ وقد أخبرتُ بأنّ أساساتها كانت تظهر كلما حفر إنسان بعمق كافٍ في الطّمي، وكانت تلك الأشياء قليلة القيمة، مثل النقود المعدنيّة والبرونزيّة، تُستخرج

غالباً. لقد أحضر لي الكثير منها للبيع، ولكنني قدّرت أنّها مزيفة على نحو غير متقن، وأكدت رأيي برفعت آغا وهو باشا تركي يشغل وقت فراغه بصنع مجموعة من الأشياء القديمة. إنه يمتلك مجموعة رائعة من النقود السلوقية والأقدم منها جيدة مثل أفضل الصقلية Sicilian، والأحدث منها سيئة مثل أسوأ العملات البيزنطية، وكان أحد هذه المصاييح البرونزية على شكل رأس إله الحب إيروس Eros المجعد الشعر، وهو مثال جميل للعمل الروماني. أهداني الآغا رأساً صغيراً، يُعدّ نسخة للرأس في أنطاكية بالتاج العالي، وعلى الرغم من أنّه كان مجرد عمل مصنوع على نحو غير متقن، فإنّ له بعض التميّز لكونه منسوخاً عن نموذج أصلي عظيم.



سوق الحبوب في أنطاكية

قبل أربعين سنة كانت الجدران والأبراج في الأكروبوليس Acropolis لا تزال كاملة تقريباً؛ وهي الآن مخربة كلياً تقريباً. ويؤكد سكان أنطاكية بأن المدينة يُخسف بها كل نصف قرن حتى أساساتها، وهم في الوقت الحالي يتوقعون ارتفاعاً آخر لقشرة الأرض، وقد كان آخر ارتفاع للقشرة الأرضية قد حصل في عام 1862؛ ولكنه الازدهار وليس الزلزال هو الذي صنع الخراب في القلعة.

تقع البلدة على نحو رائع في واديها الغني، وتتصل بميناء إسكندرون Alexandretta بطريق جيد إلى حد ما؛ ومن الممكن أنها أصبحت بلا ريب مركزاً تجارياً عظيماً، وحتى تحت الحكم التركي فقد نمت إلى حد بعيد في الخمسين سنة الماضية، ونمت على حساب الأكروبوليس.

لا يمكن لأية صعوبة أن تقف في وجه الزلزال الشرقي لكي يجنب نفسه مصاعب استخراج الحجارة من المقلع، وعلى الرغم من العمل في نقل أحجار القلعة المزينة إلى سطح التلة العالية جداً التي تقع عليها القلعة، فقد بُنيت كل البيوت الحديثة من مواد أخذت منها. وأعمال الهدم مستمرة؛ فالواجهات الحجرية تختفي بسرعة من الأسوار بحيث لم يبق سوى الحصى والملاط الذي يتلاشى في وقت قصير بسبب عوامل الطقس.

ذات صباح قمت بجولة شاملة في القلعة استغرقت ثلاث ساعات. وإلى الجنوب من قمة جبل سيلبيوس Mount Silpius يوجد شقّ صدع صخري جانب التل. كان مليئاً بالقبور الصخرية المنحوتة، وهناك فوق مخيمي تماماً قناة قديمة تجتازه. وعلى اليسار من الصدع هبط خط السور بصخور شديدة الانحدار إلى الوادي. وحيث بقيت الشظايا الكبيرة فقد كان من الواضح أن حجارة الواجهة قد أبدلت بزمز من القرميد، وفي بعض الأحيان حتى الحجر نفسه تنوع بمجموعات في كتل من الأحجار بأحجام أصغر وأكبر.

تطوق الحصون منطقة واسعة، ويؤدي الجزء الأعلى بمنحدرات لطيفة مغطاة بأغصان مقطوعة وأساسات مهدمة إلى قمة التلة. وفي الجدار الغربي كان هناك باب حجري ضيق وكبير، بعتبة من كتل حجرية ذات مفاصل وقوس بارز فوقها. كان السور الشمالي متهدماً قرب الأبراج؛ وكانت القلعة الأساسية تقع في الزاوية الشمالية الشرقية. ومن هنا هبطت

الأسوار للأسفل مرّة أخرى بانحدار شديد باتجاه المدينة ومّرت على مسافة إلى الشرق منها. أعتقد أنّه من الممكن تقفّي آثارها حتّى العاصي. لم أقم بتعقب مسلكها، ولكنّي هبطت من القلعة عن طريق حجري إلى ممّر ضيق عميق يقطع الطرف الشرقي للتلة.

تمّت حماية هذا الممرّ الضيق بجدار قوي من القرميد والحجارة ويسمّونه بوابة الحديد، وتبعد خلفه التّحصينات على الطرف المقابل من المنخفض وتستمرّ بالصعود على طول قمة التلة. ولا أعرف مقدار مسافة امتدادها؛ وكانت الأرض وعرة جداً وكُست بشكل كبير بالأجمات حيث رجف قلبي وعدت أدراجي. كان هناك الكثير من الأزهار بين الصّخور، كالفطيفة (الآذريون)، والبروق، وبخور مريم، والسوسن.



مصباح روماني في مجموعة رفعت آغا

خلف ممّر البوّابة الحديدية، على جانب التلة المواجهة للعاصي، يوجد كهف يطلق عليه في العرف كهف مار بطرس St. Peter. وقد أقامت الطائفة اليونانية كنيسة صغيرة على مدخل الكهف. ويوجد بعيداً وعلى طول التلة بقايا أكثر غرابة لأنطاكية القديمة، وهو رأس أبي الهول Sphinx منقوش بشكل نافر فوق صخرة بارتراف 20 قدماً تقريباً. وقد لفّ حول جبينه غطاء ينسدل على كلّ جانب من وجهه وينتهي حيث تلامس الحنجرة الصّدر الظاهر. وتلتفت ملامحه الرّتيبة نحو أعلى الوادي، كما لو كان يرقب أحداً سوف يأتي

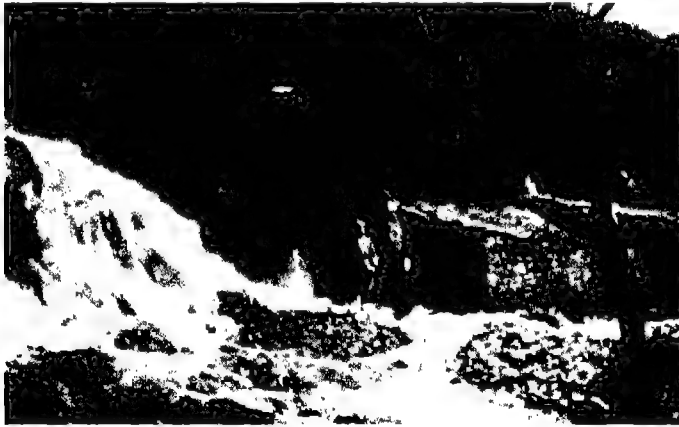
قادمًا من الشرق. ولو استطاع أن يتكلّم فرتما يخبرنا عن الملوك العظام والمواكب البهية، وعن المعركة والحصار، حيث أنّه رآهم كلّهم من صخرته على جانب التلّة. وهو لا يزال يتذكّر اليونان الذين عرفهم وقد مشوا من بابل Babylonia، وحيث أنّ الرّومان لم يعلموه بأنّ العالم الحيّ يمتدّ في الغرب، فأنا لم أتمكّن من أن أمل بتنويره، ولذا فقد تركته يترقّب بعض الأشياء الجديدة القادمة من الشرق.

كان هناك حجّ آخر يجب القيام به من أنطاكية: لقد كان إلى دَفنة Daphne المزار المشهور الذي ميّز المكان حيث صدّت الحوريّة رغبة الإله، ويدعى بالعريّة بيت المياه. وهو يمتدّ إلى الغرب من البلدة، على مسافة ركوب ساعة تقريباً على طول سفح التلال، وهو في الربيع فاتن جداً لا يتوقّر وجوده دائماً. ويمرّ الطريق عبر أيكة رائعة من البراعم الخضراء، النامية بشكل كثيف بالزّعرور البرّي المزهر واللّون الأرجواني الغريب لشجرة الزمزيق؛ ومن ثمّ يعبر رعنًا منخفضاً وينزل إلى وادٍ منحدر يتدفّق عبره جدول نحو العاصي.



رأس أبو الهول (سفينكس) في أنطاكية

ليس هناك أي أثر باق للمعابد التي زينت هذا الحرم الأكثر جمالاً بين الأماكن المقدسة. لقد جرفتھا الزلازل والانھیارات الجبلیة إلى أسفل الوھد. ولكن جمال الموقع لم ینقص منذ الأیام التي كان سكاّن أكثر العواصم ترفاً في الشرق یداعبون هناك الفتيات اللاتي خدمن الله. لا یندفع السیل بجلبه من جانب الجبل؛ فهو یولد في بركة ساكنة عميقة تمتدّ محاطة بغطاء من سرخس كزبرة البئر، في أجمات «تُبطل كل ما یسعى إلى فكرة نضرة في ظلّ أخضر». ومن البركة ینشق نھر شفاف مصقول السطح، ضیق وعمیق؛ وهو یجري في دوّامات وتيارات معاكسة ثمّ في شلالات مزبدة وشلالات تقذف الرّذاذ الأبيض بین أغصان شجر التوت والدّلب. تقف تحت الأشجار إحدى عشرة طاحونة؛ والطّحانون رثو الثياب هم وحدهم سكاّن مزار أبولو Apollo. وقد جلبوا لنا جوزاً لناكله على حافة الجدول، وجواهر أثریة صغيرة كانت قد سقطت من حلي أولئك الذين بحثوا عن المتع على نحو ربّما أقلّ براءة من متعنا عند ضفاف ذاك الجدول ذاته.



دَفِنَه

من المستحيل أن تسافر في شمال سوريا دون أن تكتسب اهتماماً شديداً بالملوك السلوقيين، مبطناً باحترام عمیق لإنجازاتهم في الأمور السیاسیة والفنون؛ ولذلك فقد عقدتُ العزم على زيارة موقع سلوقيا پیریا Seleucia Pieria، ميناء أنطاكية حيث قبر

سلوقيا پيريا قبل أن أوصل طريقي شمالاً.

برزت العاصمة الدّاخليّة والميناء البحري إلى الوجود في اللّحظة ذاتها، وكان كلّ منهما جزءاً من تصوّر عظيم حوّل الألسنة المنبسطة الأكثر انخفاضاً من نهر العاصي إلى سوق غني ومزدحم بالسّكّان - واستطاع الملوك في تلك الأيام أن يُنشئوا مدناً مشهورة عالمياً بتلويح من الصّولجان، ولم يكن السّلوقيّون متأخّرين في اللّحاق بالمثل الذي كان الإسكندر Alexander قد وضعه لهم. ومثل أفاميا Apamea فإنّ سلوقيا قد انكمشت إلى حجم قرية صغيرة، أو ربّما سيكون من الأصحّ أن نقول إنّها تناثرت إلى عدّة قرى صغيرة تحت اسم السّويديّة Sweidiyyeh. (إنّ التّسمية مربكة، لأنّ لكلّ مجموعة من المزارع أو الأكواخ لقباً مستقلاً).

يعود التّباعّد بين السّكّان عند مصبّ نهر العاصي إلى العمل الذي يمارسه سكّان القرى. فهم يقومون بتربية دودة القزّ، وهي صناعة تحتاج لإقامة قرابة شهر في الرّبيع برعاية مستمّرة هائلة، حيث يجب على كلّ رجل أن يقيم في مركز أجمات التّوت التّابعة له، وبناءً على ذلك فقد فُصلت بمسافة عن جيرانهم.

وبعد ركوب ثلاث ساعات عبر منطقة فاتنة من نبات الآس وبساتين التّوت وصلنا إلى السّويديّة Sweidiyyeh، وهي مركز عسكري وتعدّ الأكثر أهميّة بين القرى المتناثرة. هنا وللمرّة الأولى والوحيدة في رحلتي استوقفت من قبل ضابط، وهو الأسوأ بسبب العرق (arak) وطلب جواز سفري. لم يكن لديّ جواز سفر وقتها، فقد أضعته في جبل الزّاوية Zawiyeh عندما فقدت معطفي، وهذا برهان على أنّ الموظّف التركي قليل الالتزام بالقانون يمكن أن يرى بأنّي سافرت نصف المسافة من الإمبراطوريّة العثمانيّة دون ورقة تظهر اسمي.

وفي هذه المناسبة فقد شرح الضّابط الذي كان معي ببعض الانفعال أنّه لم يكن يُسمح له بمرافقتي لو لم أكن شخصاً جديراً بالاحترام ومفوّضاً، وبعد جدال قصير سمح لنا بمواصلة طريقنا. وسرعان ما اتّضح السّبب في هذه الدّقة الشّديدة: إذ تحتوي قرى السّاحل على جاليات كبيرة من الأرمن Armenians وهم محاطون بمحطّات عسكريّة،

لتمنع السكّان من التسلّل سواء من المنطقة الدّاخلية إلى أجزاء أخرى من الإمبراطورية أو عن طريق البحر إلى قبرص Cyprus، وتتم مراقبة القادمين والخارجين من الغرباء بدقّة.

وأحد الموضوعات التي ينبغي للرّحالة أن يعدّ نفسه لها دوماً هو تجنّب الوقوع في حبال القضية الأرمنية. ولقد كانت إدانة ضمنيّة للمثقف خلال القرون الوسطى حيث لا توجد قضية غير قابلة للتفسير كهذه القضية. فثمة قضايا قدّمت ربّما صعوبات خطيرة، ولكنك إذا طرحتها أمام الرّجل المنصف - على سبيل المثال بعض العرب في إسبانيا عالم كليّاً، بسبب الدّراسة، بالتّفاصيل التي من الأفضل عدم الاستفسار عنها - فسيعطيك جواباً حاسماً. المشكلة الحقيقيّة هي أن تجد رجلك فقط. وعلى كلّ حال فقد تخلّينا عن ذلك المعتقد. ويا للأسف! فقد ثبت لنا بالتّجربة أنّه يوجد الكثير من المعضلات التي لا تُحلّ بالنسبة للعقل البشري، وتمتلك الإمبراطورية التّركيّة من تلك المعضلات نسبة جديرة بالاعتبار. تُعدّ القضية الأرمنيّة إحدى هذه المعضلات، وكذلك القضية المقدونيّة ويكمن الجنون في تلك الاتّجاهات.

كان من العزم ألا تتردّد في قرار كان قد قُدّم، وعلى نحو كبير فلم يكن لديّ أيّ شكّ بأنّي أقوم برحلات سعيدة وناجحة، عندما ركبت هابطة إلى Chaulik، ميناء سلوقيا Seleucia القديم. ووجدت بأنّ قراري أقلّ صعوبة في تنفيذه بسبب أنّ الأرمن لا يتكلّمون إلّا اللّغة التّركيّة والأرمنيّة، وعلى أيّ مستوى فإنّ الكلمات العربيّة التي يعرفها البعض منهم كانت كافية جدّاً لتمكّنهم من الدّخول في وصف مفصّل عن مظلالمهم. وكان الشخص الذي خدمني ذاك المساء كدليل رجلاً مرحاً وكان اختياره بالتأكيد بالأفضليّة كموضوع غير اعتيادي.

كان اسمه إبراهيم، برّاق العينين ذكيّاً، وكان مرّحه يستحقّ الثناء، نظراً لأنّ دخله السنوي لا يعادل أكثر من 400 قرش، أي ما دون جنيهين من العملة الإنكليزية. ومن هذا المبلغ قرّر أن يوفّر ما يكفي ليرشّو الموظّفين الأتراك في الميناء لعلّ ذلك يجعلهم يتغاضون عن هروبه في قارب مكشوف إلى قبرص Cyprus، قال: «لأنّه لا توجد صناعة هنا باستثناء دودة القزّ، وهي تعطيني عملاً لمُدّة شهرين في السّنة، وبالنسبة

لأشهر العشرة الأخرى فليس لديّ أيّ شيء لأعمله وليس هناك طريقة لكسب المال». وأخبرني أيضاً بأنّ التّصيريّة Nosairis الذين يقطنون القرى المجاورة جيران مقيّتون.

قلت: «هل توجد بينكم عداوة؟».

«إي والله!» قالها بموافقة مؤكّدة، وروى بأمثلة موضّحة القصّة الطويلة لنزاع حديث والذي بدا، بقدر ما أمكن فهمه، أنّه يعود كليّاً لاعتداءات الأرمن.

وعندما أنهى كلامه قلت: «لكنّكم بدأتُم السّرقة».

قال: «نعم، إنّ التّصيريّة Nosairis...». وأضاف بابتسامة: «لقد سُجنت في حلب لمُدّة سنتين فيما بعد».

قلت: «والله! لقد كنت تستحقّ ذلك».

قال بمرح كعادته: «نعم».

ويسعدني أن أقول، إنّ هذا كان كلّ ما ساهم به إبراهيم من مخزن الدّليل على القضية الأرمنيّة.

ليس خليج سلوقيا Seleucia بعيد الشبه بخليج نابولي Naples وليس أقلّ جمالاً بكثير. تشكّل حافّة التّلال شديدة الانحدار، التي نُحِرت بقبور وحجرات منحوتة بالصّخر، خلفيّة لحداثق التّوت، وتطوّق أرضاً منجرفة الخليج في الشّمال. وتمتدّ أسفل منها بوابات ماء الميناء، وقد ملئت بطمي الأرض وفصلت عن البحر بشاطئ رملي. ويتدفّق العاصي عبر الرّمال ويمتدّ الرّمل إلى مسافة أبعد نحو الجنوب، ويُعلّق المنظر بسلسلة شاهقة من التّلال تبلغ أقصى ارتفاعها في النّقطة الجنوبيّة عند القمّة الجميلة لجبل كاسيوس Mount Cassius التي تأخذ مكان جبل فيزوف Vesuvius في المنظر الطّبيعي.

نصبّت مخيّمي قرب الحاجز الشّمالي في تجويف صغير انفصم عن بقيّة الخليج

برعن منخفض امتد إلى أرض رأسيّة مغطّاة بالخرب التي سيطرت على انجراف الساحل كلّه، ومتّعت نفسي بالتخيّل أنّه كان يوجد على هذه البقعة الهيكل وقبر سلوقس نيكاتور Seleucus Nicator، على الرّغم من أنّي لا أعرف فيما إذا كان موقعه الدّقيق قد تمّ تحديده في أيّ وقت مضى. وإلى الأسفل منه على الشّاطئ تقبع صخرة منفردة تمّ اكتشاف قاعة معمّدة فيها. كانت تلك القاعة معطّرة بعطر البحر وتتّعش بالرياح المالحة التي عصفت خلالها: معبد حقيقي للبحوريّات وأنصاف الآلهة (Tritons).

أخذني إبراهيم أعلى وأسفل واجهة الجروف شديدة الانحدار عبر طرقات صغيرة بجانب طريق عربات قديم يؤدّي إلى المدينة على القمّة من التّجد. قال إنّ السّير حول السّور الذي يطوّق المدينة العليا يستغرق ستّ ساعات، ولكن الطّقس كان شديد الحرّ بحيث لا يمكن وضع إفادته موضع الاختبار. تسلّقنا داخل عدد كبير من الكهوف الاصطناعيّة التي لم يكن يوجد في الكثير منها فجوات جداريّة loculi. ومن الممكن أنّها أُعدّت لتكون مساكن أو مخازن بدلاً من كونها مقابر. وتمتلئ كلّها في هذا الوقت من السّنة بمربّي دودة القزّ، الذين يكونون الآن في أكثر أوقاتهم انشغالاً، فاليرقة قد خرجت لتوّها من البيضة.

كان مدخل كلّ كهف قد سُدّ بستار من أغصان خضراء لتجنّب دخول الشّمس، ويرشّح ضوء شمس العصر بلطف عبر الأوراق النّاشئة. وعند النّهاية الجنوبيّة كانت هناك مقبرة كبيرة تحتوي على كهوف صغيرة أحيطت بفجوات loculi، وعلى تابوت حجري زخرف، إذا كانت قد زخرفت مطلقاً، بإكليل الزّهور مثل ذلك الذي يزيّن التّابوت الحجري في أنطاكية Antioch. كانت المجموعة الأكثر أهميّة في هذه القبور موجودة عند النّهاية الشّماليّة من الجرف. والدّخول إليها يتمّ عبر رواق معمد يقود إلى كهف مزدوج. احتوت الغرفة الأكبر على بعض الفجوات الجداريّة loculi يتراوح عددها ما بين الثلاثين إلى الأربعين إضافة إلى زوج من قبور مظلمة، وقد صنعت الظلال من الصّخرة الحيّة؛ وحتت الغرفة الأصغر ما يقارب نصف العدد من الفجوات الجداريّة، كان سطحها قد دعم بأعمدة ودعامات، ولاحظت فوق القبور وجود تصميم نُحت على نحو فجّ يحتوي على لفيفة بشكل نبات اللّبلاب وعلى أوراق مثلمة.



الكهريز

يبدو أنّ بنائي سلوقيا Seleucia كانوا مشغولي البال بشكل كبير بتوزيع الإمداد المائي. وأراني إبراهيم على طول واجهة الجرف قناةً بعرض ما يقرب قدمين وارتفاع خمسة أقدام نُحتت خلف سطح الصخر بثلاثة أو أربعة أقدام، وقد حملت المياه من طرف المدينة إلى طرفها الآخر. تتبعنا مجراها من خلال فتحات هواء عرضيّة في جدار الصخرة الخارجي. ولا بدّ أنّ المشكلة الأكثر صعوبة هي إدارة السيل المتدفّق إلى الأسفل من ممرّ ضيّق إلى شمال المدينة.

وقد شقّ دهليز عظيم عبر الرّعن إلى الجنوب من مخيّمي لتصريف المياه إلى البحر ومنعها من جرف المنازل الواقعة في سفح الجرف. والاسم المحلي لهذا الدهليز هو كهريز Gariz. وقد بدأ من فوهة وهد ضيق ثم يسير كنفق عبر كتلة صخر ضخمة لمسافة عدّة مئات من الياردات، ثم يستمر بعد ذلك كنفق عميق مكشوف حتّى يصل إلى نهاية الرّعن. وعند مدخل النّفق كان هناك نقش بأحرف منحوتة بشكل واضح مطلعها كما يلي⁽¹⁾: "Divus Vespasianus"، ولكنّ البقيّة كانت قد طُمرت في الأرض الصّخريّة. وكانت هناك كتابات أخرى عديدة على طول الطّريق الأبعد للكهريز Gariz، كانت كلّها باللاتينيّة: وأتصوّر أنّ العمل لم يكن سلوقياً ولكن رومانياً.

أغراني إبراهيم بمشهدٍ إضافي آخر. وأعلن بأنّي إذا تبعته عبر بساتين التّوت أسفل الجرف فسوف يريني «شخصاً مصنوعاً من الحجر». كان فضولي قد أنّهك إلى حدّ ما بالحرّ والسير الطّويل، لكنّي جاهدت عائدة بضجر فوق الحجارة وغيرها من العقبات لأجد إلهاً، حُمِلَ وسُرق، ثم وُضع تحت أشجار التّوت. لم يكن إلهاً رائعاً جدّاً؛ كان وضعه الجسماني متصلاً ورث الهيئة، وقد ذهبت قمّة رأسه، ولكنّ الشّمس الواهنة قد موهت كتفه الرّخامي وهمست أغصان التوت باسمه القديم. جلسنا إلى جنبه، وقال إبراهيم معلقاً:

«هناك شيء آخر مدفون في هذا الحقل، امرأة، ولكنّها على نحو عميق جدّاً تحت التّراب».

قلت: «هل رأيتهما؟».

قال: «نعم، لقد دفنها مالك الحقل لأنّه فكّر في أنّها يمكن أن تجلب له حظّاً تعساً، ولو كنت أعطيتيه نقوداً لربّما حفر وأخرجها لك».

لم أقبل الاقتراح؛ ومن المحتمل أنّه كان من الأفضل تركها في حيّز الخيال. رأيت قرب التّمثال طنفاً مزخرفاً طويلاً كان يُرى بوضوح، على الرّغم من أنّ الجدار

(1) إشارة إلى الإمبراطور الرّوماني فسپازيان.

الذي تَوَجَّه كان قد دُفِن في حقل ذرة، وعلى نحو كثيف جداً يغطي التراب الآثار السلوقية. وذات يوم سيكون هناك الكثير ليتكشَّف هنا، ولكنَّ الكشف عن الآثار سيكون مُكلفاً إلى أبعد حدٍّ بسبب الطمي العميق وبسبب متطلَّبات مُلَّاك بستان الثَّوت وحقل الذرة. وموقع البلدة هائل، وسيُتطلَّب سنوات من الحفر ليكون الاكتشاف كما ينبغي.



التَّمثال في بستان الثَّوت

يجري قرب خيامي جدول بطيء عبر أجمات من سوسن أصفر ويشكِّل بركة في الرَّمْل. وقد وقرَّ الماء لحيواناتنا ولقطعان الماعز التي كان رعيان الأرمن الصَّغار يرعونها صباحاً ومساءً على طول شاطئ البحر. كانت البقعة جذابة جداً والطَّقس ساراً جداً حيث أمضيت يوماً بطلاً من العمل هناك، وفي الواقع فهو اليوم البطال الأوَّل منذ أن غادرت القدس، وطالما أنَّني لم أستطع أن آمل بتفحص سلوقيا Seleucia على نحو كامل، فقد قرَّرت ألا أرى أكثر ممَّا كان مرثياً من باب خيمتي.

ولقد منحني هذا القرار الممتاز أربعاً وعشرين ساعة لأنظر إلى الخلف برضا غامر، على الرَّغم من أنَّه لا يوجد شيء ليدوّن عنها فيما عدا أنَّني لم أكن لأهرب بسهولة

شديدة من المصاعب الأرمنية كما كنت آمل. وفي الصّباح تلقّيت زيارة طويلة من امرأة كانت قد نزلت من كابوسه Kabuseh، وهي قرية على قمة الممرّ الضيّق فوق الكهريز Gariz. تكلمت بالإنكليزية، اللّغة التي اكتسبتها في المدارس التبشيرية في عنتاب Aintab، فوطنها في الجبال الكرديّة، وكان اسمها قيّمَت Kymet. كانت قد تركت عنتاب بعيد زواجها، وهي خطوة ما تزال نادمة عليها، على الرّغم من أنّ زوجها كان رجلاً جيّداً وأميناً، لكنه كان فقيراً جدّاً وهي لم تعرف كيف ستعيل طفلها. وبالإضافة إلى ذلك قالت إنّ الأشخاص الذين يسكنون حول كابوسه Kabuseh، سواء من التّصيرية أو من الأرمن كانوا كلّهم لصوصاً، وقد توسّلت إليّ لأساعدها بالهروب إلى قبرص Cyprus. أخبرتني جزءاً غريباً من تاريخ العائلة، الذي أظهر مقدار الألم الذي تعاني منه طائفة الأقلّيّة التي تعيش في قلب مدينة مسلمة، إذا لم يكن بإمكانها أن تستشهد بمثال عن الاضطهاد الرّسمي. كان والدها قد أسلم عندما كانت طفلة، لأنّه رغب بشكل أساسي أن يتزوّج امرأة ثانية. كانت والدة قيّمَت Kymet قد تركته وأعالت أطفالها بأفضل ما يمكن، مفضّلة ذلك على أن تخضع للإهانة التي فرضها عليها، وقالت قيّمَت إنّ الشّجار المرير كان قد أوقع الكآبة في فترة شبابهّا كلّها. وفي الصّباح التّالي أرسلت زوجها مع دجاجة ونسخة من أشعار مكتوبة من قبلها باللّغة الإنكليزية. دفعْتُ ثمن الدّجاجة، أما الأشعار فكانت لا تقدّر بثمن وهي تقول:

أهلاً أهلاً يا أعزّ الغوالي، نحن سعداء بقدومك!

مرحباً بمجيئك! مرحباً بقدومك!

لننشد بمرح، بمرح

بمرح، يا أبنائي، بمرح!

تشرقت الشّمس الآن بوضوح مع القمر، ضوء جميل ساطع جدّاً، يا أبنائي الأعزّاء؛

مرحباً بوصولك! مرحباً بابتسامتها!

أرسلت الأشجار لنا، يا أبنائي الأعزاء، وبسعادة تبتهج العصافير؛

ترحب بعيرها اللطيف! ترحب بها بنشيدها!

سأبقى،

المخلص لك،

GEORGE ABRAHAM.

أسرع وأضيف، لئلا يُعذَّ الشعر جامعاً لشخصين، بأن كاتب هذه الأشعار لم يكن جورج أبراهام George Abraham، الذي، كما تبين أثناء المفاوضات على الدجاجة أنه لم يكن يعرف كلمة من اللغة الإنكليزية؛ كانت قيمت Kymet قد استخدمت اسم زوجها فحسب لتشكّل توقيعاً أكثر تأثيراً من اسمها. وأكثر من ذلك فإن الأولاد الذين ألمحت إليهم كانوا تشبيهاً بلاغياً. ولا أستطيع أن أقدم أي إحياء للشيء الذي كانت الأشجار قد أرسلته لنا؛ ويبدو أن النص محرّف عند تلك النقطة. وربما يجب أن تعتبر «نحن» في حال نصب مفعول به.

تركت سلوقيا Seleucia بأسف حقيقي. وقبل الفجر عندما نزلت للاستحمام في البحر، كانت حزمة رقيقة من الغيوم تمتد على طول واجهة التلال وعندما سبحت في المياه الدافئة الساكنة ارتطم الشعاع الأول من الشمس بقمة جبل كاسيوس Mount Cassius المغطاة بالثلج والتي أغلقت على نحو ساحر منعطف الخليج.

عُدنا برحلتنا إلى أنطاكية Antioch كما كنّا قد أتينا، ونصبنا الخيام خارج المدينة قرب الطريق العام. وبعد يومين انطلقنا عند الساعة السادسة والتصف، في سفر طويل إلى إسكندرون Alexandretta. كان الطريق رديئاً عند الأميال القليلة الأولى، تتخلله دوامات من الوحل، ومن هنا وهناك تمتد قطعة من رصيف منح ما هو أفضل بقليل من الوحل ذاته.

ووصلنا بعد ثلاث ساعات إلى قرية قرأمرت Karamurt، وبعدها بثلاثة أرباع الساعة تركنا الطريق وانطلقنا مباشرة صاعدين التلال قرب خان مخرب يعرض آثاراً

من عمل عربي جميل. سار بنا الطريق أعلى وأسفل منحدرات شاهقة من الأرض، بين أجمات من شجيرات مزهرة، الجولق والأرجوان وشجرة قريضة *cistus* صغيرة. وشاهدنا إلى اليسار قلعة بغراس Baghras الرائعة (المثيرة للصورة الذهنية) أي باغرا Pagrae القديمة، تتوج تلة بارزة: ولا أعتقد أنّ مجمع الجبال الواقعة شمال أنطاكية قد تمّ اكتشافها على نحو منظم، وفيما إذا كانت قدّمت أيضاً بقايا من حصون رومانية وسلوقية حرس طريق المدينة.

وللتوّ اكتشفنا الطريق القديم المرصوف الذي يتبع مساراً أكثر انحداراً من طريق المركبات الحديث؛ وقد قادنا هذا الطريق عند الساعة الواحدة (وكنا قد توقفنا لمدة ثلاثة أرباع الساعة لتناول الغداء في مكان ظليل على ضفة النهر) إلى القمة من مضيق بيلان Pass of Bailan، حيث التحقنا بالطريق الرئيسي من حلب إلى إسكندرون Alexandretta. لم يكن هناك أثر لحصن، حسب ما رأيت، عند البوابات السورّية في المكان الذي استدار فيه الإسكندر Alexander وسار عائداً إلى سهل إيسوس Plain of Issus ليلاقي داريوش Darius، لكنّ الممرّ ضيق جداً ولا بدّ أنّه كان من السهل الدّفاع عنه ضدّ الغزاة القادمين من الشمال. وهو الممرّ الوحيد السالك لجيش عبر جبل أمانوس Mount Amanus الوعر.

تقع قرية بيلان Bailan على مسافة ساعة في موقع جميل على الجانب الشمالي من الجبال وتطلّ على خليج إسكندرون وعلى ساحل كيليكيا شديد الانحدار وسلسلة طوروس Taurus البيضاء. ومن بيلان هناك ما يقارب أربع ساعات ركوب للوصول إلى إسكندرون.



المجرى الأسفل للكهريز

عندما كنا نعدو ببطء هابطين باتجاه البحر الشاطع عبر المنحدرات الخضراء والمزهرة التي تشكّل نهاية سوريا، دخلتُ أنا وميخائيل في محادثة. فقد استعرضنا، كما سيفعل الرّحالون الرّفاق، حوادث الطّريق وتذكّرنا المغامرات التي واجهتْنا في الطّوفان والحقل، وقلّت في النهاية:

«يا ميخائيل، هذا عالم مُبهج، على الرّغم من أنّ البعض يتكلّم عنه بسوء، ولأنّ معظم أبناء آدم طيّبون وليسوا أشراراً».

قال ميخائيل: «إنّه وفق إرادة الله».

قلت: «بغير شكّ، ولكن تفكّر ملياً الآن، هؤلاء الذين قابلناهم في رحلتنا، فكّر كيف

كانوا كلهم سعداء لمساعدتنا، وكيف كان حسن صنيعهم لنا. في البداية كان هناك نجيب فارس Najib Faris، الذي مشى معنا في بداية طريقنا، ونمرود وقبلان — قاطعني ميخائيل: «ما شاء الله! لقد كان قبلان إنساناً رائعاً. لم أرَ مشرقياً قليل الطمع مثله، فنادرًا ما كان يأكل الطعام الذي أعددتُه له».



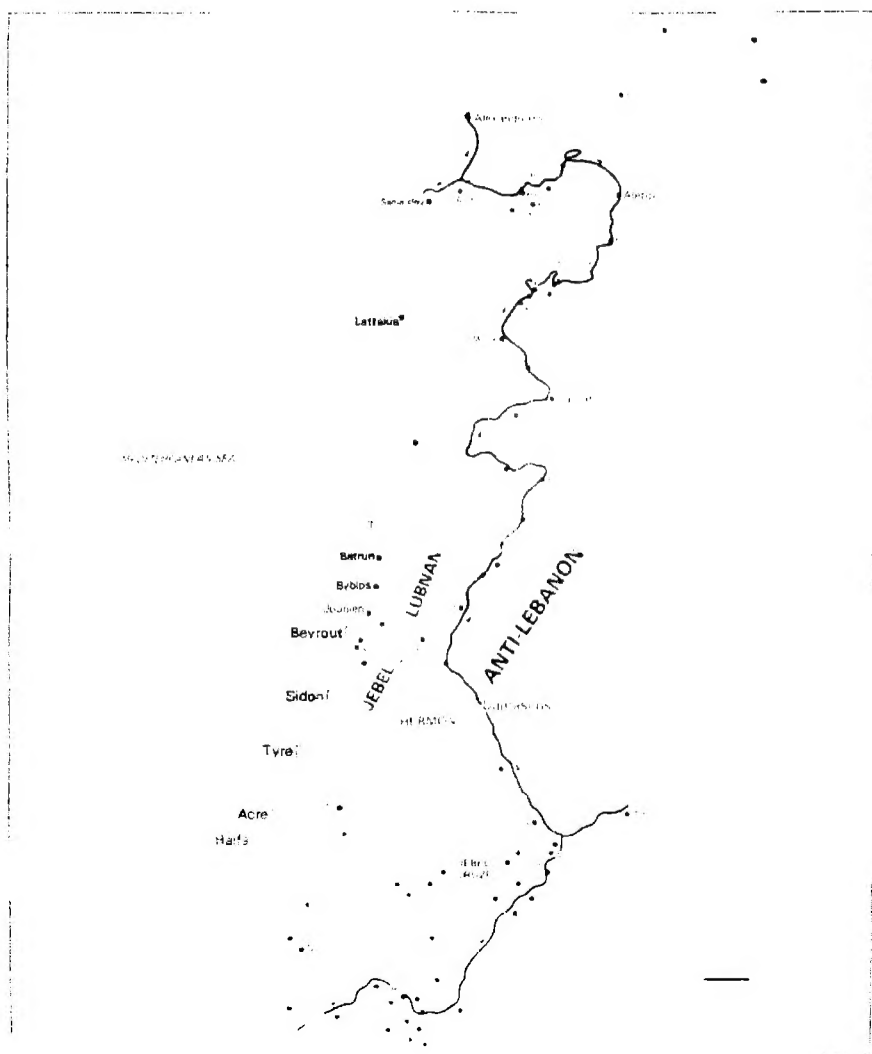
ناووس في سرايا أنطاكية

تابعت كلامي: «والشيخ محمد النصار، وابن أخيه فايز، وقائم مقام قلعة الحصن، الذي آوانا لليلتين وأطعمنا كلنا، وقائم مقام دريكيش الذي أقام استقبالاً عظيماً لنا، والضابط محمود —» (هنا نخر ميخائيل لأنه كان على وشك الشجار مع محمود). تابعت بسرعة: «والشيخ يونس، وموسى الكردي، الذي كان أفضل الجميع». قال ميخائيل معلقاً: «لقد كان رجلاً شريفاً، وقد خدم سعادتك على نحو جيد». تابعت: «وحتى رشيد آغا، الذي كان شريراً، فقد عاملنا بحسن ضيافة».

قال ميخائيل: «اسمعي، يا ست، سوف أوضح لك الأمر. الناس قاصرو النظر، ويرون فقط ما يبحثون عنه. بعضهم يبحث عن الشر ويجد الشر؛ وبعضهم يبحث عن الخير ويجد الخير، وأكثر من ذلك بعضهم محظوظون وهؤلاء يجدون دائماً ما يريدون. الحمد لله! وأنت تنتمين لهؤلاء ونرجو الله أن تتابعي رحلتك بسلام وتعودي

بأمان إلى بلادك، وهناك ستلتقين بأبيك وأمك وكل إخوتك وأخواتك بصحة وسعادة، وكل أقاربك وأصدقائك»، وأضاف ميخائيل بإدراك: «ومرّة أخرى عسى أن تسافري في سوريا بسلام وأمان ونجاح، نرجو الله!». قلت: «نرجو الله!».

* * *



فهرس الكتاب

5	سلسلة رواد المشرق العربي
7	هذا الكتاب
15	نقاط حول الترجمة
21	مقدمة الست خاتون - غرترو ديل
39	مقدمة المؤلفة
45	الفصل الأول
67	الفصل الثاني
90	الفصل الثالث
111	الفصل الرابع
133	الفصل الخامس
157	الفصل السادس
183	الفصل السابع
211	الفصل الثامن
239	الفصل التاسع
265	الفصل العاشر
291	الفصل الحادي عشر
317	الفصل الثاني عشر
345	الفصل الثالث عشر
369	الفصل الرابع عشر

العامر والغامر

«ملكة العراق غير المتوجة» أو «الخاتون» كانت ألقاباً لامرأة غير عادية، لعبت دوراً محورياً في رسم مستقبل العراق السياسي لسنوات عديدة بعد الاحتلال البريطاني، وكان لها دور كبير في تأسيس الحكومة العراقية الجديدة. كانت هي وتوماس إدوارد لورنس (لورنس العرب) وراء تنصيب الشريف فيصل ملكاً على العراق، ولعبت كذلك قبلها دوراً في إطلاق الثورة العربية الكبرى. تلك هي غرتروود لوذيان بل (مس بل)، صاحبة المكانة البارزة والنفوذ الواسع في العراق بعيد الحرب العالمية الأولى.

يضم كتابها الحاضر هذا وقائع أولى رحلاتها في المشرق العربي، من القدس الشريف إلى أنطاكية عام 1905، وفيه نقرأ رواية شخصية ممتعة تطفو عليها آراء المؤلفة الرّحالة وتفاعلاتها الإيجابية والسلبية مع ما صادفها من مجتمعات وأشخاص وأماكن، كما نلمح فيه صوراً حية وجذابة عن حياة المجتمع السوري في تلك الفترة، وعن أوضاع الدولة العثمانية وهيئتها الحاكمة، إضافة للأحوال الاجتماعية السائدة، وملامح من حياة عامة الناس آنذاك مما تغير كثيراً اليوم بعد مضي قرن وسبع سنوات على رحلتها الجريئة والزائدة التي قامت بها بمزدها، وهذا في عُرف ذلك العصر أمر يخرج عن المألوف بشكل صارخ.

السعر 85 درهماً



إصدارات
esdarat
دار الكتب الوطنية



هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY